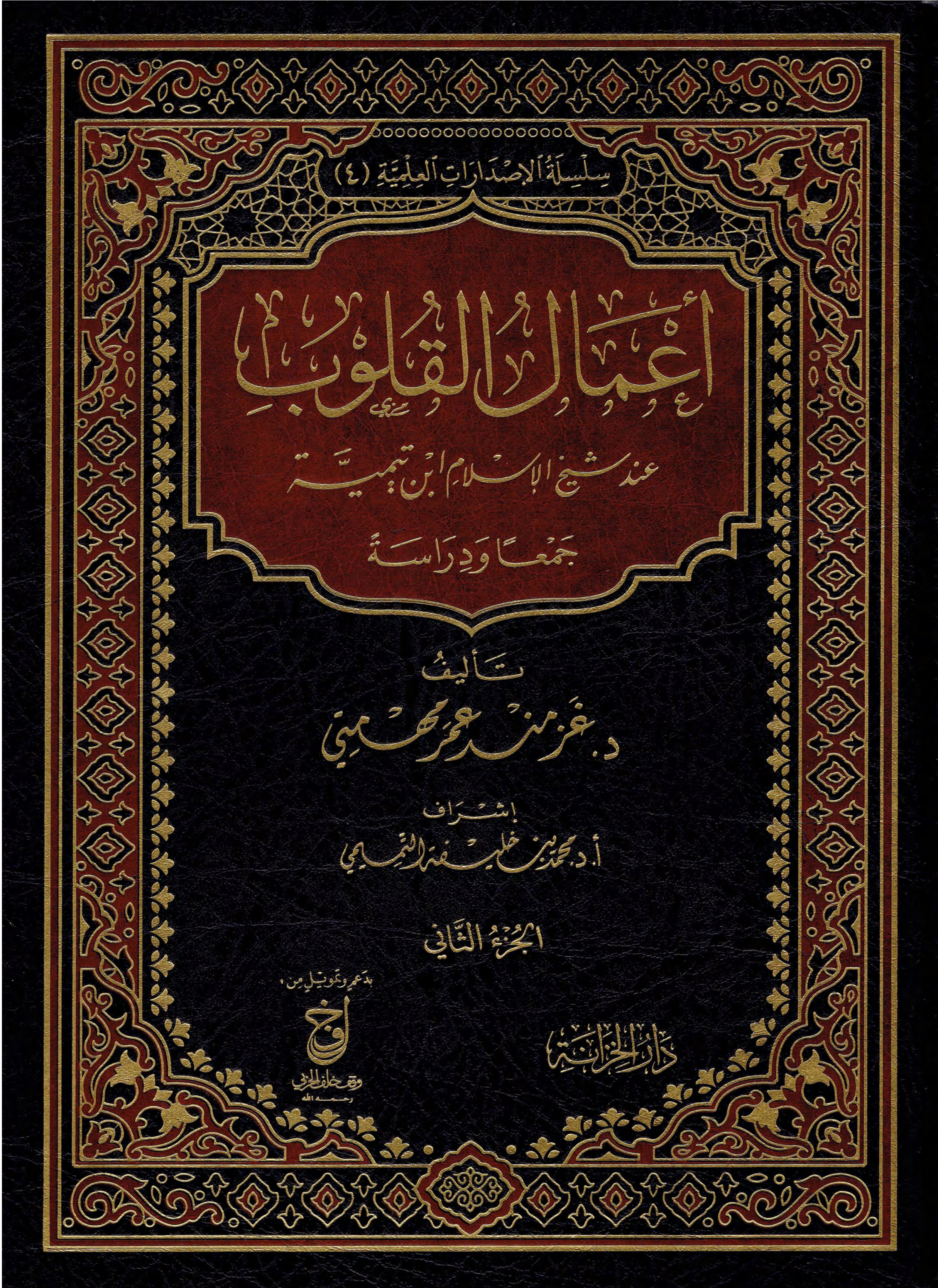

سلسلة الإصدارات العلمية (٤)
أعمال القلوب
عند شيخ الإسلام ابن تيمية
جمعًا ودراسة
تأليف
د. غزمند عمر مهمي
إشراف
أ. د. محمد بن خليفة التميمي
الجزء الثاني
بدعم وتمويل من:
وقف خلف الحربي
رحمه الله
دار الخزانة


أعمال القلوب
عند شيخ الإسلام ابن تيمية
٢

الطَّبْعَةُ الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١م




هاتف: 0096590909211 - 0096555957103

هاتف المملكة العربية السعودية

00966568480019 - 00966562000733

*dar.alkhezanah@gmail.com*

---



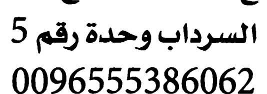



دولة الكويت - حولّي

شارع المثنى - مجمع البدري

السرداب وحدة رقم 5

0096555386062



سِلْسِلَةُ الإِصْدَارَاتِ العِلْمِيَّةِ (٤)

# أعمال القلوب

## عند شيخ الإسلام ابن تيمية

جمعًا ودِراسةً


تأليف

د. غزمَن عمر مهيمي

إشراف

أ. د. محمد بن خليفة التميمي

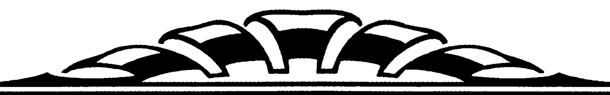

الجزء الثاني

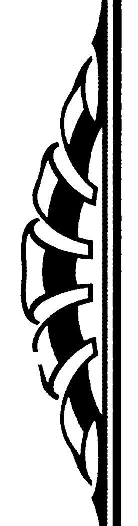

بدعمٍ وتمويلٍ من:




دار الخزانة
دولة الكويت







# المبحث الحادي عشر:

# الاستعانة

وفيه خمسة مطالب:

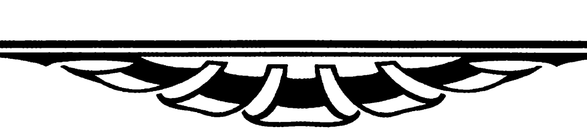
المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أقسام الناس في الاستعانة والعبادة.

المطلب الرابع: أقسام الاستعانة.

المطلب الخامس: ثمرات الاستعانة.



## المطلب الأول

## التعريف اللغوي والشرعي

◇ المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

إن الاستعانة في اللغة مأخوذة من كلمة العوْن الذي هو الظهير على الأمر، فزيدت عليه السين والتاء التي تدل على الطلب، فالاستعانة في اللغة هي المظاهرة على الشيء أو طلب العون من الغير.

قال الفيروزآبادي: «العون الظهير، للواحد والجمع، والمؤنث، ويكسر أعوانًا، والعوين؛ اسم للجمع، واستعنته، و- به، فأعانني وعوّنني»(١).

وقال ابن منظور: «العون: الظهير على الأمر، الواحد والاثنان والجمع والمؤنث فيه سواء، وقد حكي في تكسيره أعوان...، وتقول: أعنته إعانة، واستعنته واستعنت به فأعانني»(٢).

إذا، الاستعانة في اللغة هي طلب العون من الغير، سواء كان ذلك من الله أو من غيره، وسواء كان في أمور محسوسة أو معنوية، وسواء كان في أمور دنيوية أو دينية.

◇ المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

تقدم أن الاستعانة في اللغة هي المظاهرة على الشيء أو طلب العون

---

(١) القاموس المحيط (ص/ ١٥٧١).

(٢) لسان العرب (١٠/ ٣٤٣).

من الغير، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «الاستعانة طلب العون»[١].

وفي الشرع الاستعانة هي: طلب العون من الرب الجليل، لدفع الضر أو جلب المنفعة أو تثبيت الدين.

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الاستعانة هي: الاعتماد على الله في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك»[٢].

وقال الآلوسي[٣]: «الاستعانة هي طلب ما يتمكن به العبد من الفعل ويوجب السير عليه»[٤].

فالفرق بين التعريف اللغوي والتعريف الشرعي: أن التعريف في الشرع أخص من التعريف في اللغة، إذ التعريف في الشرع طلب العون من الله فقط، وهذا فيه إشعار بأن الطلب من غير الله شرك.

ثم الاستعانة كما بين ابن القيم: «تجمع أصلين: الثقة بالله والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره ـ مع ثقته به ـ لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه ـ مع عدم ثقته به ـ لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به»[٥].

وقال المقريزي رَحِمَهُ اللَّهُ[٦]: «فإن قيل ما حقيقة الاستعانة عملًا؟ قلنا هي

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٠٣).

(٢) تفسير السعدي (ص/ ٣٩).

(٣) هو أبو الفضل محمود بن عبد الله الحسني الآلوسي نسبة إلى جزيرة في نهر الفرات كان يسكن به جد الأسرة الآلوسية بالعراق، المفسر المحدث الأديب، من مصنفاته: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، والأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية، رد به على الشيعة، توفي سنة ١٢٧٠ هـ، انظر: الأعلام (٧/ ١٧٦).

(٤) تفسير الآلوسي (١/ ٨٧).

(٥) مدارج السالكين (١/ ٥٩).

(٦) هو أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المقريزي، إمام مؤرخ محدث، من مصنفاته: تجريد التوحيد المفيد، والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، توفي سنة ٨٤٥ هـ، انظر: شذرات الذهب (٩/ ٣٧٠)، ومعجم المؤلفين (٢/ ١١).

التي يعبر عنها بالتوكل، وهي حالة للقلب تنشأ عن معرفة الله تعالى، وتفرده بالخلق والأمر والتدبير والضر والنفع، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فتوجب اعتمادا عليه وتفويضا إليه وثقة به»[١].

إذا، الاستعانة حالة تنشأ عن المعرفة بالله والإيمان به الذي يوجب الثقة والاطمئنان به، والاعتماد عليه، وتفويض الأمر كله إليه.

---

(١) تجريد التوحيد (ص/ ٧٠-٧١)، للمقريزي، وأصله في مدارج السالكين (١/ ٦٣-٦٤).



## المطلب الثاني

## الأدلة من الكتاب والسنة

إن الاستعانة من أهم الأعمال القلبية، فهي نصف الدين؛ لأن الدين نصفان: نصفه عبادة، ونصفه استعانة على العبادة، وقد ذكر الله هذا الأمر في فاتحة الكتاب، إذ قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، فبدأ بالمقصود الذي هو الغاية على الوسيلة التي هي البداية، فالعبادة غاية مقصودة، والاستعانة وسيلة إليها[1].

والاستعانة لها منزلة عظيمة، والعبد بالاستعانة يدخل في غمار التوحيد، فتفتح له أنوار المعارف في آثار أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، لأن العبد الذي يستعين بربه، أولًا؛ لا بد أن يكون قد استيقن في قلبه أن الرب الذي هو فوق العرش ويعلم ما نحن عليه، هو القادر المقتدر القدير الرب الجليل الذي إذا أراد شيئًا أن يكون يقول له كن فيكون، فبيده قلوب العباد يقلبها كيف يشاء.

ويعتقد اعتقادًا جازمًا أنه لا شيء يتحرك في الكون إلا بإرادة الله جل في علاه ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يسٓ: ٨٢]، فلما استيقن هذا اليقين في ربه، دعاه هذا اليقين إلى أن يحسن الظن بالله، ويستعين بالله جل في علاه، ثم هذا هو دأب خيار الناس، ودأب الصلحاء من البشر الذين استعانوا بربهم على إقامة الدين، ودأب الأنبياء والمرسلين الذين استعانوا بربهم، وأجلوا لنا هذه العبادة الجليلة.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨) و (١٠/ ٢٨٤).

وفيما يلي بيان هذين الأسلوبين لورود الاستعانة في نصوص الكتاب والسنة:

**المسألة الأولى: الأمر بإفراد الله تعالى بالاستعانة.**

إن العبد، بل كل حي، بل وكل مخلوق سوى الله هو فقير محتاج إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، والمنفعة للحي هي من جنس النعيم واللذة، والمضرة هي من جنس الألم والعذاب، فلا بد له من أمرين:

**أحدهما:** هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع ويلتذ به.

**والثاني:** هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه.

فإن الله تعالى هو الذي يحب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب، وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه، وهو المعين على دفع المكروه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة]، فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب، فالأول من معنى الألوهية، والثاني من معنى الربوبية[(١)].

فالاستعانة من أنواع الدعاء الذي أمرنا الله بأن نفرده به وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة]، فقرنها سبحانه مع العبادة وأمر بهما جميعًا في قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هُود: ١٢٣]، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفُرقان: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هُود: ٨٨][(٢)]، والتوكل من مقتضيات الاستعانة.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢١-٢٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٦٩).

ولقد فرض الله علينا أن نعبده ونستعينه في كل صلاة، وذلك في قوله تعالى سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، وهذا يقتضي أن نستعين به وحده وأن نتوكل عليه وحده، وقد أمر الرحمن نبيه بأن يعبده ويتوكل عليه فقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هُود: ١٢٣] وأمره أن يقول: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ [الرّعد]، فأمر نبيه أن يقول على الرحمن توكلت وإليه متاب، و الأمر له أمر لأمته[(١)][(٢)].

فالاستعانة تكون بالله ﷻ دون غيره من الخلق، لأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله ﷻ، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإن المعنى لا تحوّل للعبد من حال إلى حال، ولا قوة على ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة وكنز من كنوز الجنة، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها، وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله ﷻ، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**»[(٣)][(٤)].

---

(١) المصدر نفسه (١٤/٨-٩).

(٢) جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة (ص/ ٤٣٥-٥٣٦)، رسالة الدكتوارة في قسم العقيدة، في الجامعة الإسلامية، إعداد الشيخ: أحمد بن عبد الله الغنيمان .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١-٦٩)، في كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله.

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٨١-٤٨٢)، وانظر: مجموع الفتاوى (٨/ ١٦٦-١٦٨).

فالواجب على العبد أن يتوكل على الله ويستعين به لا بالمخلوقات، فإن (المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل، بل هو الذي خلقه ورزقه وبصره وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله... فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به، ودعاءه ومسألته دون سواه، ويقتضي أيضًا محبة الله وعبادته لإحسانه إلى عباده وإسباغ نعمه عليهم)(١).

ومن ترك الاستعانة بالله، واستعان بغيره، وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولا، يقول شيخ الإسلام: «وما أكثر ما تستلزم العبادة الاستعانة، فمن اعتمد عليه القلب في رزقه ونصره ونفعه وضره، خضع له وذل، وانقاد وأحبه من هذه الجهة وإن لم يحبه لذاته، لكن قد يغلب عليه الحال حتى يحبه لذاته وينسى مقصوده منه، كما يصيب كثيرًا ممن يحب المال أو يحب من يحصل له به العز والسلطان»(٢).

والخلاصة أن الاستعانة عبادة يجب صرفها لله، وبتحقيقها يتحقق التوحيد، ثم هذه الاستعانة لا تنافي الاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه إذا لم يتعلق القلب به كما سأبينه حين أذكر أقسام الاستعانة، والله تعالى أعلم.

**۞ المسألة الثانية: البيان أن الاستعانة من شيم الأنبياء والمرسلين.**

إذا استعرضنا نصوص الكتاب والسنة نجد أن الاستعانة كانت من دأب الأنبياء والمرسلين، وهذا نبي الله يعقوب عليه السلام لما أُخبر بما جرى

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢٧-٢٨).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٥).

ليوسف، وجاءت له هذه المصيبة، استعان بالله أن يعينه على احتمال ما عرف منهم من الكذب[1]، واستعان بالله أن يعينه على تقبّله لهذه البلية بالصبر والرضا، فاستعان عليه السلام على هذه العبادة الجليلة، يقول تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يُوسُف]، يقول الشيخ السعدي رحمه الله عن قول يعقوب ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف: ١٨]: «أي: أما أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أن أصبر على هذه المحنة صبرا جميلا، سالما من السخط والتشكي إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي، فوعد من نفسه هذا الأمر وشكا إلى خالقه في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: ٨٦]، لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل، لأن النبي إذا وعد وفّى»[2].

وكذلك (قول العبد الصالح شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هُود: ٨٨]، وقول إبراهيم والذين معه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المُمْتَحنَة: ٤]، وقوله سبحانه إذ أمر رسوله أن يقول: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرّعد].

فأمر نبيه أن يقول: على الرحمن توكلت وإليه متاب، كما أمره بهما في قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾ [هُود: ١٢٣]، والأمر له أمر لأمته، وأمره بذلك في أم القرآن وغيرها ليكون فعلهم ذلك طاعة لله وامتثالا لأمره، ولا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولهذا كان عامة ما يفعله نبينا ﷺ والخالصون من أمته من الأدعية والعبادات وغيرها إنما هو بأمر من الله، بخلاف من

(١) تفسير البغوي (٢/ ٤٤٤).

(٢) تفسير السعدي (ص/ ٣٩٥).

يفعل ما لم يؤمر به وإن كان حسنًا أو عفوًا، وهذا أحد الأسباب الموجبة لفضله وفضل أمته على من سواهم، وفضل الخالصين من أمته على المشوبين الذين شابوا ما جاء به بغيره كالمنحرفين عن الصراط المستقيم.

وإلى هذين الأصلين كان النبي ﷺ يقصد في عباداته وأذكاره ومناجاته مثل قوله في الأضحية: «**اللهم هذا منك ولك**»[(١)]، فإن قوله : «منك» هو معنى التوكل والاستعانة وقوله: «لك» هو معنى العبادة، ومثل قوله في قيامه من الليل: «**لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا تموت والجن والإنس يموتون**»[(٢)]، إلى أمثال ذلك)[(٣)].

ومما سبق عرفنا أنه لا يمكن لطالب علم أن يطلب العلم إلا بالله، ولا يمكن لمستغفر أن يستغفر إلا بالله، ولا يمكن لمجاهد أن يجاهد إلا بالله ﷻ، كما لا يمكن لعبد أن يدفع الشر عن نفسه فضلًا عن غيره إلا بالله، فإذا عرف هذا تعيّن على العبد أن يخلص هذه العبادة لله وحده.

كما تبين لنا من حال الأنبياء والمرسلين كيف أجلوا لنا هذه العبادة جليّا، وكيف أنهم طبقوا هذا التوحيد عمليًّا، وكيف استعانوا بالله على الاستقامة في الدين، وكيف استعانوا الله على تجاوز وتحمل المصائب والمشاكل التي واجهوها في هذه الحياة، وهذا لا شك مما يوضح أهمية هذه العبادة، وأن لها منزلة عظيمة، وأنها وسيلة لتحقيق الغاية.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٣/ ٢٦٧)، وأبو داود في سننه (ص/ ٤٩٦) في كتاب الضحايا، باب ما يستحب من الضحايا، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨)، وقال: هذا حديث صحيح، وأقره الذهبي، وصحح الحديث الألباني في الإرواء (١١٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٨٠)، في كتاب التهجد، باب التهجد بالليل، ومسلم في صحيحه (ص/ ٣٠٤)، في كتاب الصلاة، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه.

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٩-١٠).



## المطلب الثالث

## أقسام الناس في الاستعانة والعبادة

سبق أن قلنا إن الاستعانة من أهم الأعمال القلبية، فهي نصف الدين، لأن الدين نصفان: نصفه عبادة، ونصفه استعانة على العبادة، فبالعبادة لله تستغني عن معبود آخر، وبالاستعانة تستغني عن الاستعانة بالخلق، ولهذا قرن الله بينهما في كثير من آي القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ۝٥﴾ [الفاتحة]، وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

لكن الناس في القيام بهما وفي تحقيقهما انقسموا إلى أقسام أربعة كما بين ذلك شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قد أوضح رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الناس في العبادة والاستعانة أربعة أقسام، منهم من يأتي بالعبادة والاستعانة، ومنهم من يأتي بالعبادة فقط، ومنهم من يأتي بالاستعانة فقط، ومنهم من يتركهما جميعًا، وإليك تفصيل ما ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن بني آدم في هذا الموضع قد انقسموا أربعة أقسام:

**القسم الأول:** قوم ينظرون إلى جانب الأمر والنهي والعبادة والطاعة، شاهدين لإلهية الرب سبحانه الذي أمروا أن يعبدوه، ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة، وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة، فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله ولشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان، لأن الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له

هي التي تقوي العبد وتيسر عليه الأمور، ولهذا قال بعض السلف: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله.

**القسم الثاني:** هم يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم إليه ويستعينون به، لكن على أهوائهم وأذواقهم غير ناظرين إلى حقيقة أمره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبته، وهذا حال كثير من المتفقرة والمتصوفة، ولهذا كثيرًا ما يعملون على الأحوال التي يتصرفون بها في الوجود ولا يقصدون ما يرضي الرب ويحبه، وكثيرًا ما يغلطون فيظنون أن معصيته هي مرضاته فيعودون إلى تعطيل الأمر والنهي، ويسمون هذا حقيقة، ويظنون أن هذه الحقيقة القدرية يجب الاسترسال معها دون مراعاة الحقيقة الأمرية الدينية التي هي تحوي مرضاة الرب ومحبته وأمره ونهيه ظاهرا وباطنًا.

وهؤلاء كثيرًا ما يسلبون أحوالهم وقد يعودون إلى نوع من المعاصي والفسوق بل كثير منهم يرتد عن الإسلام، لأن العاقبة للتقوى، ومن لم يقف عند أمر الله ونهيه فليس من المتقين، فهم يقعون في بعض ما وقع المشركون فيه تارة في بدعة يظنونها شرعة، وتارة في الاحتجاج بالقدر على الأمر.

**القسم الثالث:** وهو من أعرض عن عبادة الله واستعانته به[١]، فهؤلاء شر الأقسام، وهؤلاء عاصين لله ورسوله، بل هم خارجون عن حقيقة الإيمان، ولهذا قال طائفة من العلماء: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع.

---

(١) وقد جعل شيخ الإسلام هؤلاء فريقين: أهل دين وأهل دنيا.

- فأهل الدين، هم أهل الدين الفاسد الذين يعبدون غير الله، ويستعينون بغير الله بظنهم وهواهم.
- أهل الدنيا، هم الذين يطلبون ما يشتهون من العاجلة بما يعتقدونه من الأسباب، (مجموع الفتاوى: ١٤/ ١٢).

**القسم الرابع:** هو القسم المحمود، وهم الذين يشهدون أن الله إلههم ومعبودهم، واستعانوا به على طاعته في أمره ونهيه، وهو حال الذين حققوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة]، وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هُود: ١٢٣][١].

(١) التحفة العراقية (ص/٣٣٩-٣٤٥)، مجموع الفتاوى (١/٣٦) و (١٤/١٠-١٢).

## المطلب الرابع
## أقسام الاستعانة

بالنظر إلى كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ نجد أنه يتكلم عن ثلاثة أقسام للاستعانة، الاستعانة التوحيدية الإيمانية، والاستعانة الشركية، والاستعانة المباحة، إذا أنواع الاستعانة من حيث العموم ثلاثة[١]:

۞ القسم الأول: الاستعانة التوحيدية.

وهي الاستعانة بالله جل وعلا، وهي الاستعانة المتضمنة لكمال الذل من العبد لربه، وتفويض الأمر إليه، واعتقاد كفايته، وهي المقصودة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة]، ووجه الاختصاص أن الله قدم المعمول ﴿إِيَّاكَ﴾، وقاعدة اللغة التي نزل بها القرآن أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، وعلى هذا يكون صرف هذا النوع لغير الله شركًا مخرجًا من الملة[٢].

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكذلك الاستعانة أيضًا منها ما لا يصلح إلا لله وهي المشار إليها بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة] فإنه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة إلا الله»[٣].

---

(١) وقد قسمها الشيخ ابن عثيمين خمسة أقسام، القسم الأول: الاستعانة بالله، القسم الثاني: الاستعانة بالمخلوق على أمر يقدر عليه، القسم الثالث: الاستعانة بمخلوق حي حاضر غير قادر، القسم الرابع: الاستعانة بالأموات مطلقا، أو بالأحياء على أمر غائب لا يقدرون على مباشرته، والقسم الخامس: الاستعانة بالأعمال والأحوال المحبوبة إلى الله، مثل الصلاة والصبر، انظر: شرح ثلاثة أصول (ص/ ٦٢-٦٣).

(٢) شرح ثلاثة أصول (ص/ ٦٢)، للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) الرد على البكري (ص/٢٠٣-٢٠٤).

القسم الثاني: الاستعانة الشركية.

وهي الاستعانة بغير الله في أمر لا يقدر عليه إلا الله، مثل جعل العلم والهدى في القلب، وجعل الإرادة والطلب في القلب، وخلق القوى الباطنة والظاهرة، كالاستعانة بالأموات، والاستعانة بالغائبين، فهذا شرك أكبر[(١)].

ولقد ضبط هذا شيخ الإسلام، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما لا يقدر عليه إلا الله فلا يطلب إلا من الله»[(٢)].

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالاستعانة بغيره فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك في الإلهية والربوبية»[(٣)].

فمن استعان بغير الله في شيء لا يقدر عليه إلا هو فقد صرف هذه العبادة إلى غير مستحقها فهي شرك في الألوهية، ومن اعتقد أن خلقًا من المخلوق يستطيع أن يفعل الأمور التي سبق ذكر بعضها، مثل جعل العلم والهدى في القلب، وجعل الإرادة والطلب في القلب، وخلق القوى الباطنة والظاهرة، فهو قد أشرك في الربوبية أيضًا.

القسم الثالث: الاستعانة المباحة.

وهي الاستعانة بالغير في أمر يقدر عليه، وهذا جائز، كمن يستعين بأحد أن يبني له بيتًا، أو أن يحمل له متاعًا، أو يعينه على أي مطلوب مباح، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وقال النبي ﷺ: **«والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»**[(٤)].

---

(١) انظر: الرد على البكري (ص/٢١٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ١٠٤).

(٣) بيان كشف ما ألقاه إبليس (ص/ ٨٨).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٨٢)، في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وقد يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه»[١].

وإن كانت الاستعانة بالغير في أمر يقدر عليه مع عدم اعتماد القلب عليه جائز، إلا أن تركها يكون أفضل، (وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفًا بغير حساب ولا عذاب...هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**»[٢].

فهؤلاء من أمته وقد مدحهم بأنهم لا يسترقون، والاسترقاء أن يطلب من غيره أن يرقيه، والرقية من نوع الدعاء، وكان هو ﷺ يرقي نفسه وغيره، ولا يطلب من أحد أن يرقيه...، فهذا مما يبين حقيقة أمره لأمته بالدعاء أنه ليس من باب سؤال المخلوق للمخلوق الذي غيره أفضل منه، فإن من لا يسأل الناس ـ بل لا يسأل إلا الله ـ أفضل ممن يسأل الناس، ومحمد ﷺ سيد ولد آدم)[٣] وطلب الرقية وكذلك الكي نوع من الاستعانة بالغير، وهذه استعانة جائزة، لكن تركها أفضل من باب تحقيق التوحيد[٤].

وقد تكلم شيخ الإسلام عن مسألة لها تعلق بما نحن فيه، وهي؛ أن الاستعانة بالغير بطلب الدعاء منه نوعان، وبين رحمه الله أن منها راجح ومنها مرجوح:

**أما الراجح** فهو أن يطلب من الغير الدعاء بقصد انتفاعه بالدعاء، لكون الملائكة تدعو له بما دعا لمن أوصاه بالدعاء، فيكون أرجى للقبول

(١) الرد على البكري (ص/٢٠٤)، ومجموع الفتاوى (١/١٠٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى (١/٣٢٨).

(٤) جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة (ص/٤٣٧)، رسالة الدكتواره، تاليف الشيخ أحمد بن عبد الله الغنيمان.

مما لو دعا هو لنفسه، وهذا حال نبينا محمد ﷺ حين أمر أمته أن يدعوا له بالوسيلة والمقام المحمود[(١)].

**وأما الدعاء المرجوح**، فهو: أن يطلب من غيره أن يدعو له على قصد أن ينتفع هو وحده به، دون أن ينظر إلى انتفاع الداعي، وهذا مما لم يؤمر به[(٢)]، وتركه إلى الرغبة إلى الله أفضل من الرغبة إلى المخلوق وسؤاله[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٠٢)، كتاب الآذان، باب الدعاء عند النداء، ومسلم في صحيحه (ص/ ١٦٥)، في كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٨٥، و ١/ ١٩٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ١٩٣).

## المطلب الخامس

## ثمرات الاستعانة

وكما هي عادتنا أن نختم المبحث بذكر ثمرات العمل وفوائده، فكذلك مبحث الاستعانة نختمه بذكر شيء من ثمرات هذا العمل وفوائده.

فأقول؛ على رأس هذه الثمرات والفوائد، أن تحقيق الاستعانة هو تحقيق للتوحيد، ومن قام بإخلاص هذا العمل لله فقد حقق التوحيد، وفتحت له أنوار المعارف في آثار أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكلما ازداد القلب حبًّا لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبًّا وحرية عما سواه، والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة، وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل، وهي العلة الفاعلية، فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا يلتذ، ولا يسر، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه، وحبه، والإنابة إليه. ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له، لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائما مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة]، فإنه لو أعين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده، ولم يحصل له عبادته لله بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصوده وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله، لا يحب شيئًا لذاته إلا الله، فمتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة «**لا إله إلا الله**»

ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة، وكان فيه من النقص والعيب بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك.

ولو سعى في هذا المطلوب ولم يكن مستعينا بالله متوكلا عليه مفتقرا إليه في حصوله لم يحصل له، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود، ومن حيث هو المسئول المستعان به المتوكل عليه، فهو إلهه لا إله له غيره، وهو ربه لا رب له سواه.

ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين، فمتى كان يحب غير الله لذاته، أو يلتفت إلى غير الله أنه يعينه، كان عبدا لما أحبه، وعبدا لما رجاه، بحسب حبه له ورجائه إياه، وإذا لم يحب أحدًا لذاته إلا الله، وأي شيء أحب سواه فإنما أحبه له، ولم يرج قط شيئًا إلا الله، وإذا فعل ما فعل من الأسباب، أو حصل ما حصل منها؛ كان مشاهدًا أن الله هو الذي خلقها وقدرها وسخرها، وأن كل ما في السموات والأرض فالله ربه ومليكه وخالقه ومسخره، وهو مفتقر إليه؛ كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك.

والناس في هذا على درجات متفاوتة، لا يحصي طرقها إلا الله، فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم إلى الله، وأقواهم وأهداهم؛ أتمهم عبودية لله من هذا الوجه»[١].

ثم إن التوكل والاستعانة هي من عبادة الله، لكن خصت بالذكر في كثير من آي القرآن ليقصدها المتعبد بخصوصها، فإنها هي العون على سائر أنواع العبادة، إذ هو سبحانه لا يعبد إلا بمعونته[٢].

---

(١) العبودية (ص/ ٧٦-٧٨).

(٢) المصدر نفسه (ص/ ٥٣).

فإن الاستعانة والتوكل ليست هي العون على العبادة فقط، بل تيسير الأمور كلها تكون باستعانة الله جل وعلا، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له، هي التي تقوي العبد وتيسر عليه الأمور، ولهذا قال بعض السلف: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»(١).

ثم تعلق القلوب بغير الله والتوكل عليهم والاستعانة بهم يورث لصاحبها ذلا وخذلانا من تلك الجهة، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعتماده (المرء) على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته، فإنه يخذل من تلك الجهة، وهو أيضًا معلوم بالاعتبار و الاستقراء؛ ما علق العبد رجاه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل»(٢).

وحين تكلمنا عن أقسام الناس في تحقيق العبادة والاستعانة، ذكرنا أن منهم الذين لا يعبدون إلا الله ولا يستعينون إلا به.

فهؤلاء هو المخلصون الذين يتوجهون إلى الله في الشدة والرخاء وتظهر عبوديتهم لربهم في الضراء والسراء، لأن من الإيمان بالقدر (أن يعلم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فالمؤمن يصبر على المصائب ويستغفر من الذنوب والمعايب، والجاهل الظالم يحتج بالقدر على ذنوبه وسيئاته، ولا يعذر بالقدر من أساء إليه، ولا يذكر القدر عند ما ييسره الله له من الخير، فعكس القضية، بل كان الواجب عليه إذا عمل حسنة أن يعلم أنها نعمة من الله هو يسّرها وتفضل بها، فلا يعجب بها ولا يضيفها إلى نفسه كأنه الخالق لها، وإذا عمل سيئة استغفر وتاب منها،

(١) التحفة العراقية (ص/ ٣٤٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٩).

وإذا أصابته مصيبة سماوية أو بفعل العباد يعلم أنها كانت مقدرة مقضية عليه)[١]، فيصبر عليها ويستعين الله على ذلك.

ونخلص مما سبق أن الاستعانة عبادة يجب إخلاصها لله، وأن المستعين لا بد أن تكون ثقته واعتماده على الله في جلب المنفعة ودفع المضرة وتثبيت الدين، ثم هذا لا ينافي الاستعانة بالخلق في شيء أقدرهم الله عليه، مع عدم تعلق القلب بهم.

فالاستعانة هي من عبادة الله، لكن خصت بالذكر في كثير من آي القرآن ليقصدها المتعبد بخصوصها، فإنها هي العون على سائر أنواع العبادة، إذ هو سبحانه لا يعبد إلا بمعونته.

والناس في تحقيق العبادة والاستعانة أربعة أقسام، وأفضلهم الذين لا يعبدون إلا الله ولا يستعينون إلا به، فهم المخلصون الذين يتوجهون إلى الله في الشدة والرخاء وتظهر عبوديتهم لربهم في الضراء والسراء.

فأسأل الله أن يجعلنا منهم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٩٨).



# المبحث الثاني عشر:

## الاستعاذة

وفيه خمسة مطالب:

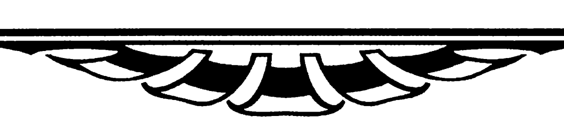
المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

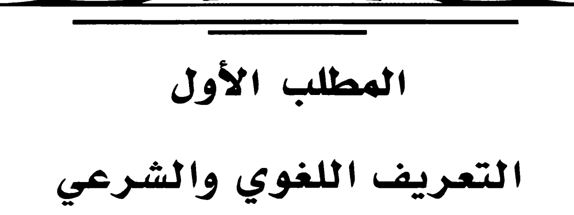
المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أقسام المستعاذ منه.

المطلب الرابع: أقسام الاستعاذة.

المطلب الخامس: ثمرات الاستعاذة.





# المطلب الأول
# التعريف اللغوي والشرعي

۞ المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

إن الاستعاذة في اللغة مأخوذة من كلمة العوْذ الذي هو الالتجاء إلى الشيء والاعتصام به والتحرز إليه، فزيدت عليه السين والتاء التي تدل على الطلب، فالاستعاذة في اللغة طلب العوذ من الغير، وحقيقته الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه(١).

قال ابن فارس: «عوذ: العين والواو والذال أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الالتجاء إلى الشيء، ثم يُحمَل على كل شيء لصق بشيء أو لازمه»(٢).

وقال ابن منظور: «عوذ: عاذ به يعوذ عوذا وعياذا ومعاذا: لاذ به ولجأ إليه واعتصم، ومعاذ الله أي أعوذ بالله»(٣).

وقد ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ فرقا بين العياذ واللياذ، وهو أن العياذ هو الفرار من شيء مخوف إلى ما يؤمَّن منه، أو إلى من يؤمِّن منه، وأما اللياذ فهو الفرار إلى طلب الخير والإقبال عليه(٤).

وقد بين ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أصل العوذ في اللغة مأخوذ من قولين:

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص/ ١٧٠)، والتمهيد لشرح كتاب التوحيد (ص/ ١٦٧-١٦٨).
(٢) معجم مقاييس اللغة (ص/ ٦٩٣).
(٣) لسان العرب (١٠/ ٣٢٩).
(٤) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٥).

**أحدهما**: أنه مأخوذ من الستر، فإن العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه، واستجن به منه.

**والثاني**: أنه مأخوذ من لزوم المجاورة، فإن العائذ قد استمسك بالمعاذ، واعتصم به ولزمه(١).

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

إذا كانت الاستعاذة في اللغة: هي طلب العوذ من الغير، وهو الفرار من شيء مخوف إلى من يعصمك منه، سواء كان ذلك من الله أو من غيره، فالاستعاذة في الشرع: هي الاعتصام بالله والالتجاء إليه في دفع المكروه والشرور، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الاستعاذة هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر»(٢).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قول القائل أعوذ بالله معناه أستجير بالله، والمستعيذ يطلب منع المستعاذ منه أو رفعه»(٣).

وقال الماوردي: «والاستعاذة هي استدفاع الأذى بالأعلى من وجه الخضوع والتذلل»(٤).

قد تقدم معنا بيان ابن القيم أن أصل العوذ مأخوذ من كلمتين، الستر ولزوم المجاورة، ثم بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن (الاستعاذة تنتظمهما معا، فإن المستعيذ مستتر بمعاذه مستمسك به معتصم به، قد استمسك قلبه به ولزمه، كما يلزم الولد أباه إذا شهر عدوه سيفا وقصده به، فهرب منه فعرض له أبوه في طريق هربه، فإنه يلقي نفسه عليه ويستمسك به أعظم استمساك، فكذلك

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧٠٣).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٥).

(٣) الرد على البكري (ص/ ٢٩٦)، بتصرف يسير.

(٤) تفسير الماوردي (٣/ ٢١٣).

العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه، وفر إليه وألقى نفسه بين يديه، واعتصم به، واستجار به، والتجأ إليه.

فمعنى الاستعاذة القائم بقلبه وراء هذه العبارات، وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهيم، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يديّ الرب، والافتقار إليه والتذلل بين يديه، أمر لا تحيط به العبارة)[١].

فالاستعاذة في الشرع هي توجه نحو الرب القدير والشعور بعظمة من اعتصمت به والتجأت إليه، مع الافتقار إليه والتذلل بين يديه.

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧٠٤).

## المطلب الثاني

## الأدلة من الكتاب والسنة

تبين مما سبق أن الاستعاذة هي: الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، فإذا علم العبد أنه لا شيء يقدر على أن يدفع عنه الشر والضرر إلا الله، تيقن أن الاستعاذة من العبادات القلبية التي يجب أن تكون خالصة لله جل وعلا.

فإذا استعرضنا نصوص الكتاب والسنة وجدنا أن الاستعاذة عبادة يجب أن تصرف لله ﷻ، وأن صرفها لغير الله فيما لا يقدر عليه إلا هو شرك، كما نجد في النصوص وصف حال الأنبياء في مواجهة الصعوبات والمشاكل بالاستعاذة بالله لرفع أضرارها أو عدم وجودها، وبيان ذلك كالتالي:

**۞ المسألة الأولى: الأمر بإفراد الله بالاستعاذة.**

قد بين شيخ الإسلام أن الاستعاذة من أنواع الدعاء التي يجب أن تكون لله تعالى، وخاصة فيما لا يقدر عليه إلا الله جل شأنه، فإنه خير من أعاذ، أما إن كان المخلوق يقدر على إعاذة المستعيذ مما استعاذ منه إعاذة شرعية فلا بأس[1].

فإن الاستعاذة بالله عبادة لله، ولهذا أمر الله بالاستعاذة به في غير آية، وتواترت السنن عن النبي ﷺ بذلك[2].

ولما كان الشيطان عدو الإنسان، وأقسم على الله أنه سيضل الناس

---

(١) الرد على البكري (ص/ ٢٩٧)، و (ص/ ٤٠٥).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص/ ١٧١).

أجمعين إلا عباد الله منهم المخلصين، جاء الأمر بالاستعاذة منه كثيرًا، فإن الشيطان (يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن، فأمر الله القارئ إذا قرأ القرآن أن يستعيذ منه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل]، فإن المستعيذ بالله مستجير به لاجئ إليه مستغيث به من الشيطان، فالعائذ بغيره مستجير به، فإذا عاذ العبد بربه كان مستجيرا به متوكلا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف]، فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير لئلا يعوقه الشيطان عنه، وعند ما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنات، وعند ما يأمره الشيطان بالسيئات)[1].

يقول ابن القيم رحمه الله: «ولما علم سبحانه جد العدو وتفرغه للعبد، وعجز العبد عنه، أمره بأن يستعيذ به سبحانه، ويلتجئ إليه في صرفه عنه، فيكتفي بالاستعاذة مؤنة محاربته ومقاومته، فكأنه قيل له: لا طاقة لك بهذا العدو، فاستعذ بي واستجر بي، أكفكه وأمنعك منه، وقال لي شيخ الإسلام قدس الله روحه يومًا: «إذا هاش عليك كلب الغنم، فلا تشتغل بمحاربته ومدافعته، وعليك بالراعي، فاستغث به، فهو يصرف عنك الكلب»»[2].

ومن الآيات التي جاء فيها الأمر بالاستعاذة بالله وحده، سورة الفلق وسورة الناس، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق]، (فذكر سبحانه الاستعاذة من شر الخلق عموما ثم خص الأمر بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب وهو الزمان الذي يعم شره، ثم خص بالذكر السحر والحسد...

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨٣) باختصار.

(٢) الكلام على مسالة السماع (ص/ ١٩٤-١٩٥).

وقيل فيها برب الفلق، لأن فالق الإصباح بالنور يزيل بما في نوره من الخير ما في الظلمة من الشر، وفالق الحب والنوى بعد انعقادهما يزيل ما في عقد النفاثات، فإن فلق الحب والنوى أعظم من حل عقد النفاثات، وكذلك الحسد هو من ضيق الإنسان وشحه لا ينشرح صدره لإنعام الله عليه، فرب الفلق يزيل ما يحصل بضيق الحاسد وشحه، وهو سبحانه لا يفلق شيئًا إلا بخير، فهو فالق الإصباح بالنور الهادي، والسراج الوهاج الذي به صلاح العباد، وفالق الحب والنوى بأنواع الفواكه والأقوات التي هي رزق الناس ودوابهم، والإنسان محتاج إلى جلب المنفعة من الهدى والرزق، وهذا حاصل بالفلق، والرب الذي فلق للناس ما تحصل به منافعهم يستعاذ به مما يضر الناس، فيطلب منه تمام نعمته بصرف المؤذيات عن عبده الذي ابتدأ بإنعامه عليه، وفلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام القدرة، وإخراج الشيء من ضده كما يخرج الحي من الميت والميت من الحي، وهذا من نوع الفلق فهو سبحانه قادر على دفع الضد المؤذي بالضد النافع)[1].

وقال ﷻ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [النَّاس]، وفي هذه السورة ذكر سبحانه الاستعاذة من الوسواس الخناس فإنه مبدأ الأفعال المذمومة من الكفر والفسوق والعصيان، ففيها الاستعاذة من الذي يوسوس من الجنة والناس في صدور الناس، فإن الله تعالى قد أخبر أنه جعل لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، وإيحاؤهم هو وسوستهم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢﴾ [الأنعام]، وفيها

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٠٧-٥٠٨).

الاستعاذة من شر نفسه ووسوسته، فإن النفس لها وسوسة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦].

فالذي يوسوس في صدور الناس نفسُه، وشياطين الجن، وشياطين الإنس[١].

وقد أمر الله في سورة الناس بأن يستعيذ الناس (بربهم وملكهم وإلههم من شر ما يوسوس في صدورهم، فإنه هو الذي يطلب منه الخير الذي ينفعهم، ويطلب منه دفع الشر الذي يضرهم، والوسواس أصل كل شر يضرهم، لأنه مبدأ للكفر والفسوق والعصيان . . .وبهذا يتبين من الاستعاذة والتي قبلها كما جاء بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ أنه لم يستعذ المستعيذون بمثلهما.

فإن الوسواس أصل كل كفر وفسق وعصيان، فهو أصل الشر كله، فمتى وقي الإنسان شره وقي عذاب جهنم، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال، فإن جميع هذه إنما تحصل عن طريق الوسواس. .)[٢].

وقد أخبر الله تعالى في كتابه عمن استعاذ بخلقه، أن استعاذته زادته طغيانا ورهقا فقال تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجنّ]، جاء في التفسير أنه: كان الإنس إذا نزل أحدهم بواد يخاف أهله قال: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه، وكانت الإنس تستعيذ بالجن، فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح، فزاد الإنس الجن باستعاذتهم رهقًا أي طغيانًا وتكبرًا وإثمًا وشرًّا، أو على التفسير الثاني، فزاد الجن الإنس طغيانًا أي ذعرًا وتخويفًا، بسبب

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٠٩-٥١٠).

(٢) المصدر نفسه (١٧/ ٥١٤-٥١٩).

استعاذتهم بهم كما سبق[١].

ولهذا جاء الإرشاد عن النبي ﷺ في هذه الحالة بالاستعاذة بكلمات الله التامات من شر ما خلق، قال النبي ﷺ: «**من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك**»[٢].

۞ المسألة الثانية: بيان أن الاستعاذة من شيم الأنبياء والمرسلين.

إن الاستعاذة عبادة يجب أن تكون خالصة لله ﷻ، وأن صرفها لغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك، ولو استعرضنا نصوص الكتاب والسنة لوجدنا أن الاستعاذة كانت من دأب الأنبياء والمرسلين وصالحي المؤمنين، فهذا نبي الله نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾ [هود]، فنوح عليه السلام يتوب إلى الله ويستغفره، ويطلب من الله أن يعيذه من شر ما يمكن أن يلحقه بالسبب أنه تكلم في شيء لا علم له به[٣]، فصيغة الكلام وإن كان خبرا لكنها تتضمن طلبا ودعاء كما ذكر ذلك شيخ الإسلام رحمه الله[٤].

وهذا كليم الله موسى عليه السلام: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧﴾ [البقرة]،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٦٥٤)، وتفسير البغوي (٤/ ٤٨٢-٤٨٣)، وتفسير ابن كثير (٤/٥٥٠-٥٥١)، وتفسير القرطبي (٢١/ ٢٨٣-٢٨٤)، وتفسير السعدي (ص/ ٨٩٠)، ومجموع الفتاوى (١/ ٣٦٢) و(١٥/ ٢٢٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٨٦)، في كتاب الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره.

(٣) وقد بين شيخ الإسلام أن الاستعاذة تكون من الضرر الفعالي والضرر الغائي، فإن سبب الضرر هو شر النفس وغايته عقوبة الذنب، ولهذا استعاذ النبي: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعملنا» (يأتي تخريج الحديث)، انظر: مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٨٩-٢٩٠).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٤٤).

أي لما أخبرهم موسى أن الله أمرهم أن يذبحوا بقرة إن أرادوا أن يعرفوا من القتيل، فاستغربوا كلامه واستبعدوه، ما العلاقة بين القتيل وذبح البقرة؟، فظنوا أن موسى يستهزئ بهم، فموسى استعاذ بالله أن يكون تكلم بجهل أو بكلام لا فائدة فيه، بل هو أمر من الله وهو صدق[1].

واستعاذت امرأة عمران بالله حين وضعت مريم، فقالت: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]، فدعت لها وذريتها أن يعيذهم الله من الشيطان الرجيم[2].

وكذلك مريم استعاذت بالله حين جاءها جبريل مبشرا بولادة الولد، فظنته رجلًا يريد منها سوءًا فاستعاذت بالله منه: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: ١٨].

وهذا نبي الله يوسف استعاذ بالله مرتين، مرة حين ابتلي بامرأة العزيز، استعاذ بالله أن يصرف عنه كيدها: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف].

والمرة الثانية، حين طلب منه إخوته أن يأخذ أحدهم مكان الأخ الذي وجد عنده متاعه، فاستعاذ بالله أن يكون من الظالمين: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف].

وكذلك كان حال نبينا ﷺ، ومن ينظر في كتب الأذكار والأدعية يجد ذلك واضحًا جليًّا، وأنا أذكر هنا بعضا من تلك الأحاديث التي جاءت الاستعاذة بالله فيها على لسان رسول الله ﷺ مما يبين أنه كان دائم الاستعاذة بالله[3].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٤٧)، وتفسير السعدي (ص/ ٥٥).

(٢) انظر: تفسير السعدي (ص/ ١٢٩).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٤٠٨).

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «لما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: **أعوذ بوجهك**، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: **أعوذ بوجهك**، فلما نزلت ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: **هاتان أهون، أو أيسر**»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يعوّذ الحسن والحسين، ويقول: «**إن أباكما كان يعوّذ بها إسماعيل وإسحاق، أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامّة**»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول: «**اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»(٣).

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه(٤) عن النبي ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن يقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، قال: «ومن قال من النهار موقنا بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٢٥٩)، في كتاب الاعتصام بالله والسنة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٥٦٥)، في كتاب أحاديث الأنبياء.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ٢٠١)، في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود.

(٤) هو شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي ابن أخي حسان بن ثابت الأنصاري، صحابي جليل، من الذين أوتوا العلم والحلم، قيل شهد بدرا، سكن حمص، وتوفي ببيت المقدس سنة ٥٨ هـ. انظر: الإصابة (٣/ ١٩٥)، وأسد الغابة (٢/ ٦١٣).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٠٩٧)، في كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار.



## المطلب الثالث

## أقسام المستعاذ منه

بين شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقسام المستعاذ منه المذكورة في سورتي: الفلق والناس، وأنها جاءت على أحسن ترتيب، بل المتأمل في الأمر يرى أن المستعاذ منه في الواقع لا يخرج عن هذه الأقسام، فوضح رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه (وقع ترتيب المستعاذ منه في سورة الفلق على كمال الترتيب، انتقالا من الأعم الأعلى الأبعد إلى الأخص الأقرب الأسفل، فجعلت أربعة أقسام:

**الأول:** من شر المخلوقات عموما، وقول الحسن: إنه إبليس وذريته، وقول بعضهم: إنه جهنم، ذكر للشر الذي هو لنا شر محض من الأرواح والأجسام.

**والثاني:** شر الغاسق إذا وقب، فدخل فيه ما يؤثر من العلويات في السفليات من الليل وما فيه من الكواكب.

**والثالث:** شر النفاثات في العقد، وهن السواحر اللواتي يتصورن بأفعال في أجسام.

**والرابع:** الحاسد، وهي النفوس المضرة سفها، فانتظم بذلك جميع أسباب الشرور.

وخص في سورة الناس، الشر الصادر من الجن و الإنس، وهم الأوراح المضرة)[1].

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٣٥).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والشر الذي يصيب العبد، لا يخلو من قسمين:

إما ذنوب منه يعاقب عليها، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها، وهو أعظم الشرين وأدْوَمُهما وأشدهما اتصالا بصاحبه.

وإما شر واقع بغيره، وذلك الغير إما مكلف أو غير مكلف، والمكلف إما نظيره وهو الإنسان، أو ليس نظيره وهو الجني، وغير المكلف مثل الهوام وذوات الحُمّى وغيرها.

فتضمنت هاتان السورتان من هذه الشرور كلها، بأوجز لفظ وأجمعه وأدله على المراد وأعمه استعاذة، بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما»(١).

وقد قسم شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ المستعاذ منه - باعتبار وجوده أو عدمه - إلى نوعين:

**الأول:** نوع موجود، يستعاذ من ضرره الذي لم يوجد بعد، ومثاله قول (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

**الثاني:** نوع مفقود، يستعاذ منه، ومثاله قول الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون]، وقول النبي ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضل، أو أزل أو أُزل**»(٢).

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧١٠)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٣٦).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (ص/ ٩٢٢)، في كتاب الأدب، باب ما يقال إذا خرج من بيته، والنسائي في سننه (ص/ ٨٢٦)، في كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الضلال، والترمذي في سننه (ص/ ٧٧٩)، في كتاب الدعوات، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ص/ ٦٤٠)، في كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا خرج من بيته، وصححه الألباني في تخريج الكلم الطيب (٢٠).

وقد يشترك النوعان في مستعاذ واحد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق]، فإنه يستعاذ من الشر الموجود ألا يضر، ويستعاذ من الشر الضار المفقود ألا يوجد، ومثله قوله ﷺ في الحديث: «... **ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا**»[(١)]، فيحتمل أن يكون المراد نعوذ بالله أن يكون منها شر، ونعوذ بالله أن يصيبنا شرها، وهذا أشبه، والله أعلم[(٢)].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (ص/٣٦٨)، في كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح، والنسائي في سننه (ص/٢٣٠)، في كتاب الجمعة، باب كيفية الخطبة، والترمذي في سننه (ص/٢٦١)، في كتاب النكاح، باب ما جاء في خطبة النكاح، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ص/٣٢٩)، في كتاب النكاح، باب خطبة النكاح، وصححه الألباني في خطبة الحاجة (٢٠-٢١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٨٨-٢٨٩)، وبدائع الفوائد (٢/ ٧١٥-٧١٧).

## المطلب الرابع

## أقسام الاستعاذة

بالنظر إلى كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ نجد أنه يتكلم عن ثلاثة أقسام للاستعاذة، الاستعاذة التوحيدية الإيمانية، والاستعاذة الشركية، والاستعاذة المباحة، إذًا أنواع الاستعاذة من حيث العموم ثلاثة[(١)]:

**القسم الأول: الاستعاذة التوحيدية.**

وهي الاستعاذة بالله تعالى وهي المتضمنة لكمال الافتقار إليه والاعتصام به واعتقاد كفايته وتمام حمايته من كل شيء حاضر أو مستقبل، صغير أو كبير، بشر أو غير بشر، ودليلها قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ١-٢] إلى آخر السورة، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ [الناس] إلى آخر السورة[(٢)].

أما الاستعاذة بصفات الله التي جعلها الشيخ ابن العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ قسمًا خاصا، فإنه في الحقيقة يعود إلى هذا القسم، لأن الاستعاذة بصفة الله استعاذة بالله[(٣)].

---

(١) وقد قسمها الشيخ ابن عثيمين أربعة أقسام، القسم الأول: الاستعاذة بالله، القسم الثاني: الاستعاذة بصفة من صفات الله ككلامه وعظمته، القسم الثالث: الاستعاذة بالأموات أو بالأحياء غير الحاضرين القادرين على العوذ فهذا شرك، القسم الرابع: الاستعاذة بما يمكن العوذ به من المخلوقين من البشر أو الأماكن أو غيرها فهذا جائز، انظر: شرح ثلاثة أصول (ص/ ٦٣-٦٤).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٠٨)، (١٧/ ٥١٤).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١١١)، والرد على البكري (ص/ ٢٩٥).

**القسم الثاني: الاستعاذة الشركية.**

وهي الاستعاذة بغير الله في أمر لا يقدر عليه إلا الله، مثل الاستعاذة بالأموات، أو الاستعاذة بالغائبين، أو الاستعاذة بالحاضرين غير القادرين فهذا شرك أكبر.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما ما لا يقدر عليه إلا الله، فلا يطلب إلا من الله»[(١)].

**القسم الثالث: الاستعاذة المباحة.**

وهي الاستعاذة بغير الله في أمر يقدر عليه، كمن يستعيذ برجل أو مكان يستطيع كف الشر والضرر عنه، فهذا هو الذي اختلف العلماء فيه على قولين، وإن كان الراجح جوازها:

**القول الأول:** أن الاستعاذة لا يجوز صرفها لغير الله مطلقًا، سواء في أمر لا يقدر عليه المخلوق، أو في أمر يقدر عليه المخلوق، وقدأشار إلى ذلك شيخ الإسلام، إذ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والاستعاذة لا تصح بمخلوق كما نص عليه الإمام أحمد و غيره من الأئمة»، إلى أن قال: «قالوا: والاستعاذة لا تكون بمخلوق»[(٢)].

**القول الثاني:** الاستعاذة بغير الله في شيء أقدره الله عليه جائز، وهذا ما تؤيده الأدلة، جاء في الحديث عن جابر بن عبد الله أن امرأة من بني مخزوم سرقت، فأتي بها النبي ﷺ فعاذت بأم سلمة زوج النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: **«وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع يدها»**[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٠٤).

(٢) الرد على البكري (ص/ ٢٩٥-٢٩٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١١٧٠)، في كتاب الحدود، باب إقامة الحدودعلى الشريف والوضيع، ومسلم في صحيحه (ص/ ٧٠١)، في كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره..، واللفظ له.

وهذا القول هو ظاهر قول شيخ الإسلام، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما طلب ما يقدر عليه في حياته، فهذا جائز سواء سمي استغاثة أو استعاذة أو غير ذلك»(١).

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: «وكذلك في الاستعاذة والفرق، إلا أن المخلوق يطلب منه ما يقدر عليه ويستعاذ به فيه، بخلاف ما لا يقدر عليه إلا الله، فلا يستعاذ فيه إلا بالله»(٢).

وقد ذكر الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ كلاما نفيسا يمكن أن يجمع القولين، فقال حفظه الله: «والذي يظهر أن المقام فيه تفصيل، وهو: أن الاستعاذة فيها عمل ظاهر، وفيها عمل باطن، فالعمل الظاهر: أن يطلب العوذ، وأن يطلب العياذ، وهو أن يُعصم من هذا الشر، أو أن ينجو من هذا الشر، وفيها ـ أيضًا ـ عمل باطن وهو: توجه القلب وسكينته واضطراره، وحاجته إلى هذا المستعاذ به، واعتصامه بهذا المستعاذ به، وتفويض أمر نجاته إليه.

فإذا كانت الاستعاذة تجمع هذين النوعين فيصح أن يقال: إن الاستعاذة لا تصلح إلا بالله، لأن منهما ما هو عمل قلبي ـ كما تقدم ـ وهو بالإجماع لا يصلح التوجه به إلا لله، وإذا قصد بالاستعاذة العمل الظاهر ـ فقط ـ وهو طلب العياذ والملجأ، فيجوز أن يتوجه بها إلى المخلوق، وعلى هذا يحمل الدليل الوارد في جوازها»(٣).

وعلى كل حال، إن كانت الاستعاذة بغير الله في شيء أقدر الله عليه، مع عدم تعلق القلب بالسبب، بل يعلق القلب بمسبِّب الأسباب، فالاستعاذة جائزة ومباحة، والله تعالى أعلم.

---

(١) الرد على البكري (ص/ ٤٠٥).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص/ ١٧٢).

(٣) التمهيد لشرح كتاب التوحيد (ص/ ١٦٩-١٧٠).



## المطلب الخامس

## ثمرات الاستعاذة

إن للاستعاذة ثمرات وفوائد جمة، وإن أعظم هذه الثمرات والفوائد أن في الاستعاذة بالله تحقيق للعبادة، وذلك بصرف هذه العبادة إلى مستحقها، لأنه لا شيء يقدر على منع الضرر ورفعه إلا الله، وكل من يعين العبد من المخلوقات على منع الضرر ورفعه فليعلم أن الله هو الذي أقدره على ذلك ويسّره له، فلا يلتفت إلى السبب، بل يلتفت ويتعلق بمسبب الأسباب، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإن كان الله قد جعل لها أسبابا، فالسبب لا يستقل بنفسه، بل لا بد له من معاون، ولا بد أن يمنع المعارض المعاوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله»[١].

فبالاستعاذة بالله تحصل الطمأنينة والأمن للعبد، لأنه يعلم أنه آوى إلى ركن شديد، لأنه هو الذي فلق الإصباح بالنور الهادي، والسراج الوهاج الذي به صلاح العباد، وأنه فلق الحب والنوى بأنواع الفواكه والأقوات التي هي رزق الناس ودوابهم، والرب هو الذي فلق للناس ما تحصل به منافعهم وهو الذي يستعاذ به مما يضرهم، فكما فلق الشيء عن الشيء، وأخرج الشيء من ضده كما يخرج الحي من الميت والميت من الحي، فهو القادر على دفع الضد المؤذي بالضد النافع[٢]، ولا شك أن العبد إذا استشعر هذه المعاني العظيمة تورد له الطمأنية، وأنه أسند أمره إلى رب عظيم لا يعجزه شيء.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٦).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٠٨).

ومن ثمرات الاستعاذة بالله هي: أنها سبب لحفظ الله للعبد، بل من الأسباب القوية التي تجعل العبد يستعيذ بالله هو اعتقاده في كفاية الله وتمام حمايته من كل شيء، ولهذا علم شيخ الإسلام ابن القيم حين يهاجم له العدو ـ الشيطان ـ أن يستعيذ بربه، فيكتفي بالاستعاذة مؤنة محاربته ومقاومته، قال له شيخ الإسلام: «إذا هاش عليك كلب الغنم، فلا تشتغل بمحاربته ومدافعته، وعليك بالراعي، فاستغث به، فهو يصرف عنك الكلب».

ويبين شيخ الإسلام أن الاستعاذة سبب لحماية الله لعبده، فيقول: «فأمر الله القارئ إذا قرأ القرآن أن يستعيذ منه قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النّحل: ٩٨]، فإن المستعيذ بالله مستجير به لاجئ إليه مستغيث به من الشيطان، فالعائذ بغيره مستجير به، فإذا عاذ العبد بربه كان مستجيرًا به متوكلًا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعرَاف: ٢٠٠]، فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير لئلا يعوقه الشيطان عنه، وعند ما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنات، وعند ما يأمره الشيطان بالسيئات»[١].

ونخلص مما سبق أن الاستعاذة من أجل الأعمال القلبية التي يجب أن تكون خالصة لله ﷻ، وأن المستعيذ لا بد أن تكون ثقته واعتماده على الله، وأن يكون اعتقاده في كفاية الله وتمام حمايته من كل شيء، ثم هذا لا ينافي الاستعاذة بالخلق في شيء أقدرهم الله عليه، مع عدم تعلق القلب بهم.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨٣) باختصار.



# المبحث الثالث عشر:

# التوبة



وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: شروط التوبة.

المطلب الرابع: أقسام التوبة.

المطلب الخامس: أحكام التوبة.

المطلب السادس: ثمرات التوبة.

## المطلب الأول

## التعريف اللغوي والشرعي

◇ المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

إن التوبة مصدر الفعل تاب، وأصل هذه المادة: التاء، والواو، والباء (توب)، وهي تدور حول معاني الرجوع، والعودة، والإنابة، والندم[١].

قال ابن فارس: «توب: التاء والواو والباء كلمة واحدة، تدل على الرجوع، يقال تاب من ذنبه، أي رجع منه، يتوب إلى الله توبة ومتابا، فهو تائب، والتوب والتوبة، قال تعالى: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣]»[٢].

وقال الفيروزآبادي: «تاب إلى الله توبا وتوبة ومتابا وتابة وتَتْوِبة، رجع عن المعصية، وهو التائب وتواب، تاب الله عليه: وفقه للتوبة، أي رجع به من التشديد إلى التخفيف، أو رجع عليه بفضله وقبوله، وهو تواب على عباده»[٣].

وقال الأزهري: «أصل تاب عاد إلى الله ورجع وأناب، وتاب الله عليه: عاد بالمغفرة، وقال ﷻ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: ٣١]، أي عودوا إلى طاعته وأنيبوا، والله التواب يتوب على عبده بفضله إذا تاب إليه من ذنبه، واستتبت فلانًا أي عرضت عليه التوبة مما اقترف، أي الرجوع والندم على ما فرط منه»[٤].

---

(١) انظر: لسان العرب (٢/ ٢٤٤)، ومعجم مقاييس اللغة (ص/ ١٥٧)، وتهذيب اللغة (١٤/ ٣٣٢).

(٢) معجم مقاييس اللغة (ص/ ١٥٧).

(٣) القاموس المحيط (ص/ ٧٩).

(٤) تهذيب اللغة (١٤/ ٣٣٢).

ويتبين من خلال هذه النقول أن التوبة في اللغة، هي الرجوع والعودة والإنابة، أو على المعنى الأخص هي الرجوع من الذنب والتقصير إلى الطاعة والاجتهاد، وتكون من العبد إلى الله، وتكون من الله على العبد، فإذا كانت من العبد عُدّيت بإلى، وإذا كانت من الله عديت بعلى، وتكون بمعنى قبول توبة العبد.

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

إذا كان كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، وإذا كانت الأخطاء والذنوب والمعاصي ترجع إلى أصلين: ترك مأمور، وفعل محظور، فالتوبة التي قلنا إنها في اللغة الرجوع عن مسلك المعصية إلى مسلك الطاعة، فهي في الشرع تشمل الرجوع إلى الله بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى عنه، وإن كان الذنب في الأمور الاعتقادية تكون التوبة بالقلب، وذلك بالرجوع عن الاعتقادات الفاسدة إلى الاعتقادات الصحيحة، وإن كان الذنب في الأمور العملية، فالتوبة تكون بالجوارح، وذلك بالرجوع عن المعاصي العملية إلى الطاعات العملية.

وقد عرف الجرجاني التوبة بقوله: «هي الرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب»[١].

ويقول الراغب: «التوب ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذر؛لم أفعل، أو يقول؛ فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة»[٢].

---

(١) التعريفات (ص/ ٧٤).

(٢) المفردات (ص/ ١٦٩).

ويقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «التوبة هي جماع الرجوع من السيئات إلى الحسنات»[١].

ويقول أيضًا: «التوبة رجوع عما تاب منه إلى ما تاب إليه، فالتوبة المشروعة هي الرجوع إلى الله، وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، وليست التوبة من فعل السيئات فقط»[٢].

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فإن حقيقة التوبة: الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلى محبوب، فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر»[٣].

ويقول أيضًا: «التوبة هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرا وباطنًا»[٤].

ويقول أيضًا: «فحقيقة التوبة هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل»[٥].

إذًا التوبة في مفهوم الشرع هي جامعة لأمرين: الرجوع عن ترك المأمور إلى فعله، والرجوع عن فعل المحظور إلى تركه، ظاهرًا وباطنًا، مع العلم بقبح حاله، والندم على فعله، والعزم على ألا يعود إليه إذا قدر، والتدارك لما يمكن تداركه من التقصير، مع إخلاص تام لله ورجاء ثوابه وخوف عقابه[٦].

---

(١) الاستقامة (١/ ٤٦٣).

(٢) رسالة في التوبة (١/ ٢٢٨)، ضمن جامع الرسائل.

(٣) مدارج السالكين (١/ ٢٣٠).

(٤) المصدر نفسه (١/ ٢٣٠).

(٥) مدارج السالكين (١/ ١٣٨).

(٦) انظر: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/ ٤٦٥-٤٦٦)، والتوبة وظيفة العمر (ص/ ١٠-١١)، تأليف محمد بن إبراهيم الحمد.

### ۞ المسألة الثالثة: مرادفات التوبة.

يرادف التوبة لفظان آخران هما: الاستغفار والإنابة، وإليك تعريفًا مختصرًا بهما.

**أولًا: الاستغفار.**

وهو لغة: طلب المغفرة، كالاستعانة طلب العون، والاستعاذة طلب العياذ.

أما في الشرع فالمراد به طلب المغفرة من الله ﷻ، وهي وقاية شر الذنوب مع سترها.

والاستغفار قد يكون بالقلب، وقد يكونِ باللسان، فالاستغفار القلبي هو طلب المغفرة بالقلب.

والاستغفار باللسان هو الدعاء بطلب المغفرة، ويكون بنحو قول المستغفر: أستغفر الله، اللهم اغفر لي.

والاستغفار مما يكمل التوبة ويتممها، وهو مأمور به كالتوبة، فالتائب إذا عاد إلى الله ﷻ وإلى طلب رضاه، فعليه أن يطلب منه أن يغفر له ما تقدم من ذنوبه، ولا بد من ذلك حتى تكون التوبة خالصة، وحتى يكون صاحبها بعيدا عن آثار ماضيه الأثيم.

ولهذه الرابطة القوية بين التوبة والاستغفار لا تكاد تجدهما منفصلين في النصوص الشرعية في الكتاب والسنة كما سنرى عند ذكر الآيات والأحاديث في التوبة.

فيقال عنهما: إذا افترقا اجتمعا، فإذا ذكر الاستغفار وحده في سياق دخلت معه التوبة، وإذا ذكرت التوبة وحدها شملت الاستغفار، فالتوبة تتضمن الاستغفار والاستغفار يتضمن التوبة، فكل واحد منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.

وإذا اجتمعا افترقا، فعند اقتران أحد اللفظين بالآخر كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]، يكون الاستغفار طلب وقاية شر ما مضى، وتكون التوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل[١].

ويرى بعض العلماء أن الاستغفار عبارة عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنب بالقلب والجوارح[٢].

**ثانيًا: الإنابة.**

وهي لغة: الرجوع كالتوبة، يقال: أناب إلى الله إذا تاب إليه ورجع إلى الطاعة[٣].

وفي الشرع: هي الرجوع إلى الطاعة والنزوع عن المعصية.

لكن الإنابة في مفهومها العام لها معنيان:

**المعنى الأول**: وهو الذي ذكرنا، أنها بمعنى التوبة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [ص]، أو أنها منزلة بعد التوبة، فإن كانت التوبة رجوعا إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، فالإنابة تتمة ذلك، فهي: رجوع إلى الله بالاجتهاد، والنصح في طاعته[٤].

**والمعنى الثاني**: أنها بمعنى العبادة كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، لأن العبادة رجوع إلى الله واعتراف باستحقاقه للعبادة وعودة إلى المنهج الذي أمر بسلوكه، وهذه هي الإنابة بهذا المفهوم[٥].

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٢٣٢).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٠٨).

(٣) انظر: القاموس المحيط (ص/ ١٧٩)، ومعجم مقاييس اللغة (ص/ ٩٦٦).

(٤) انظر: مدارج السالكين (١/ ٣٢٤).

(٥) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٥٢٧)، وطريق الهجرتين (ص/ ٣٧٨).

ومن كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يلاحظ التفرقة بين التوبة والإنابة، فالتوبة والإنابة كل منهما رجوع إلى الطاعة وعدول عن طريق المعصية، لكن التوبة في الغالب تطلق إزاء الذنوب، فيقال: تاب من الذنب، والإنابة تطلق على التزام الطاعة، وتطلق على ما يعم الدين كله وهو العبادة.

ومهما يكن من أمر، فإن الإنابة وقعت كثيرًا موقع التوبة في نصوص الكتاب والسنة ـ كما سيأتي ـ ومن هنا أدرجتها تحت التوبة، والله أعلم.

## المطلب الثاني
## الأدلة من الكتاب والسنة

التوبة وظيفة العمر، وبداية العبد ونهايته، وأول منازل العبودية وأوسطها وآخرها، وحاجتنا إلى التوبة ماسة، بل إن ضرورتنا إليها مُلِحّة، فنحن نذْنب كثيرًا، ونفرط في جنب الله ليلا ونهارا، فنحتاج إلى ما يصقل القلوب، وينقيها من رين الذنوب، فإن كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، فالعبرة بكمال النهاية، لا بنقص البداية(١).

وإذا استعرضنا نصوص الكتاب والسنة، نجد أن الشارع الحكيم أوْلى التوبة اهتماما بليغا، بل التوبة من أكثر الأعمال القلبية ورودا في نصوص الكتاب والسنة، ويأتي ذكرها في النصوص بأساليب مختلفة(٢)، منها ما هو أمر مباشر بالتوبة موجه لجميع المؤمنين، ومنها ما هو ترغيب للذين أسرفوا على أنفسهم ألا ييأسوا من رحمة الله، ومنها ما هو إخبار بأن الله سبحانه يقبل التوبة عن عباده وهو التواب الرحيم، ومنها الإخبار أن الاتصاف بها من شيم أولياء الله من الأنبياء والمرسلين، ومنها أن التوبة تترتب عليها سعادة الدنيا والآخرة، وبيان ذلك فيما يلي:

### المسألة الأولى: الأمر بالتوبة لعموم المؤمنين.

إن التوبة واجبة على الدوام، فإن الإنسان لا يخلو عن المعصية، ولو

---

(١) التوبة، وظيفة العمر (ص/٣).

(٢) انظر: رسالة في التوبة (١/ ٣١٩-٣٢٦)، ومجموع الفتاوى (١٠/ ٣١٠-٣١٣)، و (١١/ ٢٥٣-٢٥٦).

خلا عن معصية بالجوارح، لم يخْل عن الهم بالذنب بقلبه، وإن خلا عن ذلك، لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى، ولو خلا عنه، لم يخل عن غفلة وقصور في العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص، ولا يسلم أحد من هذا النقص، وإنما يتفاوتون في المقادير، وأما أصل ذلك، فلا بد[(١)]، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن التوبة واجبة على كل عبد في كل حال، لأنه دائمًا يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور، أو ما اعتدى فيه من فعل محظور، فعليه أن يتوب دائمًا»[(٢)].

وإذا كانت طبيعة البشر النقص والتقصير والذنوب والأخطاء، كما أخبر بذلك المصطفى الله ﷺ بقوله: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»[(٣)]، فإنما يتوجب على العبد التوبة إلى الله والاستغفار له.

ويأتي التأكيد على هذا الوجوب بالأمر الصريح من الله ﷻ في آيات كثيرة، والأمر الصريح من نبيه ﷺ في أحاديث صحيحة بوجوبها وضرورتها، مما لا يترك المجال للعبد أن يتهاون بشأنها، بل يتبادر بالامتثال والتوبة والاستغفار.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هُود: ٣]، في الآية أمر صريح بالتوبة موجه إلى أمة الإسلام بأجمعها، وقد

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص/١٤٩-١٥٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٣٠)، وانظر (١٠/ ٥٧٩-٥٨٠).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (ص/٥٦٣)، في كتاب صفة القيامة، وابن ماجه في سننه (ص/ ٧٠٤)، في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، الحاكم في المستدرك (٥/ ١٧٠) في كتاب التوبة والإنابة، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الألباني في تخريج المشكاة (٢٢٤١).

وردت الآية في سياق دعوة النبي ﷺ قومه كافة إلى الدين الإسلامي، وبيان المضامين العامة التي احتوى عليها القرآن الكريم، حيث أخبر المولى سبحانه أن كتابه العزيز محكم الآيات ومفصل من لدن الحكيم الخبير، وأن مضمون هذا الكتاب هو الأمر بالتوحيد الخالص لله رب العالمين، وأن محمدا عليه الصلاة والسلام نذير وبشير، وأن من مضمون هذا الكتاب المحكم الأمر بالاستغفار والتوبة إلى الله اللذين يترتب عليهما التمتع بالمتاع الحسن في الدنيا والتفضل على العباد بالخير العميم جزاء أعمالهم، وأما من تولى عن هذين العملين الجليلين والإيمان بهذا الكتاب المحكم فإنه يخاف عليه العذاب الكائن في ذلك اليوم الكبير(١)، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فبين أن من وحده واستغفره متّعه متاعا حسنا إلى أجل مسمى، ومن عمل بعد ذلك خيرًا زاده من فضله»(٢).

ويقول تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النُّور: ٣١]، بعد ما ذكر الله جملة من الأوامر التي يجب على المؤمن أن يتخلق بها، والنواهي التي يجب الابتعاد عنها، ولما كان لا بد من وقوع سهو وتقصير، جاء هذا الإرشاد الرباني بأن يتوب المؤمنون إلى الله لعلهم بسبب إيمانهم بالله والتوبة إليه يفلحون(٣)، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في قوله في آخر الآية: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النُّور: ٣١] فوائد جليلة، منها (الأولى): أن أمره لجميع المؤمنين بالتوبة، في هذا السياق تنبيه على أنه لا يخلو مؤمن من بعض هذه الذنوب التي هي:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٢٢٩)، وتفسير البغوي (٢/ ٣٨٥-٣٨٦)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٦٨)، وفتح البيان (٦/ ١٣٨-١٣٩) لمحمد صديق حسن خان، وتفسير السعدي (ص/ ٣٧٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ١٦٣).

(٣) انظر تفسير البغوي (٣/ ٢٩٠)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٩)، وتفسير القرطبي (١٥/ ٢٢٧)، وفتح البيان (٩/ ٢١٢)، لمحمد صديق حسن خان، وتفسير السعدي (ص/ ٥٦٧).

ترك غض البصر، وحفظ الفرج، وترك إبداء الزينة وما يتبع ذلك، فمستقل ومستكثر»[١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التحريم]، فقد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، وقد ذكر المفسرون في تفسيرها نحو ثلاثة وعشرين قولا متقارب المعنى، وملاك الأمر فيها أن يتوب توبة صادقة خالصة بالعزم على أن لا يعود إلى الذنب، كما لا يعود اللبن إلى الضرع[٢]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم التوبة النصوح: **أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه**، و (نصوح) هي صفة للتوبة وهي مشتقة من النصح والنصيحة، وأصل ذلك هو الخلوص...

فالتوبة النصوح هي الخالصة من كل غش، وإذا كانت كذلك كائنة فإن العبد إنما يعود إلى الذنب لبقايا في نفسه، **فمن خرج من قلبه الشبهة والشهوة لم يعد إلى الذنب فهذه التوبة النصوح**، وهي واجبة بما أمر الله تعالى»[٣].

ومن الأحاديث التي جاء فيها الأمر بالتوبة، قول النبي ﷺ: «**يأيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة**»[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٤٠٣).

(٢) انظر: تفسير البغوي (٤/ ٤٣٠-٤٣١)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٠٢)، وتفسير القرطبي (٢١/ ٩٦-١٠٠)، وفتح البيان (١٤/ ٢١٨)، لمحمدصديق حسن خان، وتفسير السعدي (ص/ ٨٧٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٧-٥٨) باختصار.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١٠٨٣)، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه .

ففي الحديث الأمر الصريح بالتوبة إلى الله ﷻ والإكثار منها، ثم أكد هذا الأمر بإخبار النبي ﷺ عن نفسه أنه يتوب إلى الله في اليوم مائة مرة، فإن كان هذا حال النبي ﷺ الذي هو أفضل الخلق، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو أتقى الناس لله وأخشاهم له، فكيف الحال بغيره الذي يذنب ليلا ونهارا، ويفرط في جنب الله ويقصر، فالواجب عليه وعلى المؤمنين أجمعين أن يكثر من التوبة والاستغفار[١].

ونخلص من خلال استعراضنا لهذه النصوص من الكتاب والسنة أن التوبة واجبة على كل مؤمن، بل كل الناس بحاجة إليه، ولا يستغني عنها أحد مهما بلغت درجته في العبادة والطاعة.

**۞ المسألة الثانية: ترغيب المؤمنين بالتوبة، وعدم اليأس والقنوط.**

سبق الكلام في مبحث الاستعاذة أن الشيطان اللعين أقسم على الله أن يغوي الناس أجمعين، وأنه تفرغ لهذه المهمة، وبيّنا طريق الحماية منه بالاستعاذة بالله ﷻ.

ولكن من أساليب الشيطان لإغواء الناس وإضلالهم هي الوساوس التي يوسوس بها في صدور الناس، ومن تلك الوساوس أنه يوحي إلى العبد القنوط من رحمة الله واليأس من مغفرته لكي لا يحقق العبد عبادة تصقل بها القلوب، وتغفر بها الذنوب، ألا وهي التوبة إلى الله ﷻ والإنابة إليه.

وللشيطان في وقوع الناس في القنوط مسلكان، كما بين ذلك شيخ الإسلام رحمه الله:

**الأول**: أن يوسوس إلى الإنسان أن الله لا يغفر له، وهذا لكونه يستعظم الذنوب ويستبعد غفران الله عليها.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٥/٥٦).

**الثاني**: أن يوسوس إليه أن التوبة متعذرة عليه، لأنه يرى للتوبة شروطا كثيرة ويقول لنفسه أنه لا يستطيع التوبة، فلا يتوب أصلًا[(١)].

وعند تأمل نصوص الكتاب والسنة نجد أن الشارع الحكيم عالج هذا الموضوع تمام العلاج، فنجد في النصوص الترغيب العظيم لمن أسرف على نفسه بأنواع الظلم بأن يتوب إلى الله لأن رحمة الله واسعة، وأن الله كتب على نفسه الرحمة، وأنه يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، وكل هذا ترغيب في أن باب التوبة مفتوح وأن مغفرته واسعة، وأن الله سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لعبده التائب، وإليكم بعض النصوص من الكتاب والسنة تدل على ذلك.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزُّمَر]، فهذه الآية هي أرجى الآيات للمذنبين، فإنه أولًا أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط والرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى، ثم أخبر تعالى أنه يغفر الذنوب جميعًا بصيغة التوكيد، للدلالة على أن الذنوب مهما عظمت فإنها داخلة تحت الغفران، (فيا لها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنَهم بربهم، الصادقين في رجائه، الخالعين لثياب القنوط، الرافضين لسوء الظن بمن لا يتعاظمه ذنب، ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده المتوجهين إليه في طلب العفو، وما أحسن ما علل سبحانه به هذا الكلام قائلا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يُوسُف: ٩٨] أي كثير

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ١٩-٢٠).

المغفرة والرحمة عظيمهما بليغهما واسعهما..)[١]، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه نهي عن القنوط من رحمة الله تعالى وإن عظمت الذنوب وكثرت، فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه، ولا أن يقنط الناس من رحمة الله، قال بعض السلف: إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله، ولا يجرئهم على معاصي الله»[٢].

وحين شرح شيخ الإسلام الحديث القدسي: وفيه قول النبي ﷺ: قال الله تبارك وتعالى: «... **يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم**..»[٣]، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالمغفرة العامة لجميع الذنوب نوعان[٤]:

**أحدهما**: المغفرة لمن تاب كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٥٣] إلى قوله: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزُمَر: ٥٤]، فهذا السياق مع سبب نزول الآية يبين أن المعنى لا ييأس مذنب من مغفرة الله ولو كانت ذنوبه ما كانت، فإن الله سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لعبده التائب، وقد دخل في هذا العموم الشرك وغيره من الذنوب فإن الله تعالى يغفر ذلك لمن تاب»[٥].

---

(١) تفسير الشوكاني (٤/ ٦٦٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٩-٢٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١٠٣٩)، في كتاب البر و الصلة و الآداب، باب تحريم الظلم.

(٤) النوع الثاني لمعنى المغفرة العامة عند شيخ الإسلام هو تخفيف العذاب، أو تأخيره إلى أجل مسمى، فمن الأول: دعاء النبي ﷺ لتخفيف العذاب عن عمه أبي طالب، ومن الثاني ما يحصل من عدم المؤاخذة والعذاب لبعض الذنوب في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، (مجموع الفتاوى ١٨/ ١٩٢).

(٥) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٨٥-١٨٦).

ومن الآيات التي ترغب في التوبة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء]، فبين الله أن التوبة ليست محجوزة لفئة معينة من المذنبين، بل إنها مقبولة من كل مَن عمل السوء بجهالة ثم تاب من قريب، ومعنى ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي بغفلة من القلب عن مضار العمل السيء، أو أنهم أقدموا على بصيرة وعلم بأن عاقبته مكروهة، ولكنهم آثروا العاجل على الآجل، فسموا جهالا لإيثارهم القليل على الراحة الكثيرة والعافية الدائمة، وليس الأمر أنهم يجهلون أن العمل المعين سوء، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «والمقصود هنا: أن كل عاص لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله، وإنما يكون جاهلا لنقص خوفه من الله، إذ لو تم خوفه من الله لم يعص»[(١)].

وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، أي قبل أن يدركهم الموت أو قبل حضور مقدماته، قال أبو العالية[(٢)]: سألت أصحاب رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقالوا لي: «كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب»[(٣)]، ويدل على ذلك الآية التي تليها: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٨].

(١) الإيمان الكبير (ص/ ٢١-٢٢).

(٢) هو رفيع بن مهران، الإمام المقرئ الحافظ المفسر، أبو العالية الرياحي البصري، أحد الأعلام. أدرك زمان النبي ﷺ وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق، ودخل عليه. وسمع من عمر، وعلي، وأبي، وأبي ذر، وابن مسعود، وعائشة، وأبي موسى وعدة. قال أبو عمرو الداني: أخذ أبو العالية القراءة عرضا عن أبي، وزيد، وابن عباس. توفي سنة ٩٠هـ. وقيل ٩٣هـ. انظر: طبقات ابن سعد (٩/ ١١١)، والسير (٤/ ٢٠٧).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠٧-٣٠٨).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما من تاب عند معاينة الموت، فهذا كفرعون الذي قال: أنا الله، فلما أدركه الغرق قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، قال الله: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس: ٩١]، وهذا استفهام إنكار بين به أن هذه التوبة ليست هي التوبة المقبولة المأمور بها، فإن استفهام الإنكار: إما بمعنى النفي إذا قابل الإخبار، وإما بمعنى الذم والنهي إذا قابل الإنشاء، وهذا من هذا.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨٣ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝٨٤﴾ [غافر]، بين أن التوبة بعد رؤية البأس لا تنفع، وأن هذه سنة الله التي قد خلت في عباده، كفرعون وغيره، وفي الحديث: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»(١)(٢).

ومن الأحاديث التي جاء الترغيب فيها بالتوبة قول النبي ﷺ: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**»(٣)، ففي الحديث الإخبار بأن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، أي أن الفرصة متاحة للمذنب دائمًا لكي يتوب، ولا يقتصر على وقت معين طالما

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٠/ ٣٠٠)، والترمذي في سننه (ص/ ٨٠٣)، في كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ص/ ٧٠٤)، في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، وحسنه الألباني في تخريج المشكاة (٢٣٤٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٩٠-١٩١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١١٠٤)، في كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة.

كان العبد حيا ولم تحضر مقدمات الموت، وطالما أن باب التوبة لم يقفل بطلوع الشمس من المغرب، فمن آوى إلى فراشه في الليل فليحاسب نفسه، وينظر ما عمل في النهار، فيستغفر الله ويتوب إليه مما كان قد أحدث في النهار من المعاصي والتقصير، حتى يبيت وهو طاهر، وحتى يقدم على ربه ـ لو قدر ذلك أثناء النوم ـ وهو مغفور الذنوب مجبور الكسر، وإذا استيقظ العبد في الصباح واستعد لمواجهة نهاره، فليعط نفسه فرصة محاسبتها بالليل وماذا عمل فيه، حتى يتدارك ما كان حصل فيه بالتوبة والاستغفار، ليبدأ نهاره وصفحته بيضاء نقية[(١)] .

فالخلاصة أن على العبد أن لا يؤخر التوبة بسبب الذنوب التي ارتكبها، لأن الله سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لعبده التائب، ولأن رحمته واسعة، فلا ينبغي له أن يقنط وييأس، كما ينبغي عليه أيضًا أن يبادر بالتوبة قبل دخول الإنسان في سياق النزع والاحتضار، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

**◇ المسألة الثالثة: الإخبار بأن الله يقبل التوبة عن العباد وأنه هو التواب الرحيم.**

وفي سياق المعالجة لداء اليأس والقنوط، تأتي نصوص الكتاب والسنة بتأكيد أمر التوبة والترغيب فيها بأسلوب آخر، ألا وهو الإخبار والبيان أن الله يقبل التوبة عن عباده، أنه هو التواب الرحيم، ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ فائدة ثانية[(٢)] من قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، فقال: «ومنها: أن أهل الفواحش الذين لم يغضوا أبصارهم ولم يحفظوا فروجهم مأمورون بالتوبة، وإنما

(١) انظر: أعمال القلوب وآثرها في الإيمان (ص/ ٤٧٤).

(٢) وقد سبقت الفائدة الأولى في هذا المبحث.

أمروا بها لتقبل منهم، فالتوبة مقبولة منهم ومن سائر المذنبين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى]، وسواء كانت الفواحش مغلظة لشدتها وكثرتها..، بخلاف ما عليه طائفة من الناس فإنهم إذا رأوا من عمل من هذه الفواحش شيئًا آيسوه من رحمة الله...

فإن القنوط من رحمة الله بمنزلة الأمن من مكر الله تعالى، وحالهم مقابل لحال مستحلي الفواحش، فإن هذا أمّن أهلها من مكر الله وذاك قنّط أهلها من رحمة الله، والفقيه كل الفقيه هو الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرئهم على معاصي الله»[1].

وحكى شيخ الإسلام رحمه الله حال بعض الصحابة، منهم قدامة بن مظعون[2]، الذين تأولوا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [المائدة: ٩٣]، فظنوا أن الخمر حرمت على العامة دون الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فشربوها متأولين، فلما ذكر لعمر بن الخطاب اتفق هو وعلي بن أبي طالب وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا، وإن أصروا على استحلالها قتلوا، فأقروا بالتحريم، ثم حصل لهم لذلك نوع من اليأس والقنوط لما فعلوا، فكتب عمر إلى قدامة، يقول له: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٤٠٤-٤٠٥).

(٢) هو قدامة بن مظعون بن حبيب بن وهب الجمحي، صحابي جليل، من السابقين الأولين إلى الإسلام، شهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، استعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على البحرين، ثم عزله لشرب الخمر متأولاً، مات بالمدينة النبوية في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، سنة ٣٦ هـ، انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٣٧١)، والإصابة (٥/ ٢٣٢).

إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر]، ما أدري أي ذنبيك أعظم: استحلالك للمحرم أولا؟ أم يأسك من رحمة الله ثانية؟[(١)][(٢)].

فالمهم، أن شيخ الإسلام بين أن التوبة مقبولة من سائر المذنبين ولذلك استدل بالآيتين اللتين توضحان أن الله يقبل التوبة، ففي الآية الأولى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة]، يوجه سبحانه الخطاب إلى عباده بطريق الاستفهام التقريري، فيقول: ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده، أي يقبل التوبة من جميع عباده إذا أخلصوا في التوبة.

والآية الثانية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى]، إخبار بأن الله يقبل التوبة، ويعفو عن السيئات، لكنها أضافت وصفا ثالثا وهو العلم بأفعال العباد، وذلك إرشاد إلى أن يخلصوا في أعمالهم ويحسنوا تعاطيها، لأن (التوبة لما كانت من الأعمال العظيمة، التي تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله، ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥])[(٣)].

أما قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي حكاه شيخ الإسلام رحمه الله، أنه عاتب قدامة بن مظعون رضي الله عنه، فإنه عاتبه مذكرًا إياه بقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر]، للدلالة على أن الله الذي يعذب، وأن عذابه شديد، فهو كذلك يغفر الذنوب ويقبل

---

(١) وقد أورد القصة النسائي في السنن الكبري (٣/ ٢٥٣)، وعبد الرزاق في المصنف (٩/ ٢٤٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٣١٥).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٤٠٤-٤٠٥)، والاستقامة (٢/ ١٩٠).

(٣) تفسير السعدي (ص/ ٧٥٩).

التوبة ويُنعِم ويتفضل لأنه ذو الطول، فلا تيأس ولا تقنط، فإنك لو فعلت ذلك، فما أدري أي الذنبين أعظم.

**المسألة الرابعة: الإخبار أن التوبة من شيم أولياء الله المقربين.**

إذا أمعنا النظر في الكتاب والسنة، تبين لنا أن التوبة إلى الله والاستغفار كانا من شيم أولياء المقربين؛ من الأنبياء والمرسلين، وقبل ذلك أريد أن أنبه إلى أن الأمر بالتوبة إلى الله والاستغفار كان من الأمور المتفق عليها بين الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى عن نوح أنه قال لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [نوح].

وقال عن هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود].

وقال عن صالح: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

وكذلك قال شعيب: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود][١].

والآن أذكر بعض الآيات التي وردت أن الأنبياء لم يكونوا يأمرون بالتوبة فقط، بل كانوا أول الممتثلين لها، بل غاية المؤمنين من الأنبياء فمن دونهم هي التوبة[٢]، قال تعالى عن أبينا آدم عليه السلام: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة]، يخبر الله عن أبي البشر آدم عليه السلام أنه تاب إلى ربه من معصية الأكل من الشجرة، فتاب الله عليه، لأن الله هو التواب الرحيم.

وقال عن موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ

---

(١) انظر: رسالة في التوبة (١/٢١٩-٢٢٠) ضمن جامع الرسائل.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٥١٤).

ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، يخبر الله عن توبة موسى عليه السلام لما سأل ربه أن ينظر إليه، فأخبره الله أنه لا يقدر على ذلك لضعفه الجسماني الذي يتسم به البشر في هذه الحياة الدنيا، وقد تجلى الرب عز وجل للجبل فصار دكا، فخر موسى صعقا، فلما أفاق من صعقته أعلن توبته إلى الله عن سؤال ما كان ينبغي له أن يسأله.

وقال عن داود عليه السلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]، يخبر الله عن توبة داود عليه السلام حين تأكد لديه أن الخصومة التي حُملت إليه تَحمل في طياتها فتنة له واختبارًا من الله عز وجل، فما كان منه إلا أن بادر إلى التوبة والاستغفار، وخر راكعا، فأتبع التوبة عملًا صالحًا يؤكد به مضمون التوبة.

وقال النبي ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي، وإني أستغفر الله في اليوم مائة مرة**»[1]، فقد أخبر النبي ﷺ أنه يغان على قلبه، وهو ما يغشاه من السهو الذي لا يخلو منه البشر، فيغفل عن ذكر الله في بعض الأحيان، لكنه يفزع إلى الاستغفار ويكثر منه، قال شيخ الإسلام: «والغين حجاب رقيق أرق من الغيم، فأخبر أنه يستغفر الله استغفارا يزيل الغين عن القلب، فلا يصير نكتة سوداء، كما أن النكتة السوداء إذا أزيلت لا تصير رينا»[2].

والخلاصة من هذه النصوص أن المنزلة عند الله والزلفى لديه لا تغني العبد عن التوبة إلى الله والإكثار منها، فغاية المؤمنين من الأنبياء فمن دونهم هي التوبة، فلا يُغتر بقول المعتزلة ومن وافقهم القائلين بعدم توبة الأنبياء ليتمكنوا من القول أن الأنبياء معصومون من الذنوب، فمن نظر في الكتاب والسنة يجد أن النصوص تذكر توبة الأنبياء من الذنوب كما أسلفنا.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٨٣)، في كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه.

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٨٣).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها ومن اتبعهم على ما أخبر الله به في كتابه، وما ثبت عن رسوله، من توبة الأنبياء عليهم السلام من الذنوب التي تابوا منها، وهذه التوبة رفع الله بها درجاتهم، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، **وعصمتهم هي من أن يقروا على الذنوب والخطأ**، فإن من سوى الأنبياء يجوز عليهم الذنب والخطأ من غير توبة، والأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ يستدركهم الله فيتوب عليهم ويبين لهم»[1].

---

(١) رسالة في التوبة (١/ ٢٦٩)، ضمن جامع الرسائل، وانظر: مجموع الفتاوى (١٥/ ٥١-٥٤).



## المطلب الثالث

## شروط التوبة

إن للتوبة شروطا لا تتحقق إلا بها، وقد استنبطها العلماء من نصوص الكتاب والسنة، وهذه الشروط هي كالتالي[١]:

١ ـ الإخلاص لله تعالى.

٢ ـ الإقلاع عن المعصية.

٣ ـ الندم على ما فات..

٤ ـ العزم على أن لا يعود إليها.

٥ ـ أن تكون التوبة قبل إقفال بابها.

فهذه الشروط إذا كانت المعصية بين العبد وبين ربه تعالى، أما إذا كانت المعصية تتعلق بآدمي، فيزاد على هذه الشروط، شرط سادس، وهو:

٦ ـ رد الحق إلى أهله.

الشرط الأول: الإخلاص لله تعالى، فإن التوبة عبادة، بل هي من أجل العبادات، والعبادات كلها يشترط فيها الإخلاص لله، فمن ترك ذنبًا من الذنوب لله صحت توبته، ومن تركه لغير الله لم يكن مخلصًا ولم تصح توبته، فإن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا له وحده ليس لأحد فيه شيء، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد يظن الظان أنه تائب ولا يكون تائبًا بل

---

(١) انظر هذه الشروط في رياض الصالحين (ص/٣٣-٣٤)، ومختصر منهاج القاصدين (ص/٢٥٧)، ومدارج السالكين (١/١٣٨)، أما شيخ الإسلام فلم يذكرها مجتمعة، لكنه تكلم عنها في مواضع متفرقة.

يكون تاركًا، والتارك غير التائب، فإنه قد يعرض عن الذنب لعدم خطوره بباله أو المقتضي لعجزه عنه، أو تنتفي إرادته له بسبب غير ديني، وهذا ليس بتوبة، بل لا بد من أن يعتقد أنه سيئة ويكره فعله لنهي الله عنه ويدعه لله تعالى، لا لرغبة مخلوق ولا لرهبة مخلوق، فإن التوبة من أعظم الحسنات، والحسنات كلها يشترط فيها الإخلاص لله وموافقة أمره»[(١)].

**الشرط الثاني:** الإقلاع عن المعصية، فلا تتصور صحة التوبة مع الإقامة على المعاصي حال التوبة، فإن الإقلاع عن الذنب شرط أساسي للتوبة المقبولة، فالذي يرجع إلى الله وهو مقيم على الذنب لا يعد تائبًا، فإن الصادق في توبته يقلع عن المعصية التي كان متلبسا بها في الحال، ويكون إقلاعه هذا من أجل الله خوفًا منه وحياء، لا رغبة ورهبة من غير الله، أو لعدم القدرة على فعلها، فالإقلاع من الذنب لازم التوبة.

**الشرط الثالث:** الندم على ما فات، والندم ركن من أركان التوبة لا تتم إلا به، ولا تتصور التوبة إلا من نادم خائف وجل، مشفق على نفسه مما حصل منه، وقد وضح النبي ﷺ قيمة الندم فقال: «**الندم توبة**»[(٢)]، وقد أشار شيخ الإسلام إلى عناصر الندم، فقال رحمه الله: «والندم يتضمن ثلاثة أشياء: اعتقاد قبح ما ندم عليه، وبغضه وكراهيته، وألم يلحقه عليه»[(٣)].

فمن أهم هذه العناصر اعتقاد قبح ما ندم عليه، وهذا الاعتقاد بقبح عمله الذي كان يعمله لا يمكن حصوله إلا بعد معرفته بأن فعله سيء ليتوب منه، أو بأنه ترك حسنًا مأمورًا به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب فيفعله،

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣١٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ٣٧، وابن ماجه (ص/ ٧٠٤)، في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، والحاكم في المستدرك (٥/ ١٦٩)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الروض النضير (٦٤٤).

(٣) رسالة في التوبة (١/ ٤٨٤)، ضمن جامع الرسائل، وانظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٢٥).

ولهذا يقول: إن أول التوبة العلم بالذنب، فإن الذي لا يعلم أنه يذنب لا يمكن أن يتوب من شيء لا يعده ذنبا[(١)]، فمن عرف قبح ذنبه واعتقده، أورده ذلك كراهية لما كان يفعله، فحصل له بذلك ألم وأذى وغم، فيطلب التملص منه ومن تبعاته.

**الشرط الرابع:** العزم على أن لا يعود إلى المعصية في المستقبل، فهو ضروري للدلالة على الصدق في التوبة، بل العزم على أن لا يعود هو تفسير للتوبة النصوح المأمور بها في الآية، لأن التوبة رجوع عن الماضي واستشراف إلى المستقبل المغاير له، فإذا كان التائب يريد أن يعود كما كان في الماضي فليس بتائب، بل هو مستهزئ بربه، فهو يظهر الندم مع أنه مستعد لأن يعمل مثله مرة أخرى.

ويكفي العزم على عدم العودة من الذنب، ولا يشترط عدم تكرار المعصية، فإن تكررت المعصية فعليه أن يتوب مرة أخرى، ولو عاد مائة مرة، فالله سبحانه لرأفته بعباده يغفر لهم ما داموا يستغفرون ويتوبون إليه ولو تكررت المعاصي منهم[(٢)].

**الشرط الخامس:** أن تكون التوبة قبل إقفال بابها[(٣)]، فلا بد أن تكون التوبة في الزمن الذي يقبل فيه التوبة، وهو أن تكون التوبة قبل حضور الموت ومقدماتها[(٤)]، قال النبي ﷺ: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[(٥)]، أو أن

---

(١) انظر: التحفة العراقية (ص/ ٢٩٧).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٨)، ومدارج السالكين (١/ ٢١٢).

(٣) وقد سبق الكلام عنها في مطلب: الأدلة من الكتاب والسنة، من هذا المبحث.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١٨/ ١٩٠-١٩١).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٠/ ٣٠٠)، والترمذي في سننه (ص/ ٨٠٣)، في كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ص/ ٧٠٤)، في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، وحسنه الألباني في تخريج المشكاة (٢٣٤٣).

تكون قبل طلوع الشمس من مغربها، وهو أحد أشراط الساعة الكبرى، قال النبي ﷺ: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**»[١].

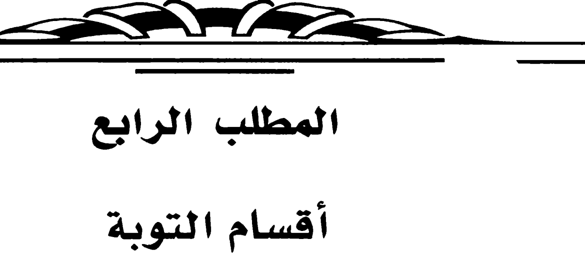
فهذه الشروط إذا كانت المعصية بين العبد وبين ربه، أما إذا كانت المعصية تتعلق بآدمي، فكما أسلفنا هناك شرط سادس.

الشرط السادس: رد الحق إلى أهله، ومن شروط التوبة التي لا تتم إلا بها رد المظالم إلى أهلها، فرد المظالم إلى أهلها من تمام الإقلاع من الذنوب، وهذه المظالم إما أن تتعلق بأمور مادية، أو بأمور غير مادية، فإن كانت المظالم مادية كاغتصاب المال فيجب على التائب أن يردها إلى أصحابها إن كانت موجودة، أو أن يتحللهم منها، وإن كانت المظالم غير مادية فيجب على التائب أن يطلب من المظلوم العفو عن ما بدر من ظلمه وأن يعمل على إرضائه[٢].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١١٠٤)، في كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٨/ ١٨٦-١٨٩)، ورياض الصالحين (ص/ ٣٤)، ومختصر منهاج القاصدين (ص/ ٢٥٨-٢٥٩)، ومدارج السالكين (١/ ٢١٨-٢١٩).



## المطلب الرابع

## أقسام التوبة

سبق أن قلنا أن التوبة المشروعة هي الرجوع إلى الله، وإلى فعل ما أمر به على وجه إيجاب أو استحباب، وترك ما نهي عنه على وجه تحريم أو كراهة، فمن اقتصر على التوبة بالرجوع من ترك مأمور واجب أو فعل محظور محرم كان من الأبرار المقتصدين، ومن تاب التوبة التامة من ترك الواجبات والمستحبات، ومن فعل المحرمات والمكروهات كان من السابقين المقربين، ومن لم يأت بالتوبة الأولى كان من الظالمين؛ إما الفاسقين، وإما الكافرين.

فإذا كان الأمر ينقسم إلى فعل مأمور وترك محظور، فهو كذلك ينقسم إلى واجب ومستحب، فالتوبة إذًا تكون توبة واجبة وتوبة مستحبة،كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ(١).

ثم من المعلوم من الدين بالضرورة أن التوبة تكون من السيئات، فالتوبة من الحسنات لا تجوز عند أحد من المسلمين، فمن ندم على فعل الحسنات التي هي: الإيمان والأعمال الصالحة، فقد تاب ورجع عما أمر الله به من الواجبات، والرجوع عن الإيمان كفر، والرجوع عن الأعمال الصالحة معصية إن كان عالمًا بذلك، وإن لم يعلم فهو جاهل ضال(٢).

---

(١) رسالة في التوبة (١/ ٢٢٧)، ضمن جامع الرسائل.

(٢) انظر: رسالة في التوبة (١/ ٢٤٨)، و (١/ ٢٥٥)، ضمن جامع الرسائل.

(وتوبة الإنسان من حسناته على أوجه:

أحدهما: أن يتوب ويستغفر من تقصيره فيها.

والثاني: أن يتوب مما كان يظنه حسنات، ولم يكن كحال أهل البدع.

والثالث: يتوب من إعجابه ورؤيته أنه فعلها، وأنها حصلت بقوته وينسى فضل الله وإحسانه، وأنه هو المنعم بها، وهذه توبة من فعل مذموم وترك مأمور)[١].

فنخلص من هذا أن التوبة تكون من السيئات التي يعملها العبد سواء علم أنها سيئات أو لم يعلم، أما التوبة من الحسنات فلا يجوز عند أحد من المسلمين، فإنه إما يكون كفرًا، أو فسقًا، أو معصية، أما توبة العبد من الحسنات على الأوجه السابق ذكرها فهي من كمال الإيمان.

أما قول القائل: (حسنات الأبرار سيئات المقربين)، فإنه ليس من كلام النبي ﷺ ولا أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، ولا سلف الأمة وأئمتها، وإنما هو من كلام المتأخرين وليس بحجة، وإن كان له معنى صحيح، وقد يحمل على معنى فاسد تحتمله العبارة.

أما معناه الصحيح، فوجهان:

**أحدهما**: أن الأبرار يقتصرون على أداء الواجبات وترك المحرمات، وهذا الاقتصار سيئة في طريق المقربين، ومعنى كونه سيئة أن يخرج صاحبه عن مقام المقربين فيحرم درجاتهم، فالمقربون يتوبون من الاقتصار على الواجبات، لا يتوبون من نفس الحسنات التي يعمل مثلها الأبرار، بل يتوبون من الاقتصار عليها. وفرق بين التوبة من فعل الحسن وبين التوبة من ترك الأحسن والإقتصار على الحسن.

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٨٧-٦٨٨)، وانظر: رسالة في التوبة (١/ ٢٥٦).

**والثاني**: أن العبد قد يؤمر بفعل يكون حسنًا منه، إما واجبًا، وإما مستحبًّا، لأن ذلك مبلغ علمه وقدرته، ومن يكون أعلم منه وأقدر لا يؤمر بذلك، بل يؤمر بما هو أعلى منه، فلو فعل هذا ما فعله الأول كان ذلك سيئة،،،

مثال ذلك: أن العامي يؤمر بمسألة العلماء المأمونين على الإسلام والرجوع إليهم بحسب قوة إدراكه، وإن كان في ذلك تقليد لهم، إذ لا يؤمر العبد إلا بما يقدر عليه، وأما العلماء القادرون على معرفة الكتاب والسنة والاستدلال بهما، فلو تركوا ذلك وأتوا بما يؤمر به العامي لكانوا مسيئين بذلك.

وأما المعنى الفاسد، فأن يظن الظان أن الحسنات التي أمر الله بها أمرا عاما يدخل فيه الأبرار ويكون سيئات للمقربين، مثل من يظن أن الصلوات الخمس ومحبة الله ورسوله والتوكل على الله وإخلاص الدين لله ونحو ذلك هي سيئات في حق المقربين، فهذا قول فاسد غلا فيه قوم من الزنادقة المنافقين المنتسبين إلى العلماء والعباد، فزعموا أنهم يصلون إلى مقام المقربين الذي لا يؤمرون فيه بما يؤمر به عموم المؤمنين من الواجبات، ولا يحرم عليهم ما يحرم على عموم المؤمنين من المحرمات، كالزنا والخمر والميسر.

وكذلك زعم قوم في أحوال القلوب التي يؤمر بها جميع المؤمنين أن المقربين لا تكون هذه حسنات في حقهم[١].

---

(١) رسالة في التوبة (١/٢٥١-٢٥٥)، باختصار.

## المطلب الخامس

## أحكام التوبة

أقصد بهذا المطلب أن أذكر بعض أحكام التوبة التي وقفت عليها من كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ :

◇ المسألة الأولى: هل العبد إذا تاب من الذنب، يرجع إلى الدرجة التي كان عليها قبل الذنب؟

فقد اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين:

القول الأول: إنه يرجع إلى درجته، لأن التوبة تَجُبُّ الذنب بالكلية، وتصيره كأن لم يكن، والمقتضي لدرجته: ما معه من الإيمان والعمل الصالح، فعاد إليه بالتوبة.

القول الثاني: إنه لا يعود إلى درجته وحاله، لأنه لم يكن في وقوف، وإنما كان في صعود، فبالذنب صار في نزول وهبوط، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذي كان مستعدا به للترقي.

يقول ابن القيم: «سمعت شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ يحكي هذا الخلاف، ثم قال: والصحيح: أن من التائبين من لا يعود إلى درجته، ومنهم من يعود إليها، ومنهم من يعود إلى أعلى منها، فيصير خيرًا مما كان قبل الذنب، وكان داود بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة.

قال: وهذا بحسب حال التائب بعد توبته، وجده وعزمه، وحذره وتشميره، فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيرًا مما كان وأعلى درجة، وإن كان مثله عاد إلى مثل حاله، وإن كان دونه لم يعد إلى

درجته، وكان منحطا عنها، وهذا الذي ذكره هو فصل النزاع في هذه المسألة»[١].

وامتدادا على هذه المسألة، يأتي سؤال آخر: هل التائب توبة نصوحا أفضل من الطائع الذي لم يعص الله أصلًا، ففي المسألة خلاف[٢]، ويفهم من كلام شيخ الإسلام السابق أن الأمر ليس بمطرد، بل يكون بحسب حال التائب والطائع، فقد يكون هذا أفضل وقد يكون ذاك أفضل، فالاعتبار بالعاقبة، وأيهما كان أتقى لله في عاقبته كان أفضل[٣].

**۞ المسألة الثانية: هل الاعتراف بالخطيئة بمجرده مع التوحيد موجب لغفرانها وكشف الكربة عنها، أم يحتاج إلى شيء آخر؟**

بين شيخ الإسلام أن الاعتراف هذا يمكن أن يكون على وجهين:

**الوجه الأول:** إن كان الاعتراف بالخطيئة مع التوحيد يتضمن في نفسه توبة فقد أوجب الغفران، فإذا غفر الذنب زالت عقوبته[٤].

**الوجه الثاني:** أما إن كان الاعتراف بالذنب على وجه الخضوع لله من غير إقلاع عنه فهذا هو نفس الاستغفار المجرد الذي لا توبة معه، وهو كالذي يسأل الله تعالى أن يغفر له الذنب مع كونه لم يتب منه، وهذا يأس

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٢٠)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩٣-٢٩٤).

(٢) انظر هذا الخلاف في مدارج السالكين (١/ ٢٢٢-٢٢٩).

(٣) انظر مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠٠-٣٠٩).

(٤) بين شيخ الإسلام في هذا الموضع الفرق بين المغفرة والستر منبهًا على غلط من يفسر اسم الله الغفار بأنه الستار، فقال رَحِمَهُ اللهُ: «فإن المغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث لا يعاقب على الذنب، فمن غفر ذنبه لم يعاقب عليه. وأما مجرد ستره فقد يعاقب عليه في الباطن، ومن عوقب على الذنب باطنا أو ظاهرا فلم يغفر له، وإنما يكون غفران الذنب إذا لم يعاقب عليه العقوبة المستحقة بالذنب. وأما إذا ابتلي مع ذلك بما يكون سببا في حقه لزيادة أجره فهذا لا ينافي المغفرة». (مجموع الفتاوى ١٠/ ٣١٧).

من رحمة الله، ولا يقطع له بالمغفرة له، فإنه داع دعوة مجردة(١).

**۞ المسألة الثالثة: هل الاعتراف بالذنب المعين يوجب دفع ما حصل بذنوب متعددة، أم لا بد من استحضار جميع الذنوب؟**

أجاب شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا السؤال بجواب مبني على ثلاثة أصول:

**الأصل الأول:** أن التوبة تصح من ذنب مع الإصرار على ذنب آخر إذا كان المقتضى للتوبة من أحدهما أقوى من المقتضي للتوبة من الآخر، أو كان المانع من أحدهما أشد، وهذا هو القول المعروف عند السلف والخلف.

وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن التوبة لا تصح من قبيح مع الإصرار على آخر، قالوا: لأن الباعث على التوبة إن لم يكن من خشية الله لم يكن توبة صحيحة، والخشية مانعة من جميع الذنوب لا من بعضها.

وقد أجاب شيخ الإسلام على دليلهم: أن الخشية توجب العموم، أنه قد يعلم قبح أحد الذنبين دون الآخر، وإنما يتوب مما يعلم قبحه.

وأيضًا، فقد يعلم قبحها ولكن هواه يغلبه في أحدهما دون الآخر، فيتوب من هذا دون ذاك، كمن أدى بعض الواجبات دون بعض.

**الأصل الثاني:** أن من له ذنوب فتاب من بعضها دون بعض، فإن التوبة إنما تقتضي مغفرة ما تاب منه، أما ما لم يتب منه فهو باق فيه على حكم من لم يتب، لا على حكم من تاب، وما عُرف في هذا نزاع إلا في الكافر إذا أسلم، فإن إسلامه يتضمن التوبة من الكفر فيغفر له بالإسلام

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/٣١٧-٣١٩).

الكفر الذي تاب منه، وهل تغفر له الذنوب التي فعلها في حال الكفر ولم يتب منها في الإسلام؟ هذا فيه قولان معروفان:

**القول الأول**: يغفر له الجميع لإطلاق قوله ﷺ: «**الإسلام يهدم ما كان قبله**»[1]، مع قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

**والقول الثاني**: أنه لا يستحق أن يغفر له بالإسلام إلا ما تاب منه، فإذا أسلم وهو مصر على كبائر دون الكفر، فحكمه في ذلك حكم أمثاله من أهل الكبائر، وهذا القول هو الذي تدل عليه الأصول والنصوص، فإن في الصحيحين أن النبي ﷺ قال له حكيم بن حزام[2]: يا رسول الله: أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال: «**من أحسن منكم في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر**»[3]، فقد دل هذا النص على أنه إنما ترفع المؤاخذة بالأعمال التي فعلت في حال الجاهلية عمن أحسن، لا عمن لا يحسن، وإن لم يحسن أخذ بالأول والآخر ومن لم يتب منها فلم يحسن.

وأجاب عن الآية التي استدل بها القول الأول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٧٣-٧٤)، في كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وكذا الهجرة والحج.

(٢) حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، أبو خالد، صحابي جليل، وهو ابن أخي خديجة أم المؤمنين، وكان صديقا للنبي ﷺ قبل البعثة وبعدها، وكان من سادات قريش في الجاهلية والاسلام، عالما بالنسب، أسلم يوم الفتح، مات بالمدينة سنة ٥٤هـ في خلافة معاوية ابن أبي سفيان وهو ابن مائة وعشرون سنة، انظر: طبقات ابن سعد (٦/٥٠)، والاصابة (٢/٣٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٩٢)، في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إثم من أشرك بالله، وعقوبته في الدنيا والآخرة، ومسلم في صحيحه (ص/٧٣)، في كتاب الإيمان، باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية.

﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، أن المنتهي عن شيء يغفر ما قد سلف منه، لا يدل على أن المنتهي عن شيء يغفر له ما سلف من غيره.

أما الحديث: «**الإسلام يهدم ما كان قبله، والتوبة تهدم ما كان قبلها، والهجرة تهدم ما كان قبلها**»، فمن المعلوم أن التوبة إنما توجب مغفرة ما تاب منه، لا توجب التوبة غفران جميع الذنوب.

**الأصل الثالث:** أن الإنسان قد يستحضر ذنوبا فيتوب منها، وقد يتوب توبة مطلقة لا يستحضر معها ذنوبه، لكن إذا كانت نيته التوبة العامة فهي تتناول كل ما يراه ذنبا، لأن التوبة العامة تتضمن عزما عاما بفعل المأمور وترك المحظور، وكذلك تتضمن ندما عاما على كل محظور.

فمن تاب توبة عامة كانت هذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب كلها، وإن لم يستحضر أعيان الذنوب إلا أن يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص، مثل أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه، لقوة إرادته إياه، أو لاعتقاده أنه حسن ليس بقبيح، فما كان لو استحضره لم يتب منه لم يدخل في التوبة، وأما ما كان لو حضر بعينه لكان مما يتوب منه فإن التوبة العامة شاملته، وأما التوبة المطلقة: وهي أن يتوب توبة مجملة، ولا تستلزم التوبة من كل ذنب، فهذه لا توجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها ولا تمنع دخوله كاللفظ المطلق، لكن هذه تصلح أن تكون سببًا لغفران المعين، كما تصلح أن تكون سببًا لغفران الجميع، بخلاف العامة فإنها مقتضية للغفران العام كما تناولت الذنوب تناولًا عامًّا[1].

فنخلص من هذا أن التوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على آخر من نوعه، وأما التوبة من ذنب مع مباشرة آخر لا تعلق له به ولا هو من نوعه،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣١٦-٣٢٨)، ومدارج السالكين (١/ ٢٠٦-٢٠٧).

فتصح[١]، كذلك إذا كانت التوبة عامة بحيث لو استحضر جميع الذنوب تاب منها، ولم يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص فهي مقتضية لغفران الذنوب كلها، بخلاف إذا كانت التوبة مطلقة التي لا توجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها، ولا تمنع دخوله كاللفظ المطلق فلا نجزم أنها مقتضية لغفران الذنوب، والله تعالى أعلم.

### المسألة الرابعة: هل توبة العاجز عن الفعل صحيحة مقبولة، أم لا؟

حين تكلم شيخ الإسلام عن مسألة، الفرق بين الهم والإرادة الجازمة، وأن الإنسان الذي له إرادة جازمة إذا فعل معها ما يقدر عليه كان في الشرع بمنزلة الفاعل التام، بخلاف الهم المجرد، تطرق إلى هذه المسألة، هل توبة العاجز عن الفعل صحيحة مقبولة، أم لا؟

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «ومما يبنى على هذا مسألة معروفة ـ بين أهل السنة وأكثر العلماء وبين بعض القدرية ـ وهي: توبة العاجز عن الفعل، كتوبة المجبوب عن الزنا، وتوبة الأقطع العاجز عن السرقة ونحوه من العجز، فإنها توبة صحيحة عند جماهير العلماء من أهل السنة وغيرهم، وخالف في ذلك بعض القدرية، بناء على أن العاجز عن الفعل لا يصح أن يثاب على تركه الفعل، بل يعاقب على تركه وليس كذلك، بل إرادة العاجز عليها الثواب والعقاب كما بينا، وبينا أن الإرادة الجازمة مع القدرة تجري مجرى الفاعل التام، فهذا العاجز إذا أتى بما يقدر عليه من مباعدة أسباب المعصية بقوله وعمله وهجرانها وتركها بقلبه كالتائب القادر عليها سواء، فتوبة هذا العاجز عن كمال الفعل كإصرار العاجز عن كمال الفعل»[٢].

---

(١) الفرق بين التوبة من ذنب مع الإصرار على آخر من نوعه، والتوبة من ذنب مع مباشرة ذنب آخر لا تعلق له به، قد ذكره ابن القيم في المدارج (١/ ٢٠٧)، أما شيخ الإسلام لم يفصل الأمر بهذا التفصيل.

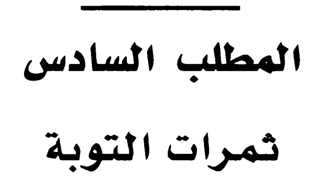
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٤٢-٧٤٣).

فيفهم من كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ، أن المعصية إذا كانت في بداياتها، فهي مجرد هم، فإذا عجز العبد عنها، وأتى بما يقدر عليه من مباعدة أسباب المعصية بقوله وفعله وهجرانها وتركها بقلبه، فهذا توبته صحيحة مقبولة.

أما إذا هم بالمعصية وقد ارتقى هذا الهم إلى الإرادة الجازمة التي لا يتخلف عنها العمل، وقد أخذ بالأسباب، إما بالقول، أو بالعمل، أو على أقل تقدير بالإشارة، ثم عجز عن مباشرة المعصية، ثم لم يندم، بل يتمنى لو أكمل المهمة، وباشر المعصية، فهو يؤاخذ مثل الفاعل، لأن من المتقرر عند شيخ الإسلام ـ وهو الذي تؤيده الأدلة ـ أن الإرادة الجازمة مع القدرة تجري مجرى الفاعل التام، فبالتالي توبته غير صحيحة، والله تعالى أعلم[1].

---

(١) انظر أيضًا كلام ابن القيم في هذه المسألة، فبعد ما ساق الخلاف في المسألة، رجح أن توبة العاجز عن الذنب صحيحة مقبولة (١/٢١٣-٢١٥).



## المطلب السادس
## ثمرات التوبة

ـ إن عبودية التوبة من أحب العبادات إلى الله، وأكرمها عليه، فإن عبودية التوبة فيها الذل والانكسار والخضوع والتذلل لله، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة، وإن زادت في القدر والكمية على عبودية التوبة، فإن الذل والانكسار روح العبودية، ومخها ولبها، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والله تعالى يبتلي عبده المؤمن بما يتوب منه، ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع، والخشوع لله، والإنابة إليه، وكمال الحذر في المستقبل، والاجتهاد في العبادة ما لم يحصل بدون التوبة، كمن ذاق الجوع والعطش والمرض والفقر والخوف، ثم ذاق الشبع والري والعافية والغنى والأمن، فإنه يحصل له من المحبة لذلك وحلاوته ولذته والرغبة فيه وشكر نعمة الله عليه والحذر أن يقع فيما حصل أولًا ما لم يحصل بدون ذلك ...، وينبغي أن يعرف أن التوبة لا بد منها لكل مؤمن، ولا يكمل أحد ويحصل له كمال القرب من الله، ويزول عنه كل ما يكره إلا بها»[1]، فكلما ازداد العبد تواضعًا وعبودية ازداد إلى الله قربًا ورفعة، ومن ذلك توبته واستغفاره[2].

ـ فإن الغاية التي يسعى إليها كل مسلم هي محبة الله عَزَّ وَجَلَّ، وهي تنال بأسباب عديدة، من أهمها التوبة إلى الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢]، ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٥٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٥٧).

لما ابتلي بالذنب أكرم الخلق، فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذي يوجب وقوع محبوبه من التوبة وزيادة محبته لعبده، فإن التائب عنده محبة خاصة(١).

- ثم للتوبة عند الله ﷻ منزلة ليست لغيرها من الطاعات، ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدّر، كما مثله النبي ﷺ بفرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدوية المهلكة، بعد فقدها، وأيس من أسباب الحياة، ولم يجئ هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة، قال النبي ﷺ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن، من رجل في أرض دوية مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده، وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده**»(٢).

- فالتوبة سبب من أسباب رفع العقوبة وغفران الذنوب(٣)، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فتوبة المؤمنين واستغفارهم هو من أعظم حسناتهم، وأكبر طاعاتهم، وأجل عباداتهم التي ينالون بها أجل الثواب ويندفع بها عنهم ما يدفعه من العقاب»(٤).

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩٤)، ومدارج السالكين (١/ ٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٩٧)، في كتاب الدعوات، باب التوبة، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٩٨)، في كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها.

(٣) ذكر شيخ الإسلام عشرة أسباب تزول بها عقوبة الذنوب عن العبد، وأول هذه الأسباب التوبة إلى الله، انظر: الإيمان الأوسط (ص٣٣).

(٤) مجموع الفتاوى (١٥/ ٥٣).

ـ فبالتوبة تصقل القلوب وتغفر الذنوب، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «والمؤمن لا يزال يخرج من الظلمات إلى النور، ويزداد هدى، فيتجدد له من العلم والإيمان ما لم يكن قبل ذلك، فيتوب مما تركه وفعله، والتوبة تصقل القلب وتجليه مما عرض له من رين الذنوب، كما قال النبي ﷺ: «**إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي قال الله:** ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفِّفِين: ١٤]»[(١)]»[(٢)].

ـ ومن تمام نعمة الله على عبده أنه يبدل سيئاته حسنات، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ [مَريَم]، وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «العبد المؤمن إذا تاب وبدل الله سيئاته حسنات انقلب ما كان يضره من السيئات بسبب توبته حسنات ينفعه الله بها، فلم تبق الذنوب بعد التوبة مضرة له، بل كانت توبته منها من أنفع الأمور له، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية»[(٣)].

ـ فإن التوبة ليس لها جزاء أخروي فقط، بل بالتوبة تنال السعادة الدنيوية أيضا، فالتوبة من أسباب نيل ما يتمنى العبد من الخيرات، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نُوح]، يخبر الله عن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣/ ٣٣٣)، والترمذي في سننه (ص/٧٥٦)، في كتاب التفسير، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ص/٧٠٣)، في كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، والحاكم في المستدرك (١/ ١٠٠)، من طريقين، قال في أحدهما: صحيح على شرط مسلم، وحسنه الألباني في التعليق الترغيب (٣٦٨).

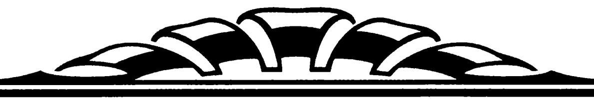
(٢) رسالة في التوبة (١/ ٢٣٧).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ٥٥).

نوح عليه السلام حين أمر قومه بالاستغفار، وأخبرهم نوح أنهم إذا استغفروا الله، فإنه يرسل عليهم السماء مدرارًا أي يكثر الغيث عليهم، ويمدهم بالأموال والبنين، ويبارك لهم في أرضهم فيجعل لهم فيها جنات ويجعل لهم أنهارا.

هذه بعض الثمرات والنتائج المرتبة على التوبة، والخلاصة أن التوبة من أجل العبادات، وأنها من شيم أوليائه الصالحين، وأنها واجبة على كل مؤمن، ولا يستغني عنها أحد، ولا يكمل أحد ويحصل له كمال القرب من الله ويزول عنه كل مكروه إلا بها.

فأسأل الله تبارك وتعالى أن يتوب علينا، ويبدل سيئاتنا حسنات، وآخر دعوانا أن الحمد رب العالمين.



# المبحث الرابع عشر:
# التقوى

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: لوازم التقوى.

المطلب الرابع: ثمرات التقوى.



# المطلب الأول

# التعريف اللغوي والشرعي

## المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

التقوى فعلى من: وقى يقي، قلبت فاؤه ـ وهي الواو ـ تاء، لكن التاء صارت لازمة للفعل، فقيل: تقي يتقي، ومن هنا نجد أصحاب المعاجم بعضهم يلحق هذه الكلمة بما هو مبدوء بالتاء، وبعضهم يضعها في مكانها في باب الواو.

قال الأزهري: «قلت: وأصل هذا الحرف: وقي تقي، ولكن صارت التاء لازمة لهذه الحروف فصارت كالأصلية، ولذلك كتبتها في باب التاء، والتقوى: اسم، وموضع التاء واو، وأصلها وقْوي، وهو فعلى من وقيت»[1].

فالتقوى إذا أصلها من الوقاية، وهي الحفظ والصون[2]، يقال وقاه الله وقاية، أي حفظه، ومنه قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، أي امنعوهم واحفظوهم وصونوهم من الوقوع في ذلك العذاب.

قال ابن فارس: «وقي: الواو والقاف والياء: كلمة واحدة تدل على دفع شيء عن شيء بغيره، ووقيته أَقِيه وقْيًا. والوقاية: ما يقي الشيء، واتق الله: توقّه، أي اجعل بينك وبينه الوقاية، قال النبي ﷺ: «**اتقوا النار ولو**

(١) تهذيب اللغة (٩/ ٢٥٨)، مادة (تقي).

(٢) انظر: لسان العرب (١٥/ ٢٦٥-٢٦٦)، والقاموس المحيط (ص/ ١٧٣١).

**بشق تمرة**»[١]، وكأنه أراد: اجعلوها وقاية بينكم وبينها»[٢].

وقد تطلق التقوى ويراد بها الخوف، فيقال اتقى الشيء أي خافه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البَقَرَة: ٤١]، ويقول في هذا الراغب: «والتقوى جعل النفس في وقاية مما تخاف، هذا تحقيقه، ثم يسمى الخوف تارة تقوى، والتقوى خوفًا، حسب تسمية مقتضَى الشيء بمقتضيه، والمقتضِي بمقتضاه..»[٣].

**المسألة الثانية: التعريف الشرعي.**

التقوى عمل قلبي، ينشأ عن الخوف من الله تعالى والحياء منه والتعظيم له، فيجعل الإنسان يمتثل الأمر ويكتفي بالحلال، ويجتنب النواهي والمحرمات والشهوات، حتى ينتهي به المطاف إلى الكمال البشري.

وقد عرفها العلماء بتعريفات يرجع معظمها إلى ما ينتج عن التقوى من أعمال، ومن التعريفات:

قال الجرجاني: «التقوى هو الاحتراز عن عقوبته، وهو صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك»[٤].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «التقوى: هي الاحتماء عما يضره بفعل ما ينفعه»[٥].

وقال أيضًا: «تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجابًا واستحبابًا، وما نهى عنه تحريمًا وتنزيهًا، وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٣٢)، في كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عُذب، ومسلم في صحيحه (ص/٣٩٢)، في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة.

(٢) معجم قاييس اللغة (ص/١٠٦١).

(٣) المفردات (ص/٨٨١).

(٤) التعريفات (ص/٦٩).

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٤).

(٦) المصدر نفسه (١٠/٦٥٨-٦٥٩)، وانظر: (٣/٤١٦).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه»[١].

فهذه التعريفات تشير إلى أن التقوى اسم جامع يشمل فعل المأمورات وترك المنكرات، ليكون ذلك الفعل أو الترك وقاية للإنسان من الوقوع في ما يخاف ويحذر من عذاب الله وعقابه وسخطه.

والمتتبع لنصوص الكتاب والسنة يجد أن دخول هذه الأمور في التقوى إنما هو من باب التلازم والالتزام، ففعل المأمورات وترك المنكرات من لوازم التقوى، والتقوى كما أسلفنا باعثة عليها وداعية إليها، ولكن التقوى نفسها هي تلك الخصلة الكامنة في القلب والمحركة للجوارح على العمل.

فالتقوى وإن كان أصلها في القلب إلا أن منها تنتج أعمال وعبادات كثيرة، فحقيقتها كما قال ابن القيم: «التقوى: العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمره الله به إيمانًا بالأمر وتصديقا بوعده، ويترك ما نهى عنه إيمانًا بالنهي وخوفًا من وعيده»[٢]، ومصداق ذلك قول طلق بن حبيب[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما قيل له ما التقوى؟ قال: «أن تعمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله، وأن تترك معاصي الله على نور من الله خوف عقاب الله»[٤].

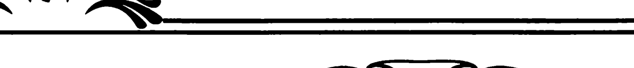
---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٨).

(٢) الرسالة التبوكية (ص/ ٧-٨)، لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) هو طلق ـ بسكون اللام ـ بن حبيب العنزي البصري، وصفه الذهبي بالزاهد الكبير، ومن العلماء العاملين، وأنه من صلحاء التابعين، إلا أنه يرى الإرجاء، كان وفاته ما بين التسعين إلى المائة للهجرة، انظر: طبقات ابن سعد (٩/ ٢٢٦)، والسير (٤/ ٦٠١).

(٤) رواه ابن بطة في الإبانة الكبرى (كتاب الإيمان) (٢/ ٥٩٨)، وقد ذكره شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٣٣)، وابن القيم في الرسالة التبوكية (ص/ ٨)، والذهبي في السير (٤/ ٦٠١).



## المطلب الثاني

## الأدلة من الكتاب والسنة

كان من نعم الله العظام على الأمة المحمدية نعمة الهداية للتقوى، تلك الخصلة المباركة، والمنقبة الهادية المضيئة التي أشرقت بها آي القرآن الكريم وأوضح طرائقها، ودل عليها قولًا وفعلًا وتقريرًا رسولنا المصطفى ﷺ، فهي الخصلة التي تجمع خير الدنيا والآخرة، وهي ذلك الكنز العزيز الذي إن ظفرت به فكم تجد من خير كثير، ورزق كريم، وغنم جسيم، وملك عظيم، فالناظر ببصيرة متفتحة يرى كم عُلق بها في القرآن الكريم وحديث النبي ﷺ من خير، وكم وعد عليها من ثواب، وكم أضيف إليها من سعادة في الدنيا موصولة بسعادة في الآخرة[١].

وفيما يلي أذكر بعض الأساليب لورود التقوى في نصوص الكتاب والسنة:

### المسألة الأولى: التقوى هي وصية الله للأولين والآخرين.

التقوى فيها جماع الخير كله، وهي وصية الله في الأولين والآخرين، وهي خير ما يستفيده الإنسان[٢]، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فهي واجبة على الخلق، وقد أمر الله بها ووصى بها في غير موضع، وذم

---

(١) التقوى في هدي الكتاب والسنة وسير الصالحين (١/ ١٦١)، تأليف: أ.د. محمد أديب الصالح.

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٢٥٠).

من لا يتقي الله، ومن استغنى عن تقواه توعده»(١).

وهي وصية الرسل لأممهم، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الشُّعَرَاء]، وقال أيضًا: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [الشُّعَرَاء]، وقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء].

ولا شك أن الرسل هم أزكى البشر وأنصح الناس لهم، فلو علموا أن هناك خصلة للناس أنفع لهم من التقوى لما عدلوا عنها، فلما أجمعوا عليها بان خطرها وعظيم موقعها وشرفها(٢).

التقوى هي وصية رسولنا ﷺ أيضًا، قال النبي ﷺ لأبي ذر ومعاذ رضي الله عنهما: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»(٣).

ولم يزل السلف الصالح يتواصون بها(٤)، وهذا شيخ الإسلام رحمه الله لما سأله سائل أن يوصيه بما يكون فيه صلاح دينه ودنياه، أجابه رحمه الله قائلًا: «الحمد لله رب العالمين، أما الوصية: فما أعلم وصية أنفع من

---

(١) شرح العمدة (٣/ ٦٢٧).

(٢) التقوى الغاية المنشودة والدرة المفقودة (ص/ ٢٢)، تأليف أحمد فريد.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٥/ ٢٨٤)، والترمذي في سننه (ص/ ٤٥١) في كتاب البر والصلة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/١٥٣)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وكون الحديث على شرط الشيخين رده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٥) لسببين، يراجع للفائدة، وقد حسن الحديث الألباني في المشكاة (٥٠٨٣).

(٤) انظر: جامع العلوم والحكم، ذكر جملة من أقوال السلف في التواصي بعضهم البعض بالتقوى (١/ ٤٠٥-٤٠٧).

وصية الله ورسوله لمن عقلها واتبعها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، ووصى النبي ﷺ معاذا لما بعثه إلى اليمن، فقال: «**يا معاذ: اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»، وكان معاذ رضي الله عنه من النبي ﷺ بمنزلة علية...

ثم إنه ﷺ وصاه هذه الوصية، فعلم أنها جامعة، وهي كذلك لمن عقلها مع أنها تفسير الوصية القرآنية.

أما بيان جمعها فلأن العبد عليه حقان:

حق لله عز وجل، وحق لعباده. ثم الحق الذي عليه لا بد أن يخل ببعضه أحيانا: إما بترك مأمور به، أو فعل منهي عنه، فقال النبي ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت**» وهذه كلمة جامعة، وفي قوله «**حيثما كنت**» تحقيق لحاجته إلى التقوى في السر والعلانية. ثم قال: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**» فإن الطبيب متى تناول المريض شيئًا مضرًّا أمره بما يصلحه، والذنب للعبد كأنه أمر حتم، فالكيس هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو السيئات. وإنما قدم في لفظ الحديث «**السيئة**» وإن كانت مفعولة، لأن المقصود هنا محوها لا فعل الحسنة...

وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات، فإنه أبلغ في المحو، والذنوب يزول موجبها بأشياء:

**أحدها**: التوبة.

**والثاني**: الاستغفار من غير توبة، فإن الله تعالى قد يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب، فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال.

**الثالث**: الأعمال الصالحة المكفرة: إما الكفارات المقدرة.. وإما الكفارات المطلقة...

فلما قضى بهاتين الكلمتين حق الله: من عمل الصالح وإصلاح الفاسد، قال: «**وخالق الناس بخلق حسن**» وهو حق الناس.

وجماع الخلق الحسن مع الناس: أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام، والدعاء له والاستغفار والثناء عليه، والزيارة له، وتعطي من حرمك من التعليم والمنفعة والمال، وتعفو عمن ظلمك في دم أو مال أو عرض، وبعض هذا واجب وبعضه مستحب.

وأما الخلق العظيم الذي وصف الله به محمدًا ﷺ فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقًا، هكذا قال مجاهد[(١)] وغيره، وهو تأويل القرآن كما قالت عائشة رضي الله عنها: «**كان خلقه القرآن**»[(٢)]، وحقيقته المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس وانشراح صدر.

وأما بيان أن هذا كله في وصية الله، فهو أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجابًا واستحبابًا، وما نهى عنه تحريمًا وتنزيهًا، وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد.

لكن لما كان تارة يعني بالتقوى خشية العذاب المقتضية للانكفاف عن المحارم جاء مفسرًا في حديث معاذ. . . .

وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) هو مجاهد بن جبر الإمام، شيخ القراء والمفسرين، أبو الحجاج المكي، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، روى عن ابن عباس، فأكثر وأطاب، وعنه أخذ القرآن، والتفسير، والفقه، وعن أبي هريرة، وعائشة، وسعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وأبي سعيد الخدري، وعدة. قيل توفي سنة ١٠٠هـ، وقيل ١٠٢هـ وقيل غير ذلك. انظر: حلية الأولياء (٣/ ٢٧٩)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٤٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ٢٩٣)، في كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض.

«**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»[(١)] فجعل كمال الإيمان في كمال حسن الخلق، ومعلوم أن الإيمان كله تقوى الله.

وتفصيل أصول التقوى وفروعها لا يحتمله هذا الموضع، فإنها الدين كله، لكن ينبوع الخير وأصله إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة]»[(٢)].

فيشرح لنا شيخ الإسلام بكلام موجز وصية الله لخلقه، وأن تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجابًا واستحبابًا، وما نهى عنه تحريمًا وتنزيهًا، وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد، والتقوى بهذا المعنى هو الدين كله، وهو الإيمان كله،

لكن لما كان تارة يعني بالتقوى خشية العذاب المقتضية للانكفاف عن المحارم جاء مفسرًا في حديث معاذ.

**◇ المسألة الثانية: كون التقوى باعثة على الأعمال وشرطا لقبولها، ورادعة عن الأعمال السيئة.**

إن الناظر في النصوص الشرعية يجد دلالة واضحة على أن التقوى هي الباعثة على الأعمال الصالحة، بل هي شرط في قبول تلك الأعمال، وهي كذلك رادعة عن السيئات.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣٥﴾ [المَائدة].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢/ ٣٦٤)، وأبو داود في سننه (ص/ ٨٤٦)، في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، والترمذي في سننه (ص/ ٢٧٦)، في كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٦٥٣-٦٦٠)، باختصار.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة].

فالمتأمل في هذه النصوص يلاحظ أن الله مهّد لهذا الأمر والنهي بالأمر بالتقوى، كما ربط بالإيمان للدلالة على أن التقوى والإيمان إذا تأصلا في الإنسان فإنهما يبعثان على فعل المأمور ويزجران عن ارتكاب المحظور، وترك المأمور وفعل المحظور إنما يحصلان عن قسوة في القلب وغلظة في النفس لا تتفقان مع نور الإيمان وضياء التقوى في الفؤاد[(١)].

فالتقوى لسيت الباعثة على الحسنات والرادعة عن السيئات فقط، بل هي أيضًا الاحتماء عما يضره بفعل ما ينفعه، فكما أن الواجب الاحتماء عن سبب مرض الجسم قبل حصوله، وإزالته بعد حصوله، فهكذا أمراض القلوب يحتاج فيها إلى حفظ الصحة ابتداء وإلى إعادتها - بعد أن عرض له المرض - دوامًا، فحفظ صحتها بتقوى الله الشاملة لفعل جميع ما أمر، وترك جميع ما نهى عنه وزجر، وإزالة مرضها - بعد أن عرض له - بالتوبة والاستغفار[(٢)].

ثم إن الله لا يتقبل الأعمال إلا من المتقين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فالتقوى شرط لقبول العمل أي عمل كان، وقد ضل في فهم هذه الآية طائفتان من الناس، فعلى قول الخوارج والمعتزلة لا تقبل حسنة إلا ممن اتقاه مطلقًا فلم يأت كبيرة، فصاحب الكبيرة عندهم ليس من المتقين، وعند المرجئة إنما يتقبل ممن اتقى الشرك فجعلوا أهل الكبائر داخلين

---

(١) أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٢١٧).

(٢) انظر مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٤-١٤٥).

في اسم المتقين، وعند أهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعمله خالصًا لله موافقًا لأمر الله، فمن اتقاه في عمل تقبله منه وإن كان عاصيًا في غيره، ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه وإن كان مطيعا في غيره[١].

وليس من شرط المتقين أن لا يقع منهم ذنب، ولا أن يكونوا معصومين من الخطأ والذنوب[٢]، لكن من صفات المتقين إنهم إذا طاف بقلوبهم طائف من الشيطان يتذكرون ما علموه قبل ذلك فيزول الطيف ويبصرون الحق الذي كان معلومًا،كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف]، قال سعيد ابن جبير[٣]: هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله فيكظم الغيظ، وقال مجاهد بن جبر: هو الرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه[٤].

◇ المسألة الثالثة: كون التقوى سببًا في تحصيل كثير من المصالح الدنيوية.

ومما يجدر الإشارة إليه أن العبد يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه وجوارحه، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح، قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ [الحَجّ: ٣٧]، فتقوى القلوب هي التي تنال الله[٥].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٢٢)، و (٧/ ٤٩٤-٤٩٥).

(٢) انظر: منهاج السنة (٧/ ٨٢).

(٣) هو سعيد بن جبير الأسدي، بالولاء، الكوفي، أبو عبد الله: تابعي، كان أعلمهم على الإطلاق. وهو حبشي الأصل. أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر. ثم كان ابن عباس، إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه، قال: أتسألونني وفيكم ابن أم دهماء؟ قتل على يد الحجاج بواسط. قال الإمام أحمد: قتل الحجاج سعيدا وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه. ولد سنة ٤٥ هـ. وكان مقتله سنة ٩٥هـ. انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٣٧١)، والسير (٣٢١/٤)، والأعلام (٣/ ٩٣).

(٤) انظر: الإيمان الكبير (ص/ ٢٩)، ومجموع الفتاوى (١٦/ ٣٤٧).

(٥) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٦١).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا، والله لا يناله الدم المهراق ولا اللحم المأكول والتصدق به، لكن يناله تقوى القلوب»[(١)].

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الناظر في النصوص الشرعية يجد أن الله علق حصول كثير من المصالح الدنيوية بالتقوى، كما أن عدم التقوى حرمان من تلك المنافع،

ومن تلك المنافع أن الله بسبب التقوى يجعل للعبد المتقي المخرج من كل ضيق، ويرزقه من حيث لا يحتسب، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقد بين فيها أن المتقي يدفع الله عنه المضرة بما يجعله له من المخرج، ويجلب له من المنفعة بما ييسره له من الرزق، والرزق اسم لكل ما يغتذى به الإنسان، وذلك يعم رزق الدنيا ورزق الآخرة»[(٢)].

وقال أيضًا: «ولهذا قال بعض السلف: ما احتاج تقي قط، يقول: إن الله ضمن للمتقين أن يجعل لهم مخرجًا مما يضيق على الناس، وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون، فيدفع عنهم ما يضرهم ويجلب لهم ما يحتاجون إليه، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن في التقوى خللا فليستغفر الله وليتب إليه»[(٣)].

ومن تلك المنافع أيضًا أن الله يعطي للمتقي العلم النافع، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فالتقوى طريق العلم، بل التقوى وتعليم الله متلازمان، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد شاع في لسان العامة أن قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، من الباب الأول،

---

(١) منهاج السنة (٦/ ٢٢٢).
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٢).
(٣) المصدر نفسه (٨/ ٥٢٦).

حيث يستدلون بذلك على أن التقوى سبب تعليم الله، وأكثر الفضلاء يطعنون في هذه الدلالة، لأنه لم يربط الفعل الثاني بالأول ربط الجزاء بالشرط فلم يقل، واتقوا الله ويعلمكم، ولا قال فيعلمكم، وإنما أتى بواو العطف وليس من العطف ما يقتضي أن الأول سبب الثاني، وقد يقال العطف قد يتضمن معنى الاقتران والتلازم، كما يقال: زرني وأزورك... فقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] قد يكون من هذا الباب فكل من تعليم الرب وتقوى العبد يقارب الآخر ويلازمه ويقتضيه، فمتى علمه الله العلم النافع اقترن به التقوى بحسب ذلك ومتى اتقاه زاده من العلم وهلم جرا»[(١)].

ومن تلك المنافع أيضًا أن الله يورث الأرض لمن اتقى وأن العاقبة للمتقين، قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف]، وقد وردت الآية في سياق نصيحة موسى عليه السلام لقومه، وإخباره لهم بوعد الله سبحانه بأن يورث الأرض لهم، وأن لهم العاقبة إن هم اتقوا، قال شيخ الإسلام رحمه الله مبينًا أن العاقبة للتقوى: «وذلك لأن المتقين بمنزلة من أكل الطعام النافع واتقى الأطعمة المؤذية، فصح جسمه وكانت عاقبته سليمة، وغير المتقي بمنزلة من خلط من الأطعمة، فإنه وإن اغتذى بها لكن تلك التخاليط قد تورثه أمراضا، إما مؤذية، وإما مهلكة...»[(٢)].

فإن كانت العاقبة للمتقين، فإن حسن العاقبة تكون في هذه الدنيا بحصول كل ما فيه مصلحة وإن كان يظن أن فيه مضرة له، أما حسن العاقبة في الآخرة فتكون بدخول المتقين الجتة والنجاة من النار.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٧٧-١٧٨).

(٢) قاله شيخ الإسلام في معرض بيان أن التقوى ليست ترك المحظورات فقط، بل هي فعل المأمور وترك المحظور، ومن فعلهما كان بمنزلة من أكل الطعام النافع واتقى الأطعمة المؤذية، فصح جسمه وكانت عاقبته سليمة (٢٠/ ١٣٦-١٣٧).

◇ المسألة الرابعة: كون التقوى سببًا لمغفرة الذنوب والنجاة من النار.

إن من سعة فضل الله وكرمه، أنه تبارك وتعالى يغفر للمتقين ما بدر منهم من سيئات وذنوب، و يجعل لهم في قلوبهم نورا يفرقون به بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال]، فقد رتب فيه ﷻ على تقواه عدة أمور، وهي:

١ ـ أنه يجعل لصاحبه فرقانا، وقد اختلفت عبارات السلف في معناه، ومن أشمل ما قيل فيه قول محمد بن إسحاق[(١)]: أنه الفصل بين الحق والباطل، وقد أورد ابن كثير رحمه الله هذا القول وعلق عليه بقوله: «وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم، وهو يستلزم ذلك كله، فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره وُفّق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصرته ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادة القيامة...»[(٢)].

٢ ـ تكفير السيئآت.

٣ ـ المغفرة، وأغلب ما تضاف المغفرة في القرآن الكريم إلى الذنوب، والفرق بين تكفير السيئآت ومغفرة الذنوب: أن التكفير هو المحو، والمغفرة هي الوقاية من شر الذنوب[(٣)]، وقيل أن السيئآت هي الصغائر، والذنوب: الكبائر، وقيل غير ذلك[(٤)].

---

(١) هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء المدني، من أقدم مؤرخي العرب، من أهل المدينة، له السيرة النبوية رواها عنه ابن هشام، وكتاب الخلفاء، وكتاب المبدأ، وكان قدريا من حفاظ الحديث، وسكن بغداد وتوفي فيها عام ١٥١هـ، انظر: السير (٣٣/٧) والأعلام (٢٨/٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٣٩٩/٢)، وانظر: الفرقان بين الحق والباطل (ص/٦-٧) لشيخ الإسلام.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٣١٧/١٠).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣٩٩/٢)، ومدارج السالكين (٢٣٤/١).

فالآية إذا دليل على سعة فضل الله ومغفرته، وأنه سبحانه يغفر للمتقين ما صدر منهم من سيئآت وذنوب، ويجعل لهم في قلوبهم نورا يبصرون به بين الحق والباطل.

وإذا انتقلنا إلى عالم الآخرة لنرى أن التقوى سبب للنجاة من النار، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم]، فيه بيان نعمة الله على المتقين: أنهم مع الورود والعبور عليها وسقوط غيرهم فيها نجوا منها، والنجاة من الشر لا تستلزم حصوله بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه أعداؤه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال: نجاه الله منهم...»[1].

ونرى أيضًا أن الجنة التي عرضها السماوات والأرض موروثة للمتقين وأعدت لهم، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ٦٣]، قال السعدي رحمه الله: «فتلك الجنة التي وصفناها بما ذكر ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم]، أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه، ولا يبغون عنه حولا، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران]»[2].

ونخلص من هذه النصوص إلى أن التقوى من أهم الأسباب الموصلة إلى العاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة، إذ هي سبب لامتثال الأوامر واجتناب النواهي، وهما سبب كل خير في الدنيا والآخرة.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٧/٤٩-٥٠).

(٢) تفسير السعدي (ص/٤٩٧).

## المطلب الثالث

## لوازم التقوى

سبق أن قلنا أن التقوى محلها القلب، لكن هذه الخصلة القلبية بحاجة إلى علامات ظاهرة ـ كشأن سائر الأعمال القلبية ـ تكون على الصدق فيه، فصدق التقوى لا بد أن ينشأ منه العمل الصالح، واجتناب المعاصي، وتعظيم حرمات الله.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج].

وفي هاتين الآيتين وأمثالهما من نصوص الكتاب والسنة تنبيه إلى أن التقوى الصادقة في القلب لا بد أن تبعث الجوارح على إتيان ما تستطيع من أعمال البر الواجبة والمستحبة، ولا بد أن تبعثها على تعظيم شعائر الله.

الآية الأولى توضح أن البر ليس مجرد الصورة الظاهرة المتمثلة في تولية الوجه قبل المشرق والمغرب للصلاة أو للدعاء دون أن يكون هناك أي أمر آخر[1]، ولكن البر هو الجمع بين خصال الخير الواجبة والمستحبة،

---

(١) سياق الآية في اليهود والنصارى ـ كما رجحه إمام المفسرين ابن جرير رحمه الله ـ ولكنها عامة في معناها كما ذكر كثير من المفسرين، انظر تفسير الطبري (٣/ ٣٣٦)، وتفسير ابن كثير (١/ ٢٧١).

وقد عددها الله ﷻ في هذه الآية، ثم ختمها بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، أي هؤلاء الذين أتوا بهذه الأعمال هم الصادقون في إيمانهم، وهم المتقون حقا، فمن لم يأت بهذه الأعمال فليس بصادق في دعواه الإيمان، ولا بتقي صادق في تقواه، إذ الصدق في التقوى مستلزم للإتيان بخصال البر[1].

وينبغي أن أشير إلى مسألة: وهي أنه (قد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات كما قال أبو هريرة وسئل عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه، أو جاوزته، أو قصرت عنه، قال: ذلك التقوى)[2]،

ولكن المقرر لدى أهل العلم أن التقوى هو اسم يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجابًا واستحبابًا، ونهى عنه تحريمًا وتنزيهًا[3].

ولمزيد البيان لهذه المسألة أورد شيخ الإسلام ثلاثة أمور:

**الأمر الأول:** أن آية البر التي سبق ذكرها، والآيات في بداية البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة]، إلى آخر الآية الخامسة، وصف المتقين بفعل المأمور به من الإيمان والعمل الصالح من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة... أي عامة هذه الأمور فعل مأمور به.

**الأمر الثاني:** إنه حيث عبر في القرآن بالتقوى عن ترك المنهي، مثل قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٢]، فلا يكون ذلك إلا مقرونًا بفعل المأمور به كما ذكر في هذه الآية البر.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٣٢) فما بعد.
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٠٢).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٥٨-٦٥٩).

**الأمر الثالث:** قد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات، لأن أكثر بني آدم قد يفعل بعض المأمور به، ولا يترك المنهي عنه إلا الصديقون، كما قال بعض السلف: لأن المأمور به له مقتض في النفس، أما ترك المنهي عنه إلى خلاف الهوى ومجاهدة النفس فهو أصعب وأشق، فقلّ أهله، لكن لا يمكن أحدًا أن يترك المنهي عنه إلا مع فعل المأمور به[(١)].

إذا إن التقوى لا بد من مصاحبتها أمرين اثنين هما من لوازمها:

١ ـ العمل الصالح.

٢ ـ اجتناب المحرمات، كما قال شيخ الإسلام: «فتقواهم تحفظ لهم حسناتهم التي أمروا بها، وتمنعهم من السيئات التي تضرهم»[(٢)]، بالإضافة إلى اللازم الثالث للتقوى:

٣ ـ تعظيم شعائر الله التي جعلها الله من علامة صدق التقوى في القلوب، لأن التقوى الصادقة مبعثها الخوف من الله ﷻ، والخوف من الله مستلزم لتعظيمه وتعظيم ما أمر به، وكذلك التقوى مستلزمة لتعظيم ما أمر الله بتعظيمه، والتعظيم يتضمن الإتيان به على الوجه المطلوب مع اجتناب ما نهي عنه فيه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾ [الحج][(٣)].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٣٢-١٣٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٣٦).

(٣) انظر: تفسير السعدي (ص/ ٥٣٨)، وأعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/ ٢٢٩).



## المطلب الرابع
## ثمرات التقوى

فإذا تبين لنا أن التقوى هي حرص شديد على رضا الله ﷻ، وحذر شديد من غضبه بالمسارعة إلى طاعة أوامره واجتناب نواهيه، وإحسان عبادته، وتحري كل ما يرضيه، فلا شك أن لها تأثير قويًّا في زيادة الإيمان ونقصانه، وفي تزكية القلوب وإحيائها وعمرانها، فكلما كان العبد لله أتقى، كان ما ينتج من العمل أكثر، وكان إيمانه في زيادة مستمرة، وكلما تجرأ على الله وضعفت التقوى في قلبه كلما كان إيمانه في نقصان إلى أن يحرم ثمرات الإيمان.

فالتقوى من مستلزمات الإيمان الصحيح، والإيمان الصحيح والأعمال الصالحة الناتجة عنها من علامات التقوى، فالتقوى والإيمان إذا متلازمان.

ثم إن أهل الإيمان والتقوى في الحقيقة هم أولياء الله، وليس هؤلاء الذين يمشون في البحر ويطيرون في الهواء...، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا كان العبد لا يكون وليا لله إلا إذا كان مؤمنًا تقيا لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

وفي صحيح البخاري الحديث المشهور وقد تقدم، يقول الله تبارك وتعالى فيه: «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٢٧)، في كتاب الرقاق، باب التواضع.

ولا يكون مؤمنًا تقيا حتى يتقرب إلى الله بالفرائض فيكون من الأبرار أهل اليمين، ثم بعد ذلك لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يكون من السابقين المقربين. . .فمن لم يتقرب إلى الله لا بفعل الحسنات ولا بترك السيئآت لم يكن من أولياء الله»[(١)].

فالتقوى هي آية الإيمان الصحيح والعقل السليم، فصاحبها من أولياء الله المقربين، فبها يكون التفاضل بين الخلق عند رب العالمين، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات]، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنما يفضل الإنسان بإيمانه وتقواه، لا بآبائه، ولو كانوا من بني هاشم أهل بيت النبي ﷺ، فإن الله خلق الجنة لمن أطاعه وإن كان عبدًا حبشيًّا، وخلق النار لمن عصاه ولو كان شريفًا قرشيًّا، وقد قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أبيض، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، الناس من آدم وآدم من تراب**»[(٢)]، وفي الصحيحين عنه أنه قال لقبيلة قريبة منه: «**إن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي، إنما وليي الله وصالح المؤمنين**»[(٣)]، فأخبر النبي ﷺ أن موالاته ليست بالقرابة والنسب، بل

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص/ ١٢١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨/ ٤٧٩)، والبيهقي في الشعب (٧/ ١٣٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧٠٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٠٤٨)، في كتاب الأدب، باب تُبلُّ الرحِم ببلالها، ومسلم في صحيحه (ص/ ١١٥)، في كتاب الإيمان، باب موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم.

بالإيمان والتقوى»[١].

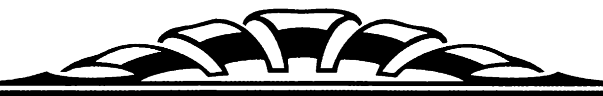
هذه بعض الفوائد الإيمانية المرتبة على التقوى، وبالإضافة إلى ما تقدم من ذكر ثمرات التقوى في المطلب الثاني، نخلص إلى أن التقوى هدف عام، من أجله بعث الرسل إلى أقوامهم، وكان من أجله التشريعات والأوامر والوصايا، وقد اتفقت دعوتهم لأقوامهم على «ألا تتقون»، وذلك أن التقوى إذا تحققت لديهم ووجدت في قلوبهم لم يحتاجوا بعدها إلى رقيب أو حسيب، فتقواهم حاجزة لهم عن كل شر، دافعة لكل خير، ولهذا نجد أوامر الرسل كلها منصبة عليها، وعلى طاعة الله[٢].

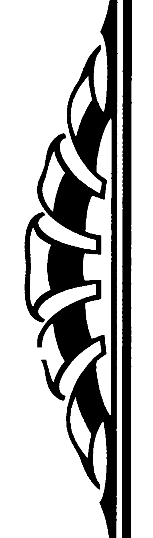
فأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجعلنا من أهلها ويؤتي نفوسنا تقواها، فإنه خير من زكاها.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٤٣).

(٢) التقوى، دراسة تفسيرية، لغوية، إحصائية (ص/١٨-١٩)، تأليف: أحمد عبده عوض.





# المبحث الخامس عشر:

# الزهد

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أقسام الزهد.

المطلب الرابع: أسباب الزهد وعلاماته.

المطلب الخامس: ثمرات الزهد.



## المطلب الأول

## التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

الزهد في اللغة يتجاذبه معنيان: القلة، وضد الرغبة.

يقال للشيء القليل، زهيد، إما لقلته، أو عدم رغبة الناس فيه، لأن طبع الناس النفور من القليل، وحب الكثير.

قال ابن فارس: «الزاء والهاء والدال أصل يدل على قلة الشيء، والزهيد: الشيء القليل، وهو مُزهِد: قليل المال»(١).

وقال الفيروزآبادي: «زهد فيه، كمنع وسمع وكرم، زهدا وهي في الدنيا، والزهد في الدين: ضد الرغبة...، والزهيد: القليل»(٢).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام ـ فيما نقله عنه الأزهري ـ: «قال الأصمعي(٣) وأبو عمرو(٤): المزهد: القليل الشيء، وإنما سمي مزهدًا لأن ما عنده من قلته يزهد فيه»(٥).

---

(١) معجم مقاييس اللغة (ص/ ٤٤١).

(٢) القاموس المحيط (ص/ ٣٦٥).

(٣) هو عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي البصري، أبو سعيد الأصمعي، الراوية المشهور، الامام العلامة، حجة الأدب، لسان العرب، توفي سنة ٢١٥ هـ، انظر: الجرح والتعديل (٥/ ٣٦٣)، والسير (١٠/ ١٧٥).

(٤) هو زبان بن العلاء: عمار التميمي المازني، البصري، أبو عمر، من أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة المشهورين، توفي سنة ١٥٤ هـ، انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٤٦٦)، والسير (٦/ ٤٠٧).

(٥) تهذيب اللغة (٦/ ١٤٤).

ومنه قول الشاعر[1]:

فلن يطلبوا سرها للغنى ولن يسلموها لإزهادها[2]

وقال الجوهري: «الزهد: خلاف الرغبة، تقول: زهِد في الشيء، وعن الشيء، يزهد زهدا وزهادة، وزهَد يزهَد لغة فيه، وفلان: يتزهد: أي يتعبد، والتزهيد في الشيء وعن الشيء: خلاف الترغيب فيه، والمزهد: القليل المال، . . . والزهيد: القليل، يقال: رجل زهيد الأكل، وواد زهيد: قليل الأخذ للماء»[3].

◇ المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

تعددت عبارات السلف في تعريف الزهد في الدنيا، وكلها تدور على عدم الرغبة فيها وخلو القلب من التعلق بها:

قال الإمام أحمد: «الزهد في الدنيا قصر الأمل».

وقال عبد الواحد بن زيد: «الزهد في الدنيا والدرهم».

وقال أبو سليمان الداراني: «الزهد فيما يشغل عن الله»[4].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «هو ترك ما لا ينفع، إما لانتفاء نفعه، أو لكونه مرجوحا، لأنه مفوِّت لما هو أنفع منه، أو محصل لما يربو ضرره على نفعه، وأما المنافع الخالصة، أو الراجحة فالزهد فيها حمق»[5].

---

(١) البيت للأعشى كما في معجم مقاييس اللغة (ص/ ٤٤١).

(٢) أي لا يسلمون هذه المرأة - التي يمدح الشاعر جيرانها - إلى من يريد هتك حرمتها لقلة مالها، بل يصونونها رغم ذلك (انظر تهذيب اللغة).

(٣) الصحاح (٢/ ٦٨).

(٤) انظر: هذه التعريفات في مدارج السالكين (٢/ ٩).

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥١١)، و (١٠/ ٦١٥).

وقال أيضًا: «هو ترك كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة، وثقة القلب بما عند الله»[(١)].

وقال ابن قدامة: «هو انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، شرط المرغوب عنه أن يكون مرغوبًا فيه»[(٢)].

وهذه التعريفات صحيحة، وكل من أصحابها نظر إلى جانب من جوانب الزهد فشرحه، ولعل التعريفات الثلاثة الأخيرة أشملها، لأنها تغطي غيرها من التعريفات، وأي تعريف آخر للزهد يمكن أن يندرج فيه إذا كان صحيحًا، لأن الزهد ترك، فترك ما ينفع العبد في الآخرة ليس بزهد، بل هو حمق كما قال شيخ الإسلام، وأما إذا ترك العبد ما ينفعه في الدنيا من أجل أمر آخر أكثر منه نفعًا[(٣)] فهذا هو الزهد المشروع، أما ترك ما ينفع العبد في الدينا لغير ذلك فليس بزهد ألبتة، لأن الزهد ليس مجرد ترك، بل هو ترك لما هو خير منه[(٤)].

---

(١) المصدر نفسه (١٠/ ٢١)، و (١٠/ ٦٤١).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص/ ٣٢٢).

(٣) وهو النفع الأخروي الذي يحصل للمؤمنين في الآخرة.

(٤) انظر: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/ ٤٤٧).

## المطلب الثاني

## الأدلة من الكتاب والسنة

فإذا تقرر لدينا أن المفهوم الصحيح للزهد هو إيثار الحياة الأخروية على الحياة الدنيوية، وليس معنى الزهد ترك الدنيا بالكلية، وإذا تبين لنا أيضًا أن الحياة الدنيا عبارة عن مزرعة للآخرة ومطية لها، وأن مثل بقاء الإنسان فيها مثل راكب قال في ظل شجرة ثم راح، لا شك أن هذا سيورث للعبد الزهد في الدنيا والزجر عن التشاغل بها إلى حد لا يفضي إلى إهمال الآخرة، والتواني في طلبها.

فإن الدنيا دار سفر لا دار إقامة، ومنزل عبور لا موطن حبور، فينبغي للمؤمن أن يكون فيها على جناح سفر، يهيئ زاده ومتاعه للرحيل المحتوم، فالسعيد من اتخذ لهذا السفر زادًا يبلغه إلى رضوان الله تعالى والفوز بالجنة والنجاة من النار.

والناظر في نصوص الكتاب والسنة يجد أن الله رغب في الزهد في الدينا ببيان حقارتها وقلة وقتها، وبالترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها قال الإمام ابن القيم: «والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والإخبار بخستها وقلتها، وانقطاعها وسرعة فنائها، والترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها»[1]، وبيان ذلك كالتالي:

(١) مدارج السالكين (١/٨).

المسألة الأولى: الترغيب في الزهد ببيان حقارة الدنيا وقلة وقتها[١]:

ولدى استعراض ما ورد بشأن الدنيا في الكتاب والسنة نجد أن هناك آيات كثيرة تبين حقارة الدنيا ومحدوديتها بالنسبة إلى الآخرة، وتبين أنها لا تستحق أن يعطيها العبد حياته كلها، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عِمرَان]، فيخبر الله أنه زين للناس حب الشهوات الدنيوية، وخص هذه الأمور المذكورة لأنها أعظم شهوات الدنيا، وغيرها تبع لها، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف]، فلما زينت لهم هذه المذكورات، تعلقت بها نفوسهم ومالت إليها قلوبهم، وانقسموا حسب الواقع إلى قسمين:

**القسم الأول:** جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها، ولا يبالون على أي وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زادا لهم إلى دار الشقاء والعناء والعذاب.

**والقسم الثاني:** عرفوا المقصود منها وأن الله جعلها ابتلاء وامتحانا لعباده، ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته على لذاته وشهواته، فجعلوها وسيلة لهم وطريقا يتزودون منها لآخرتهم ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته، قد صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، فجعلوها معبرًا إلى الدار الآخرة ومتجرًا يرجون بها الفوائد الفاخرة، فهؤلاء صارت لهم زادًا إلى ربهم[٢].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٦١٧).

(٢) تفسير السعدي (ص/ ١٢٤).

فسواء أكنت من القسم الأول أو الثاني ـ وإن كان المطلوب أن تكون من الثاني ـ، فكل هذه الملذات والنعم الدنيوية فانية وزائلة، وأن ما عند الله من الجزاء والثواب خير وأحسن وهو باق ودائم، ولهذا ختم الآية: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد]، يخبر الله عن حقيقة الدنيا وما هي عليها، ويبين غايتها وغاية أهلها، فذكر خمسة أشياء: لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر بينهم، وتكاثر في الأموال والأولاد، ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة بمثل المطر الذي يأتي على الزرع، فيعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص الناس عليها وأميلهم إليها، ثم يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرًّا بعد ما كان خضرًا نضرًا، ثم يكون بعد ذلك كله حطاما أي يصير يبسا متحطما، فهكذا الحياة الدنيا.

ولما كان هذا المثل دالًّا على زوال الدنيا وانقطاعها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير فقال: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد][(١)]، فأيهما تريد: تريد الآخرة، فيها عذاب شديد لمن آثر الدنيا على الآخرة، أم تريد الآخرة، فيها مغفرة ورضوان لمن عرف الدنيا، وسعى للآخرة سعيها؟

ثم ختم هذه الآية والتي قبلها بأن الدنيا متاع أي شيء للمتعة والزينة

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٩).

الوقتية فقط، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النِّسَاء: ٧٧]، والقلة هنا عددية ونوعية، فهو قليل الوقت بالنسبة للآخرة، وقليل الأهميةكذلك، فلا ينبغي والحال هذا أن يغتر بها، ويركن إليها، ويميل إليها، ويترك الآخرة التي هي دار القرار.

وقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٦]، يخبر الله أن ما عندنا ينفد، أي يزول، وما عند الله فهو الباقي الذي لا ينقطع ولا يفنى، فأيهما إذا يجب على العاقل الاحتفاء به، أهو الدائم الذي لا يزول، أم الفاني الذاهب الذي لا يبقى إلا لفترة محدودة قليلة ثم يزول إلى الأبد، يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذا الحث والترغيب على الزهد في الدنيا، خصوصا الزهد المتعين، وهو الزهد فيما يكون ضررا على العبد، ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه، وتقديمه على حق الله، فإن هذا الزهد واجب، ومن الدواعي للزهد أن يقابل العبد لذات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة، فإنه يجد من الفرق والتفاوت ما يدعوه إلى إيثار أعلى الأمرين.

وليس الزهد الممدوح هو الانقطاع للعبادات القاصرة كالصلاة والصيام والذكر ونحوها، بل لا يكون العبد زاهدًا زهدًا صحيحًا حتى يقوم بما يقدر عليه من الأوامر الشرعية الظاهرة والباطنة، ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه بالقول والفعل، فالزهد الحقيقي هو الزهد فيما لا ينفع في الدين والدنيا والرغبة والسعي في كل ما ينفع»[1].

وأما الأحاديث فتؤيد ما دلت عليه الآيات من حقارة الدنيا وقلة أهميتها، وتدعو إلى الزهد فيها، وقد ثبت في صحيح مسلم[2] عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

(١) تفسير السعدي (ص/ ٤٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١١٨٧)، في كتاب الزهد والرقائق.

أن رسول الله ﷺ مر بالسوق داخلًا من بعض العالية، والناس كنفته، فمر بَجْدْيٍ[١] أَسَكّ[٢] ميت، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «**أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟**»، فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «**أتحبون أنه لكم؟**»، قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا فيه، لأنه أسك فكيف وهو ميت؟ فقال: «**فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم**»، فهذا جدي لو كان حيًّا لا يساوي شيئًا وما باله وهو ميت، ومع ذلك فالدنيا أهون وأحقر عند الله تعالى من هذا الجدي الأسك الميت، فهي ليست بشيء عند الله.

ثم يبين النبي ﷺ أنه: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء**»[٣]، أي إذ لو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة لما مكّن الكفار من العيش فيها أو التمتع منها ولو بشربة ماء.

وزيادة إيضاح يضرب رسول الله ﷺ مثلا آخر يبين حقارة الدنيا وقلة وقتها فيقول ﷺ: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع**»[٤]، أي نسبة الدنيا إلى الآخرة كنسبة ما ينقص من البحر ويتعلق بالإصبع إلى ماء البحر بكامله، ولايشك عاقل في أن لا مناسبة بينهما، وأن لو فرضت مناسبة فإن هذه النسبة لا تستحق أن يلتفت إليها.

---

(١) الذكر من أولاد المعز، انظر: لسان العرب (٣/ ١٠٠).

(٢) صغير الأذنين، أو مقطوع الأذنين، انظر: غريب الحديث لابن الجوزي (١/ ٥٩٨)، والنهاية في غريب الحديث (٢/ ٣٨٤).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (ص/ ٥٢٤)، في كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله ﷻ، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ص/ ٦٨٤)، في كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، وصحح الحديث الألباني في الصحيحة (٩٤٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١١٤٦)، في كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة.

ونخلص مما سبق أن الدنيا معبر إلى الآخرة، ووسيلة من وسائل الحصول عليها، وأن على العاقل أن لا ينشغل بالوسيلة عن الغاية، وأن يركن إلى الدنيا وملذاتها، لأنها وإن كانت حلوة خضرة فمصيرها الزوال، وهي دار عمل وابتلاء، والآخرة هي دار القرار.

**المسألة الثانية: الترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها.**

إن من أساليب القرآن والسنة في ترغيب الناس في الزهد في الدنيا، هو الترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها، لكي يقبلوا عليها ويستعدوا لها، وقد رغب الله في الآخرة ببيان أن متاع الدنيا قليل وأن الآخرة خير لمن اتقى، قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النِّسَاء: ٧٧].

نعم، الآخرة خير من الدنيا، في ذاتها، ولذاتها، وزمانها، فذاتها كما ذكر النبي ﷺ: «**موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولغدوة في سبيل الله، أو روحة خير من الدنيا وما فيها**»[(١)]، ولذاتها صافية عن الكدرات، بل كل ما خطر بالبال، أو دار في الفكر من تصور لذة، فلذة الجنة فوق ذلك كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السَّجدَة]، وقال الله على لسان نبيه: «**أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[(٢)(٣)].

وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١١٤)، في كتاب الرقاق، باب مثل الدنيا في الآخرة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٨٤٠)، في كتاب التفسير، باب سورة السجدة، ومسلم في صحيحه (ص/١١٣٦)، في أول كتاب الجنة.

(٣) تفسير السعدي (ص/١٨٨).

[الأعلى]، والآخرة خير من الدنيا في كل وصف مطلوب، وأبقى لكونها دار خلد وبقاء وصفاء، والدنيا دار فناء، فالمؤمن العاقل لا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع لذة ساعة براحة الأبد، فحب الدنيا وإيثارها على الآخرة رأس كل خطيئة(١).

ومن أوجه الترغيب في الآخرة، هو مدح الله لمن عمل لها، وذم من لا يستعد لها(٢) قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى]، وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء]، ففي هذه الآيات يخبر الله عن الذين يريدون الدنيا العاجلة المنقضية الزائلة، فعملوا لها وسعوا، فإن الله يعجل لهم من حطامها ومتاعها ما يشاء ويريد، لكنهم في الآخرة ما لهم نصيب من الجنة ونعيمها، بل استحقوا النار وجحيمها.

بينما يخبرنا الله عن الذين يريدون الآخرة وآثروها على الدنيا، فعملوا لها وسعوا على قدر إمكانهم أن لهم جزاء مضاعفا ومُنَمَّى، ومع هذا فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا.

وبعد كل هذا، ليس غرضنا من سردنا لهذه النصوص ـ في ذم الدنيا ومن عمل لها ـ ذم الدنيا على إطلاقها، بل المقصود بيان أن لا يشغل بها، وأن لا نجعلها أكبر همنا ومبلغ علمنا، بل نعطي لها حقها، ولا ننسى نصيبنا منها، لكن نجعلها دار سفر لا دار إقامة، ومنزل عبور لا موطن حبور.

ولهذا جاء في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة أن الدنيا وما فيها قد

---

(١) المصدر نفسه (ص/ ٩٢١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٤٥).

سخر للإنسان ليستفيد منها في حياته الأولى على طاعة الله سبحانه، لكي يفوز بالحياة الأخرى التي هي الغاية والهدف الأسمى من الوجود.

وقد أمر الله قارون بقوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القَصَص].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البَقَرَة].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [المُلك].

فهذه الآيات وأمثالها توضح أن الدنيا وما فيها من نعيم إنما سخرت للإنسان لكي يتنعم بها ويستعين بها على الوصول إلى مرضات الله وإلى إقامة دينه وشرعه على هذه الأرض، فالإعراض عنها بالكلية إعراض عن نعم الله وتحقير لها، وليس ذلك من هدي النبي ﷺ، ولا سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين.

وكان النبي ﷺ أزهد البشر على الإطلاق، وله تسع نسوة، وكان علي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير وعثمان رضي الله عنهم من الزهاد مع ما كان لهم من الأموال، وكان الحسن بن علي رضي الله عنه من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحًا لهن، وكان عبد الله بن المبارك من الأئمة الزهاد، مع مال كثير[1].

---

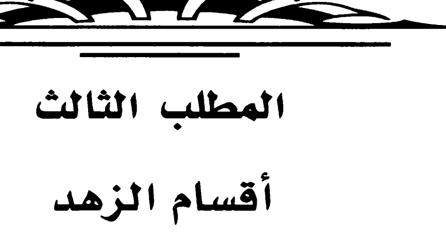
(١) مدارج السالكين (٢/ ١٠).

والخلاصة مما سبق، أن الرغبة في الآخرة لا تتم إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين: نظر إلى الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها، والنظر الثاني في الآخرة، وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها.

فإذا تم للعبد هذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه، فإذا تبين له فضل الآجل على العاجل وقويت رغبته في الأعلى والأفضل ترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة، ومع كل هذا لو حصل إيثار الدنيا على الآخرة، فذلك يدل إما على فساد في الإيمان، وإما على فساد في العقل، وما أكثر ما يكون منهما(١).

---

(١) انظر: الفوائد (ص/ ١٣٦-١٣٧).



## المطلب الثالث

## أقسام الزهد

الزهد قد يكون في الحرام البين، وقد يكون في المشتبه بالحرام، كما أنه يكون أحيانا في المباح، فهو إذا ثلاثة أقسام(١).

فالزهد في الحرام واجب على كل مسلم، وهذا متى أخل به انعقد سبب العقاب، فلا بد من وجود مسببه ما لم ينعقد سبب آخر يضاده.

والزهد في المشتبهات، هو بحسب مراتب الشبهة: فإن قويت التحقت بالواجب، وإن ضعفت كان مستحبًّا، وهو زهد الورعين، ويسمى زهد السلامة.

والزهد في الفضول، وهو الزهد فيما لا يعني من الكلام والنظر والسؤال واللقاء وغيره، وهو زهد الخواص(٢).

---

(١) تقسيم الزهد على ثلاثة أقسام هو المشهور، (انظر: جامع العلوم والحكم ٢/ ١٨٥-١٨٦، ومدارج السالكين ٢/ ١٠-١٥)، وإن اختلف في ذلك،
فالإمام أحمد يقسم الزهد ثلاثة أقسام، لكنه يجعل الزهد في الحرام والمشتبهات قسما واحدا، أو يجعل الزهد في المشتبهات والمستحبات قسما واحدا، والقسم الثالث عنده هو ترك ما يشغل عن الله، يقول الإمام أحمد رحمه الله: «الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام، وهو زهد العوام. والثاني: ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغلك عن الله، وهو زهد العارفين، (انظر مدارج السالكين ٢/ ١٠).

(٢) ابن القيم في الفوائد (ص/ ١٧٠-١٧١)، يقسم الزهد إلى أربعة أقسام، الثلاثة المذكورة، والقسم الرابع هو الزهد فيما سوى الله وفي كل ما شغلك عنه (وهو القسم الثالث عند الإمام أحمد)، بينما نجده في طريق الهجرتين (ص/ ٣٨١-٣٨٤)، يذهب إلى تقسيم الإمام أحمد، إلا أنه هنا يجعل القسم الثالث نوعين: أحدهما: الزهد في الدنيا جملة، وهو أن تترك الدنيا من قلبك وهي في يدك، والثاني الزهد في نفسك، وهو أيضًا نوعان: وسيلة وبداية، وهو أن تكون الدنيا ميتة بالنسبة إليك، فلا يبقى لها عندك من القدر شيء، والثاني: غاية وكمال، وهو أن يبذلها للمحبوب جملة بحيث لا يستبقي منها شيئا.

بينما نجد شيخ الإسلام يقسم الزهد بعدة اعتبارات:

١ ـ يقسمه بحسب وجوبه واستحبابه إلى قسمين، فالزهد الواجب هو ترك ما يمنع الرجل من أداء الواجب والقيام به، وأما الزهد المستحب هو ترك ما يشغل الرجل من فعل المستحب، يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «فثبت أن الزهد الواجب هو ترك ما يمنع عن الواجب من إرادة الله والدار الآخرة، فالزهد المستحب هو ما يشغل عن المستحب من أعمال المقربين والصديقين»[(١)].

٢ ـ وقريب من هذا، يقسم الزهد إلى الزهد عن ما يضر في الآخرة، والزهد عن ما لا ينفع الآخرة، فالأول واجب، والثاني مستحب، يقول رحمه الله: «والزهد النافع المشروع الذي يحبه الله ورسوله هو الزهد فيما لا ينفع في الآخرة، فأما ما ينفع في الآخرة وما يستعان به على ذلك فالزهد فيه زهد في نوع من عبادة الله وطاعته، **والزهد إنما يراد لأنه زهد فيما يضر أو زهد فيما لا ينفع**، فأما الزهد في النافع فجهل وضلال»[(٢)].

٣ ـ ونجد شيخ الإسلام أيضًا يقسم الزهد باعتبار صحته ومشروعيته إلى قسمين، فيقسم الزهد إلى النافع المشروع، وهو أن يكون موافقًا لمحبة الله ومرضاته، وحقيقته ترك فضول المباحات التي لا تعين على طاعة الله تبارك وتعالى من مطعم وملبس ومال وغير ذلك، والزهد الفاسد المبتدع هو الذي يكون غير موافق لأمر الله ورسوله ﷺ، وحقيقته الإعراض عن نعم الله بالكلية وتحقيرها، وعدم تسخيرها في طاعة الله، كما سنوضحه في فصل الرد على الصوفية، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما نفس الزهد الذي هو ضد الرغبة وهو الكراهة والبغض، فحقيقة المشروع منه أن يكون كراهة

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٤٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥١١)، وانظر: التحفة العراقية (ص/ ٣٢٠-٣٢١).

العبد وبغضه وحبه تابعا لحب الله وبغضه ورضاه وسخطه، فيحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله ويرضى ما يرضاه، ويسخط ما يسخطه الله، بحيث لا يكون تابعا لهواه بل لأمر مولاه، فإن كثيرًا من الزهاد في الحياة الدنيا أعرضوا عن فضولها ولم يقبلوا على ما يحبه الله ورسوله وليس مثل هذا الزهد يأمر الله به ورسوله»[(١)].

٤ ـ وكذلك نجد شيخ الإسلام يقسم الزهد باعتبار ما يقوم به من الأعضاء، فيجعل الزهد بالقلب وهو عدم تعلقه بالدنيا، ومعنى ذلك أن لا تكون الدنيا أكبر همّ العبد، ولا يعطيها أكثر من حقها، بل يستخدمها كمطية يتوصل بها إلى ما خلق من أجله من عبادة الله سبحانه وطاعة أمره، فلا يشتغل بالدنيا ولا بما فيها عن تلك الغاية، وهوالزهد القلبي.

والزهد بالجوارح وهو إمساكها عن فضول المباحات إذا كانت مما يشغل عن الواجبات، أو كانت مما لا يستعان بها على طاعة الله[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٥٢)، وانظر أيضًا (١٠/ ٦١٧)، بل في كل موضع تكلم فيه شيخ الإسلام عن الزهد، أراد بيان أن المشروع منه موافق لمرضاة الله، والمبتدع منه غير موافق لأمر الله ورسوله.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٤١).

## المطلب الرابع

## أسباب الزهد وعلاماته

سبق أن قلنا أن من أساليب القرآن والسنة في الترغيب في الزهد هو ذم الدنيا ومن عمل لها فقط، فمن علم أن الدنيا ظل زائل وخيال زائر لا شك أنه لا يغتر بها، بل يعمل لما بعد الموت ويستعد له.

وكذلك من أساليب القرآن والسنة في الترغيب في الزهد هو مدح الآخرة ومن عمل لها، فمن علم أن وراء الدنيا دارًا أعظم منها قدرًا وأجل خطرًا وهي دار البقاء، أعد لها وتجهز[1].

وهذان الأمران من أهم الأسباب الداعية إلى الزهد في الدنيا والرغبة عن الآخرة، وقد ذكر ابن القيم هذين السببين في طريق الهجرتين، ولكنه أضاف سببًا ثالثا مهمّا وهو اليقين بقدر الله، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معرفته أن زهده فيها لا يمنع شيئًا كتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقض له منها، فإنه متى تيقن ذلك وثلج له صدره وعلم أن مضمونه منها سيأتيه، بقي حرصه وتعبه وكده ضائعا، والعاقل لا يرضى لنفسه بذلك»[2].

ثم علمنا أن معنى الزهد الصحيح ليس الانقطاع الكامل عن الدنيا وملذاتها المباحة، والتي يستعين بها المؤمن على حياته الآخروية، لكن كيف يفرق بين هذا الزهد الشرعي وبين الزهد البدعي؟

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٦١٥-٦١٦)، و (٢٠/ ١٤٥-١٤٦)، ومدارج السالكين (٢/ ٨)، والفوائد (ص/ ١٣٦-١٣٧).

(٢) طريق الهجرتين (ص/ ٣٨٣).

لا شك أن للزهد علامات كثيرة، ولخصها بعض السلف الصالح بقوله: «ليس الزهادة بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن يكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء، وأن يكون مادحك وذامك في الحق سواء»[(١)].

ففي هذا الأثر ثلاث خصال هي من علامات الزهد، وهي كما يقول ابن رجب من أعمال القلوب لا من أعمال الجوارح: الأولى منها والثانية ناشيءتان من قوة اليقين وكماله، واتصاف المرء بصفة منها يكسب صفة الزهد بمعناه الشرعي.

**الخصلة الأولى:** أن يكون العبد بما في يد الله أوثق منه بما في يد نفسه، وهذا ينشأ من صحة اليقين وقوته، فمن حقق اليقين، وثق بالله في أموره كلها، ورضي بتدبيره له، وانقطع عن التعلق بالمخلوقات رجاء وخوفًا، ومنعه ذلك من طلب الدنيا بالأسباب المكروهة، ومن كان كذلك، كان زاهدًا في الدنيا حقيقة، وكان من أغنى الناس، وإن لم يكن له شيء من الدنيا.

**الخصلة الثانية:** أن يكون العبد إذا أصيب بمصيبة في دنياه من ذهاب مال، أو ولد، أو غير ذلك أرغب في ثواب ذلك مما ذهب منه من

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٦٤١)، وقد عزاه إلى الترمذي، والحديث أخرجه الترمذي في السنن عن أبي ذر مرفوعا (ص/٥٢٨)، في كتاب الزهد، باب ما جاء في الزهادة، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأخرجه ابن ماجه في سننه عن أبي ذر مرفوعا أيضًا (ص/٦٨٢)، في كتاب الزهد، في باب الزهد في الدنيا، وقال الألباني: ضعيف جدًا (يعني مرفوعا)، انظر: تخريج المشكاة (٥٣٠١)، وقال ابن رجب: «والصحيح وقفه» على أبي مسلم الخولاني، أو يونس بن ميسرة، انظر: جامع العلوم والحكم (٢/١٧٩)، أما ابن القيم فذكره في مدارج السالكين (٢/١١) منسوبا - بالشك- إلى الحسن.

الدنيا أن يبقى له، وهذا أيضًا ينشأ من كمال اليقين، وهي من علامات الزهد في الدنيا.

**الخصلة الثالثة:** وهي من علامات الزهد في الدنيا وقلة الرغبة فيها، لأن صاحبها لا يقيم للدنيا وزنا، ولذا فلا يهمه مدح الناس له فيها أو ذمهم، فإن عظمت الدنيا عنده أحب المدح والذم، فربما حمله ذلك على ترك كثير من الحق خشية الذم، وعلى فعل كثير من الباطل رجاء المدح، فمن استوى عنده حامده وذامه في الحق دل على سقوط منزلة المخلوقين من قلبه، وهذا هو الزهد حقيقة[(١)].

وهذه الخصال كلها هي من صفة القلب، وحقيقتها اليقين بالله والثقة بما عنده، ولعل هناك علامة أخرى تتعلق بالجوارح وهو ترك الفضول التي لا يستعان بها على طاعة الله من مطعم وملبس ومال وغير ذلك، يجمع هذا كله كلام شيخ الإسلام: «الزهد المشروع هو ترك كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة، وثقة القلب بما عند الله»[(٢)].

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٨٠-١٨٣)، وانظر: مختصر منهاج القاصدين (ص/ ٣٢٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٤١).

## المطلب الخامس

## ثمرات الزهد

فإن فهم الدنيا على حقيقتها، وأنها عبارة عن مزرعة الآخرة ومطية لها، وأن دار البقاء هي دار الآخرة، ثم إن ترسخ في الذهن أن المفاتن والمغريات الدنيوية كثيرة بحيث تكاد تحول بين المرء وبين تطبيق ما يؤمن به، ومع كل هذا فمن تمكن أن يزهد في الدنيا ويأخذ منها بقدر ما يؤدي الواجبات الشرعية ويستعين بها على الآخرة فهذا لا شك أنه من أهم ثمرات الزهد، وهو دليل على قوة إيمان العبد، وأن إيمانه فوق الشهوات والشبهات.

وسئل شيخ الإسلام عن الأسباب التي يقوى بها الإيمان إلى أن يكمل على ترتيبها، هل يبدأ بالزهد؟ أو بالعلم؟ أو بالعبادة؟ أم يجمع بين ذلك على حسب طاقته،

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ أنه: «لا بد من الإيمان الواجب، والعبادة الواجبة، والزهد الواجب، ثم الناس يتفاضلون في الإيمان، كتفاضلهم في شعبه، وكل إنسان يطلب ما يمكنه طلبه، ويقدم ما يقدر على تقديمه من الفاضل، والناس يتفاضلون في هذا الباب: فمنهم من يكون العلم أيسر عليه من الزهد، ومنهم من يكون الزهد أيسر عليه، ومنهم من تكون العبادة أيسر عليه منهما، فالمشروع لكل إنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وإذا ازدحمت شعب الإيمان قدم ما كان أرضى لله، وهو عليه أقدر، فقد يكون على المفضول أقدر منه على الفاضل، ويحصل له أفضل مما يحصل من الفاضل، فالأفضل لهذا أن

يطلب ما هو أنفع له وهو في حقه أفضل، ولا يطلب ما هو أفضل مطلقا إذا كان متعذرا في حقه أو متعسرًا يفوته ما هو أفضل له وأنفع»[(١)].

والذي يهمنا هو الاستدلال بكلام شيخ الإسلام رحمه الله لتقرير ما نحن في صدده من بيان أن الزهد من الشعب التي يقوى ويكمل بها الإيمان، ثم إذا ازدحمت مع غيرها، فيقدم الذي هو أقدر للعبد وأصلح له.

ثم الزهد مقام رفيع، وأنه سبب لنيل محبة الله ورضوانه، بل هو موجب لمحبة الناس أيضا، كما في الحديث، أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله! دلني على عمل إذا أنا عملته أحبني الله، وأحبني الناس؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ازهد في الدينا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس**»[(٢)]، قال ابن رجب رحمه الله: «وقد اشتمل هذا الحديث على وصيتين عظيمتين: إحداهما: الزهد في الدنيا، وأنه مقتض لمحبة الله عز وجل لعبده، والثانية: الزهد فيما في أيدي الناس، وأنه مقتض لمحبة الناس»[(٣)].

فكما أن الزهد دليل على قوة إيمان العبد، وأنه مقتض لمحبة الله، وموجب لمحبة الناس، فهو كذلك علامة على صدق إيمان العبد، فالمتصف بالزهد قد استوعب وفهم نظرة الإسلام إلى الدنيا وعلاقة الإنسان بها، فلم يعط الدينا أكثر مما تستحق، ولم يعتبرها أكبر من حجمها الحقيقي، بل وازن بين ما يفرضه عليه واقعه كبشر يعيش في مجتمع بشري، والذي لا يمكن أن يعيش إلا بالأخذ بالمقومات الأساسية للحياة، ووازن بين الأخذ بما يفرضه عليه إيمانه واستعداده للآخرة، فقدم الآخرة والسعي إلى الفوز

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٥٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (ص/ ٦٨٢)، في كتاب الزهد، باب الزهد في الدنيا، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٤٤)، بمجموع طرقه.

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٧٧).

بها، وقدم ما قدمه الله ورسوله، وبذلك حقق الإيمان بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحُجرَات: ١][1].

والخلاصة مما سبق، أنه يتبين لنا أن الزهد في الدينا من أجل الأعمال القلبية، وأن الإنسان لا ينبغي أن يعلق نفسه بالدنيا، وأن تكون بيده لا في قلبه، حتى يقبل على الله ﷻ بقلبه، فإن هذا كمال الزهد، وليس معنى الزهد أنك لا تأخذ شيئًا من الدنيا، بل خذ من الدنيا ما يحل لك، ولا تنس نصيبك منها، لكن اجعلها وسيلة إلى الغاية، ومزرعة للآخرة ومطية لها، قال شيخ الإسلام: «فثبت أن مجرد الزهد في الدنيا لا حمد فيه، كما لا حمد على الرغبة فيها، وإنما الحمد على إرادة الله والدار الآخرة، والذم على إرادة الدنيا المانعة من إرادة ذلك»[2].

---

(١) انظر: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٤٦٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/١٤٦).



# المبحث السادس عشر:

# الورع

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أقسام الورع.

المطلب الرابع: قواعد في الورع.

المطلب الخامس: ثمرات الورع.





# المطلب الأول

# التعريف اللغوي والشرعي

۞ المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

الورع لغة: ورع، يرِع، ورْعا، وورَعا، وورِعة، وهو مأخوذ من وَرَعَ التي تدل على الكف والانقباض، والورع في اللغة: العفة وهي الكف عما لا ينبغي، ويقال تورع أي تحرج، والورع: التقوى[١].

قال ابن فارس: «الواو والراء والعين أصل صحيح يدل على الكف والانقباض، منه الورَع: العفة، وهي الكف عما لا ينبغي»[٢].

وقال صاحب اللسان: «والورع في الأصل: الكف عن المحارم والتحرج منه وتورَّع من كذا، ثم استعير للكف عن المباح والحلال»[٣].

۞ المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

أما الورع في معناه الشرعي فيمكن أن يقال: هو ترك ما يريبك، ونفي ما يعيبك والأخذ بالأوثق، وحمل النفس على الأحوط.

وقد تعددت عبارات السلف في تعريف الورع:

قال إبراهيم بن أدهم[٤]: «الورع ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك،

---

(١) انظر: القاموس المحيط (ص/٩٩٠)، ولسان العرب (١٥/١٩٣-١٩٤).

(٢) معجم مقاييس اللغة (ص/١٠٤٩).

(٣) لسان العرب (١٥/ ١٩٤).

(٤) هو إبراهيم بن أدهم البلخي، أبو إسحاق، من أهل بلخ كان من ملوك المياسير، ثم تزهد =

وترك الفضلات»[١].

قال الجرجاني: «هو اجتناب الشبهات خوفًا من الوقوع في المحرمات»[٢].

قال صاحب المنازل: «الورع توقي مستقصى على حذر، وتحرج على تعظيم»[٣].

يقول ابن القيم شارحًا هذه العبارة: «الورع: توق مستقصى على حذر، يعني أن يتوقّى الحرام والشبه، وما يخاف أن يضره أقصى ما يمكنه من التوقي، لأن التوقي والحذر متقاربان، إلا أن التوقي فعل الجوارح، والحذر فعل القلب...

وقوله: أو تحرج على تعظيم، يعني أن الباعث على الورع عن الحرام والشبه إما حذر حلول الوعيد، وإما تعظيم الرب جلّ جلاله، وإجلال له أن يتعرض لما نهى عنه»[٤].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو الإمساك عما قد يضره، فتدخل فيه المحرمات والشبهات لأنها قد تضر، فإنه من اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات واقع الحرام كالراعي حول الحمى يوشك أن يواقعه»[٥].

والورع المشهور عنده رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الورع عما قد تُخاف عاقبته وهو ما

---

= وترك الدنيا، وصحب سفيان الثوري والفضيل بن عياض، توفي سنة ١٦٠ هـ، انظر: حلية الأولياء (٧/ ٣٦٧).

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٧).

(٢) التعريفات (ص/ ٢٤٧).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١٨).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ١٨).

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦١٥).

يُعلم تحريمه وما يشك في تحريمه، مع ضابط في غاية الأهمية نبه عليه رَحِمَهُ اللَّهُ وهو أن لا يكون في تركه مفسدة أعظم من فعله وسيأتي بيان هذا الضابط.

والخلاصة أنه يمكن القول إن معنى الورع هو ترك ما يُخشى ضرره في الآخرة كما قال شيخ الإسلام وابن القيم رحمهما الله تعالى: الورع ترك ما يخشى ضرره في الآخرة[1]، فإن تركه يكون مطلوبًا على جهة التورع، وهذا الذي يُخشى ضرره في الآخرة قد يكون شيئًا محرمًا ظاهر التحريم، وقد يكون شيئًا مشتبهًا، وقد يكون من باب التوسع في المباح الذي يجر صاحبه للوقوع في المكروه أو الوقوع في الشيء المحرم.

المسألة الثالثة: الفرق بين الورع وبين الزهد.

كثيرًا ما يشتبه ويلتبس الورع بالزهد، ويمكن أن أذكر ثلاثة فروق بينهما:

**أما الأول:** فإن الزهد المشروع هو ترك الرغبة عما لا ينفع في الآخرة، والمقصود به فضول المباح الذي لا يستعان به على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وأما الورع المشروع فهو ترك ما قد يضر في الآخرة، وهو ترك المحرمات والشبهات والمباحات التي يُخشى أن تجر صاحبها إلى المكروهات أو المحرمات[2].

وبهذا الاعتبار يمكن أن نقول بأن مقام الزهد أعلى من مقام الورع، فأول الزهد هو الورع، لأن الورع أن يترك الإنسان ما يضر، والزهد أن يترك ما لا ينفع.

فالزاهد يترك المحرمات، ويترك المكروهات والمشتبهات كما أنه

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٣٢٠)، والفوائد (ص/ ١٧١).

(٢) انظر: التحفة العراقية (ص/ ٣٢٠)، والفوائد (ص/ ١٧١).

يترك المباحات التي يُخشى أن تجر إلى المحرمات، فالزاهد الذي ترك هذا هو من باب أولى يكون قد ترك المكروهات والمشتبهات فضلًا عن المحرمات، فما ترك المباح ـ أعني التوسع فيه ـ إلا وقد ترك الحرام كما ترك المشتبه والمكروه(١).

**والفرق الثاني**(٢): هو أن الزهد من باب الترك المجرد وعدم الرغبة فقط، لكن ليس له موقف يوجب النفرة من هذا المزهود فيه، وأما الورع فإنه يعني الترك كما أنه يعني المنافرة لأن هذا الأمر قد يضره في الآخرة، فصار الورع أبلغ من هذه الجهة من الزهد، الزهد ترك مجرد و الورع ترك مع النفور.

**والفرق الثالث**: ومن جهة ثانية(٣): فإن كل ما صلح أن يكره وينفر منه (والذي يبتغي فيه الورع) صلح أن لا يراد ولا يرغب فيه (فيزهد فيه)، وبذلك كل ما يصلح فيه الورع يصلح فيه الزهد، من غير عكس، هذه ثلاثة فروق بين الزهد والورع(٤).

---

(١) انظر: التحفة العراقية (ص/ ٣٢٠).

(٢) فقد ذكر الفرق الأول والثاني الدكتور: خالد بن عثمان السبت في كتابه: سلسلة أعمال القلوب (ص/ ٨٩-٩٠).

(٣) بالنسبة للجهة الأولى المذكورة في الفرق الثاني.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٦١٧).



## المطلب الثاني

## الأدلة من الكتاب والسنة

إن الورع منزلة عظيمة لا يصل إليها إلا من تعلق قلبه بالآخرة، فكلما ازداد العبد ورعا كلما كان أكمل في عبوديته لله سبحانه، والورع كلما أخذ به الإنسان كان أسرع جوازًا على الصراط وأخف ظهرًا، والتفاوت في الآخرة بحسب التفاوت في درجات الورع.

فبالنظر في القرآن الكريم يمكن أن يقال إن الله أشار إلى الورع في أكثر من آية، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون]، هذه الآية استدلَّ بها النبي ﷺ في حديثه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البَقَرَة]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك»[1]، قال ابن رجب رحمه الله: «والمراد بهذا أن الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال، وبالعمل الصالح، فما دام الأكل حلالًا فالعمل صالح مقبول، فإذا كان

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٣٩١)، في كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.

الأكل غير حلال، فكيف يكون العمل مقبولًا؟»[(١)].

ثم ذكر النبي ﷺ الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له، إشارة إلى الذين لا يأكلون الطيبات هم الذين لا يتورعون في المكاسب، الذين يعدون الحلال ما حل في اليد من أي وجه كان دون أن يفتشوا وينظروا في وجوه مكاسبهم.

ومن الآيات أيضًا، قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدَّثِر]، أي نفسك فطهر من الذنب، فكنّى عن النفس بالثوب، وهذا قول جماعة من المحققين من أهل التفسير، كما قال الشاعر:

**وإني - بحمد الله لا ثوب غادر لبست ولا من غدرة أتقنع**

ولا ريب أن تطهير النفس من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق، والمقصود أن الورع يطهر دنس القلب ونجاساته كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته، وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة[(٢)].

ويقول تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البَقَرَة: ١٨٧]، ويقول تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البَقَرَة: ٢٢٩]، ففي الآيتين إشارة إلى أنه على المسلم التنبه من الاقتراب من حدود الله، لأن الاقتراب منها يوشك أن يوقعه فيها ويجعله يقتحمها.

والحدود قد يراد بها أواخر الحلال حيث نهى عن القربان، والحدود من جهة أخرى قد يراد بها أوائل الحرام، فلا تعتدوا ما أباح الله لكم، ولا

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٦٠).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٦).

تقربوا ما حرم الله عليكم، فالورع يخلص العبد من مجاوزة الحد في الحلال الذي قد يؤدي به إلى الحرام، ومن اقتحام الحدود في الشبهات التي تؤدي به إلى الوقوع في المحرمات، ومصداق ذلك كله قول النبي ﷺ: «**إن الحلال بيّن وإن الحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثيرٌ من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١).

فالنبي ﷺ جعل القسمة ثلاثية، الأول وهو الحلال البين الذي لا خفاء فيه، والثاني وهو الحرام البين الذي لا شبهة فيه، والثالث هو المشتبه الذي يخفى على كثير من الناس فيترددون في حكمه، وهذا معرفته ومعرفة الموقف منه هو الفقه، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس العاقل الذي يعلم الخير من الشر، وإنما العاقل الذي يعلم خير الخيرين وشر الشرين»(٢)، و على كل فحقيقة الورع إنما هو مجانبة القسم الذي هو من قبيل الحرام ومجانبة القسم الآخر الذي هو من قبيل المشتبهات.

ومما يؤكد هذا المعنى قول النبي ﷺ في الحديث الآخر المشهور: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»(٣)، قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعنى هذا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٥٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٢٤٩)، والترمذي في سننه (ص/ ٥٦٧)، في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح، وأخرجه النسائي في سننه (ص/ ٨٥٥)، في كتاب الأشربة، باب الحث على ترك الشبهات، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٤٦)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصحح الحديث الألباني في ظلال الجنة (١٧٩).

الحديث يرجع إلى الوقوف عند الشبهات واتقائها، فإن الحلال المحض لا يحصل للمؤمن في قلبه منه ريب ـ والريب بمعنى القلق والاضطراب ـ، بل تسكن إليه النفس ويطمئن به القلب، وأما المشتبهات فيحصل بها للقلوب القلق والاضطراب الموجب للشك»(١).

ونظير ذلك أيضًا، قول النبي ﷺ: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس**»(٢)، يقول ابن رجب رحمه الله: «وفي قوله ﷺ: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس**»، إشارة إلى أن الإثم ما أثر في الصدر حرجا وضيقا وقلقا واضطرابا، فلم ينشرح به الصدر، ومع هذا، فهو عند الناس مستنكر، بحيث ينكرونه عند اطّلاعهم عليه، وهذا أعلى مراتب معرفة الإثم عند الاشتباه، وهو ما استنكره الناس على فاعله وغير فاعله»(٣).

ولا شك أن هذا الحديث مع ما فيه من الدلالة على الأمر بالتورع مما حاك في الصدر وإتيان ما اطمأنت إليه النفس، فهو إشارة إلى حال الصالحين وحال قلوبهم التي ترى بنور الله سبحانه وتعالى فتطمئن هذه القلوب للبر والهدى والتقى والصلاح، وتشعر باشمئزاز ونفور وتردد من الإثم وأسبابه.

وقد جمع النبي ﷺ الورع في كلمة واحدة فقال: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»(٤)، فهذا يعم الترك لما لا يعنيه من الكلام والنظر

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٨٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١٠٣٢)، في كتاب البر والصلة والأدب، باب تفسير البر والإثم.

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٠١).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٢٥٩)، والترمذي في سننه (ص/ ٥٢٤)، في كتاب الزهد عن رسول الله، وابن ماجه في سننه(ص/ ٦٥٦)، في كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، وابن حبان في صحيحه (١/ ٤٦٦)، وصحح الحديث الألباني في تخريج الطحاوية (٢٧٦).

والاستماع والبطش والمشي والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع[١] .

ففي هذه النصوص الصحيحة[٢] عنه ﷺ دلالة واضحة على أن الورع مطلب ديني وواجب شرعي، لا يستبرىء دين المرء وعِرضه إلا به.

---

(١) مدارج السالكين (٢/١٧).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/١٣٨-١٣٩)، فقد ذكر جملة من الأحاديث الدالة على التورع من المشتبه.

## المطلب الثالث

## أقسام الورع

بالنظر إلى كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ يتبين لنا أنه قسم الورع إلى أربع مراتب:

**المرتبة الأولى:** ترك المحرمات، وهذا أمر لا يحتاج إلى شرح وبيان، فترك الحرام من الورع، ويجب على كل إنسان أن يتقي ما حرم الله عَزَّ وَجَلَّ، كما يدخل في هذه المرتبة فعل الواجبات، وهذه المرتبة من الورع واجبة.

**المرتبة الثانية:** وهي ترك المكروهات، ومعلوم أن المكروه ما نهى الشارع عنه نهيًا غير جازم، وهذه المرتبة أعلى من المرتبة التي قبلها يعني من توقى الحرام فقط وفعل الواجبات وتورع من تركها فهذا قد فعل الواجب، والمرتبة التي فوقه هي أن يتوقى المكروهات مع توقي المحرمات فهذه درجة أعلى من درجات العبودية ومراتبها.

**المرتبة الثالثة:** وهي أعلى من هاتين وهو أن يفعل ما يشك في وجوبه وأن يترك ما يشك في تحريمه، فهذا لم يثبت الدليل فيه أنه من المكروهات ولكنه تردد فيه، حصل عنده فيه شيء من التردد، انقبضت نفسه منه، حاك في نفسه، فإن الورع أن يُجانبه ويتباعد عنه.

**والمرتبة الرابعة:** وهي أعلى من ذلك، وهي رأس هذا السلم أن يترك فضول المباحات، إذا كانت تجره إلى المحرمات أو انشغال القلب عن الله والدار الآخرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان الورع المشروع الذي بعث الله به محمدًا ﷺ: «هو اتقاء ما يُخاف أن يكون سببًا للذم والعذاب عند عدم المعارض الراجح، ويدخل في ذلك أداء الواجبات والمشتبهات التي تشبه الواجب، وترك المحرمات والمشتبهات التي تشبه الحرام، وإن أدخلت فيها المكروهات قلت: نخاف أن تكون سببًا للنقص والعذاب.

وأما الورع الواجب فهو اتقاء ما يكون سببًا للذم والعذاب، وهو فعل الواجب وترك المحرم، والفرق بينهما فيما اشتبه أمن الواجب هو أم ليس منه؟ وما اشتبه تحريمه أمن المحرم أم ليس منه؟»[(١)].

إذن صار الورع عندنا من حيث العموم ينقسم إلى قسمين: ورع واجب (وهو ترك الحرام وفعل الواجبات)، وورع مستحب (وهو ثلاث درجات ومراتب)، وقد أوضح هذا شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في موضع آخر حيث قال: «هو الورع عما قد تُخاف عاقبته، وهو ما يُعلم تحريمه وما يُشك في تحريمه، وليس في تركه مفسدة أعظم من فعله...»، وقال: «وكذلك الاحتياط بفعل ما يُشك في وجوبه لكن على هذا الوجه»[(٢)]، وقال في موضع آخر: «أما الورع، فإنه الإمساك عما قد يضر، فتدخل فيه المحرمات والشبهات لأنها قد تضر، فإنه من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»[(٣)]، وقال في موضع آخر: «وإنما ذلك عائد إلى ترك المحرمات والمكروهات وفضول المباحات»[(٤)].

ونخلص إذا إلى أن ما يتعلق بالأمور التي تترك وتفعل، فالواجبات

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٣٨).
(٢) المصدر نفسه (١٠/ ٥١١-٥١٢).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦١٥).
(٤) المصدر نفسه (٢٠/ ١٣١).

يجب أن تُفعل والمحرمات يجب أن تُترك وهذا ورع واجب، وأما الورع المستحب فهو على ثلاث مراتب:

**الأولى**: ترك المكروهات وفعل المستحبات.

**والثانية**: أن تفعل ما يشك في وجوبه احتياطًا، وأن تترك ما يشك في تحريمه احتياطًا وتورعًا.

**والثالثة**: أن تترك فضول المباحات التي يُخشى أن تجر إلى الحرام أو انشغال القلب عن الله والدار الآخرة.



## المطلب الرابع

## قواعد في الورع

أقصد بهذا المطلب أن أذكر بعض القواعد في الورع التي أشار إليها شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتستنبط من كلامه:

**القاعدة الأولى: الورع منه واجب، ومنه مستحب.**

سبق أن بينا أن الورع منه واجب، ومنه مستحب وهو على ثلاث مراتب، ولكن كثيرًا من الناس حينما يطلق مصطلح الورع ينصرف ذهنه إلى دقائق الورع، والبعد عن المشتبهات، فيرى أن الورع ليس ضمن دائرة الواجبات، إنما هو مقام للخاصة والصالحين، وليس واجبًا على آحاد الناس.

قال شيخ الإسلام: «فأما الورع المشروع المستحب الذي بعث الله به محمدًا ﷺ فهو اتقاء ما يخاف أن يكون سببًا للذم والعذاب عند عدم المعارض الراجح، ويدخل في ذلك أداء الواجبات والمشتبهات التي تشبه الواجب، وترك المحرمات والمشتبهات التي تشبه الحرام، وإن أدخلت فيه المكروهات قلت: يخاف أن تكون سببًا للنقص والعذاب، وأما الورع الواجب فهو اتقاء ما يكون سببًا للذم والعذاب، وهو فعل الواجب وترك المحرم، والفرق بينهما (أي بين الورع الواجب والمستحب) فيما اشتبه أمِن الواجب أم ليس منه؟ وما اشتبه تحريمه أمن المحرم أم ليس منه؟»[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٣٧-١٣٨).

**القاعدة الثانية: أن ما لا ريب في حله ليس فيه ورع، بل الورع فيه من التنطع[(١)].**

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا ما لاريب في حله فليس تركه من الورع، وما لا ريب في سقوطه فليس فعله من الورع»[(٢)].

**القاعدة الثالثة: الورع يكون في الفعل كما هو في الترك.**

وذلك أن البعض من الناس يعتقد أن الورع يكون في الترك فقط، قال شيخ الإسلام: «لكن يقع الغلط في الورع من ثلاث جهات: أحدها اعتقاد كثير من الناس أنه من باب الترك فلا يرون الورع إلا في ترك الحرام لا في أداء الواجب، وهذا يُبتلى به كثيرٌ من المتدينين المتورعة، ترى أحدهم يتورع عن الكلمة الكاذبة وعن الدرهم فيه شبهة لكونه من مال ظالم أو معاملة فاسدة، ويتورع عن الركون إلى الظلمة من أجل البدع في الدين وذوي الفجور في الدنيا، ومع هذا يترك أمورًا واجبة عليه إما عينًا وإما كفاية وقد تعيَّنت عليه، من صلة رحم وحق جار ومسكين وصاحب ويتيم وابن سبيل وحق مسلم وذي سلطان وذي علم، وعن أمر بمعروف ونهي عن منكر، وعن الجهاد في سبيل الله، إلى غير ذلك مما فيه نفع للخلق في دينهم ودنياهم مما وجب عليه، أو يفعل ذلك لا على وجه العبادة لله تعالى بل من جهة التكليف ونحو ذلك، وهذا الورع قد يوقع صاحبه في البدع الكبار، فإن ورع الخوارج والروافض والمعتزلة ونحوهم من هذا الجنس، تورعوا عن الظلم وعن ما اعتقدوه ظلمًا من مخالطة الظلمة في زعمهم حتى تركوا الواجبات الكبار من الجمعة والجماعة، والحج والجهاد، ونصيحة

---

(١) إلا في الحالة التي سبق ذكرها: إذا كان التوسع في المباحات يجر إلى المحرمات، أو يشغل عن الله والدار الآخرة.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/١٣٨).

المسلمين والرحمة لهم، وأهل هذا الورع ممن أنكر عليهم الأئمة كالأئمة الأربعة، وصار حالهم يذكر في اعتقاد أهل السنة والجماعة»[(١)].

**القاعدة الرابعة: أن الورع إنما هو بأدلة الكتاب والسنة.**

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الجهة الثانية من الاعتقاد الفاسد: أنه إذا فعل الواجب والمشتبه وترك المحرم والمشتبه، فينبغي أن يكون اعتقاد الوجوب والتحريم بأدلة الكتاب والسنة وبالعلم لا بالهوى، وإلا فكثير من الناس تنفر نفسه عن أشياء لعادة ونحوها، فيكون ذلك مما يقوي تحريمها واشتباهها عنده، ويكون بعضهم في أوهام وظنون كاذبة فتكون تلك الظنون مبناها على الورع الفاسد فيكون صاحبه ممن قال الله تعالى فيه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النّجم: ٢٣]، ومن هذا الباب الورع الذي ذمه الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: لما ترخص في أشياء فبلغه أن أقوامًا يتنزهون عنها، فقال: «**ما بال أقوام يتنزهون عن أشياء أترخص فيها؟ والله إني لأرجو أن أكون أعلمهم بالله وأخشاهم**»[(٢)]، وكذلك حديث صاحب القُبلة[(٣)]، ولهذا يحتاج المتدين المتورع إلى علم كثير بالكتاب والسنة والفقه في الدين، وإلَّا فقد يفسد تورعه الفاسد أكثر مما يصلحه، كما فعله الكفار وأهل البدع من الخوارج والروافض وغيرهم»[(٤)].

---

(١) المصدر نفسه (٢٠/١٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٢٥٦)، في كتاب الاعتصام، باب ما يكره من التعمق والتنزه في العلم، والغلو في الدين والبدع، ومسلم في صحيحه (ص/٩٥٩)، في كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى، وشدة خشيته.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٨٠٧)، في كتاب التفسير، والمقصود بحديث صاحب القبلة، هو ذاك الصحابي الذي أصاب من امرأة قبلة، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فأنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾، قال الرجل: ألي هذه؟ فقال النبي ﷺ: **«لمن عمل لها من أمتي»**.

(٤) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٤٠-١٤١)، باختصار.

**القاعدة الخامسة: الورع لا يكون إلا بالعلم، وبصفة خاصة عند تزاحم المصالح والمفاسد.**

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «الجهة الثالثة، جهة المعارض الراجح هذا أصعب من الذي قبله، فإن الشيء قد يكون جهة فساده تقتضي تركه فيلحظه المتورع، ولا لحظ ما يعارضه من الصلاح الراجح، وبالعكس فهذا هذا. وقد تبين أن من جعل الورع الترك فقط، وأدخل في هذا الورع أفعال قوم ذوي مقاصد صالحة بلا بصيرة من دينهم وأعرض عما فوتوه بورعهم من الحسنات الراجحة فإن الذي فاته من دين الإسلام أعظم مما أدركه، فإنه قد يعيب أقواما هم إلى النجاة والسعادة أقرب، وهذه القاعدة منفعتها لهذا الضرب وأمثاله كثيرة، فإنه ينتفع بها أهل الورع الناقص أو الفاسد»[(١)].

ومثال ذلك: رجل مات أبوه وعنده أموال مشبوهة وعليه (الوالد) ديون، فلما جاء الناس يطالبون حقوقهم، قال لهم الابن: أنا أتورع أن أقضي ديون أبي من مال مشبوه، فهذا ورع فاسد، فإن قضاء الدين واجب وترك الواجب سبب للعقاب، فلا يترك لما يحتمل أن يكون فيه عقاب ويحتمل أن لا يكون[(٢)].

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله في موضع آخر: «وتمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشر الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية فقد يدع واجبات ويفعل محرمات، ويرى ذلك من الورع كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرى ذلك ورعا..»[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٤٢).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢١/ ٣١١).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥١٢).

**القاعدة السادسة: الورع لا يكون إلا بالإخلاص.**

قد تأتي الإنسان اعتبارات تدفع إلى الورع، فقد يكون له مقام واعتبار ويرى أنه مما ينبغي أن لا يليق بأمثاله أمام الناس، فيكون دافعه إلى ذلك مُراءاة الناس، وقد يكون دافعه حظ النفس أو هوى النفس، أو غيرها من الأمور؛ فالورع مثل سائر الأعمال الصالحة التي يتقرب فيها الإنسان إلى الله ﷻ لا بد فيها من الإخلاص، قال شيخ الإسلام: «واعلم أن الورع لا ينفع صاحبه ويكون ثوابا إلا بفعل المأمور به من الإخلاص»[(١)].

**القاعدة السابعة: التدقيق في مسائل الورع لمن استقامت أحواله، لا لمن وقع في انتهاك المحرمات الظاهرة.**

قال الحافظ ابن رجب: «وههنا أمرٌ ينبغي التفطن له وهو أن التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها وتشابهت أعماله في التقوى والورع، فأما من يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة ثم يريد أن يتورع عن شيء من دقائق الشبه فإنه لا يحتمل له ذلك، بل ينكر عليه وهذا حال بعض المتكلفين المرائين يسلك هذا المسلك كما قال ابن عمر لمن سأله عن دم البعوض من أهل العراق: يسألونني عن دم البعوض وقد قتلوا ابن النبي ﷺ، وسمعت النبي ﷺ يقول: «**هما ريحانتاي من الدنيا**»[(٢)].

وأنقل بعض النقول عن بعض السلف هي أمثلة عن هذا النوع من الورع، ومنها: «وسئل بشر بن الحارث[(٣)] عن رجل له زوجة وأمه تأمره

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٤٩)، في كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

(٣) هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء المروزي، المشهور ببشر الحافي، ولد سنة ١٥٢هـ، كان أول عمره يمشي حافيًا ويطلب العلم فاشتهر بذلك، إمام زاهد محدث، قيل للإمام أحمد: مات بشر، فقال: مات واللهِ ما له نظير إلا عامر بن عبد قيس، توفي سنة ٢٢٧ هـ، انظر: طبقات ابن سعد (٩/ ٣٤٤)، والحلية (٨/ ٣٣٦)، والسير (١٠/ ٤٦٩).

بطلاقها، فقال: إن كان بر أمه في كل شيء ولم يبق من برها إلا طلاق زوجته فيفعل، وإن كان يبرها بطلاق زوجته ثم يقوم بعد ذلك إلى أمه فيضربها فلا يفعل»»[١].

وهذا الأمر مهم لابد أن نعيه ونحن نقرأ، ووردت بعض الروايات عن السلف في ورعهم حتى لا نقع في هذا الغلط الذي له آثار سلبية على نفوسنا؛ فنحن أحوج ما نكون إلى الورع الواجب، وأحوج ما نكون إلى اجتناب المحرمات الظاهرة الواضحة، وأحوج ما نكون إلى إصلاح قلوبنا، فإذا انشغلنا بهذه الدقائق تركت آثارًا سيئة على أنفسنا، منها أن تشعر أنفسنا بالزهو واحتقار الآخرين وأن الناس لا يتورعون، ومنها أن تنشغل النفس عما هي أولى به من إصلاح القلب والورع الواجب، والله تعالى أعلم.

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٨٣).



## المطلب الخامس

## ثمرات الورع

إن للورع ثمرات وآثار سلوكية تحصل للعبد الذي تحلى به، وأول ذلك أن القليل معه كثير، لأن صاحبه نقي الثوب لا تثقله الأوزار ولا تدنسه المشتبهات فهو طيب خفيف الحمل من الذنوب يترك ما اشتبه عليه فضلًا عما تُحُقق تحريمه، وبهذا يكون العمل بالنسبة لمثل هذا وإن قل يكون عمله الصالح كثيرًا، لأن العبرة بالموازنة فمن غلبت حسناته سيئاته فقد نجا ومن غلبت سيئاته حسناته فقد هلك، وقد قال يوسف ابن أسباط رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «يُجزىء قليل الورع عن كثير العمل، ويجزىء قليل التواضع عن كثير الاجتهاد»[(٢)]، وقد جاء عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ نحو ذلك حيث قال: «قليل الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة»[(٣)]، فهذه الآثار تدل على أن الورع سبيل إلى تكثير الأعمال وتثقيل موازين الحسنات لأن كفة السيئات تكون متلاشية أو خاوية.

ومن ثمراته هو ما نعلمه جميعًا أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، فمن تورع عن بعض ما لا يليق رجاء ما عند الله أو خوفًا منه جل جلاله، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يعوضه ويفيض عليه من ألوان النعم والأرزاق والبركات ما لا يقدر قدره، فإذا تركت الشيء لله فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يعوضك، وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

---

(١) هو يوسف بن أسباط، الزاهد، من سادات المشايخ، له مواعظ وحكم، روى عن سفيان الثوري وغيره، لم أجد له تأريخ وفاة، انظر: الحلية (٨/ ٢٣٧)، والسير (٩/ ١٦٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب: التواضع والخمول (ص/ ١١٧).

(٣) ذكره القشيري في رسالته (ص/ ١٨٦).

لما ترك الأهل والوطن والعشيرة واعتزل قومه وهجرهم في الله ولله، قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مَريَم: ٤٩]، فعوضه الله ﷻ بالذرية الطيبة الصالحة الذين ينسونه الوطن والأهل والعشيرة الذين لم يكونوا على دينه.

ومن ثمرات الورع أنه يكون حاجزًا وحائلًا دون الوقوع في الحرام فهو يعصم صاحبه بإذن الله ﷻ عن الاستدراج، لذلك نجد أن من تعاطى ما نهي عنه فإنه يكون مظلم القلب لفقدان نور الورع فيقع في الحرام ولو لم يقصد الوقوع فيه ابتداءً.

ومما يورثه الورع أنه يصون عرض صاحبه، فإن من تنزه عن المحرمات والشبهات كان عرضه نقيًا فيسلم من الأذى، ولا يكون لقائل فيه مقال ولا يكون في موضع ريبة ولا تهمة، فيكون سالمًا بإذن الله ﷻ مستبرءًا لدينه وعرضه كما قال النبي ﷺ: «**فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه**» أما الدين فالسلامة، وأما العرض فإنه يحفظ بسبب هذا الورع من تهمة الناس، ومن مقالة السوء، ومن الوقيعة فيه.

ومن ثمراته أيضًا ـ وهو الأخير ـ أن له تأثيرًا في تطهير دنس القلب كما قال ابن القيم ﵀: «بأن الورع يطهر دنس القلب ونجاسته، كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته، وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة، ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله، ويؤثر كل منهما في الآخر، ولهذا نُهي عن لباس الحرير والذهب وجلود السباع لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع.

وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودناستها ورائحتها وبهجتها وكسفتها، حتى إن ثوب البر ليُعرف من

ثوب الفاجر وليسا عليهما»[١] يعني لم تره على صاحبه تعرف إن هذا ثوب بر وأن هذا ثوب فاجر من الفجار.

على كل حال، الورع له آثار كثيرة منها ما ذكرت ومنها ما لم أذكر، من راحة البال وطمأنينة النفس واستراحة الضمير والقلب ونظافة المجتمع، وفضلًا عن إجابة دعاء صاحبه، ونحن نعرف ذلك الذي أخبرنا النبي ﷺ عنه يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه يقول: يا رب.. يا رب مع أن دعاء المسافر مستجاب، ولكن مطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذي بالحرام فأنى يستجاب له[٢].

فأسأل الله ﷻ أن يجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، وأن يرزقنا البصيرة في الدين، ويزيننا بزينة الإيمان والإسلام، وأن يجعلنا من المتقين المتورعين الزاهدين، وأن يغفر لنا ذنوبنا أجمعين، آمين.

---

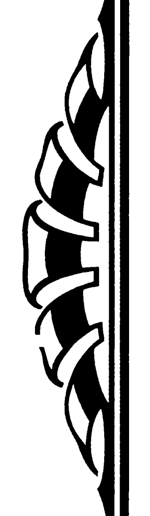
(١) مدارج السالكين (٢/١٦).

(٢) هذه الثمرات مستفادة من كتاب «سلسلة أعمال القلوب» للدكتور: خالد السبت (ص/١٠٨-١١١).



# المبحث السابع عشر:

# الذكر



وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أنواع الذكر.

المطلب الرابع: درجات الناس في الذكر.

المطلب الخامس: الذكر المشروع والمبتدع.

المطلب السادس: ثمرات الذكر.



# المطلب الأول
# التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

فالذكر مصدر: ذكر، يذكر، ذِكرًا، وذُكرًا، وذِكرى، وهو حفظ الشيء في القلب خلاف النسيان، أو جريان الشيء على اللسان، وقيل: الذكر بالكسر لما جرى على اللسان، وبالضم لما حفظ على القلب.

ويطلق الذكر على الصيت والثناء، كما يطلق على العيب، وذلك على معنى الحذف، فالثناء الذكر الحسن، والعيب الذكر السيء، فإذا قيل: ذكر الله، علم أن المراد أثنى عليه، وإن قيل: فلان يذكر الناس؛ أي يعيبهم، كما قال تعالى عن قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾ [الأنبياء]، أي يذكرهم بسوء[1].

قال الأزهري: «يقول: فلان يذكر فلانا، أي يغتابهم ويذكر عيوبهم، وفلان يذكر الله، أي يصفه بالعظمة ويثني عليه ويوحّده، وإنما يحذف مع الذكر ما عقل معناه»[2].

يقول ابن فارس: «الذكر: الذال والكاف والراء أصلان. . . .، والأصل الآخر: ذكرت الشي، خلاف نسيته، ثم حمل عليه الذكر باللسان، ويقولون: اجعله منك على ذُكر، بضم الذال، أي لا تنسه، والذكر العلاء والشرف، وهو قياس الأصل»[3].

---

(١) انظر: لسان العرب (٦/ ٣٦-٣٧)، والقاموس المحيط (ص/ ٥٠٧-٥٠٨).

(٢) تهذيب اللغة (١٠/ ١٦٣-١٦٤).

(٣) معجم مقاييس اللغة (ص/ ٣٦٨).

وحاصل ما ذكروه في الذكر يتلخص فيما يلي:

١ ـ الذكر: ضد النسيان، وهو حفظ الشيء في القلب.

٢ ـ الذكر: بمعنى ما يجري على اللسان.

٣ ـ الذكر: بمعنى الصيت والثناء.

وقد ذكروا للذكر مباني ومعاني أخرى وهي تعود إلى هذه الثلاث وتتفرع عنها[١].

**المسألة الثانية: التعريف الشرعي.**

الذكر في الشرع: هو ذكر المسلم ربه ﷻ بالثناء عليه بما هو أهله، أو بسؤاله الحاجات والالتجاء إليه لكشف الكربات.

فكل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرب إلى الله تعالى، من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، أو تعلم علم وتعليمه، وأمر بمعروف أو نهي عن منكر، فهو من ذكر الله[٢].

يقول النووي: «وذكر الله ضربان: ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وذكر القلب نوعان:

أحدهما: وهو أرفع الأفكار وأجلها، الفكر في عظمة الله تعالى وجلاله وجبروته وملكوته وآياته في سماواته وأرضه.

والثاني: ذكره بالقلب».

وقال القرطبي: «الذكر اسم مشترك، فالذكر بالقلب ضد النسيان، والذكر باللسان ضد الإنصات، وذكرت الشيء بلساني وقلبي ذكرًا»[٣]، وقال

(١) وهذه المعاني لا تعلق لها بما نحن فيه.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٦١).

(٣) تفسير القرطبي (٢/ ٧).

أيضًا: «وأصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له، وسمي الذكر باللسان ذكرا لأنه دلالة على الذكر القلبي، غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللساني صار هو السابق إلى الفهم»[١].

وفي لوامع البينات: «أن الذكر يكون باللسان والقلب والجوارح، فذكر اللسان بالألفاظ الواردة، وذكر القلب في أدلة الذات والصفات وفي أدلة التكاليف وفي أسرار المخلوقات، أما ذكر الجوارح فبالاستغراق في الطاعات والخلو من المنكرات»[٢].

وقال في الكليات: «إذا أريد بالذكر الحاصل بالمصدر يجمع على (أذكار)، وهو الإتيان بألفاظ ورد الترغيب فيها، ويطلق ويراد به المواظبة على العمل بما أوجبه أو ندبه إليه، كالتلاوة وقراءة الحديث، ودرس العلم، والنفل بالصلاة»[٣].

وبهذا الاستعراض لتعريف الذكر يمكن أن نخلص إلى:

أن الذكر يطلق على الذكر بالقلب، وعلى الذكر باللسان، وعلى الذكر بالجوارح، وأن الأصل في الإطلاق لمصطلح الذكر هو على الذكر القلبي، لأنه هو الحامل على ذكر اللسان والجوارح، ولكن كثرة إطلاق الذكر على الذكر اللساني جعلته هو الأسبق إلى الأفهام حين تسمع لفظة ذكر، مع أن المعول عليه في الذكر ما كان بالقلب، أو باللسان ولكن بشرط حضور القلب، أو بالجوارح ولكن مع حضور القلب، ومع قصد وجه الله ومرضاته في كل ذلك[٤].

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٤٥٩).
(٢) انظر: لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات (ص/ ٥٣-٥٤)، للفخر الرازي.
(٣) كتاب الكليات (ص/ ٤٥٦)، لأبي البقاء أيوب الكفوي.
(٤) انظر: ذكر الله تعالى بين الاتباع والابتداع (ص/ ٣١)، تأليف: عبد الرحمن محمود خليفة.

## المطلب الثاني

## الأدلة من الكتاب والسنة

فلا ريب أن ذكر الله ودعاءه هو خير ما شغلت به الأعمار، وأزكى ما حوته الأعمال، وأنفع ما صرفت فيه الأنفاس، وأفضل ما تقرب به العباد إلى ربهم ومولى نعمتهم ﷻ، ولهذا أصبح للذكر والدعاء المنزلة العالية في الدين والمكانة الخاصة في حياة سيد الذاكرين ﷺ.

فأهمية الذكر وفائدته غير خاف على كل مسلم، إذ هو من أجل المقاصد، وأنفع الأعمال المقربة إلى الله، وقد أمر الله به في القرآن الكريم في مواطن كثيرة، ورغب فيه، ومدح أهله وأثنى عليهم أحسن الثناء وأطيبه، وفيما يلي أذكر بعض وجوه ورود الذكر في القرآن والسنة[1]، مع جمع ما تيسر لي من كلام أهل العلم حولها.

۞ المسألة الأولى: الأمر بالذكر والنهي عن ضده.

قد جاء الأمر بالذكر والنهي عن ضده في آيات وأحاديث كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف]، فيأمر الله عبده ورسوله ﷺ أصلًا وغيره تبعًا بذكر الله أول النهار وآخره، دون الرفع في القول، بل يكون متضرعًا خائفًا، ثم كرر الأمر ثانية بالنهي أن لا يكون من الغافلين عن

(١) ذكر ابن القيم رحمه الله عشرة أوجه لورود الذكر في القرآن الكريم، يراجع للفائدة، مدارج السالكين (٢/ ٣١٣-٣١٥).

الذكر، مما يؤكد وجوب الذكر وأهميته[١].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الذكر للّه تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر اللّه عبده ورسوله محمدا أصلا وغيره تبعا، بذكر ربه في نفسه، أي: مخلصًا خاليا.

﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: متضرعًا بلسانك، مكررا لأنواع الذكر، ﴿وَخِيفَةً﴾ في قلبك بأن تكون خائفًا من اللّه، وَجِلَ القلب منه، خوفًا أن يكون عملك غير مقبول...

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ الذين نسوا اللّه فأنساهم أنفسهم، فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على كل الشقاوة والخيبة في الاشتغال به»[٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢]، فجاء هذا الأمر الصريح بالذكر، وليس هذا فقط بل بالإكثار منه من غير حد، وقد ورد فيها من أنواع الذكر التسبيح، وهو قول (سبحان الله)، وورد فيها مؤقتا بالغدوة والأصيل، وهما الوقتان ـ ذاتهما ـ اللذان ذكرا في الآية الأولى، وقد ورد تقييد الذكر بهذين الوقتين كثيرًا، وذلك أنهما وقتان مهمان في اليوم، وهما طرفا النهار والليل، فالعمل فيهما يترك أثره الواضح على بقية الأوقات، فالإنسان يقوم بالغداة من النوم فيبدأ بذكر الله ليكون أول أعماله ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ فيبارك له في بقية نهاره، وإذا أراد أن يستقبل النوم الذي هو أخو الموت ختم يومه بالذكر

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٣/ ٣٥٣)، وتفسير البغوي (٢/ ١٨٨)، وتفسير القرطبي (٩/ ٤٣٣-٤٣٥)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٣-٣٧٤)، ومجموع الفتاوى (١٠/ ٣٣-٣٦).

(٢) تفسير السعدي (ص/ ٣١٤).

ليكون كفارة لما عسى أن يكون قد اقترفه في النهار، واستعدادا لإقبال الليل، ولعله لا يقوم من تلك النومة فيكون موته على ذكر الله ﷻ.

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى، المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن، لما في ذلك من جزيل الثواب وجميل المآب»، ثم أورد بعض الأحاديث في فضل الذكر، وأورد عن ابن عباس في تفسير الآية أنه قال: «إن الله لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدًّا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال العذر، غير الذكر، فإن الله تعالى لم يجعل له حدا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبًا على تركه، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٩١]، بالليل والنهار، في البر والبحر، في السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحَشر: ١٩]، ففي الآية نهي عن ضد الذكر وهو النسيان، حيث نهى الله سبحانه عباده المؤمنين أن يكونوا كالذين نسوا الله فلم يذكروه حين يجب ذكره، ولم ينقادوا لأمره ونهيه، فكان جزاؤهم أن أنساهم أنفسهم، فغفلوا عما يصلحها وما ينفعها في عاجلها وآجلها، وهذه النتيجة الطبيعية لمن نسي الله وغفل عن ذكره، فإن الجزاء من جنس العمل.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «و هذا النسيان ـ نسيان الإنسان لنفسه ولما في نفسه ـ حصل بنسيانه لربه ولما أنزله. . .

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، يقتضي أن نسيان

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٤٧-٦٤٨).

الله كان سببًا لنسيانهم أنفسهم، وإنهم لما نسوا الله عاقبهم بأن أنساهم أنفسهم.

ونسيانهم أنفسهم يتضمن إعراضهم وغفلتهم وعدم معرفتهم بما كانوا عارفين به قبل ذلك من حال أنفسهم، كما أنه يقتضي تركهم لمصالح أنفسهم، فهو يقتضي أنهم لا يذكرون أنفسهم ذكرًا ينفعها ويصلحها، وأنهم لو ذكروا الله لذكروا أنفسهم...

فلما دلت الآية على أن نسيان الإنسان نفسه مُسبَب عن نسيانه لربه، دل على أن الذاكر لربه لا يحصل له هذا النسيان لنفسه»[1].

وأما الأمر بالذكر في الأحاديث، فقد قال النبي ﷺ: «**وآمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعا حتى إذا أتى على حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله**»[2].

ففي الحديث أمر بذكر الله، وإخبار بأن الذكر من أقوى الأسباب لنجاة العبد من الشيطان، وقد ورد الحديث ضمن وصايا أمر الله نبيه يحيى عليه السلام أن يعمل بها، ويأمر بني أسرائيل بها، وقد بلغها بعد تأكيد عيسى عليه السلام، وقد أخبرنا به رسولنا محمد ﷺ تأكيدًا للمعنى الذي دل عليه، وهو الأمر بالأمور التي وردت فيه، ومن ضمنها: الأمر بذكر الله، وقد مثله بمن كاد عدوه يلحق به، فالتجأ إلى حصن حصين حال بينه وبين عدوه،

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٤٨-٣٤٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨/ ٤٠٤-٤٠٥)، والترمذي في سننه (ص/ ٦٤٠-٦٤١)، وقال: هذ حديث حسن صحيح غريب، وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٨-٥٢٩)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في تخريج الترغيب (٣٦٩٣).

وكذلك ابن آدم وعدوه الشيطان، دائمًا في معركة، ولا ينجي العبد من الهزيمة في هذه المعركة إلا ذكر الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان خليقا بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لَهِجًا بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده، فإذا غفل وثَبَ عليه وافترسه، وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله تعالى وتصاغر وانقمع، حتى يكون كالوصْع[(١)] وكالذباب، ولهذا سمي الوسواس الخناس، أي: يوسوس في الصدور فإذا ذكر الله تعالى خنس، أي: كف وانقبض»[(٢)].

**المسألة الثانية: بيان أهمية الذكر ومنزلته بين سائر الأعمال الصالحة.**

الذكر من أجل العبادات وأفضلها، كما بين ذلك شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين سئل عن أفضل الأعمال بعد الفرائض، فذكر أن ذلك يختلف باختلاف الناس والأوقات والأزمان، إلا أن الذكر أفضل ما شغل العبد به نفسه فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره: أن ملازمة ذكر الله دائما هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة، وعلى ذلك دل حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم: «**سبق المفردون**»، قالوا يا رسول الله ومن المفردون؟ قال: «**الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات**»[(٣)]، وفيما رواه أبو داود عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء**

---

(١) الوصْع، الصغير من العصافير، أو طائر يشبه العصفور في صغره، انظر: لسان العرب (١٥/ ٢٢٣).

(٢) الوابل الصيب (ص/ ٨٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١٠٧٥)، في كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى.

**الذهب والورق، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله»**[(١)]. والدلائل القرآنية والإيمانية بصرا وخبرا ونظرا على ذلك كثيرة، وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين ﷺ»[(٢)].

والحديثان اللذان استدل بهما شيخ الإسلام تبين أهمية الذكر، وأنه خير الأعمال، وأزكاها عند الله، وأرفعها في درجات العبد، بل ذكر الله خير من إنفاق الذهب والفضة، وخير من ملاقاة العدو ومقاتلتهم، وذلك أن ذكر الله ﷻ مما يبعث على هذه الأعمال، ولأنها من أجله شرعت، وإذا خلت هذه الأعمال من ذكر الله فلا تنفع صاحبها، وبعد كل هذا، فلا شك في سبق الذاكرين لغيرهم يوم القيامة.

ومما يبين أهمية الذكر، ويوضح منزلته بين سائر الأعمال الصالحة هو أن الله كثيرًا ما يقرن بين الذكر وبين كثير من الأعمال الصالحة، وجعله غاية بعضها، وأمر به في خاتمتها، وذلك أن العمل الصالح لكي يكون مقبولا، لا بد فيه أن يكون صاحبه محتسبًا الأجر من الله ﷻ، ولا يحتسب الأجر منه سبحانه إذا كان غافلا لاهيا عنه.

فأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يذكروه بعد الفراغ من المناسك، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

كما أنه جل وعلا أمرهم أن يذكروه تبارك وتعالى بعد صلاة الخوف

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦/ ٣٣-٣٤)، والترمذي في سننه (ص/ ٧٦٧)، في كتاب الدعوات، وابن ماجه في سننه (ص/ ٦٢٥)،في كتاب الأدب، باب فضل الذكر، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في المشكاة (٢٢٦٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٦٠).

على أي حال كانوا، قياما وقعودا وعلى جنوبهم، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «فقيد الأمر بالذكر بالكثرة والشدة، لشدة حاجة العبد إليه، وعدم استغنائه طرفة عين، فأي لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله عز وجل كانت عليه لا له، وكان خسرانه فيها أعظم مما ربح في غفلته عن ذكر الله عز وجل»[(١)].

بل أمر بالصلاة من أجل ذكره تعالى، لأن ذكره أجل المقاصد، وبه عبودية القلب وسعادته، فقال تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه]، فمن أهم أهداف الصلاة هو إقامة ذكر الله، بل هو المقصود بالقصد الأول، قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت][(٢)].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «قاعدة: الحسنات تعلل بعلتين: إحداهما؛

---

(١) الوابل الصيب (ص/ ٨٩).

(٢) قال ابن القيم رحمه الله معلقا على هذه الآية، «وفيها (أي في الآية) أربعة أقوال:

أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شيء، فهو أفضل الطاعات، لأن المقصود بالطاعات كلها إقامة ذكره، فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعنى إذا ذكرتموه ذكركم، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له.

الثالث: أن المعنى: ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر، بل إذا تم الذكر محق كل خطيئة ومعصية، هذا ذكره المفسرون.

الرابع: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: معنى الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين:

إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر.

والثانية: اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له، ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر»، مدارج السالكين (٢/ ٣١٤-٣١٥).

ما تتضمنه من جلب المصلحة والمنفعة، والثانية؛ ما تتضمنه من دفع المفسدة والمضرة...

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العَنكبوت: ٤٥]، فبيّن الوجهين جميعًا فقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ بيان لما تتضمنه من دفع المفاسد والمضار، فإن النفس إذا قام بها ذكر الله ودعاؤه ـ لا سيما على وجه الخصوص ـ أكسبها ذلك صبغة صالحة تنهاها عن الفحشاء والمنكر، كما يحسه الإنسان من نفسه...

وقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ بيان لما فيها من المنفعة والمصلحة أي ذكر الله الذي فيها أكبر من كونها ناهية عن الفحشاء والمنكر فإن هذا هو المقصود لنفسه كما قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الجُمُعَة]، والأول تابع، فهذه المنفعة والمصلحة أعظم من دفع تلك المفسدة»[1].

۞ المسألة الثالثة: المدح والثناء على الذاكرين، وذم من غفل عن الذكر.

ومن أساليب القرآن والسنة في الترغيب في الذكر هو ما جاء فيهما من مدح الذاكرين والثناء عليهم، وما جاء فيهما من الذم لمن لها وغفل عن ذكر الله تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٩٢-١٩٣)، وانظر أيضًا (١٠/ ١٨٨)، و(١٠/ ٧٥٣)، و(١٥/ ٣٤٤)، و(٣٢/ ٢٣٢).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عِمرَان]، فيخبر الله عن أولي الألباب الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض، وما أودع الله فيهما من الآيات والبراهين التي تدل على وحدانيته في الربوبية المستلزمة لإفراده بالألوهية، وأنه لا يمكن أن يكون هذا الخلق العظيم خلقا باطلا بدون حكمة، فيورث نظرهم هذا كثرة الذكر لله ﷻ، فيذكرونه في جميع أحوالهم قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، ثم ختم الآية بالدعاء ـ بعد توطئة بالثناء الذي هو أهم آداب الدعاء ـ، فيقولون: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمرَان: ١٩١].

وقال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النُّور]، أثنى الله على الذين يذكرون الله ويسبحونه في أحب البقاع إلى الله وهي المساجد، فهم رجال ليسوا ممن يؤثر على ربه الدنيا ـ وإن اشتغلوا بها ـ، بل يجعلون طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، وما حال بينهم وبينها رفضوا، لأنهم يعلمون أن هذه الأمور فانية، وأن ما عند الله باق، فيخافون اليوم الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار.

وبعدما نهى الله المؤمنين عن أن ينشغلوا بأموالهم و أولادهم عن ذكر الله، أخبر سبحانه بأن أولئك الذين تلهيهم الأموال والأولاد عن ذكر الله هم الخاسرون في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنَافِقون]، يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى آمرًا لعباده المؤمنين بكثرة ذكره، وناهيًا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك، ومخبرًا لهم بأنه من التَهَى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خُلِقَ له من

طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة»[(١)].

وأما في السُّنة، فقد جاء الثناء الكبير على الذاكرين، قال أبو هريرة رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له: جُمْدان[(٢)] فقال: «**سيروا هذا جمدان، سبق المفردون**»، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «**الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات**»[(٣)]، فقد أخبر النبي ﷺ أن المفردين سبقوا غيرهم وتفردوا عنهم، لكونهم يحوزون خيري الدنيا والآخرة، وقد فسر المفردون في الحديث بأنهم الذاكرون لله كثيرًا من الرجال والنساء، فهؤلاء يسبقون غيرهم وينفردون عنهم.

والمفردون في الأصل هم الذين هلك أقرانهم وانفردوا عنهم، فبقوا يذكرون الله تعالى، ولكن الظاهر أن المقصود في الحديث أن هؤلاء انفردوا بهذا العمل الذي هو كثرة ذكر الله، دون الانفراد الحسي[(٤)].

قال ابن رجب: «ومن هذا السياق[(٥)] يظهر وجه ذكر السابقين في هذا الحديث، فإنه لما سبق الركب وتخلف بعضهم، نبه النبي ﷺ على أن السابقين على الحقيقة هم الذين يديمون ذكر الله، ويولعون به»[(٦)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧٧).

(٢) جبل بين ينبع والعيص على ليلة من المدينة، انظر: معجم البلدان (٢/ ١٦١).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ٤)، وجامع العلوم والحكم (٢/ ٥١٢)، ومجموع الفتاوى (١٠/ ٨٥).

(٥) يشير إلى رواية الفريابي التي أوردها قبل هذا الكلام، وفيه: أن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ نسير بالدف إذ استنبه، فقال: «يا معاذ، أين السابقون؟»، فقلت: قد مضوا، وتخلف الناس، فقال: «يا معاذ، إن السابقين الذين يُستَهْتَرون بذكر الله»، وقد ذكر هذه الرواية الهيثمي في المجمع الزوائد (١٠/ ٧٣)، وقال: وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف.

(٦) جامع العلوم والحكم (٢/ ٥١٢).

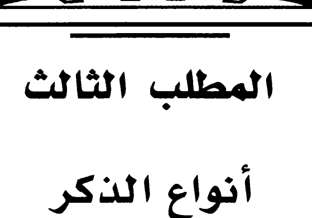
وقد جاء في السنة ذم الغافل واللاهي عن ذكر الله، وذلك بتشبيهه بالميت في بيوت الأموات، وأما الذاكر فهو كالحي في بيوت الأحياء، قال النبي ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**»، وفي رواية لمسلم: «**مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت**»[(١)].

قال ابن القيم رحمه الله: «فجعل بيت الذاكر بمنزلة بيت الحي، وبيت الغافل بمنزلة بيت الميت وهو القبر، وفي اللفظ الأول: جعل الذاكر بمنزلة الحي، والغافل بمنزلة الميت، فتضمن اللفظان: أن القلب الذاكر كالحي في بيوت الأحياء، والغافل كالميت في بيوت الأموات، ولا ريب أن أبدان الغافلين قبور لقلوبهم، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور، كما قيل:

**فنسيان ذكر الله موت قلوبهم وأجسامهم قبل القبور قبور**
**وأرواحهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشور**»[(٢)]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١١٢)، في كتاب الدعوات،باب فضل ذكر الله ﷻ، ومسلم في صحيحه (ص/٣٠٧)، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، وجوازها في المسجد.
(٢) مدارج السالكين (٢/٣١٧).



## المطلب الثالث

## أنواع الذكر

إن مما لا شك فيه أن من الأذكار المطلقة التي لم تربط بسبب، ولا مناسبة، ولا هيئة، ولا عدد، القرآن وهو أفضلها، ثم الذكر الذي هو ثناء، ثم يأتي الدعاء الذي هو سؤال، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، هذا من حيث النظر إلى كل منهما مجردًا»[(١)].

أما بالنسبة للذكر المأثور في وقت أو لسبب، فما ورد من الذكر مختصا بزمان، أو مكان، أو حال، فالاشتغال به أفضل من الاشتغال بقراءة القرآن أو الأذكار المطلقة، كإجابة المؤذن وأذكار الطواف، أو ما ورد النهي عن القراءة فيه كالركوع والسجود، فالتسبيح والتحميد في محلهما أفضل من القرآءة، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن الأفضل يتنوع تارة بحسب أجناس العبادات: كما أن جنس الصلاة أفضل من جنس القراءة، وجنس القراءة أفضل من جنس الذكر، وجنس الذكر أفضل من جنس الدعاء، وتارة يختلف باختلاف الأوقات: كما أن القراءة والذكر والدعاء بعد الفجر والعصر هو المشروع دون الصلاة، وتارة باختلاف عمل الإنسان الظاهر: كما أن الذكر والدعاء في الركوع والسجود هو المشروع دون القراءة، وكذلك الذكر والدعاء في الطواف مشروع بالاتفاق، وأما القراءة في الطواف ففيها نزاع معروف، و تارة باختلاف الأمكنة: كما أن المشروع بعرفة ومزدلفة وعند الجمار وعند الصفا والمروة هو الذكر والدعاء

---

(١) الوابل الصيب (ص/ ٢٣١).

دون الصلاة ونحوها، والطواف بالبيت للوارد أفضل من الصلاة، والصلاة للمقيمين بمكة أفضل، وتارة باختلاف مرتبة جنس العبادة: فالجهاد للرجال أفضل من الحج وأما النساء فجهادهن الحج، والمرأة المتزوجة طاعتها لزوجها أفضل من طاعتها لأبويها، بخلاف الأيمة فإنها مأمورة بطاعة أبويها، وتارة يختلف باختلاف حال قدرة العبد وعجزه: فما يقدر عليه من العبادات أفضل في حقه مما يعجز عنه، وإن كان جنس المعجوز عنه أفضل»[١].

فبالنظر إلى كلام شيخ الإسلام رحمه الله نجد أن الذكر بعد القرآن الكريم ـ الذي هو أفضل الذكر ـ ثلاثة أنواع[٢]:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٢٧-٤٢٨)، وانظر(١٠/ ٢٦٣-٢٦٤)، (١/ ١٨٣-١٨٤)،(١١/ ٣٩٩، و١١/ ٦٦٠)، (١٧/ ١٣٢-١٣٣، و (١١/ ١٣٩-١٤٠)، (١٩/ ١٢٠-١٢١)، (٢٢/ ٣٠٩، ٣٤٧-٣٤٨، ٣٨٨، ٣٩٥)، (٢٣/ ٦٢-٦٣)، و (٢٤/ ١٩٨، ٢٣٦-٢٣٩).

(٢) أما ابن القيم رحمه الله فقد اختلف تقسيمه لأنواع الذكر، ففي مدارج السالكين يذكر ثلاثة أنواع للذكر:

النوع الأول: ذكر الأسماء والصفات، ومعانيها، والثناء على الله بها، وتوحيده بها.

النوع الثاني: ذكر الأمر و النهي، والحلال والحرام.

النوع الثالث: ذكر الآلاء والنعماء، والإحسان، والأيادي، هو ثلاثة أنواع:

- ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان، وهو أعلاها،
- وذكر بالقلب وحده، وهو في الدرجة الثانية،
- وذكر باللسان المجرد، وهو في الدرجة الثالثة، مدارج السالكين (٢/ ٣١٨).

وقريب من هذا التقسيم ذكره في الوابل الصيب (ص/ ٢١٦-٢٢١)، إلا أن النوع الأول في مدارج السالكين، جعله نوعين:

النوع الأول: ذكر أسماء الرب وتعالى وصفاته، والثناء عليه بها، وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به تبارك وتعالى.

النوع الثاني: الخبر عن الرب تبارك وتعالى بأحكام أسمائه وصفاته.

وكذلك النوع الثاني: ذكر أمره و نهيه، في المدارج، جعله نوعين:

النوع الأول: ذكره بذلك إخبارا عنه بأنه أمر بكذا، ونهى عن كذا، (وقد تكلم شيخ الإسلام عن هذا النوع في المجموع، (١٠/ ٦٦١).

النوع الثاني: ذكره عند أمره فيبادر إليه، وعند نهيه فيهرب منه.

**النوع الأول**: هو ما كان ثناء محضًا على الله، مثل قوله ﷺ: «**سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك**»[(١)].

**النوع الثاني**: ما كان إنشاء من العبد، وهو الخبر عن عبادة العبد، مثل قوله ﷺ: «**اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك...**»[(٢)].

**النوع الثالث**: ما كان دعاء من العبد، مثل قوله ﷺ: «**اللهم باعد بيني وبين خطاياي، كما باعدت بين المشرق والمغرب**»[(٣)].

وما تعرض شيخ الإسلام لذكر هذه الأنواع إلا ليبين أن ما كان من الذكر ثناء محضًا هو أفضل من الذكر الذي بمعنى الدعاء، ولهذا أفضل ما

---

= ففي الوابل الصيب إذا ذكر خمسة أنواع.

أما في جلاء الأفهام، ذكر خمسة أنواع:

النوع الأول: ذكره بأسمائه صفاته، والثناء عليه.

النوع الثاني: تسبيحه وتكبيره وتهليله وتمجيده، هو الغالب من استعمال لفظ الذكر عند المتأخرين.

النوع الثالث: ذكره بأحكامه وأوامره ونواهيه، وهو ذكر العلماء، بل الأنواع الثلاثة هي ذكرهم ربهم.

النوع الرابع: هو ذكره بكلامه.

النوع الخامس: دعائه واستغفاره والتضرع إليه، جلاء الأفهام (ص/ ٥٣٠).

(١) أخرجه أبو داود في سننه (ص/ ١٣٧-١٣٨)، في كتاب الصلاة، والترمذي في سننه (ص/ ٧٠)، في كتاب أبواب الصلاة، وابن ماجه في سننه (ص/ ١٥٢)، في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، والحاكم في المستدرك (١/ ٣١٩)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الإرواء (٣٤١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٩٨)، في كتاب الدعوات، باب النوم على الشق الأيمن، ومسلم في صحيحه (ص/ ١٠٨٧)، في كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١١٠٦)، في كتاب الدعوات، باب التعوذ من المأثم والمغرم، ومسلم في صحيحه (ص/ ١٠٨٥)، في كتاب التعوذ من شر الفتن وغيرها.

يستفتح به في الصلاة هو ما كان ثناء محضا، ثم ذكر الأوجه التي تفضل الذكر المحض على الدعاء الذي هو سؤال، وإليك ملخصها:

**الوجه الأول:** إن الكلام إما إخبار، وإما إنشاء، وأفضل الأخبار ما كان خبرا عن الله، والإخبار عن الله أفضل من الخبر عن غيره، ومن الإنشاءات، ولهذا كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، لأنه تتضمن الخبر عن الله، وكانت آية الكرسي أفضل آية في القرآن لأنها خبر عن الله.

**الوجه الثاني:** ومما يبين فضل الذكر على المسألة، هو ما ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**أفضل الكلام بعد القرآن أربع، ـ وهنّ من القرآن ـ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»[1]، وهن الباقيات الصالحات.

**الوجه الثالث:** ففي الفاتحة، نوع الثناء أضافه الرب إلى نفسه، ونوع السؤال أضافه إلى عبده، «**إذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، قال: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، قال الله: مجدني عبدي. فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، قال: هذه الآية، بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾، إلى آخر السورة، قال: هؤلاء لعبدي، ولعبدي ما سأل**»[2].

**الوجه الرابع:** فجماهير العلماء على إيجاب الثناء، فيوجبون التشهد الأخير، وكذلك التشهد الأول عند بعضهم.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ٨٨٤)، في كتاب الآداب، باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١٦٩)، في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

أما الدعاء، فلم يجب منه دعاء منفرد أصلا، بل ما وجب من الفاتحة والتشهد وجب بعد الثناء.

**الوجه الخامس**: فالدعاء لم يشرع مجردا، أما الثناء فقد شرع مجردا بلا كراهة، فلو اقتصر في الاعتدال على الثناء، وفي الركوع والسجود على التسبيح، كان مشروعا بلا كراهة، ولو اقتصر في ذلك على الدعاء، لم يكن مشروعا، وفي بطلان الصلاة نزاع.

**الوجه السادس**: فالثناء يتضمن مقصود الدعاء، كما في الحديث: «**أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله**»(١)، فإن ثناء الداعي على المدعو بما يتضمن حصول مطلوبه، قد يكون أبلغ من ذكر المطلوب(٢)، كقول أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مثلًا: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وهذا أحسن من قوله: ارحمني.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (ص/٧٦٨)، في كتاب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، وابن ماجه في سننه (ص/٦٢٧)، في كتاب الدعاء، باب فضل الحامدين، وابن حبان في صحيحه (٣/١٢٦)، حسنه الألباني في الصحيحة (١٤٩٧).

(٢) بالمناسبة، فقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض صيغ الدعاء، وهي:

**الصيغة الأولى**: وصف حال الداعي، والتصريح بالدعاء، مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦].

**الصيغة الثانية**: وصف حال المدعو، والتصريح بالدعاء، كقوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

**الصيغة الثالثة**: الجمع بين حال الداعي والمدعو، كحال أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [الأعراف].

الصيغة الرابعة: الجمع بين حال الداعي والمدعو والتصريح بالدعاء، وهو أكمل الأنواع، مثل قول النبي ﷺ لما قال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، فقال: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فا غفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»، أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٣٥)، في كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٨٤)، في كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، (انظر: مجموع الفتاوى، ١٠/ ٢٤٤-٢٤٧).

**الوجه السابع:** ومما يبين فضل الثناء على الدعاء، أن الثناء المشروع يستلزم الإيمان بالله، وأما الدعاء فقد لا يستلزمه، إذ الكفار يسألون الله فيعطيهم، كما أخبر بذلك القرآن في أكثر من موضع...، بخلاف الثناء المشروع، كقوله: «**سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدك، ولا إله غيرك**»، فإن هذا لا يثني به إلا مؤمن.

**الوجه الثامن:** أن السائل غاية مقصوده حصول مطلوبه ومراده، فهو مريد من الله، وإن كان مطلوبه محبوبًا لله، مثل أن يطلب من الله إعانته على ذكره وشكره، وحسن عبادته، فهو يريد منه هذا الأمر المحبوب لله، أما إذ كان مراده مجرد سؤاله أمرًا دنيويًا، فالسائل إذا حصل سؤاله برد وأعرض عن الله في الغالب.

أما المثني، فهو ذاكر نفس محبوب الحق من أسمائه وصفاته، فالمطلوب بهذا معرفة الله ومحبته وعبادته، وهذا مطلوب لنفسه لا لغيره، وهو الغاية التي خلق لها الخلق، ثم له يحصل مقصود السائل المجرد ضمنا وتبعا، فهذا أرفع، لكن هذا إنما يتم لمن يخلص إيمانه فصار يحب الله، ويحب حمده وثناءه وذكره[(١)].

وخلاصة القول في الذكر عموما، أنه أنواع، وبين أنواعه تفاضل، وبحسب هذا التفاضل ينبغي أن يكون ترتيب الاشتغال به، فأفضل الذكر بالقرآن الكريم، ثم ما كان ثناء على الله ﷻ، ثم ما كان خبرًا من العبد عن عبادته، ثم ما كان دعاء من العبد، ومن هذا الترتيب ومن الأسباب التي مر ذكرها يتضح أفضلية الذكر بعمومه على الدعاء.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٧٦-٣٨٨).

## المطلب الرابع
## درجات الناس في ذكر الله

دل الكتاب والسنة على أن ذكر الله تعالى باعتبار ما يكون به ثلاثة أنواع[1]:

**النوع الأول:** الذكر بالقلب واللسان معا، وهو أفضل الذكر وهو المأمور به[2]، وهو ما يجتمع فيه ذكر اللسان والقلب بالتفكر في المعنى واستحضار عظمة الله تعالى.

فالذكر الجامع بين ذكر الله بالقلب واللسان أفضل من ذكره باللسان وحده دون مواطأة القلب ـ أي مع عدم إجرائه على القلب تسبيحًا وتهليلًا ونحوهما ـ، وأفضل من إمرار الذكر على القلب دون نطق باللسان.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإن انضاف إلى النطق الذكر بالقلب فهو أكمل، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى ونفي النقائص عنه ازداد كمالًا، فإن صح التوجه وأخلص لله تعالى في ذلك فهو أبلغ الكمال»[3].

**النوع الثاني:** الذكر بالقلب وحده، وهو ما يسمى أيضًا بالذكر الخفي، فالمراد من هذا الذكر هو ذكر الله تعالى تسبيحًا وتهليلًا ونحوهما بالقلب دون النطق باللسان، وهذا يأتي في الدرجة الثانية كما ذهب إليه

---

(١) إنما أخّرت إيراد هذه الأنواع للذكر، لأتناولها مع درجات الناس فيها في مطلب واحد.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٦٦)، و (١٥/ ٣٥)، والاستقامة (٢/ ١٧)، ومدارج السالكين (٢/ ٣١٨)، والوابل الصيب (ص/ ٢٢١)، والفوائد (ص/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٣) فتح الباري (١١/ ٢٠٩).

بعض أهل العلم، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده، لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ويهيج المحبة، ويثير الحياء ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويردع عن التقصير في الطاعات، والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئًا من ذلك الإثمار، وإن أثمر شيئًا منها فثمرته ضعيفة»[١].

**النوع الثالث:** الذكر باللسان وحده، وهو كون اللسان رطبا بذكر الله، فالمراد بالذكر باللسان هو أن يتحرك به لسانه ويسمع نفسه على الأقل إذا كان ذا سمع، ولم يكن هناك لغط يمنع السماع، وهذا يأتي في الدرجة الثالثة كما ذكر شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم رحمهما الله[٢]، للتعليل السابق في أفضلية الذكر بالقلب، لأن عمل السر أفضل وهو منشأ الأحوال.

وقد ذهب بعض أهل العلم أن الذكر باللسان أفضل من ذكر القلب، يقول محمد بن علان الشافعي[٣]: «والحق أن الأعلى ما جمع بين القلب واللسان، ثم اللساني، ثم القلبي، ونفي الثواب فيه من حيث الذكر لا ينافي حصوله من حيث حضور القلب مع الله، والمراقبة والمشاهدة له تعالى، ففيه ثواب، أي ثواب.

وإنما فُضل عليه اللساني لأن في الإتيان به امتثالًا لأمر الشارع من حيث الذكر بخلاف ذلك، ألا ترى أن ما تعبدنا به من الذكر لا يحصل إلا

---

(١) الوابل الصيب (ص/ ٢٢١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٦٦)، والاستقامة (٢/ ١٧)، ومدارج السالكين (٢/ ٣١٨)، والوابل الصيب (ص/ ٢٢١)، والفوائد (ص/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٣) هو محمد بن علي بن محمد بن إبراهيم بن علان البكري الصديقي الشافعي الأشعري، من مصنفاته: ضياء السبيل إلى معالم التنزيل، وله شرح رياض الصالحين المسمى «دليل الفالحين»، وله شرح الأذكار النووي المسمى «الفتوحات الربانية» وغيرها من الكتب، توفي سنة ١٠٥٧ هـ، انظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ـ للمحبي (٤/ ١٨٤).

بالتلفظ به بحيث يسمع نفسه، بخلاف ما إذ لم يسمع، بأن يأتي به همسا أو بقلبه فقط، فإنه لا يحصل له الامتثال ويقع في لوم الترك، وثواب الحضور إنما هو على جهة أخرى أجنبية عن المأمور به، فتأمل ذلك»[١].

ففُضل ذكر اللسان من ناحية الثواب، فإن الذكر باللسان حتى مع الغفلة عن المعنى يحصل به الثواب، لأن فيه امتثالا لأمر الشارع من حيث الذكر، أما الذكر بالقلب وحده فلا يحصل به الثواب من حيث الذكر، وإن حصل له الثواب العظيم من حيث حضور القلب مع الله والمراقبة والمشاهدة له تعالى.

فالناس في ذكره تبارك وتعالى ـ بهذا الاعتبار ـ على أربع درجات:

**الدرجة الأولى**: من يأتي بالذكر بالقلب واللسان، وهو المأمور به.

**الدرجة الثانية**: من يأتي بالذكر بالقلب فقط، فإن كان مع عجز اللسان فحسن، وإن كان مع قدرته فترك للأفضل.

**الدرجة الثالثة**: من يأتي باللسان فقط، وهو كون لسانه رطبا بذكر الله.

**الدرجة الرابعة**: من يترك الذكر بالقلب واللسان، وهو حال الخاسرين[٢].

---

(١) الفتوحات الربانية على الأذكار النووية (١/ ٦٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٦٦).

# المطلب الخامس

# الذكر المشروع والمبتدع

من المعلوم أن الذكر من أفضل العبادات، وهو مأمور به شرعًا كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب].

فالمسلم مطالب بذكر الله تعالى في كل وقت، بقلبه، وبلسانه، وبجوارحه، وهذا الذكر من أعظم مظاهر وبراهين التعلق بالله تعالى، ولاسيما أذكار ما بعد الصلاة، وطرفي النهار، والأذكار عند العوارض والأسباب، فإن الذكر عبادة ترفع درجات صاحبها عند الله، وينال بها الأجر العظيم دون مشقة أو تعب وجهد.

لكن ينبغي للمسلم أن يكون في ذكره لله تعالى ملتزمًا بحدود الشريعة ونصوصها، وهدي النبي ﷺ، وصحابته وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وذلك لأن الاتباع شرط لصحة العمل وقبوله عند الله تعالى، كما قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[(١)]، أي باطل مردود على صاحبه.

فلا ينبغي، بل ولا يجوز التقرب إلى الله تعالى إلا بما شرع، وبما بيَّن على لسان رسوله ﷺ، ومن هنا كان لزامًا على المسلم أن يلزم السنة في كل عباداته، وألا يحيد عنها قيد أنملة، وإلا أحبط عمله وأبطله إذا كان مخالفًا هدي رسول الله ﷺ في العمل.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٤٤٠)، في كتاب الصلح، ومسلم في صحيحه (ص/ ٧١٤)، في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكان ورد محدثات الأمور.

ولهذا فإن المسلم ينبغي له ألا يحدث في ذكره لله شيئًا مخالفًا لما كان عليه رسول الله ﷺ هو وأصحابه، وإلا كان مبتدعًا في الدين، محدثًا في العبادة ما ليس منها[١].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «لا ريب أن الأذكار والدعوات من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على التوقيف والاتباع، لا على الهوى والابتداع، فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنه لسان، ولا يحيط به إنسان، وما سواها من الأذكار قد يكون محرمًا، وقد يكون مكروهًا، وقد يكون فيه شرك مما لا يهتدي إليه أكثر الناس وهي جملة يطول تفصيلها، وليس لأحد أن يسن للناس نوعًا من الأذكار والأدعية غير المسنونة ويجعلها عبادة راتبة يواظب الناس عليها كما يواظبون على الصلوات الخمس، بل هذا ابتداع دين لم يأذن الله به».

ثم قال: «وأما اتخاذ ورد غير شرعي واستنان ذكر غير شرعي فهذا مما ينهى عنه، ومع هذا ففي الأدعية الشرعية والأذكار الشرعية غاية المطالب الصحيحة ونهاية المقاصد العلية، ولا يعدل عنها إلى غيرها من الأذكار المحدثة المبتدعة إلا جاهل أو مفرط أو متعد»[٢].

فالذكر المشروع وهو ذكر الله بالقلب، وتذكر آلائه ونعمائه، وكذلك تذكر بأسه الشديد الذي لا يرد عن القوم المجرمين، وكذلك ذكره باللسان بالأذكار الشرعية الواردة في الكتاب والسنة مع تقييد المقيد منها، بالزمن أو

---

(١) الذكر الجماعي بين الاتباع والابتداع (ص/٨)، للشيخ الدكتور: محمد بن عبد الرحمن الخميس.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥١١).

العدد، وإطلاق المطلق عنهما، وذلك وقوفًا عند الحد، وتمشيًا مع الشرع، فالمشروع من الأذكار لا بد من توفر ثلاثة عناصر:

١ ـ أن يكون بالأسماء الحسنى أو الصفات العليا، أو بما رود في الكتاب والسنة من ألفاظ أخرى(١).

٢ ـ أن لا يقيد بقيد لا دليل عليه من الكتاب أو السنة.

٣ ـ أن يطلق المقيد ولا يزاد فيه، ولا ينقص منه(٢).

فالمبتدع من الأذكار هو الذكر الذي لم يتوفر فيه أحد هذه العناصر، وذلك إما بإنشاء أذكار تتضمن صرف حقوق الله من العبادة والتذلل والخضوع إلى غيره، أو تتضمن الكفر بأي وجه كان،

أو تكون أذكارًا تتضمن جزءًا مما يدخل في حد البدعة، من التعيين والإلزام والحدود، ومن تحديد الكيفية والهيئة، والعدد والأجر(٣).

فالابتداع في الأذكار له أشكال ومظاهر شتى، منه:

---

(١) أو أن يكون من إنشاء العبد من عند نفسه مع التقيد بمضمون الشرع وضوابطه، وقد ذكر العلماء الضوابط التي يجب توفرها لإنشاء الذكر، وهي:
- أن يكون التوجه فيه إلى الله خالصا من أي شائبة لغيره.
- أن يكون المنشأ متضمنا للثناء على الله بما هو أهله.
- أن لا يكون مما يستلزم نقصا في حقه سبحانه بوجه من الوجوه.
- أن تكون ألفاظ ما ينشأ واضحة وبينة.
- أن تكون معاني ما ينشأ جامعة ومانعة وبينة.
- أن يكون الذكر المنشأ مطلقا غير مقيد بزمان ولا مكان ولا هيئة ولا عدد.
- وإذا كان المنشأ دعاء فعلى الداعي أن يجتنب الاعتداء فيه، والاعتداء في الدعاء يكون تارة في كثرة الألفاظ، وتارة في المعاني. انظر: ذكر الله تعالى بين الاتباع والابتداع، (ص/٨٩-٩٠).

(٢) أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٣٧٥-٣٧٦).

(٣) انظر: ذكر الله تعالى بين الاتباع والابتداع (ص/٢٢٨-٢٣١).

١ ـ ذكر الله ﷻ بأسماء لم ترد في الكتاب والسنة، مثل قول بعض الصوفية: يا هو، أو لا هو إلا هو.

٢ ـ تقييد الأذكار التي وردت مطلقة بقيود لم ترد في الكتاب والسنة، سواء قيدت بالعدد كأمر بعض المشايخ بالتسبيح كذا مرة، والتهليل كذا مرة، أو بالزمان كأمرهم مريديهم بالذكر في أوقات معينة وعدم تجاوز تلك الأوقات، أو فترة محدودة من اليوم أو الشهر، أو بالهيئة كأمرهم للمريد أن لا يأتي هذا الورد المعين إلا وهو مغمض عينه، أو متحول إلى جهة كذا، أو إلا في خلوة في غرفة مظلمة كاملة الإظلام، أو نحو ذلك.

٣ ـ إطلاق ما ورد مقيدًا من الأذكار أو الزيادة عليه، أو النقصان منه، كالزيادة على العدد الوارد في الأحاديث الصحيحة من التسبيح والتحميد والتكبير الوارد عقب الصلوات المفروضة، أو النقص منه، فمن زاد على ذلك أو نقص فقد ابتدع.

٤ ـ الذكر بلفظ الجلالة مفردا (الله)، وهذا مما ابتدعته المتصوفة ولم يأت في الكتاب ولا السنة الصحيحة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ومن زعم أن هذا[١] من ذكر العامة، وأن ذكر الخاصة هو الاسم المفرد، وذكر خاصة الخاصة هو الاسم المضمر فهم ضالون غالطون»[٢].

فالشرع لم يستحب من الذكر إلا ما كان كلامًا تامًّا مفيدًا، قال شيخ الإسلام: «أما الاسم المفرد مظهرًا أو مضمرًا، فليس بكلام تام ولا جملة مفيدة، ولا يتعلق به إيمان ولا كفر، ولا أمر ولا نهي، ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة، ولا شرع ذلك رسول الله ﷺ، ولا يعطى القلب بنفسه

(١) أي (لاإله إلا الله).

(٢) العبودية (ص/١١٦).

معرفة مفيدة، ولا حالا نافعًا. ..، والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيده بنفسه لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره»، إلى أن قال: «والذكر بالاسم المفرد أبعد عن السنة وأدخل في البدعة، وأقرب إلى إضلال الشيطان»، إلى أن قال: «والمقصود هنا: أن المشروع في ذكر الله هو ذكره بجملة تامة، وهو المسمى بالكلام الواحد منه بالكلمة، وهو الذي ينفع القلوب، ويحصل على الثواب والأجر، والقرب إلى الله، ومعرفته ومحبته وخشيته، وغير ذلك من المطالب العالية والمقاصد السامية.

وأما الاقتصار على الاسم المفرد مظهرًا أو مضمرًا فلا أصل له، فضلا عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين، بل هو وسيلة من أنواع البدع والضلالات وذريعة إلى تصورات أحوال فاسدة من أحوال أهل الإلحاد وأهل الاتحاد»[١].

والحاصل أنه ينبغي على المسلم ألا يحدث في ذكره لله شيئًا مخالفًا لما كان عليه رسول الله ﷺ هو وأصحابه، فإن فيه الكفاية والرشد، ومن ابتغى الهدى في غيره كان مبتدعًا في الدين، محدثًا في العبادة ما ليس منها، ومآله إلى الخسران والخذلان.

---

(١) العبودية (ص/١١٧-١٢٧)، باختصار، وانظر: المجموع (١٠/٥٥٦) وما بعدها.



## المطلب السادس

## ثمرات الذكر

فلا ريب أن ذكر الله ودعاءه هو خير ما أمضيت فيه الأوقات وصرفت فيه الأنفاس، وأفضل ما تقرب به العبد إلى ربه ﷻ، وهو مفتاح لكل خير يناله العبد في الدنيا والآخرة، (فمتى أعطى الله العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضله بقي باب الخير مرتجًا دونه)(١)(٢).

وللذكر ثمرات وفوائد كثيرة، فيما يلي أحاول أن أذكر بعضها(٣):

ـ إن الإكثار من ذكر الله تعالى من علامات الإيمان به سبحانه، فذكر الله ـ سواء كان بالقلب أو باللسان ـ أمان من النفاق، لأن الذي يجر إلى النفاق وغيره من أنواع البعد عن الله إنما هو الغفلة عن الله وترك ذكره، ولهذا قال بعض السلف: «من أكثر ذكر الله برئ من النفاق»(٤).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويشهد لهذا المعنى(٥) أن الله تعالى وصف

---

(١) الفوائد (ص/ ١٤١).

(٢) فقه الأدعية والأذكار (١/ ٧)، لشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر.

(٣) ذكر ابن القيم في الوابل الصيب ثلاثة وسبعين فائدة للذكر (ص/ ٩٤-٢٠٦)، فلتراجع فهي نافعة.

(٤) ذكره ابن القيم في الوبل الصيب (١٩٥)، وابن رجب في جامع العلوم والحكم عن أبي بن كعب (٢/ ٥١٥)، وأشار إلى وروده مرفوعا عند الطبري بإسناد فيه شيخ الطبري محمد بن سهل العسكري الذي قال فيه الذهبي: راو للموضوعات، انظر: ميزان الاعتدال (٦/ ١٨٠) للذهبي، وقد ضعفه الألباني في سلسلة الضعيفة (٨٩٠).

(٥) أي معنى حديث ضعيف أورده، وهو: «من لم يذكر الله فقد برئ من الإيمان»، وقد أخرجه الطبراني في الصغير برقم (٩٧٤)، بنفس الإسناد الوارد في التعليق السابق.

المنافقين بأنهم لا يذكرون الله إلا قليلًا[١]، فمن أكثر من ذكر الله فقد باينهم في أوصافهم، ولهذا ختمت سورة المنافقين[٢] بالأمر بذكر الله، وأن لا يلهي المؤمن عن ذلك مال ولا ولد، وأن من ألهاه ذلك من ذكر الله فهو من الخاسرين»[٣].

- إن من ثمرات الذكر وفوائده أنه يورث المحبة التي هي روح الإسلام وقطب رَحى الدين، ومدار السعادة والنجاة، وقد جعل الله لكل شيء سببًا، وجعل سبب المحبة دوام الذكر، فمن أراد أن ينال محبة الله ﷻ فليَلْهَج بذكر الله[٤].

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا محركات القلوب الثلاثة، وأن أقواها المحبة، لكن في بعض الأحيان، قد لا تكون محبة تبعثه على طلبه محبوبه، فأي شيء يحرك القلوب، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يحركها شيئان:

**أحدها**: كثرة الذكر للمحبوب، لأن كثرة ذكره تعلق القلب به، ولهذا أمر الله ﷻ بالذكر الكثير، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ [الأحزاب].

**والثاني**: مطالعة آلائه ونعمائه، قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝٥٣﴾ [النحل: ٥٣].

فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه، من تسخير السماء والأرض، وما

---

(١) يشير إلى الآية: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝١٤٢﴾ [النساء].

(٢) يشير إلى الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون].

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٥١٦).

(٤) الوابل الصيب (ص/ ٩٤).

فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة والظاهرة، ومن الإيمان وغيره، فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثا»[(١)].

وكذلك حينما جاء في ذكر فوائد إخفاء الدعاء، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها[(٢)]، وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها، ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقترن بالخوف، فإنها لا تنفع صاحبها بل تضره، لأنها توجب التواني والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات...»[(٣)].

ـ ومن ثمرات الذكر وفوائده، أن بالذكر تحصل طمأنينة القلب، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرّعد]، فالقلوب المؤمنة بالله المصدقة بوعده ووعيده لا تطمئن ولا تستريح ولا تسكن إلا بذكر ربها، فذكر الله هو غذائها وروحها، وهو الذي يزيل قلقها واضطرابها، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في سياق تقريره أن الله يجب أن يفرد بالمحبة، وأن الله يجب أن يكون محبوبا مرادا لذاته، وأن هذه المحبة محبة مختصة به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على سبيل الخضوع له والتعظيم، يوضح ذلك علاقته بالذكر فيقول: «ولهذا كانت القلوب تطمئن بذكره، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: ٢٨]، فتقديم المفعول يدل على أنها لا تطمئن إلا بذكره، وهو تعالى إذا ذكر وجلت (أي قلوب العباد)، فحصل لها اضطراب ووجل لما تخافه من دونه، وتخشاه من فوات نصيبها منه، فالوجل إذا ذُكر حاصل بسبب من الإنسان، وإلا فنفس ذكر الله يوجب الطمأنينة، لأنه هو المعبود لذاته، والخير كله منه»[(٤)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٩٥-٩٦).

(٢) فقد ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ عشر فوائد في إخفاء الدعاء، انظر: مجموع الفتاوى (١٥/ ١٥-٢٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٠).

(٤) كتاب النبوات (١/ ٣٧٨)، وانظر: التحفة العراقية (ص/ ٤٢٣-٤٢٤).

- ومن ثمرات الذكر وفوائده، أنه يورث حياة القلب، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ سمعت شيخ الإسلام قدس الله روحه يقول: «الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف كان حال السمك إذا فارق الماء؟!»[(١)].

ويقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: «وهؤلاء[(٢)] هم الذين يطلبون لذة النظر إلى وجهه الكريم، ويتلذذون بذكره ومناجاته، و يكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك، حتى لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم ما لا يطيقون»[(٣)].

- ومن ثمرات الذكر وفوائده، أنه قوت القلوب والروح، فإذا فَقَده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغذ هذا الغذاء لسقطت قوتي، أو كلاما قريبا من هذا»[(٤)].

- ومن ثمرات الذكر وفوائده، أنه يورث ذكر الله تعالى له، كما قال

---

(١) الوابل الصيب (ص/ ٩٦).

(٢) يريد شيخ الإسلام بهؤلاء: الذين يحبون الله بما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا. لأن محبة الله قسمان:

**القسم الأول**: محبة العبد ربه لأجل إحسانه إليه، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، والله سبحانه وتعالى هو المنعم المحسن إلى عبده بالحقيقة، ولكن هذه المحبة إذا لم تجذب القلب إلى محبة الله نفسه، فما أحب العبد في الحقيقة إلا نفسه.

**القسم الثاني**: محبة العبد لربه لما هو أهل له، وهذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله، وهي محبة الله لما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا.

(٣) التحفة العراقية (ص/ ٤٥٢).

(٤) الوابل الصيب (ص/ ٩٦).

تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولو لم تكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلًا وشرفًا»[١].

قال النبي ﷺ: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم**»[٢]، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا الذكر يختص بمن ذكره، فمن لا يذكره لا يحصل له هذا الذكر، ومن آمن به وأطاعه ذكره برحمته، ومن أعرض عن الذكر الذي أنزله أعرض عنه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦﴾ [طه]»[٣].

وخلاصة القول أن القلب لا ينبغي أن يخلو من ذكر الله أبدًا، لأن قوام إيمان القلب بذكر الله، ولأن سلو القلب واطمئنانه وراحته فيه، (وهو قوت القلوب الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورًا، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورًا، وهو سلاحهما الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق.

وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقا، ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقا، وإذا واطأ ذكر قلبه للسانه، نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شي، وكان له عوضًا من كل شيء.

وبه يزول الوقْر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار، زين الله به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين.

---

(١) المصدر نفسه (ص/٩٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٢٧٣)، في كتاب التوحيد، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٧٠)، في كتاب الذكر و الدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى .

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٣٤).

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

وهو روح الأعمال الصالحة، فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه)(١).

فأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجعل ألسنتنا رطبة بذكره، وأن يجعلنا ممن يذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ويدخلنا في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وينجينا من النار، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

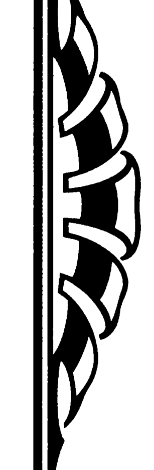
---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣١٢-٣١٣)، باختصار.





# المبحث الثامن عشر:
# الشكر



وفيه خمسة مطالب:

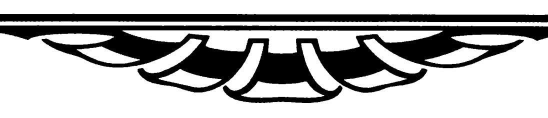
المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أوجه الشكر.

المطلب الرابع: بعض الفرق أنكرت شكر الله عز وجل.

المطلب الخامس: ثمرات الشكر.



# المطلب الأول

# التعريف اللغوي والشرعي

۞ المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

الشكر في اللغة، من مادة شكر، يشكر، شكرًا، وشكورًا، وشكرانًا، وهو الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف، أو هو الرضا باليسير(١).

قال ابن فارس: «الشين والكاف والراء أصول أربعة متباينة بعيدة القياس. فالأول: الشكر: الثناء على الإنسان بمعروف يوليكه، ويقال إن حقيقة الشكر الرضا باليسير، يقولون: فرس شَكور، إذا كفاه لسمنه العلف القليل، وينشدون قول الأعشى(٢):

**ولا بد من غَزوة في المَصِيـ ـف رهب تُكِلّ الوقاح الشكورا»(٣)**

وهذا الأصل الأول هو المقصود في هذا المبحث، أما الأصول الثلاثة الأخر فلا تعلق لها بما نحن في صدده.

---

(١) انظر: القاموس المحيط (ص/٥٣٧-٥٣٨)، وتهذيب اللغة (١٠/ ١٢)، ولسان العرب (١١٥/٨).

(٢) هو ميمون بن قيس بن جندل القيسي، أبو بصير الشاعر المشهور بأعشى قيس، شاعر جاهلي قديم، أدرك الإسلام في آخر عمره ولكنه لم يسلم، انظر ترجمته في الشعر والشعراء (٢٥٧/١).

(٣) معجم مقاييس اللغة (ص/ ٥١٢)، ثم ذكر ابن فارس المعاني الثلاثة الأخر، وهي:
**الثاني**: الامتلاء والغرز في الشيء، ومنه شَكِرت الشجرةُ، إذا كثُر فيئُها.
**الثالث**: الشكير من النبات، وهو الذي ينبت من ساق الشجرة.
**الرابع**: الشَكر، وهو النكاح، ويقال الفرج.

والشكر يتعدى باللام، فيقال: شكر له، قال تعالى: }ط٤_٦ءط٤ ؤؤش{، وربما تعدى بنفسه فقيل، شكره، ولكن هذا قليل في لغة العرب.

قال الفراء[١]: «والعرب لا تكاد تقول: شكرتك، إنما تقول: شكرت لك، ونصحت لك، ولا يقولون: نصحك»[٢].

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

اختلفت عبارات السلف في تعريف الشكر تبعًا لتفسيره تارة بأسبابه، وتارة بلازمه، وتارة بثمراته وغير ذلك من متعلقاته، وسبب ذلك ـ كما أسلفنا ـ أنه يصعب على المتكلم أن يحد الأعمال القلبية بحد، أو يحصرها بلفظ، فمن تلك التعريفات أن الشكر هو:

ـ الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع.

ـ الثناء على المحسن بذكر إحسانه.

ـ عكوف القلب على محبة المنعم والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره، والثناء عليه.

ـ هو مشاهدة المنة، وحفظ الحرمة[٣].

وقال الجرجاني: «هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من السمع والبصر وغيرهما إلى ما خلق لأجله»[٤].

---

(١) هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، أبوزكرياء، المعروف بالفراء: العالم بالنحو واللغة وفنون الأدب. له كتاب: معاني القرآن، والمذكر والمؤنث، وكتاب اللغات، وغيرها. وكان مع تقدمه في اللغة فقيهًا متكلمًا، عالمًا بأيام العرب وأخبارها، عارفًا بالنجوم والطب، يميل إلى الاعتزال. ولد سنة ١٤٤هـ. وتوفي سنة ٢٠٧هـ. انظر: السير (١٠/ ١١٨)، والأعلام (٨/ ١٤٥).

(٢) معاني القرآن (١/ ٧٠).

(٣) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٨١).

(٤) التعريفات (ص/ ١٣١).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشكر وهو العمل بطاعة الله تعالى»[١].

وبالنظر إلى هذه التعريفات ـ والتي لم أذكرها ـ فإنها تشير إلى خمسة أسس للشكر، التي إذا عدم منها واحد، اختل من قواعد الشكر قاعدة، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحقيقته في العبودية، هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافًا، وعلى قلبه: شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه: انقيادا وطاعة.

والشكر مبني على خمسة قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره»[٢].

فالشكر إذا ينتظم عمل القلب واللسان وسائر الجوارح، إلا أنه بقي أن أشير إلى مسألة، ألا وهي؛ أن المصائب أيضًا داخلة في مفهوم النعم، لأنها لا تخلو من منح إلهية في ثناياها، ولذلك فإن العبد كلما أصيب بمصيبة عليه أن يصبر، وعليه أيضًا أن يحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليها، ومستوجب الحمد في ذلك ما قاله شريح[٣]: «ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان له فيها ثلاث نعم: ألا تكون كانت في دينه، وأن لا تكون أعظم مما كانت، وأنها لا بد كائنة فقد كانت»[٤].

ويعني بهذا القول أن المصائب الدنيوية التي تصيب الإنسان يجب أن يحمد الله عليها، إذ لم تكن في دينه، وكذلك كان يمكن أن تكون أعظم

---

(١) قاعدة في الصبر (ص/١٠٣).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٨١).

(٣) هو شريح بن الحارث بن قيس بن جهم الكندي، أبو أمية، أسلم في عهد النبي ﷺ ولكنه لم يلقه، ولي قضاء الكوفة في زمن عمر وعثمان وعلي ومعاوية، واستعفى في أيام الحجاج فأعفاه، توفي بالكوفة ٧٨ هـ، انظر: أخبار القضاة لوكيع (٢/ ١٨٩)، طبقات ابن سعد (٨/ ٢٥٢)، والسير (٤/ ١٠٠).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (٣/ ٣٦)، انظر: عدة الصابرين (ص/ ٢٣٣).

مما وقعت، كما أنها كان لا بد لها أن تقع، لأنها مقدرة عليه، فلما وقعت استراحت نفسه من طول الانتظار[١].

والخلاصة أن الشكر هو اعتراف العبد بنعم الله عليه، وثناؤه عليه بها، واستعمالها فيما يرضى، وكذلك الرضا بالقضاء والقدر، وملاحظة المنح الإلهية في المحن والمصائب[٢].

**۞ المسألة الثالثة: الفرق بين الحمد والشكر.**

قبل أن أبين الفرق بين الحمد والشكر، يحسن بنا أن نعرف الحمد حتى نكون على علم ما الذي نبينه، فالحمد هو الثناء على الله بذكر صفاته العظيمة ونعمه العميمة مع حبه وتعظيمه وإجلاله، وهو مختص به سبحانه لا يكون إلا له، فالحمد كله لله رب العالمين[٣].

والشكر عرفنا أنه: هو ظهور نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافا، وعلى قلبه: شهودا ومحبة، وعلى جوارحه: انقيادا وطاعة.

فالحمد والشكر يجتمعان في أن كلا منهما ثناء على الله ﷻ ناشيء عن محبته والخضوع له والانقياد لأمره، كما أن كلا منهما مأمور به، مرغوب إليه.

ولكنهما يفترقان من وجهين:

---

(١) وقد زاد ابن قدامة على هذه الأسباب سببين اثنين يجعلان العبد شاكرا عند المصيبة، وهما:
**الأول**: أن هذه المصيبة والعقوبة كان يمكن أن تكون في الآخرة، فلما كانت في الدنيا كانت أخف، فإن مصائب الدنيا يسلى عنها فتخف، ومصيبة الآخرة دائمة.
**والثاني**: أن العبد إذا وفق للصبر على المصيبة لا شك أن فيه ثوابًا جزيلاً، فشكر الله على توفيقه لهذه العبادة التي حصل له بها أجر عظيم، انظر: مختصر منهاج القاصدين (ص/ ٢٩٠).

(٢) أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/ ٣٣٣).

(٣) فقه الأدعية والأذكار (١/ ٢٣٥)، لشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر.

**الأول**: أن الحمد ثناء على الله باللسان والقلب، والشكر يكون باللسان والقلب والجوارح.

**الثاني**: أن الحمد ثناء في مقابل النعم وغيرها من الصفات الحسنة، بينما الشكر لا يكون إلا في مقابل النعم.

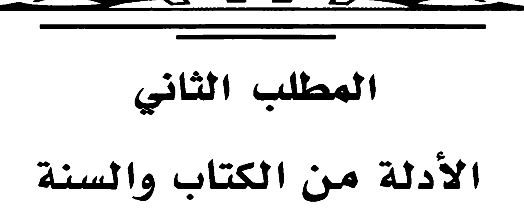
فبين الحمد والشكر علاقة عموم وخصوص من وجه،

فالحمد أعم من حيث السبب الموجب له وهو النعم والصفات الحسنة، وأخص من حيث الأداء وهو اللسان والقلب.

والشكر أخص من حيث الموجب له وهو النعمة فقط، وأعم من حيث الأداة وهي بالقلب واللسان والجوارح[1].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ١٣٣-١٣٤)، ومدارج السالكين (٢/ ١٨٣).



## المطلب الثاني
## الأدلة من الكتاب والسنة

فإن الشكر من أعظم خصال الخير التي أمر الله بها في كتابه العظيم، وحث رسوله الكريم ﷺ عليها في سنته المطهرة، وهو من أعلى المنازل، وهو فوق منزلة الرضا وزيادة، فالرضا مندرج في الشكر، إذ يستحيل وجود الشكر بدونه.

وهو نصف الدين، فإن الإيمان نصفان؛ نصف صبر، ونصف شكر(١)، فالعبد في هذه الدنيا بين مصيبة يحتاج إليها إلى الصبر، وبين نعمة يقابلها بالشكر، وقد أمر الله به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سببًا لمزيد من فضله، وحارسًا وحافظًا لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسمًا من أسمائه، فإنه سبحانه هو الشكور، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكورًا، وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده(٢)، وفيما يلي أذكر بعض الأساليب لورود الشكر في نصوص الكتاب والسنة.

۞ المسألة الأولى: الأمر بالشكر، والنهي عن ضده.

إن نعم الله علينا كثيرة لا تعد ولا تحصى كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ولذلك يجب علينا أن نشكر الله تعالى على هذه النعم صباح مساء، وأن لا نغفل عن ذلك أبدًا حفاظا على

---

(١) انظر قاعدة في الصبر(ص/ ٨٩-٩٠).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٨٠).

هذه النعم وحتى تدوم لنا كما وعد الله من شكر بالزيادة والتعظيم، ومن كفر بالعذاب الأليم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم].

ومن أعظم نعم الله علينا أن أرسل إلينا الرسل ليخرجونا من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد، وعلى مقدمة هؤلاء الرسل ـ فضلًا وشأنًا ـ نبينا صلوات ربي وسلامه عليه، قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝١٥١ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ۝١٥٢﴾ [البقرة]، أي كما أرسل إليكم رسولًا من جنسكم يتلو عليكم آياته ويعلمكم ما أنزل من الكتاب والحكمة، ويرشدكم إلى ما فيه فلاحكم وتزكيتكم في الدنيا والآخرة، وهذه النعمة تستوجب منكم الشكر لله تعالى، فعليكم لذلك أن تذكروا الله وتشكروا له على هذه النعمة الجليلة التي ليس فوقها نعمة، ولا تقابلوا الإحسان بالإساءة، ولا النعمة بالكفر، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والمقصود أنه أمر بذكر النعم وشكرها»[1].

ومن نعم الله على عباده التي تستوجب الشكر هي الطيبات التي أحلها الله لهم في هذه الحياة الدينا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧٢﴾ [البقرة]، يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده، فمن تحقيق العبودية لله أن يصرف جميع أنواع العبادة له، ومنها الشكر، بل العبادة هي شكر الله سبحانه، وجميع أنواعها شكر له، ولهذا يقابل الشكر بالكفر دليلًا على أن من لم يشكر فهو كافر، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان].

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٩٣).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فأمر بأكل الطيبات والشكر لله، فمن حرم الطيبات كان معتديا، ومن لم يشكر كان مفرطًا مضيعًا لحق الله»[(١)].

فالشكر والعبادة متلازمان، فإن عبادة العبد لا تتم إلا بشكر الله، كما أن الشكر لا يتم بدون إخلاص العبادة له وحده دون سواه[(٢)].

ونظير هذا ـ أي اقتران الشكر بالعبادة ـ هو قول الخليل عليه السلام: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، يذكر الله تعالى أنه أرسل خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم إلى الله وتوحيده، وذلك ببيان أن ما يعبدون من دونه أوثان مخلوقة ناقصة، لا تملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فهي لا تملك حتى رزقهم، وفي جهة أخرى فإن الله هو المتفرد بالنفع والضر، وأنه هو المتفرد بالنعم ومنها الرزق، وأنه وحده هو الرزاق، وإذا كان الأمر كذلك فاعبدوه وحده لا شريك له، واشكروه وحده لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فمنه، وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم فهو الدافع لها[(٣)].

والشكر لا يجدي المولى عز وجل لاستغنائه المطلق عن الخلق، وإنما يعود عليهم بالنفع، لإعرابه عن تقديرهم للنعم الإلهية، واستعمالها في طاعته ورضاه، وفي ذلك سعادتهم وازدهار حياتهم.

لذلك دعت الشريعة الى التخلق بالشكر والتحلي به، وأن تعكس صوره في شتى مجالاته، فكما يكون بالقول فينبغي أن يكون بالفعل أيضا،

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣١٢).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٣٣-٣٤).

(٣) انظر: تفسير السعدي (ص/ ٦٢٨).

كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سَبَإ: ١٣]، فهذه الآية دليل على أن الشكر كما يكون بالقول فإنه يكون بالعمل أيضًا[(١)].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي وقلنا لهم: اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا، وشكرا مصدر من غير الفعل، أو أنه مفعول له، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية، كما قال شاعر:

**أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا**

قال أبو عبد الرحمن السلمي: «الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تعمله لله عَزَّوَجَلَّ شكر، وأفضل الشكر الحمد»»[(٢)]، ولهذا قال شيخ الإسلام:

«الشكر هو العمل بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ».

وقال القرطبي: «فظاهر القرآن والسنة أن الشكر يكون بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان، فالشكر بالأفعال عمل الأركان، والشكر بالأقوال عمل اللسان»[(٣)].

فالخلاصة من هذه الآيات أن الشكر من أجل الأعمال المأمور بها، ولأهميته قرن بالعبادة في غير ما آي في القرآن، كما فيها النهي عن ضده، وتسمية ذلك الضد كفرًا لبيان شناعة جرم من لا يشكر الله على آلائه ونعمائه.

المسألة الثانية: الثناء على أهله، ووصف خواصه به.

لدى استعراضنا لبعض نصوص الكتاب والسنة، نجد أن الشكر لله تعالى من أهم السمات التي اتصف بها خواص أوليائه، من الأنبياء

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ١٣٤).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٩٢).
(٣) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٧٩).

والمرسلين والصالحين من عباد الله، وإليكم بعض النماذج من شكر بعض الأنبياء:

يقول الله عن عبده الشكور نوح عليه السلام: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء]، يقول الله تعالى لذرية من حمله مع نوح مهيجا ومنبها على المنة، أي يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم[(١)]، فـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، فجعله كالعلة لما قبله إيذانا بكون الشكر من أعظم أسباب الخير ومن أفضل الطاعات، وحثا لذريته على شكر الله سبحانه[(٢)].

وقد وصف الباري خليله بالشكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١]، بعد ما ذكر الله جملة من الصفات الحميدة التي اتصف بها خليله ابراهيم ختمها بوصفه بأنه كان شاكرا لأنعمه عليه، وقد (أخبر عنه سبحانه بأنه أمة، أي قدوة يؤتم به في الخير، وأنه قانت لله، والقانت هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه، ثم ختم هذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه، فجعل الشكر غاية خليله)[(٣)].

وكان سليمان عليه السلام يحمد الله عز وجل أن أنعم عليه ووالديه نعما كثيرة، ومنها النبوة، والحكمة، ومعرفة منطق الطير وغيرها من النعم، ولذلك كان من دعائه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، أي ألهمني أن

---

(١) انظر: نفسير ابن كثير (٣/ ٣٧).

(٢) انظر: فتح البيان (٧/ ٣٥٤).

(٣) عدة الصابرين (ص/ ٢٢٣).

أشكر نعمتك التي مننت بها عليّ من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك والإيمان بك، ووفقني أن أعمل عملًا تحبه وترضاه، فإذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك[(١)].

وهذا الوصف الذي وصف به هؤلاء الأنبياء من أعظم ما يوصف به العبد، ولهذا كان رسول الله ﷺ يجدّ ويجتهد في العبادة حتى ينال هذا الوصف، ولم تعرف البشرية في تأريخها الطويل كله من كان يتجه إلى الله تبارك وتعالى بالثناء الجميل والحمد الوفير والشكر الجزيل مثل ما كان يفعله المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، فقد كان عليه الصلاة والسلام يشكر ربه ويثني عليه حتى تتورم قدماه، وكانت عائشة رضي الله عنها تشفق عليه وتسأله؛ أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول لها: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[(٢)].

والحديث يطول عن شكره عليه الصلاه والسلام خاصة، وشكر الأنبياء من قبله عامة، وقد كان هذا هو منهج الخلفاء الراشدين، يعرف ذلك كل من يرجع إلى سيرتهم الحميدة، وكذلك كان شأن بقية الصحابة والتابعين والسلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين.

**۞ المسألة الثالثة: بيان متعلق الشكر، وأنه النعم.**

سبق لنا ـ في تقرير الفرق بين الحمد والشكر ـ أن قلنا أن بينهما عمومًا وخصوصًا، وقلنا أن الحمد موجبه المحاسن والإحسان، أما الشكر فموجبه هو الإحسان فقط، مما يبين أن متعلق الشكر هو النعم الكثيرة التي منّ الله بها على عباده، وعلى مقدمة هذه النعم لا شك هدايته للخلق إلى

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٧٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٨٥٦)، في كتاب التفسير، ومسلم في صحيحه (ص/ ١١٣٤)، في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الإكثار من الأعمال والاجتهاد في العبادة.

الإيمان به والإسلام له، ثم باقي النعم المتوالية التي يمنّ الله بها على من يشاء.

فتذكّر هذه النعم تحرك النفوس نحو محبة الله[١] والاعتراف بربوبيته وألوهيته، مما يوجب على المخلوق شكر الخالق والإيمان به، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنه إذا تذكر أنه مخلوق وأن الله خالقه، وليس له إلها وربا كما ذكر، وذكر إحسان الله إليه، فهذا التذكر يدعوه إلى اعترافه بربوبية الله وتوحيده وإنعامه عليه، فيقتضي الإيمان والشكر»[٢].

فالتذكر اسم جامع لكل ما أمر الله بتذكره، ومنه ذكر نعم الله على العبيد التي يليه شكره عليها الذي هو الغاية المقصودة من ورائها، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتذكر اسم جامع لكل ما أمر الله بتذكره، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]، أي قامت الحجة عليكم بالنذير الذي جاءكم، وبتعميركم عمرًا يتسع للتذكر.

وقد أمر سبحانه بذكر نعمه في غير موضع، كقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

والمطلوب بذكرها شكرها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة]»[٣].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/٩٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/١٧٩).

(٣) المصدر نفسه (١٦/١٨٨-١٨٩).

والناظر في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ يتبين له أن الله أمر بتذكر أنواع النعم التي أنعم بها عليهم يكون ذلك مقتضيا لشكره وعبادته، ومن هذه النصوص قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل]، يذكر الله بدء خلق الإنسان وأنه أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، فركب فيه هذه الحواس لتكون وسيلة للإدراك، وخص هذه الثلاثة لأنها أمهات ما ينال به العلم، وكل ذلك لأجل أن يشكروا الله باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله.

فينظر الواحد في نعمة واحدة من هذه النعم الثلاث، وهي ـ مثلًا ـ نعمة الإبصار، سواء بواسطة حاسة البصر الخارجية التي هي العين، أو الحاسة الداخلية التي هي القلب، فهذه النعمة التي يتمتع كل إنسان سوي، لو قام العبد عمره كله في شكرها لم يتمكن من ذلك، فكيف بالثلاث التي قال فيها شيخ الإسلام: «ثم هذه الأعضاء الثلاثة هي أمهات ما ينال به العلم ويدرك، أعني العلم الذي يمتاز به البشر عن سائر الحيوانات دون ما يشاركها فيه، من الشم والذوق واللمس، وهنا يدرك به ما يحب ويكره، وما يميز به من يحسن إليه ومن يسيء إليه إلى غير ذلك»[1].

وقال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص]، وهنا يذكر الله نعمة أخرى هي من أعظم النعم التي تدعو إلى شكر الله والقيام بعبوديته، وهي نعمة الليل التي جعلها ليسكن فيها العباد ويستريحوا، ونعمة النهار التي جعلها ليشتغلوا فيه بما يعود إليهم بالنفع العاجل والآجل.

وهذه النعم التي مرّ ذكرها يشترك فيها المؤمن والكافر، لكن الله خص

---

(١) مجموع الفتاوى (٩/٣٠٩-٣١٠).

المسلمين ببعض النعم خالصة لهم دون غيرهم، ومن هذه النعم ما قال تعالى في شأن المهاجرين: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال]، أي يقول تعالى ممتنا على عباده في نصرهم بعد الذلة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد العيلة، اذكروا حالكم قبل ذلك حين كنتم في مكة مستضعفين مقهورين تحت حكم غيركم، تخافون أن ينال منكم كل لحظة، فمن الله عليكم أن جعل لكم بلدًا تأوون إليه وهي المدينة، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء، فكل هذا أن يتذكروها دائمًا، ويشكروا الله عليها أبدًا[1].

فالحاصل أن هذه الآيات وأمثالها تذكرنا أن متعلق الشكر هو النعم، وأن نعمه علينا كثيرة، وأن علينا أن نشكر الله فيها، ونزداد من العمل بما يرضيه عنا.

## ۞ المسألة الرابعة: مقابلة الشكر بالكفر.

إن الله أنعم علينا بنعم كثيرة تستوجب علينا القيام بالشكر لله ﷻ وعدم مقابلتها بالكفران، لأن الله ﷻ (قد ذم من كفر بعد إيمانه كما قال: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنعام]، فهذا في كشف الضر، وفي النعم قال: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة]، أي: شكركم، وشكر ما رزقكم الله، ونصيبكم تجعلونه تكذيبا وهو الاستسقاء بالأنواء، كما ثبت في حديث ابن عباس الصحيح قال: «مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «**أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر**»، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم:

---

(١) انظر: تفسير السعدي (ص/٣١٩).

لقد صدق نوء كذا وكذا، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ [الواقعة] حتى بلغ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة]»[(١)(٢)].

فالشكر بالمعنى الخاص هو الشكر على نعم مخصوصة دنيوية، فإن الكفر المقابل لها هو كفر تلك النعم، أو جحدها وعدم استعمالها في طاعة الله، فمن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل]، يخبر الله عن قصة سليمان، حيث مكنه الله من أن يأتي عرش ملكة سبأ قبل وصولها هي إليه مسلمة مطيعة، فلما رأى سليمان تمكنه من ذلك قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ﴾ [النمل: ٤٠] أي هذا الذي حصل لي ـ والذي يستحيل في العادة ـ من فضل ربي ليختبرني بذلك، أأشكر الله وأعترف بأنه من فضله من غير حول مني ولا قوة وأقوم بحقه، أم أكفر بترك الشكر وعدم القيام به، أو بأن أثبت لنفسي فعلا وتصرفا في ذلك، ولا شك أن سليمان عليه السلام قام بشكر هذه النعمة، ثم بين سبحانه وتعالى أن العباد سواء أشكروا على النعمة أم كفروها فإن نفع الشكر وضر الكفر راجعان على العباد أنفسهم، لأن الله غني عن عباده، لا تنفعه طاعة المطيع،كما لا تضره معصية العاصي.

أما إن جعلنا الشكر بمعناه العام الذي هو الشكر لله عز وجل على جميع نعمه ـ وفي مقدمتها نعمة الخلق والهداية إلى الإيمان به ـ، فالكفر المقابل لها هو الكفر المخرج من الملة، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٦٧)، في كتاب الاستسقاء، ومسلم في صحيحه (ص/٥٩)، في كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء.

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٣-٣٤).

أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [الزُّمَر]، يقول تبارك وتعالى مخبرا عن نفسه المقدسة أنه الغني عما سواه من المخلوقات لا يضره كفر البشر، كما لا ينتفع بطاعاتهم، ولكن أمره ونهيه لهم محض فضل وإحسان، ولكمال إحسانه بهم لا يرضى لعباده أن يكفروا، أي لا يحبه ولا يأمر به، لكن إن شكروه بتوحيده وإخلاص الدين له، يحبه لهم ويزدهم من فضله[١].

أما الحديث الذي أورده شيخ الإسلام، والذي بسببه نزل قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقِعَة]، فمحتمل للكفرين، كفر النعمة والكفر المخرج من الملة، لأن الاستسقاء نوعان:

**أحدهما**: أن يعتقد أن المنزل للمطر هو النجم، فهذا كفر ظاهر، إذ لا خالق إلا الله.

**والثاني**: أن ينسب إنزال المطر إلى النجم، مع اعتقاده أن الله تعالى هو الفاعل لذلك، المنزل له، إلا أنه ﷻ أجرى العادة بوجود المطر عند ظهور ذلك النجم[٢].

قال ابن قتيبة[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانوا في الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء: إما بصنعه على زعمهم، وإما بعلامته، فأبطل الشرع قولهم، وجعله كفرا، فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنعا في ذلك فكفره كفر شرك، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة، فليس بشرك، لكن يجوز إطلاق الكفر

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٦١)، وتفسير السعدي (ص/ ٧١٩-٧٢٠).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص/ ٣٩٠).

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، وقيل: المروزي. من تصانيفه: غريب القرآن، وغريب الحديث، ومشكل القرآن، ومشكل الحديث، وكتاب الرد على من يقول بخلق القرآن، وغيرها. ولد سنة ٢١٣هـ. وتوفي سنة ٢٧٦هـ. انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٤٢)، والسير (١٣/ ٢٩٦).

عليه وإرادة كفر النعمة، لأنه لم يقع في شيء من طرق الحديث بين الكفر والشرك واسطة، فيحمل الكفر على المعنيين»[١].

على كل حال، فإن النعم كثيرة، فمنها نعم دينية ـ وهي أعظمها ـ ومنها دنيوية، فمن النعم الدينية الهداية للإيمان بالله والإستسلام له، وإرسال الرسل وإنزال الكتب، فشكر هذه النعم واجب، والكفر بها لا شك أنه كفر أكبر.

أما النعم الدنيوية، كخلق الشمس والقمر والسحاب والمطر والحيوان والنبات، فإن شكرها واجب أيضًا، أما كفرها مراتب، قد يصل أعلاها إلى الكفر الأكبر، وذلك كما لو نسب إيجاد هذه النعم إلى غير الله، أما إذا لم يفعل ذلك لكنه لم يشكر الله عليها ويحمده عليها، فهذا وإن كان يعد كفرًا للنعمة فإنه لا ينقل من الملة[٢].

---

(١) نقله ابن حجر في الفتح (٢/ ٥٢٤).

(٢) انظر: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٣٤٦).



## المطلب الثالث

## أوجه الشكر

ثبت بما سبق أن شكر الله يجب على العباد لنعمه الكثيرة العظيمة السابغة لديهم، ولكن هذا الشكر يتم على وجوه متعددة، فبعضها من اللوازم التي لا تنفك عن الشكر، وبعضها من مكملات الشكر، ومن تلك الأوجه:

١ ـ **الاعتراف بنعم الله** ﷻ، وهو الاعتقاد أن الله قد أنعم فأكثر النعم وأجزل العطاء، وأن العبد مهما اجتهد في شكر النعم لن يبلغ شكره مدى النعم التي أنعم الله بها عليه، ولن يتمكن من إعطاء النعم حقها من الشكر، بل إن أقل ما يعتقد أنه نعمة لا يقدر العبد أن يوفيه حقها من الشكر، إذ إن التمكن من الشكر أيضًا نعمة ينبغي الشكر عليها[(١)].

قال شيخ الإسلام رحمه الله مبينًا الفرق بين الحسنات والسيئات، وأن السيئات تضاف إلى النفس، وأنه ليس لها سبب إلا ذنبه الذي هو من نفسه، فانحصرت في نفسه، و(أما ما يصيبه من الخير والنعم: فإنه لا تنحصر أسبابه، لأن ذلك من فضل الله وإحسانه يحصل بعمله وبغير عمله، وعمله نفسه من إنعام الله عليه.

وهو سبحانه لا يجزي بقدر العمل بل يضاعفه له، ولا يقدر العبد على ضبط أسبابها لكن يعلم أنها من فضل الله وإنعامه، فيرجع فيها إلى الله، فلا يرجو إلا الله، ولا يتوكل إلا عليه، ويعلم أن النعم كلها من الله، وأن كل

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٨٧).

ما خلقه فهو نعمة كما تقدم، فهو يستحق الشكر المطلق العام التام الذي لا يستحقه غيره...

والمقصود هنا: أنه إذا عرف أن النعم كلها من الله وأنه لا يقدر أن يأتي بها إلا الله، فلا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يذهب السيئات إلا هو، وأنه ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [فَاطِر: ٢]، صار توكله ورجاؤه ودعاؤه للخالق وحده.

وكذلك إذا علم ما يستحقه الله من الشكر ـ الذي لا يستحقه غيره ـ صار علمه بأن الحسنات من الله: يوجب له الصدق في شكر الله والتوكل عليه)[1].

٢ ـ **الاستدلال بالنعم على المنعم جل وعلا**، وقد نبه الله ﷻ إلى ذلك في غير ما آية من الكتاب العزيز، حيث أرشد العباد إلى ربهم بواسطة تنبيههم إلى ما أنعم الله به عليهم من النعم الجليلة والآلاء الجسيمة، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود هنا: أنه سبحانه عدل لا يظلم، وعدله إحسان إلى خلقه، فكل ما خلقه فهو إحسان إلى عباده، ولهذا كان مستحقا للحمد على كل حال، ولهذا ذكر في سورة النجم أنواعًا من مقدوراته، ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ [النّجم]، فدل على أن هذه الأنعم مثل إهلاك الأمم المكذبة للرسل، فإن في ذلك من الدلالة على قدرته وحكمته ونعمته على المؤمنين ونصره للرسل، وتحقيق ما جاءوا به، وإن السعادة في متابعتهم والشقاوة في مخالفتهم ما هو من أعظم النعم.

وكذلك ما ذكره في سورة الرحمن، وكل مخلوق هو من آلائه من وجوه: منها أنه يستدل به عليه وعلى توحيده وقدرته وغير ذلك، وأنه

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٣٩-٣٤١).

يحصل به الإيمان والعلم وذكر الرب، وهذه النعمة أفضل ما أنعم الله به على عباده في الدنيا، وكل مخلوق يعين عليها ويدل عليها، هذا مع ما في المخلوقات من المنافع لعباده غير الاستدلال بها، فإنه سبحانه يقول: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرَّحمٰن]، لما يذكر ما يذكره من الآية وقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ [النّجم]، والآلاء: هي النعم، والنعم كلها من آياته الدالة على نفسه المقدسة ووحدانيته ونعوته ومعاني أسمائه، فهي آلاء آيات، وكل ما كان من آلائه فهو من آياته وهذا ظاهر، وكذلك كل ما كان من آياته فهو من آلائه، فإنه يتضمن التعريف والهداية والدلالة على الرب تعالى وقدرته وحكمته ورحمته ودينه، والهدى أفضل النعم»[1].

٣ ـ **الثناء على الله ﷻ وحمده**، فلسان المرء يعرب عما في قلبه، فإذا امتلأ القلب بشكر الله لهج اللسان بحمده والثناء عليه، فشكر القلب يستلزم الشكر باللسان، ومن أفضل الشكر لله باللسان ما كان حمدًا لله على النعم بصفة عامة، وعند تجدد كل نعمة بصفة خاصة، وذلك بذكر بعض الأدعية التي تتضمن حمدا لله على هذه النعم، كقوله الحمد لله رب العالمين عقب الانتهاء من الطعام والشراب، ونحوهما من نعم الله الكثيرة، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والله سبحانه أمر مع أكل الطيبات بالشكر، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧٢﴾ [البَقَرَة]، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها**»[2]»[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣١)، وانظر أيضًا (٨/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١٠٩٤)، في كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب .

(٣) قاعدة في المحبة (ص/ ٢٣٥).

وقد (روي عن النبي ﷺ: أنه كان إذا أتاه الأمر يسره قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»، وإذا أتاه الأمر الذي يسوءه قال: «الحمد لله على كل حال»[(١)])[(٢)].

٤ ـ **إظهار النعمة وعدم كتمانها**، ومن إظهارها التحدث بها على سبيل الإخبار لا الافتخار، بل على سبيل الاعتراف بهذه النعمة وشكر الله عليها، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى]، وفي هذا التحدث المأمور به قولان:

**أحدهما**: أنه ذكر النعمة والإخبار بها، كقول العبد: أنعم الله علي بكذا وكذا.

**والثاني**: أنه الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة.

وابن القيم بعد ما ساق هذين القولين، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والصواب: أنه يعم النوعين، إذ كل منهما مأمور بشكرها والتحدث بها، وإظهار من شكرها»[(٣)].

ومن إظهار النعمة كذلك أن يرى أثر النعمة على العبد في هيئته ومظهره، وفي ملبسه ومطعمه ومشربه، ولهذا لما رأى رسول الله ﷺ رجلًا رث الحال مع كونه غنيًّا قال له: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (ص/٦٢٧)، في كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، والحاكم في المستدرك (٢/٥٩)، والبيهقي في الشعب (٦/٢١٨)، وقد صحح الحديث الحاكم، وسكت عنه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٦٥).

(٢) التحفة العراقية (ص/٣٦١).

(٣) مدارج السالكين (٢/١٨٤).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٣/١٥٩)، وأبو داود في سننه (ص/٧٢٧)، في كتاب اللباس، باب في الخُلقان وفي غسل الثوب)، الترمذي في سننه (ص/٦٣١) في كتاب الأدب عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وصححه الألباني في غاية المرام (٧٥).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا الكلام أن الله يحب الجمال في كل شيء، وأورد بعض الأحاديث في ذلك، ثم ذكر هذا الحديث فقال: «لكن هذا لظهور نعمة الله وما في ذلك من شكره، وأنه يحب أن يشكر، وذلك لمحبة الجمال»[١]، فتبين أن الله يحب إظهار نعمة الله على العبد لما في ذلك من الشكر المحبوب لله، وكذلك يحب الجمال الذي باقتنائه يظهر أثر نعمة الله، والله أعلم.

٥ ـ **استعمال النعمة في طاعة الله**، والاستعانة بها على مرضاة الله، فإن من كمال الشكر لله هو استعمال النعمة في طاعته عَزَّ وَجَلَّ، وكون الشيء نعمة في ذاته لا يجوز استعماله في المعاصي، يقول شيخ الإسلام رادا على من يستدل من المتصوفة بأن الصوت الحسن نعمة من الله فبالتالي يجوز استعماله على السماع المحدث الصوفي[٢]، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «كون الشيء نعمة لا يقتضى استباحة استعماله فيما شاء الإنسان من المعاصي، ولا يقتضي إلا حسن استعماله، بل النعم المستعملة في طاعة الله يحمد صاحبها عليها، ويكون ذلك شكرا لله يوجب المزيد من فضله، فهذا يقتضي حسن استعمال الصوت الحسن في قراءة القرآن...

فأما استعمال النعم في المباح المحض فلا يكون طاعة، فكيف في المكروه أو المحرم؟ ولو كان ذلك جائزا لم يكن قربة ولا طاعة إلا بإذن الله، ومن جعله طاعة لله بدون ذلك، فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله.

ومعلوم أن القوة نعمة، والجمال نعمة، وغير ذلك من نعم الله التي لا يحصيها إلا هو، فهل يجعل أحد مجرد كون الشيء نعمة دليلا على

---

(١) الاستقامة (١/ ٤٢٤).

(٢) لأن ذلك يدخل عندهم في باب: التحدث بالنعمة المأمور به.

استحباب إعماله فيما شاء الإنسان؟ أم يؤمر المنعم عليه بألا يستعملها في معصية، ويندب إلى ألا يستعملها إلا في طاعة الله تعالى؟

فالاستدلال بهذا منزلة من استدل بإنعام الله بالسلطان والمال على ما جرت عادة النفوس باستعمال ذلك فيه من الظلم والفواحش ونحو ذلك، فاستعمال الصوت الحسن في الأغاني وآلات الملاهي، مثل استعمال الصور الحسنة في الفواحش، واستعمال السلطان بالكبرياء والظلم والعدوان، واستعمال المال في نحو ذلك»[(١)].

فالمراد هو بيان أن النعم كلها من تمام الشكر لله وهو صرف هذه النعمة في طاعة الله والاستعانة بها على مرضاة الله، وليس الأمر كون الشيء نعمة يجوز استعمالها في معاصي الله، لأن الشكر كما أسلفنا هو العمل بطاعة الله.

---

(١) الاستقامة (١/ ٣٣٢-٣٣٣).

## المطلب الرابع

## بعض الفرق أنكرت شكر الله ﷻ

بعد الانتهاء من عرض بعض المسائل المهمة التي تتعلق بأمر الشكر لله ﷻ، وأنه من أوجب الواجبات، وأنه من شيم أولياء الله المتقين من الأنبياء والمرسلين، وكذلك بينا أن الشكر متعلقه نعم الله الكثيرة، وأن عدم شكر هذه النعم في لغة الشرع يسمى كفرا، ثم بينا الوجوه التي يقع عليها الشكر، وأن بعضها من اللوازم التي لا تنفك عن الشكر، وبعضها من مكملات الشكر.

إلا أن هناك فِرقًا ـ وبعضها تنتسب إلى الإسلام ـ تنكر شكر الله ﷻ، فبالتالي لا يحمدون الله ولا يشكرونه.

فالمنكرون لشكر الله من الفرق المنتسبة إلى الإسلام القدرية بشقيها الجهمية المجبرة والقدرية النافية، ومن فرق الباطنية باطنية الشيعة والمتصوفة القائلين بوحدة الوجود، أما المنكرون للشكر من غير منتسبي الإسلام فقد ذكر شيخ الإسلام الفلاسفة.

أما ما يتعلق بالقدرية، فينبغي أن نعرف أن الطوائف في باب القدر ما بين غال في إثبات القدر لله إلى حد القول بالجبر ونفي القدرة والإرادة عن العبد وهم الجهمية المجبرة، وما بين مفرط في القدر إلى حد نفي بعضه عن الله وإثباته للعبد وهم المعتزلة ومن وافقهم، أما أهل السنة فهم وسط بين الطائفتين[(١)].

---

(١) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، ومذاهب الناس فيه (ص/٣٠١)، تأليف عبد الرحمن ابن صالح المحمود.

**فالجهمية المجبرة** أنكروا الشكر لله من باب نفي الحكمة في أفعال الله، (وحقيقة قولهم أنه ليس برحيم ولا منعم، بل ولا إله يستحق أن يعبد ويحب، بل صدور الإحسان عنه كصدور الإساءة، وإنما هو يفعل بمحض مشيءته، ترجِّح الشيء على مثله لا لمرجِّح، وكل الممكنات عندهم متماثلة، فلا فرق بين أن يريد رحمة الخلق ونفعهم والإحسان إليهم، أو يريد فسادهم وهلاكهم وضررهم يقولون هذا كله عنده سواء.

ومعلوم أن الإنعام إنما يكون إنعاما إذا قصد به المنعم نفع المنعم عليه دون إضراره، وأما إذا قصد الأمرين، فهذا ليس جعله منعمًا مصلحًا بأولى من جعله معتديًا مفسدًا)(١)، فإذا كان الله ليس برحيم ومنعم فعلى أي شيء يحمد ويشكر؟!

**أما القدرية النافية** فأنكروا الشكر لله ﷻ من باب: أن نعم الله على العبد واجبة عليه، ومن فعل الواجب الذي يستحق غيره عليه لم يستحق الشكر المطلق، وأيضًا هداية الناس أو ضلالهم حصل بقدرتهم ومشيءتهم، فإن اهتدوا كان ذلك من أنفسهم ولم تكن نعمة من الله عليهم، فإذا كان الأمر كذلك فعلى أي شيء يشكر!(٢)

**أما الباطنية الشيعة والمتصوفة القائلين بوحدة الوجود، فعندهم** الوجود واحد، وجود المخلوق هو وجود الخالق، فيجب أن يكون كل موجود عابدًا لنفسه شاكرًا لنفسه حامدًا لنفسه.

وابن عربي(٣) يجعل الأعيان ثابتة في العدم، وقد صرح بأن الله لم

---

(١) رسالة في تحقيق الشكر (١/ ١٠٣).

(٢) المصدر نفسه (١/ ١٠٣-١٠٤).

(٣) هو محيي الدين أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن أحمد الطائي الحاتمي المرسي ابن عربي، نزيل دمشق، صاحب التواليف الكثيرة، قال الذهبي: «ومن أردأ تواليفه كتاب الفصوص، فإن كان لا كفر فيه، فما في الدنيا كفر»، نسأل الله العفو والنجاة. توفي سنة ٦٣٨هـ. انظر: السير (٢٣/ ٤٨).

يعط أحدا شيئًا، وأن جميع ما للعباد فهو منهم لا منه، **وهو مفتقر إليهم لظهور وجوده في أعيانهم وهم مفتقرون إليه لكون أعيانهم ظهرت في وجوده،** فالرب إن ظهر فهو العبد، والعبد إن بطن فهو الرب، ولهذا قال: لا تحمد ولا تشكر إلا نفسك[١].

**أما الفلاسفة:** أرسطو وأتباعه ـ عندهم أنه لا يفعل شيئًا ولا يريد شيئًا ولا يعلم شيئًا ولا يخلق شيئًا، فعلى أي شيء يشكر، أم على أي شيء يحمد ويعبد؟![٢]

هذه بعض الفرق التي ذكرها شيخ الإسلام أنهم ينكرون الشكر لله ﷻ، ولن أطيل في الرد عليهم، حتى لا يبعد بنا عن موضوع الشكر الذي حوله يدور المبحث، إلا إني أذكر بعض الأدلة من القرآن والسنة استدل بها شيخ الإسلام على أن كل النعم من الله وأنه يجب على العباد الشكر عليها، بدون أن أدخل في تفاصيل كل من هذه الفرق، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقال النبي ﷺ: «**من قال إذا أصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر، فقد أدى شكر ذلك اليوم، ومن قال إذا أمسى: اللهم ما أمسى بي من نعمة أو بأحد من خلقك، فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر، فقد أدى شكر تلك الليلة**»[٣].

---

(١) رسالة في تحقيق الشكر (١/ ١٠٤-١٠٥).

(٢) المصدر نفسه (١/ ١٠٤).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (ص/ ٩١٦)، في كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، وهو في الأذكار للنووي (ص/ ١٠٨)، وقال: إن إسناده جيد، وقد ضعف الحديث الألباني في الكلم الطيب (٢٦).

## المطلب الخامس

## ثمرات الشكر

إن موقع الشكر من الإيمان عظيم، لا يقل مكانة عن مقام الصبر الذي وصف أنه نصف الإيمان كما قال عبد الله بن مسعود: «الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر»[(١)]، والملاحظ أن هناك تلازما بين الصبر والشكر، قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله: «الشكر يتضمن الصبر على الطاعة، والصبر على المعصية، وقال بعض الأئمة: الصبر يلتزم الشكر ولا يتم إلا به، و بالعكس فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر، ومن كان في نعمة ففرضها الشكر والصبر، أما الشكر فواضح، وأما الصبر فعن المعصية، ومن كان في بلية ففرضه الصبر والشكر، أما الصبر فواضح، أما الشكر فالقيام بحق الله في تلك البلية، فإن لله على العبد عبودية في البلاء، كما له عبودية في النعماء»[(٢)].

الشكر لله في أعلى مراتب الإيمان، فلا يناله إلا القليل، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبإ: ١٣]، ومرتبته فوق مرتبة الصبر والرضا، فالشاكر لم يقتصر على مجرد سكون القلب والجوارح عن الشكوى مع حركاتها به، أو رضا القلب وبروده به، بل تجاوز هذين إلى ملاحظة النعم في جميع ما يجري عليه في هذه الحياة، فزاد على الصبر عليها والرضا بها الشكر لله والثناء عليه وحمده عليها، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والرضا وإن كان من أعمال القلوب فكماله هو الحمد، حتى إن بعضهم فسر

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) فتح الباري (١١/ ٣٠٥)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٠٥-٣٠٦).

الحمد بالرضا، ولهذا جاء في الكتاب والسنة حمد الله على كل حال...»[١].

فيجب علينا أن نشكر الله تعالى على النعم صباح مساء، وأن لا نغفل عن ذلك أبدًا حفاظا على هذه النعم وحتى تدوم لنا كما وعد الله من شكر بالزيادة والتعظيم، ومن كفر بالعذاب الأليم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم]، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالشكر قيد النعم وهو موجب للمزيد، والكفر بعد قيام الحجة موجب للعذاب، وقبل ذلك ينقص النعمة ولا يزيد»[٢].

فمن قام بشكر الله تعالى فذلك الذي يحبه الله ويرضاه، قال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزُّمَر: ٧]، فيرضى سبحانه عن أعماله ويرضى عنه، ورضا الله عن العبد في الدنيا يترتب عليه رضاه عنه في الآخرة، ودخوله الجنة التي أعدها لأوليائه، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «علق الرضا بشكرهم وجعله مجزوما جزاء له، وجزاء الشرط لا يكون إلا بعده»[٣].

ولأهمية الشكر وعظيم مقامه، فإن العبد مهما شكر الله فهو مقصر في حق الله، لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، قال الحليمي[٤] رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن تكلم عن أهمية الشكر: «وقد ثبت بجميع ما كتبناه، وما عسى سهونا عنه فلم نكتبه وجوب شكر الله تعالى

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٣٦١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٥٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٢٦).

(٤) هو الحسين بن محمد بن حليم البخاري، المرجاني، أبو عبد الله، ولد سنة ٣٣٨ هـ، كان من فقهاء الشافعية، كان رئيس أهل الحديث فيما رواء النهر، له: المنهاج في شعب الإيمان، توفي سنة ٤٠٣ هـ، انظر: السير (١٧/ ٢٣١)، وشذرات الذهب (٥/ ١٩)، والأعلام (٢/ ٢٣٥).

على العباد لنعمه الكثيرة العظيمة السابغة لديهم، ولا شك أنها إذا كثرت وفاتها الإحصاء لم يتوصل إلى شكرها إلا بذكرها ودراستها وعرضها على القلوب عند الغفلة»[1].

فأسأل الله العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا من الشاكرين لنعمه، المثنين بها عليه، فإنه سميع قريب وبالإجابة جدير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) المنهاج (٢/ ٥٤٥).





# المبحث التاسع عشر: الحياء

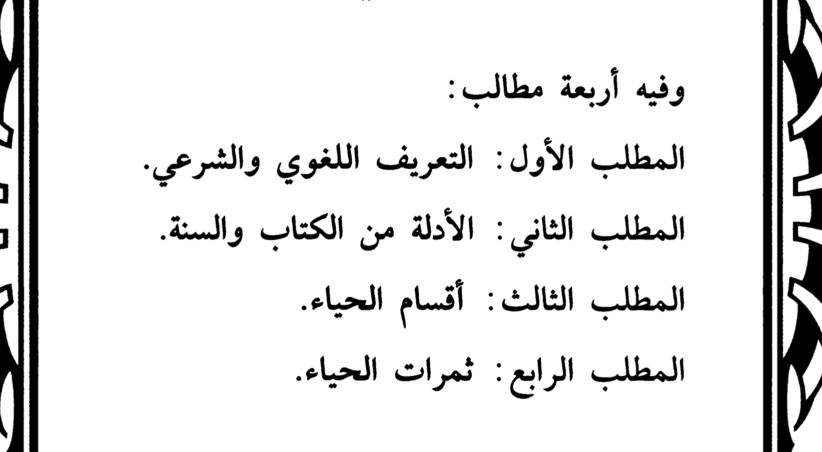
وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أقسام الحياء.

المطلب الرابع: ثمرات الحياء.



# المطلب الأول

# التعريف اللغوي والشرعي

◇ المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

الحياء: أصله من حِيِي يحيَى فهو حيي، على وزن فعيل، ويؤنث على حيية.

يُقال: استحياه واستحيا منه، ويقال: استحيت، بياءٍ واحدة وأصله استحييت، فأعلوا الياء الأولى وألقوا حركتها على الحاء، فقالوا: استحيت، لما كثر في كلامهم. وقال الأخفش: يتعدى بنفسه وبالحرف، فيقال: استحيا منك، واستحياك، واستحى منك، واستحاك، واستحييت منه، واستحييته، واستحيا منه، وقيل هما لغتان:

**الأولى**: أستحي بياءٍ واحدة لغة تميم، وإنما حذفوا الياء لكثرة استعمالهم لهذه الكلمة كما قالوا: لا أدرِ، في لا أدري.

**الثانية**: بياءين لغة أهل الحجاز وبها جاء القرآن وهي الأصل(١).

والحياء يرجع في الأصل إلى معنيين، كما قال ابن فارس: «الحاء والياء والحرف المعتل أصلان: أحدهما خلاف الموت، والآخر: الاستحياء الذي ضد الوقاحة».

وقال في تعليل ذلك: «والأصل الآخر: قولهم استحييت منها استحياء، وقال أبو زيد: حييت منه أحيا، إذا استحييت»(٢).

---

(١) انظر: لسان العرب (٤/ ٢٩٦-٢٩٧).

(٢) معجم مقاييس اللغة (ص/ ٢٧١-٢٧٢).

والحياء: هو الانقباض والانزواء، وهو انقباض النفس عن القبائح وتركها لها.

وجاء في الموسوعة الفقهية: «الحياء لغةً مصدر حيي، وهو: تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم»[(١)].

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

وردت في تعريف الحياء عبارات كثيرة ولكنها في العموم متقاربة المعنى، ومما عرف به الحياء شرعا:

قال الجرجاني: «الحياء: انقباض النفس من شيء وتركه حذرا عن اللوم فيه»[(٢)].

وقال الجنيد: «الحياء رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء»[(٣)].

وقيل: «الحياء حالة حاصلة بين امتزاج التعظيم بالمودة، فإذا اقترنا تولد بينهما الحياء»[(٤)].

وعرفه ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «هو خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق»[(٥)].

وجاء في الموسوعة الفقهية: «وفي الشرع: خلق يبعث على اجتناب القبيح من الأفعال والأقوال، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق»[(٦)].

---

(١) الموسوعة الفقهية (١٨/ ٢٥٩)، إصدار: وزارة الأوقاف والشيءون الإسلامية بالكويت.
(٢) التعريفات (ص/ ٩٩).
(٣) مدارج السالكين (٢/ ١٩٢).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ١٩٦).
(٥) فتح الباري (١/ ٥٢).
(٦) الموسوعة الفقهية (١٨/ ٢٥٩).

ونخلص من خلال هذه التعريفات أن الحياء: هو ذلك الوازع الديني في القلب المركب من الحب والتعظيم لله سبحانه الذي يحمل على ترك ما يستقبح شرعًا أو عقلًا من الصفات والأفعال والأقوال، ويمنع من التقصير في حق الله المتفضل المنعم سبحانه، والتقصير في حق ذي الحق.

وكما سبق في التعريف اللغوي للحياء أن أصله يرجع إلى معنيين: أحدهما خلاف الموت، والآخر: الاستحياء الذي ضد الوقاحة، فقد بين شيخ الإسلام العلاقة بين هذين الأصلين، فقال رحمه الله: «الحياء مشتق من الحياة، فإن القلب الحي يكون صاحبه حيًّا فيه حياء يمنعه عن القبائح، فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب، ولهذا قال النبي ﷺ: «**الحياء من الإيمان**»(١)، وقال: «**الحياء والعي شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق**»(٢)»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٧)، في كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان، ومسلم في صحيحه (ص/٤٨)، في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (ص/٤٥٨)، في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في العي، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب..، والعِي قلة الكلام، والبذاء هو الفحش في الكلام، والبيان هو كثرة الكلام مثل هؤلاء الخطباء الذين يخطبون فيوسعون في الكلام ويتفصحون فيه من مدح الناس فيما لا يرضي الله»، وقد صحح الحديث الألباني في كتاب الإيمان لابن أبي شيبة (١١٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/١٠٩).

## المطلب الثاني
## الأدلة من الكتاب والسنة

الحياء خلق عظيم جاء به الشرع، وهو من الأخلاق الرفيعة التي أمر بها الإسلام، وأقرها، ورغب فيها، لذلك قال ﷺ: «**إن لكل دين خلقًا وخلق الإسلام الحياء**»(١)، فإن كان على كل دين من الأديان سمة تتميز بها، فالإسلام دين الخلق الحسن، ويأتي على رأس الأخلاق الحسنة فيه الحياء.

ويبين أهمية الحياء ومنزلته من الدين أن رسول الله ﷺ جعله من الإيمان، وكلما ازداد منه صاحبه ازداد إيمانه، قال النبي ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان**»(٢)، والسر في كون الحياء من الإيمان: أن كلًّا منهما داع إلى الخير مقرب منه، صارف عن الشر مبعد عنه، فالإيمان يبعث المؤمن على فعل الطاعات وترك المعاصي والمنكرات، والحياء يمنع صاحبه من التفريط في حق الرب والتقصير في شكره، ويمنع صاحبه كذلك من فعل القبيح أو قوله اتقاء الذم والملامة.

قال القاضي عياض رحمه الله: «انما جعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزة، لأنه قد يكون تخلقًا واكتسابًا كسائر أعمال البر، وقد يكون غريزة، ولكن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى اكتساب ونية وعلم، فهو من الإيمان بهذا ولكونه باعثا على أفعال البر ومانعا من المعاصي»(٣).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (ص/ ٦٩٥)، في كتاب الزهد، باب الحياء، ومالك في الموطأ (٧٦/٢)، كتاب الجامع، باب ماجاء في الحياء، وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٤٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٤٨)، في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان .

(٣) إكمال المعلم (١/ ٢٧٣).

ولأهمية الحياء في حياة المسلم وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تستثير في الإنسان بواعث الحياء من الله ﷻ ومن خلقه، قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر]، فيذكّرهم الله بعلمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حق الحياء، ويتقوه حق تقواه، ولا تحملهم غيبة الناس على ارتكاب ما يستحيون من اطلاع أحد عليه، لأن الله قادر على أن يفضحه على رؤوس الخلائق في الدنيا قبل الآخرة، فاستحضار هذه المعاني يجعل العاقل يكف عن كثير مما يريد الشروع فيه.

فحقيقة الحياء ـ كما سبق ـ أنه خلق يبعث على ترك القبائح، ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق، والحياء يكون بين العبد وبين ربه ﷻ فيستحي العبد من ربه أن يراه على معصيته ومخالفته، وهو أعلى درجات الحياء فيستحي من ربه أن يجده حيث نهاه، وهذا الحياء الذي بين العبد وربه قد بين في الحديث الذي رواه الترمذي من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «**استحيوا من الله حق الحياء**». قال: قلنا: إنا نستحيي والحمد لله، قال: «ليس ذاك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»[(١)]، فقد بيّن في هذا الحديث علامات الحياء من الله ﷻ أنها تكون بحفظ

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (ص/ ٥٥٤) في كتاب صفة القيامة، والإمام أحمد في المسند (٦/ ١٨٧)، والحاكم في المستدرك (٥/ ٢٤٢) في كتاب الرقاق، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقد حسن الحديث الألباني في المشكاة (١٦٠٨).

الجوارح عن معاصي الله، وبتذكر الموت، وتقصير الأمل في الدنيا، وعدم الانشغال عن الآخرة بملاذ الشهوات والانسياق وراء الدنيا.

فالحياء ملازم للعبد المؤمن كالظل لصاحبه، لأنه جزء من عقيدته وإيمانه، بل كلمة الأنبياء قد أجمعت على اعتبار الحياء من أهم الوسائل لردع النفوس عن ارتكاب الفواحش والمنكرات، قال النبي ﷺ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»[(١)]. والحديث لفظه أمر ومعناه توبيخ وتهديد. وهذا الحديث له تأويلان:

**أحدهما** ـ وهو المشهور ـ: أي إذا لم تستح من العيب، ولم تخش العار مما تفعله، فافعل ما تحدثك به نفسك من أغراضها حسنا كان أو قبيحا، ولفظه أمر، ومعناه توبيخ وتهديد، وفيه إشعار بأن الذي يردع الإنسان عن مواقعة السوء هو الحياء، فإذا انخلع منه كان كالمأمور بارتكاب كل ضلالة وتعاطي كل سيئة.

**والثاني**: أن يحمل الأمر على بابه، يقول: إذا كنت في فعلك آمنا أن تستحيي منه لجريك فيه على سنن الصواب، وليس من الأفعال التي يستحيا منها فاصنع ما شئت[(٢)]، وكلا القولين حسن والأول أشبه، لأن الكلام خرج من النبي ﷺ مخرج الذم لا مخرج المدح[(٣)].

ومن هنا كان الحياء خيرا ولا يأتي إلا بالخير فهو مادة الخير بل الخير كله، لذا قال النبي ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»[(٤)]، وقال ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٦٧)، في كتاب الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٤٧٠-٤٧١)، بتصرف.

(٣) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٩٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٦٦)، في كتاب الأدب، باب الحياء، ومسلم في صحيحه (ص/٤٨)، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان.

«**الحياء خير كله**»، وفي رواية أخرى: «**الحياء كله خير**»(١).

وليس من الحياء أن يمتنع الإنسان من السؤال عن أمور دينه، فالحياء يبعث على الخير ولا يصد عنه، وليس من الحياء أن يسكت الإنسان على الباطل، وليس منه أن تعطل شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا جبن وخور وضعف، وليس من الحياء في شيء، قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما كون الحياء خيرا كله، ولا يأتي إلا بخير، فقد يشكل على بعض الناس من حيث إن صاحب الحياء قد يستحى أن يواجه بالحق من يجله، فيترك أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وقد يحمله الحياء على الإخلال ببعض الحقوق، وغير ذلك مما هو معروف في العادة، وجواب هذا ما أجاب به جماعة من الائمة، منهم الشيخ أبوعمرو بن الصلاح(٢) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن هذا المانع الذي ذكرناه ليس بحياء حقيقة، بل هو عجز وخور ومهانة، وإنما تسميته حياء من إطلاق بعض أهل العرف، أطلقوه مجازا لمشابهته الحياء الحقيقي، وإنما حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق»(٣).

وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قلت: و يحتمل: أن يكون أشير إلى أن من كان الحياء من خلقه أن الخير يكون فيه أغلب، فيضمحل ما لعله يقع منه مما ذكر في جنب ما يحصل له بالحياء من الخير، أو لكونه إذا صار عادة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٣٨)، كتاب الإيمان، باب بيان شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان.

(٢) هو الإمام الحافظ تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الشهرزوري الشافعي أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال، من مؤلفاته: علوم الحديث المعروف بـ:مقدمة ابن صلاح، والفتاوى وغيرها، توفي سنة ٦٤٣هـ، انظر: تذكرة الحفاظ (١٤٣٠/٤)، وطبقات الشافعية (٣٢٦/٨)، والأعلام (٣٦٩/٤).

(٣) شرح صحيح مسلم (٢/ ٥-٦).

تخلق به صاحبه يكون سببًا لجلب الخير إليه فيكون منه الخير بالذات والسبب»[١].

ونخلص من هذا العرض السريع لمعاني هذه النصوص إلى أن الحياء شعبة عظيمة من شعب الإيمان، وأنه الحائل بين الإنسان وبين ارتكاب كثير من المعاصي، وأنه الباعث على فعل الطاعات، كما نخلص إلى أن الحياء هو ما حجز الإنسان عن فعل ما يذم عليه شرعًا أو عقلًا أو عرفًا[٢].

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٢٢).

(٢) انظر: الحياء في حياة المسلم (ص/ ١١-١٥)، تأليف عبدالرحمن بن فؤاد الجار الله، وأعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/ ٤٣١-٤٣٨).

## المطلب الثالث

## أقسام الحياء

اختلف أهل العلم رحمهم الله في تقسيم الحياء، فقسموه بعدة اعتبارات، فكل يقسم بما يظهر له من خلال استقرائه للنصوص، وأناسأذكر هنا أقسام الحياء باعتبارين:

أقسام الحياء باعتبار تعلقه بالمستحي، وهو قسمان[(١)]:

١ ـ **الغريزي**: وهو (خلق يمنحه الله العبد ويجبله عليه، فيكفه عن ارتكاب القبائح والرذائل، ويحثه على فعل الجميل)[(٢)]، و (هو من أجل الأخلاق التي يمنحها الله العبد ويجبله عليه...، فإنه يكف عن ارتكاب القبائح ودناءة الأخلاق، ويحث على مكارم الأخلاق ومعاليها)[(٣)].

٢ ـ **المكتسب**: وهو (ما كان مكتسبًا من معرفة الله ومعرفة عظمته وقربه من عباده واطلاعه عليهم، وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهذا من أعلى خصال الإيمان، بل هو من أعلى درجات الإحسان)[(٤)].

وقال القرطبي: «وكان النبي ﷺ قد جمع له النوعان من الحياء: المكتسب، والغريزي، وكان في الغريزي أشدَّ حياء من العذراء في خدرها،

---

(١) ذكر هذين القسمين غير واحد من العلماء، منهم أبو حاتم البستي في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص/٤٣)، وابن رجب في فتح الباري (١/ ٩٤)، وفي جامع العلوم والحكم (٥٠١/١)، والجرجاني في التعريفات (ص/٩٩).

(٢) فتح الباري لابن رجب (١/ ٩٤).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٥٠١).

(٤) المصدر نفسه (١/ ٥٠١).



وكان في المكتسب في الذروة العليا ﷺ»[١].

وأقسام الحياء باعتبار تعلقه بالمستحى منه، وهو أربعة أقسام:

١ ـ **الحياء من الله،** وهو أعظم الحياء، ويكون بأن لا يقابل العبد إحسان الله ونعمته بالإساءة والكفر والجحود والطغيان، وأن لا يتضجر عند البلاء فينسى قديم إحسانه ومنته ورحمته به، وأن يلتزم أوامره ﷻ ونواهيه، وأن يخاف منه حق الخوف، ولا يتولد هذا الحياء إلا حين يطالع العبد نعم الله عليه، ويتفكر فيها، ويدرك تمامها وشمولها، ثم يراجع نفسه بعد ذلك ويحاسبها على الخلل والزلل والتقصير، قال النبي ﷺ: «**استحيوا من الله حق الحياء. قال: قلنا: إنا نستحيي والحمد لله، قال:** «**ليس ذاك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء**»[٢].

فالحياء من الله يكون بترك نواهيه وامتثال أوامره، فلا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك، وذلك أن الحياء لما كان خوف المذمة فإن المذمة من الله ﷻ فوق كل مذمة، والمدح منه فوق كل مدح، فالاستحياء منه سبحانه هو طريق الاستقامة على دينه، وهو من أقوى البواعث على الامتثال لأوامره واجتناب نواهيه، والذي لا يستحي من ربه أحرى أن لا يستحي من غيره.

٢ ـ **الحياء من الملائكة،** من المعلوم أن الله قد جعل معنا ملائكة يتعاقبون علينا بالليل والنهار، وهناك ملائكة يصاحبون أهل الطاعات، كالخارج في طلب العلم، والمجتمعين على مجالس الذكر، والزائر للمريض، وغير ذلك.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/٢١٩).

(٢) تقدم تخريجه.

وأيضًا هناك ملائكة لا يفارقونا وهم الحفظة والكتبة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار].

فعلى المؤمن إذًا أن يستحي من الملائكة الكرام، فالحياء من الكريم من صفات الكرام، ولا ألأم ممن لا يستحيي من الكريم، ويكون ذلك: بالبعد عن المعاصي والقبائح، وإكرامهم عن مجالس الخنا، وأقوال السوء، والأفعال المذمومة المستقبحة.

٣ ـ الحياء من الناس، فإن العبد إذا استحيا من ربه حقَّ الحياء واستحى من نفسه ـ كما سيأتي ـ انعكس ذلك عليه بالتأدب والتخلق بأخلاق النفس الكريمة على ممارساته، وسلوكه اليومي، وعلاقاته مع الناس الآخرين، فيجتنب عمل القبيح أمامهم كما اجتنب القبيح أمام الله، ويكون قريبًا من الصدق والاستقامة مع الله ومع النفس ومع الناس.

وهذا الحياء قد يلتقي مع الحياء من الله، وذلك لأن صاحبه يستحي من الناس جازمًا بأنه لا يأتي هذا المنكر والفعل القبيح إلا خوفًا من الله تعالى أولًا، ثم اتقاء ملامة الناس وذمهم ثانيًا، فهذا يأخذ أجر حيائه كاملًا لأنه استكمل الحياء من جميع جهاته إذ ترتب عليه الكف عن القبائح التي لا يرضاها الدين والشرع ويذمه عليها الخلق.

٤ ـ الحياء من النفس، وهو حياء النفوس العزيزة من أن ترضى لنفسها بالنقص أو تقنع بالدون.

ويكون هذا الحياء بالعفة وصيانة الخلوات وحسن السريرة، فيجد العبد المؤمن نفسه تستحي من نفسه حتى كأن له نفسين تستحي إحداهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحيا، فإن العبد إذا استحى من نفسه فهو بأن يستحي من غيره أجدر[1].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٩٥).

## المطلب الرابع

## ثمرات الحياء

الحياء علامة تدل على ما في النفس من الخير، وهو أمارة صادقة على طبيعة الإنسان فيكشف عن مقدار بيانه وأدبه، فعندما ترى إنسانًا يشمئز ويتحرج عن فعل ما لا ينبغي فاعلم أن فيه خيرًا وإيمانًا بقدر ما فيه من ترك للقبائح.

فالحياء سبب كل خير، وعمدة كل فضيلة: فقد قال علي رضي الله عنه: «والحياء سببٌ إلى كلِّ جميل»[(١)].

وقال أبو حاتم[(٢)] رحمه الله: «إن المرء إذا اشتد حياؤه صان عرضه، ودفن مساويه، ونشر محاسنه، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره، ومن ذهب سروره هان على الناس ومقت، ومن مقت أوذي، ومن أوذي حزن، ومن حزن فقد عقله، ومن أصيب في عقله كان أكثر قوله عليه لا له، ولا دواء لمن لا حياء له»، وقال: «وإن من أعظم بركته تعويد النفس ركوب الخصال المحمودة ومجانبتها الخلال المذمومة»[(٣)].

فالحياء هو خلق الإسلام الذي يتميز به أهله، وهو خير كله، ولا

---

(١) إحياء علوم الدين (٥/ ١٣٩).

(٢) هو محمد بن أحمد، أبو حاتم البستي، من الحفاظ المتقنين الأئمة الأعلام، صاحب الكتب المشهورة، من تصانيفه: المسند الصحيح المعروف بـ التقاسم والأنواع، والثقات، ومعرفة المجروجين وغيرها، ولد سنة بضع وسبعين ومائتين، وتوفي سنة ٣٥٤هـ. انظر: السير (٩٢/١٦)، وطبقات الشافعية (٣ / ١٣١).

(٣) روضة العقلاء (ص/ ٤٤-٤٥).

يجلب لصاحبه إلا الخير، ومن هنا كان شعبة من أهم شعب الإيمان، لأنه دافع إلى فعل الطاعات، وزاجر عن اقتراف المنكرات، فمن لا حياء له لا إيمان له، و من قوي حياؤه قوي إيمانه، وإذا ضعف الحياء كان دليلا على ضعف الإيمان.

قال المناوي في شرح الحديث: «**الحياء من الإيمان**»: «أي من أسباب أصل الإيمان وأخلاق أهله، لمنعه من الفواحش، وحمله على البر والخير...»، وقال: «الحياء والإيمان مقرونان لا يفترقان إلا جميعًا، أي: كأنهما رضيعا لبان ثدي، أو تقاسما أن لا يفترقا»، وقال: «لأن من استحيا من الناس أن يروه يفعل قبحًا، دعاه ذلك إلى أن يكون حياؤه من ربه أشد فلا يهمل فرضًا ولا يعمل ذنبًا، قال بعضهم: الحياء دليل الدين الصحيح، وشاهد الفضل الصريح، وسمة الصلاح الشامل، وعنوان الفلاح الكامل، من كان فيه نظم قلائد المحامد، ونسق وجمع من خلال الكمال ما افترق»[1].

فالقلب الحي لا بد أن يكون حييًا، وإلا دل على موت القلب الذي هو أشد من موت الجسد، (فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب، ولهذا قال النبي ﷺ: «**الحياء من الإيمان**».

فإن الحي يدفع ما يؤذيه، بخلاف الميت الذي لا حياة فيه فإنه يسمى وقحا، والوقاحة الصلابة وهو اليبس المخالف لرطوبة الحياة، فإذا كان وقحًا يابسًا صليب الوجه لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه، وامتناعه من القبح كالأرض اليابسة لا يؤثر فيها وطء الأقدام بخلاف الأرض الخضرة.

ولهذا كان الحي يظهر عليه التأثر بالقبح، وله إرادة تمنعه عن فعل

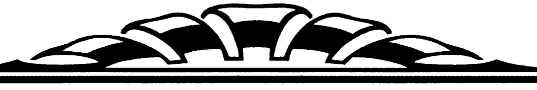
---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير (٣/ ٥٦٥-٥٦٦).

القبيح، بخلاف الوقح الذي ليس بحي فلا حياء معه ولا إيمان يزجره عن ذلك، فالقلب إذا كان حيا فمات الإنسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن، ليس هي في نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة])[1].

فأسأل الله العزيز القدير ذا العرش المجيد أن يعصمنا من القبائح، وأن يستر عوراتنا ويغفر زلاتنا، ويقينا شر أنفسنا وشر الشيطان وشركه.

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٠٩-١١٠).



# الفصل الثاني:

## تفاضل أعمال القلوب، وأسبابه، ودرجات الناس فيها

وفيه ثلاثة مباحث:

**المبحث الأول: تفاضل أعمال القلوب.**

**المبحث الثاني: أسباب تفاضل أعمال القلوب.**

**المبحث الثالث: درجات الناس في أعمال القلوب.**



# المبحث الأول:
# تفاضل أعمال القلوب

## التمهيد

## تعريف التفاضل

إن من القواعد المقررة والأصول المعتبرة عند أهل السنة أن الإيمان مركب من شعب وأجزاء، وأن هذه الشعب ليست على درجة واحدة، بل هي تتفاوت وتتفاضل كما أخبر بذلك أعلم الخلق ﷺ في حديث شعب الإيمان، فكل شعبة منها تسمى إيمانًا، وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادتين، ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتا عظيما، ومنها ما يلحق بشعبة الشهادتين، ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى، ويكون إليها أقرب(١).

فالتفاضل يشمل الإيمان والأعمال أيضًا، فيتفاضل الإيمان الذي يقوم بالقلب، ويتفاضل ما يقوم به باللسان، ويتفاضل ما يقوم به من الجوارح، وليس الأمركما فهم البعض أن التفاضل إنما هو في الأعمال، وأما الإيمان الذي في القلب فلا يتفاضل.

فإن ما يقوم بالقلب من أحوال وأعمال ومقامات من محبة الله ورسوله، وخشية الله، والتوكل عليه، والصبر على حكمه، والشكر له، والإنابة إليه، وإخلاص العمل له، مما يتفاضل الناس فيها نفاضلا لا يعرف قدره إلا الله ﷻ، ومن أنكر تفاضلهم في هذا فهو إما جاهل لم يتصوره، وإما معاند(٢).

ويبين شيخ الإسلام في معرض كلامه عن زيادة الإيمان ونقصانه، أن

---

(١) الصلاة وحكم تاركها (ص/ ٧٠)، باختصار.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٤٠٧-٤٠٨).

ذلك لا يكون في أعمال القلوب فقط، بل التفاضل يكون في التصديق أيضا، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والعلم والتصديق نفسه يكون بعضه أقوى من بعض، وأثبت وأبعد عن الشك، وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه»[١].

وقبل أن أشرع في بيان تفاضل ما يقوم بالقلب، أريد أن أعرف التفاضل بإيجاز، فأقول:

التفاضل: من فضل يفضل فضلًا، وهو ضد النقص.

قال ابن فارس: «الفاء والضاد واللام أصل صحيح يدل على زيادة في شيء، من ذلك الفضل: الزيادة، والخير، والإفضال، والإحسان»[٢].

والتفاضل نوعان:

محمود؛ كفضل العلم والحِلم، ومذموم؛ كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه، والفضل في المحمود أكثر استعمالًا، والفضول في المذموم.

والتفاضل: اسم مفاعلة من فضل، ومعناه؛ حصول الشيء وتزايده تدريجيا[٣].

المقصود بالتفاضل في أعمال القلوب هنا: الزيادة والنقصان، وقد ورد هذا الاستعمال عن السلف، كما قال عبد الله ابن مبارك: «الإيمان قول وعمل، والإيمان يتفاضل»[٤].

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ١٨٣).

(٢) معجم مقاييس اللغة (ص/ ٨١٩).

(٣) انظر: المفردات (ص/ ٦٣٩).

(٤) شرح أصول الاعتقاد (٥/ ١٠٣٣)، انظر: زيادة الإيمان ونقصانه (ص/ ٤٦)، وأعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها (٢/ ٥٥٢).

# المطلب الأول

# التفاضل في أقوال القلوب

إن ما يقوم بالقلب من حقيقة الإيمان ينقسم إلى قول القلب المعبر به عند العلماء بالتصديق والاعتقاد، وإلى عمل القلب من المحبة والخوف والرجاء والخشية والإنابة ونحوها، فإذا كان التصديق هو الأصل الذي ينبني عليه جميع شعب الإيمان، وأنه لا يتصور تصديق صحيح خال عن أعمال القلوب، أحببت أن أبين أن التفاضل يدخل حتى في التصديق ليسهل علينا بعد ذلك فهم التفاضل في أعمال القلوب.

فقد بين العلماء رحمهم الله أن التصديق والمعرفة والاعتقاد يتفاضل فيكون بعضه أقوى من بعض وأثبت، وأبعد عن الشك والريب، وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه، فإن الإنسان يجد في نفسه أن علمه يتفاضل كما يتفاضل سمعه للأشياء، ورؤيته وحبه وكراهيته ورضاه وبغضه، وهكذا العلم والتصديق يتفاضل كما يتفاضل سائر صفات الحي من القدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام وسائر الأعراض.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن ذكر قول من قال إن التصديق لا يزيد ولا ينقص، وأنه متى قبل الزيادة كان شكًّا وكفرًا، قال: «فالأظهر ـ والله أعلم ـ، أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة، ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريهم الشبه، ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيرة وإن اختلفت عليهم الأحوال، وأما غيرهم من المؤلفة ومن قاربهم ونحوهم فليسوا كذلك، فهذا مما لا يمكن إنكاره، ولا يتشكك عاقل في أن نفس تصديق أبي بكر

الصديق ﷺ لا يساويه تصديق آحاد الناس»[١].

وقد نقل ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ النص السابق، ثم قال: «ويؤيده أن كل أحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل حتى أنه يكون في بعض الأحيان الإيمان أعظم يقينا وإخلاصًا وتوكلًا منه في بعضها، وكذلك في التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها»[٢].

ويقول ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «والتصديق القائم بالقلب يتفاضل، وهذا هو الصحيح...، فإن التصديق الذي ينجلي الغيب لقلوبهم حتى يصير كأنه شهادة بحيث لا يقبل التشكيك والارتياب ليس كإيمان غيرهم ممن لا يبلغ هذه الدرجة بحيث لو شكك لدخله الشك»[٣].

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «إن العلم والتصديق نفسه يكون بعضه أقوى من بعض، وأثبت وأبعد عن الشك والريب، وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه،كما أن الحس الظاهر بالشيء الواحد، مثل رؤية الناس للهلال وإن اشتركوا فيها فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض، وكذلك سماع الصوت الواحد، وشم الرائحة الواحدة، وذوق النوع الواحد من الطعام، فكذلك معرفة القلب وتصديقه يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة، والمعاني التي يؤمن بها من معاني أسماء الرب وكلامه، يتفاضل الناس في معرفتها أعظم من تفاضلهم في معرفة غيرها»[٤].

ثم إن من المعلوم أن الناس (يتفاضلون في معرفة الملائكة وصفاتهم والتصديق بهم، فتفاضلهم في معرفة الله وصفاته والتصديق به أعظم،

---

(١) شرح النووي (١/١٤٨-١٤٩).
(٢) فتح الباري (١/٤٦).
(٣) جامع العلوم والحكم (١/١١٣-١١٤).
(٤) الإيمان الكبير (ص/١٨٣).

وكذلك إن كانوا يتفاضلون في معرفة روح الإنسان وصفاتها والتصديق بها، أو في معرفة الجن وصفاتهم وفي التصديق بهم، أو في معرفة ما في الآخرة من النعيم والعذاب ـ كما أخبروا به من المأكولات والمشروبات والملبوسات والمنكوحات والمسكونات ـ فتفاضلهم في معرفة الله وصفاته والتصديق به أعظم من تفاضلهم في معرفة الروح التي هي النفس الناطقة، ومعرفة ما في الآخرة من النعيم والعذاب، بل إن كانوا متفاضلين في معرفة أبدانهم وصفاتها وصحتها ومرضها وما يتبع ذلك فتفاضلهم في معرفة الله أعظم وأعظم)[١].

فاتضح من النقول السابقة أن قول القلب ومعرفته وتصديقه يتفاضل الناس فيه، وذلك من ثلاثة أوجه:

**الأول: من حيث كثرة الأدلة وقوتها، أو قلتها وضعفها.**

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن كان مستند تصديقه ومحبته أدلة توجب اليقين، وتبين فساد الشبهة العارضة، لم يكن بمنزلة من كان تصديقه لأسباب دون ذلك، بل من جعل له علوم ضرورية لا يمكنه دفعها عن نفسه لم يكن بمنزلة من تعارضه الشبه، ويريد إزالتها بالنظر والبحث، ولا يستريب عاقل أن العلم بكثرة الأدلة وقوتها، وبفساد الشبه المعارضة لذلك، وبيان بطلان حجة المحتج عليها، ليس كالعلم الذي هو الحاصل عن دليل واحد من غير أن يعلم الشبه المعارضة له، فإن الشيء كلما قويت أسبابه وتعددت وانقطعت موانعه واضمحلت كان أوجب لكماله، وقوته وتمامه»[٢].

**الثاني: من حيث الإجمال والتفصيل.**

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «نفس التصديق والعلم في القلب يتفاضل

(١) الإيمان الأوسط (ص/ ١١٤-١١٥).

(٢) المصدر نفسه (ص/ ١١٠).

باعتبار الإجمال والتفصيل، فليس تصديق من صدق الرسولﷺ مجملا من غير معرفة منه بتفاصيل أخباره، كمن عرف ما أخبر به عن الله وأسمائه وصفاته، والجنة والنار والأمم، وصدقه في ذلك كله، وليس من التزم طاعته مجملا ومات قبل أن يعرف تفصيل ما أمره به، كمن عاش حتى عرف ذلك مفصلا وأطاعه فيه»[١].

**والثالث: من حيث التصديق اللازم لعمل القلب أو عدمه.**

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به، وإذا كان شخصان يعلمان أن الله حق، ورسوله حق، والجنة حق، والنار حق، وهذا علمه أوجب له محبة الله وخشيته والرغبة في الجنة والهرب من النار، والآخر علمه لم يوجب ذلك، فعلم الأول أكمل، فإن قوة المسبَب دل على قوة السبب، وهذه الأمور نشأت عن العلم، فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه، والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم»[٢].

إذا، التصديق يزيد وينقص من حيث:

أ ـ كثرة الأدلة وقوتها، أو قلتها وضعفها.

ب ـ من حيث الإجمال والتفصيل.

ج ـ من حيث التصديق المستلزم لعمل القلب أو عدمه، والله أعلم[٣].

---

(١) المصدر نفسه (ص/١٠٩).

(٢) الإيمان الكبير (ص/١٨٥).

(٣) انظر: نواقض الإيمان الاعتقادية (١/٩٢-٩٣)، وأعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها (٢/٥٥٣-٥٥٧).

## المطلب الثاني

## التفاضل في أعمال القلوب

إن من أوجه زيادة الإيمان ونقصانه هو تفاضله من جهة أعمال القلوب، وهو الأمر الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة[١] كما دلت على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة، بل ذلك من الأمور المعلومة الظاهرة التي يجدها الإنسان من نفسه، (فإنه من المعلوم بالذوق الذي يجده كل مؤمن أن الناس يتفاضلون في حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والإخلاص له، وفي سلامة القلوب من الرياء، والكبر، والعجب ونحو ذلك، والرحمة للخلق، والنصح لهم ونحو ذلك من الأخلاق الإيمانية، وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار**»، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة: ٢٤] وقال رسول الله ﷺ: «**والله إني لأخشاكم لله وأعلمكم بحدوده**»، وقال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»، وقال له عمر: يا رسول الله: لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، قال: «**لا يا عمر حتى أكون أحب**

(١) انظر مجموع الفتاوى (٦/ ٤٧٩).

**إليك من نفسك**»، قال: فلأنت أحب إلي من نفسي، قال: «**الآن يا عمر**»[(١)].

وهذه الأحاديث ونحوها في الصحاح وفيها بيان تفاضل الحب والخشية، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه فإنه قد يكون الشيء الواحد يحبه تارة أكثر مما يحبه تارة، ويخافه تارة أكثر مما يخافه تارة،ولهذا كان أهل المعرفة من أعظم الناس قولا بدخول الزيادة والنقصان فيه لما يجدون من ذلك في أنفسهم، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران]، وإنما زادهم طمأنينة وسكونًا، وقال ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»[(٢)])[(٣)].

ويوضح شيخ الإسلام هذا الأمر أكثر، ويبين أن الزيادة الواردة في النصوص ليست في التصديق فقط، بل الزيادة تكون في التصديق وأعمال القلوب، يقول رحمه الله: «والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وهذه زيادة إذا تليت عليهم الآيات أي وقت تليت

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٥)، في كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومسلم في صحيحه (٥٠)، في كتاب الإيمان، باب وجوب محبة النبي ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٢/ ٣٦٤)، وأبو داود في سننه (ص/٨٤٦)، في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، والترمذي في سننه (ص/٢٧٦)، في كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، وقال حديث حسن صحيح، والحاكم في المستدرك (١/ ٩٩)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٢٧)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٨٤).

(٣) الإيمان الأوسط (ص/١٠٦-١٠٨).

ليس هو تصديقهم بها عند النزول، وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن، حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ، ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن، فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته، وهذه زيادة الإيمان.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت، فازدادوا يقينًا وتوكلًا على الله، وثباتًا على الجهاد، وتوحيدًا بأن لا يخافوا المخلوق، بل يخافون الخالق وحده.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]، وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها بل زادتهم إيمانًا بحسب مقتضاها، فإن كان أمرا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة، وإن كان نهيًا عن شيء انتهوا عنه فكرهوه، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤] والاستبشار غير مجرد التصديق.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ [الرعد: ٣٦]، والفرح بذلك من زيادة الإيمان، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم].

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ﴾

[الفَتْح: ٤]، وهذه نزلت لما رجع النبي ﷺ وأصحابه من الحديبية، فجعل السكينة موجبة لزيادة الإيمان، والسكينة طمأنينة في القلب غير علم القلب وتصديقه، ولهذا قال يوم حنين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن، ولا يوم الغار، وإنما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو، فلما أنزل السكينة في قلوبهم مرجعهم من الحديبية، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، دل على أن الإيمان المزيد حال للقلب، وصفة له، وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه»[(١)].

فإن إيمان القلب يزداد بزيادة العمل الصالح، وذلك أن تفاضل المؤمنين في الأعمال الظاهرة للجوارح مبني على تفاوت ما في قلوبهم من الأعمال الباطنة، ومن المعلوم أن عدم تحقق اللازم يؤثر على قوة الملزوم فيضعفه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتفاضل في الإيمان بدخول الزيادة والنقص فيه يكون من وجوه متعددة:

**أحدها**: الأعمال الظاهرة: فإن الناس يتفاضلون فيها وتزيد وتنقص، وهذا مما اتفق الناس على دخول الزيادة فيه والنقصان، لكن نزاعهم في دخول ذلك في مسمى الإيمان، فالنفاة يقولون هو من ثمرات الإيمان ومقتضاه، فأدخل فيه مجازا بهذا الاعتبار، وهذا معنى زيادة الإيمان عندهم ونقصه، أي زيادة ثمراته ونقصانها.

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ١٨٠-١٨١).

فيقال: قد تقدم أن هذا من لوازم الإيمان وموجباته، فإنه يمتنع أن يكون إيمان تام في القلب بلا قول ولا عمل ظاهر، وأما كونه لازما أو جزءا منه فهذا يختلف بحسب حال استعمال لفظ الإيمان مفردًا أو مقرونًا بلفظ الإسلام والعمل كما تقدم.

وأما قولهم الزيادة في العمل الظاهر لا في موجبه ومقتضيه، فهذا غلط، فإن تفاضل معلول الأشياء ومقتضاها يقتضي تفاضلها في أنفسها، وإلا فإذا تماثلت الأسباب الموجبة لزم تماثل موجبها ومقتضاها، فتفاضل الناس في الأعمال الظاهرة يقتضي تفاضلهم في موجب ذلك ومقتضيه، ومن هذا يتبين:

**الوجه الثاني**: في زيادة الإيمان ونقصانه: وهو زيادة أعمال القلوب ونقصها، فإنه من المعلوم بالذوق الذي يجده كل مؤمن...»[1].

وبعد كل هذه النصوص التي أوردها شيخ الإسلام مع الإشارة إلى ما يدل على تفاضل أعمال القلوب، ثم ينضم إلى هذه النصوص الأمر الذي يجده كل واحد من نفسه من تفاضل ذلك، فإن الإنسان يجد نفسه في وقت أشد خوفًا منه في الوقت الآخر، وفي وقت أشد حياء منه في الوقت الآخر، وهكذا في سائر أعمال القلب، ثم تفاضل المؤمنين في الأعمال الظاهرة للجوارح مبني على تفاوت ما في قلوبهم من الأعمال الباطنة، ومن المعلوم أن عدم تحقق اللازم يؤثر على قوة الملزوم فيضعفه.

وبعد كل هذه الأدلة، فإنكار التفاضل في أعمال القلوب لا يكون إلا من جاهل لم يستوعب الأمر، وإما من معاند عرف الحق فجحده، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم أحوال القلوب وأعمالها مثل محبة الله ورسوله، وخشية

---

(١) الإيمان الأوسط (ص/١٠٦).

الله، والتوكل عليه، والصبر على حكمه، والشكر له، والإنابة إليه، وإخلاص العمل له، ما يتفاضل الناس فيها تفاضلًا لا يعرف قدره إلا الله ﷻ، ومن أنكر تفاضلهم في هذا فهو إما جاهل لم يتصوره، وإما معاند»(١).

وبعد هذا البيان المجمل لتفاضل أعمال القلوب، أنتقل إلى تفصيل المسألة فيه، وهو ما يتعلق بتقرير التفاضل بين أعمال القلوب فيما بينها وفي نفسها، فسأذكر ذلك على النحو التالي:

المسألة الأولى: تفاضل أعمال القلوب فيما بينها.

لعله بالنظر إلى كلام أهل العلم يمكن أن نخلص إلى أن أعمال القلوب تتفاضل فيما بينها من جهات مختلفة، ولكن من أبرزها ما يلي:

**أولًا: تفاضل أعمال القلوب من جهة متعلقاته.**

حين تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن محركات القلوب الثلاثة، وبين أنها: المحبة والخوف، والرجاء، قال: «وأقواها المحبة، وهي المقصودة لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس] والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن الطريق المحبوب، والرجاء يقوده...»(٢).

ووجه كون المحبة أقوى من الخوف والرجاء، أن متعلق المحبة ذات الله وصفاته، وما كان كذلك لا شك أنه يستمر ولن يفارق العبد لا في

(١) الإيمان الكبير (ص/ ٣١٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٩٥).

الدنيا وفي الآخرة، بخلاف الخوف مثلا، فإن متعلقه أفعال الرب ﷻ فإنه مفارق للعبد بحصول ما يرجو وأمنه مما كان يخاف.

يقول ابن القيم رحمه الله: «إن الخوف يتعلق بالأفعال، وأما الحب فإنه يتعلق بالذات والصفات، ولهذا يزول الخوف في الجنة، وأما الحب فيزداد...

فمتعلق الخوف ذنب العبد وعاقبته، وهي مفعولات للرب، فليس الخوف عائدًا إلى نفس الذات، والفرق بينه وبين الحب أن الحب سببه الكمال، وذاته تعالى لها الكمال المطلق، وهو متعلق الحب التام، وأما الخوف فسببه توقع المكروه وهذا إنما يكون في الأفعال والمفعولات»(١).

فتبين لنا أن منزلة المحبة أعلى وأرفع من منزلة الخوف، وأنها هي المقصودة لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة، لكون المحبة متعلقها ذات الرب وصفاته، أما الخوف فمتعلقه أفعال الرب ومفعولاته.

**ثانيًا: تفاضل أعمال القلوب من جهة جمعها لأعمال قلبية أخرى.**

سبق أن قررنا أن علاقة أعمال القلوب هي علاقة التضمن وعلاقة الالتزام، وأن علاقة التضمن في أعمال القلوب هي أن يتضمن عمل قلبي واحد عملًا آخر أو أكثر، فإن ما يندرج فيه جميع الأعمال القلبية أعلى وأرفع من غيره، وما يندرج فيه عملين قلبيين أعلى مما يندرج فيه عمل قلبي واحد، وهكذا، قال ابن القيم رحمه الله: «من المقامات ما يكون جامعا لمقامين، ومنها ما يكون جامعًا لأكثر من ذلك، ومنها ما يدرج فيه جميع

---

(١) طريق الهجرتين (ص/٤٢٦-٤٢٧).

المقامات، فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه»[(١)].

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أمثلة على ذلك:

فمن أمثلة **النوع الأول**، قوله: «فالتوبة جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف...

والإنابة جامعة لمقام المحبة والخشية...

ومقام المراقبة جامع للمعرفة والخشية».

ومن أمثلة **النوع الثاني**، قوله: «والإخبات جامع لمقام المحبة والذل والخضوع...

ومقام الهيبة جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم.

ومقام الطمأنينة جامع للإنابة والتوكل والتفويض والرضى والتسليم».

ومن أمثلة **النوع الثالث**، قوله: «ومقام الشكر جامع لجميع مقامات الإيمان، ولذلك كان أرفعها وأعلاها»[(٢)].

**ثالثًا: تفاضل أعمال القلوب من جهة ما يترتب عليها من جزاء.**

ومما يدل على تفاضل أعمال القلوب فيما بينها، هو ما يترتب عليها من جزاء، ولعل أعظم هذا الجزاء هو ما يتعلق بصفاته جل وعلا.

فمن ذلك ما ذكر في منزلة التوبة، وأنها تثمر فرح الله بتوبة عبده، ومحبته عَزَّوَجَلَّ لهذا العبد، وكفى بذلك شرفًا.

فللتوبة عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى منزلة ليس لغيرها من الطاعات، ولهذا يفرح

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٠٣).

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٠٣-١٠٤).

سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدّر، كما مثله النبي ﷺ بفرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدوية المهلكة بعد فقدها وأيس من أسباب الحياة، ولم يجئ هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة، قال النبي ﷺ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن، من رجل في أرض دوية مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده، وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده**»[(١)][(٢)].

ولعله يلحق بهذا[(٣)] ما ذكره شيخ الإسلام وغيره عن التوكل وعظيم جزائه، فقد جعل الله ﷻ جزاء المتوكل أن يكون الله حسْبه، وهو من أقوى الأسباب وأعظمها في تحصيل المطالب.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن التوكل على الله سبب كونه حسبًا له مستدلًّا بهذه الآية، وذلك من وجهين:

١ ـ إن الله رتب هذا الأجر على الوصف المناسب، وأنه علق هذه الجملة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط، فيمتنع في مثل هذا أن يكون وجود الشرط كعدمه، فلا يقال: هو حسب غير المتوكلين كما هو حسب المتوكلين، فعلم أن توكل العبد هو سبب كونه حسبٌ له.

---

(١) تقد تخريجه (ص/٥٦٨).

(٢) انظر: مدارج السالكين (١/ ٢٢٤).

(٣) أي؛ في ثبوت تفاضل أعمال القلوب فيما بينها من جهة ما يترتب عليها من جزاء.

٢ ـ إن سياق الآية في الترغيب في التوكل كما رغب في التقوى، فلو لم يحصل للمتوكل من الكفاية ما لا يحصل لغيره، لم يكن مرغبا في التوكل، كما جعل التقوى سببًا للخروج من الشدة وحصول الرزق من حيث لا يحتسب[(١)].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإذا كان سبحانه وصف نفسه بأنه كفى به وكيلا، علم أنه يفعل بالمتوكل عليه ما لا يحتاج إلى غيره في جلب المنافع ودفع المضار، إذا لو تبقى شر لم يكن كفى به وكيلًا»[(٢)].

**۞ المسألة الثانية: تفاضل أعمال القلوب في نفسها.**

كما أن أعمال القلوب تتفاضل فيما بينها، فإنها كذلك تتفاضل في نفسها، فتجد للعمل القلبي درجات متفاوتة، مما يدل على ثبوت التفاضل في العمل القلبي الواحد، وسأذكر على ذلك ثلاث نماذج تكلم عنها شيخ الإسلام رحمه الله، وهي المحبة والصبر واليقين.

**أولًا: المحبة.**

قرر شيخ الإسلام أن أصل المحبة هو معرفة الله سبحانه، ولكنها باعتبار هذا الباعث عليها تنقسم إلى قسمين:

**أحدهما**: محبة تنشأ من ملاحظة الإحسان ومطالعة النعم والآلاء.

فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، فكيف بالله عز وجل الذي هو المنعم المحسن إلى عبده بالحقيقة، فإنه المتفضل بجميع النعم، وإن جرت بواسطة، إذ هو مُيسِّر الوسائط، ومسبب الأسباب، ولكن هذه المحبة في الحقيقة إذا لم تجذب القلب إلى محبة الله

(١) رسالة في تحقيق التوكل (١/ ٨٨-٨٩)، ضمن جامع الرسائل

(٢) رسالة في تحقيق التوكل (١/ ٩٢).

نفسه، فما أحب العبد في الحقيقة إلا نفسه، وكذلك كل من أحب شيئًا لأجل إحسانه إليه، فما أحب في الحقيقة إلا نفسه، وهذا ليس بمذموم بل محمود..

والمقتصر على هذه المحبة هو لم يعرف من جهة الله ما يستوجب به أنه يحبه، إلا إحسانه إليه، وهذا كما قالوا: إن الحمد لله على نوعين: حمد هو شكر، وذلك لا يكون إلا على نعمته، وحمد هو مدح وثناء عليه ومحبة له، وهو بما يستحقه لنفسه سبحانه.

**والقسم الثاني**: هو محبة الله لما هو أهل له، و هذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله، وهو محبة الله لما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وما من وجه من الوجوه التي يُعرف اللهُ بها مما دلت عليه أسماؤه وصفاته، إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه، حتى جميع مفعولاته، إذ كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، ولهذا استحق أن يكون محمودًا على كل حال ويستحق أن يحمد على السراء والضراء وهذا أعلى وأكمل وهذا حب الخاصة، وهؤلاء هم الذين يطلبون لذة النظر إلى وجهه الكريم، ويتلذذون بذكره ومناجاته، ويكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك حتى، لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم ما لا يطيقون...[(١)].

فالمراد بيانه هنا أن المحبة التي تنشأ عن معرفة الله ﷻ وكماله ومطالعة أسمائه وصفاته أعلى من المحبة التي تنشأ من رؤية نعم الله وآلائه، فإن الأولى محبة الخاصة، والثانية محبة العامة، بل إن لم يرتق العبد من الثانية إلى الأولى فإنه في الحقيقة ما أحب إلا نفسه، والله أعلم.

---

(١) التحفة العراقية (ص/٤٤٩-٤٥٢)، بتصرف يسير.

**ثانيًا: الصبر.**

سبق أن قلنا أن الصبر ينقسم باعتبار متعلقه إلى ثلاثة أقسام:

**القسم الأول:** الصبر على طاعة الله سبحانه وتعالى.

**القسم الثاني:** الصبر عن محارم الله عز وجل.

**القسم الثالث:** الصبر على أقدار الله تبارك وتعالى[١].

ومما يدل على تفاضل أعمال القلوب في نفسها هو أن الصبر مراتب، بعضها أفضل من بعض، فالصبر على طاعة الله أعلى منزلة من الصبر عن المعاصي، والصبر عن المعاصي أعلى منزلة من الصبر على الأقدار.

فالصبر على الواجبات أعلى أنوع الصبر، لأن جنس فعل الواجبات أعلى درجة عند الله من جنس ترك المحرمات، كذلك إن جنس ترك الواجبات أعظم من جنس فعل المحرمات، إذ قد يدخل في ذلك ترك الإيمان والتوحيد، من أتى بالإيمان والتوحيد لم يخلد في النار ولو فعل ما فعل، ومن لم يأتي بالإيمان والتوحيد كان مخلدا ولو كانت ذنوبه من جهة الأفعال قليلة[٢].

كذلك الصبر على المحرمات أعلى منزلة من الصبر على المصائب، لأن هذا الصبر والذي قبله يكونان باختياره، بخلاف ما يصيب العبد من المصائب التي لا خيار له فيها، وليس له إلا كف النفس والصبر.

يقول ابن القيم رحمه الله: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن

---

(١) قاعدة في الصبر (ص/ ٩٠-٩١)، والتحفة العراقية (ص/ ٣٥٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٧١).

هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية: فصبر اختيار ورضى ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة، فإنه كان شابا، وداعية الشباب إليها قوية، وعزبا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته، وغريبا والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكا والمملوك أيضًا ليس وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة وذات منصب وهي سيدته وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلى نفسها والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها: صبر اختيارا وإيثارا لما عند الله وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه؟»[١].

إذا، الصبر على المحرمات أفضل من الصبر على المصائب، كما أن الصبر على ترك المحرمات مع القدرة عليها، وطلب النفس لها، أفضل من تركها بدون ذلك، فإن النفس تميل إلى الرئاسة والمال وفعل الفاحشة، وإن كان قادرا على فعلها والحصول عليها، ومع ذلك تركها لله، هذا أفضل من الذي يصبر في شيء لا يشتهيه ولا تميل النفس إليه، أو تميل النفس إليه ولكنه غير قادر على حصوله.

كذلك إذا طلبت النفس شيئًا من هذه الأمور وهو قائم بأمر ديني، كالخروج إلى الصلاة، أو طلب العلم، أو الجهاد، فصبر على ما تميل إليه النفس في هذا الحالة، فهو أعظم أجرا من الذي ابتلي بما تميل إليه النفس بدون عمل صالح.

كذلك من ابتلي بمرض أو فاقة وهو في أمر ديني، كالجهاد مثلًا وصبر، هو أفضل ممن ابتلي بشيء منها وهو مقيم في بلده[٢].

---

(١) مدارج السالكين (٢/١١٦-١١٧).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٥٧٦-٥٦٨).

### ثالثًا: اليقين.

كما أن العلم يتفاوت ـ واليقين هو من جملة مراتب العلم ـ فكذلك اليقين يتفاوت، فهو على ثلاث مراتب بعضها فوق بعض، فأدنى مراتب اليقين هي مرتبة (علم اليقين)، والمرتبة التي فوقها هي مرتبة (عين اليقين)، وأعلى المراتب هي مرتبة (حق اليقين)، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر][1].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن منازل اليقين ما لا تكاد تحيط به العبارة، ولا يعرفه حق المعرفة إلا من أدركه وناله»[2].

فعلم اليقين: هو العلم المستفاد بالسماع والخبر والقياس والنظر.

وعين اليقين: هو ما شاهده الإنسان وعاينه بالبصر.

وحق اليقين: هو ما باشره و وجده وذاقه.

وقد مثّل شيخ الإسلام لهذه الدرجات الثلاث بالعسل، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالأولى مثل من أخبر أن هناك عسلا، وصدق المخبر، أو رأى آثار العسل فاستدل على وجوده، والثاني مثل من رأى العسل وشاهده وعاينه، وهذا أعلى كما قال النبي ﷺ: **«ليس المخبر كالمعاين»**[3]، والثالث مثل من ذاق العسل، ووجد طعمه وحلاوته، ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله»[4].

### خلاصة ما سبق:

إن ما يقوم بالقلب من حقيقة الإيمان ينقسم إلى قول القلب المعبر به

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٤٥)، ومدارج السالكين (٢/ ٢٩٧-٣٠٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٧٣).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٤٥-٦٤٦).

عند العلماء بالتصديق والاعتقاد، وإلى عمل القلب من المحبة والخوف والرجاء والخشية والإنابة ونحوها، والتفاضل داخل فيهما.

إن من أوجه زيادة الإيمان ونقصانه هو تفاضله من جهة أعمال القلوب، وهو الأمر الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة كما دلت على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة، بل ذلك من الأمور المعلومة الظاهرة التي يجدها الإنسان من نفسه.

فتفاضل أعمال القلوب يكون فيما بينها من جهة متعلقاتها، ومن جهة جمعها لأعمال قلبية أخرى، ومن جهة ما يترتب عليها من جزاء، كما يكون تفاضلها في نفسها، فالمحبة التي تنشأ من مطالعة أسمائه وصفاته فوق درجة المحبة التي تنشأ من مطالعة النعم والآلاء، والصبر على طاعة الله أعلى منزلة من الصبر عن المعاصي، والصبر عن المعاصي أعلى منزلة من الصبر على الأقدار.

وكذلك اليقين الذي يكون عن مباشرة الشيء ووجده وذوقه أعلى مرتبة من اليقين الحاصل عن طريق المشاهدة والمعاينة، واليقين الحاصل عن طريق المشاهدة أعلى مرتبة من اليقين المستفاد بالسماع والخبر والقياس والنظر.

والمقصود من هذا كله، بيان التفاضل بين أعمال القلوب عمومًا، وبيان تفاضلها في نفسها وفيما بينها خصوصًا، والله تعالى أعلم.



# المبحث الثاني:
# أسباب تفاضل أعمال القلوب

## المطلب الأول

## الأسباب الجالبة لأعمال القلوب

جعل الله لكل مرغوب ومطلوب سببًا وطريقا يوصل إليه، وإن من أعظم المطالب وأهمها إيمان القلب، فهو أصل الإيمان، وقد جعل الله له أسبابا تزيد إيمان المرء فيقوى رجاؤه ومحبته وخوفه ويقينه وتوكله وإخلاصه.

وقد اعتنى شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذلك، ولذا فإني سأعرض في هذا المبحث للأسباب التي تستجلب بها أعمال القلوب، ثم أبين الأسباب التي تضعفها وتوهيها.

ولعل أهم الأسباب الجالبة لأعمال القلوب ما يلي:

**۞ المسألة الأولى: تعلم العلم النافع.**

إن أهم وأنفع أسباب زيادة الإيمان تعلم العلم النافع علم الشريعة المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال ابن رجب معرفا بهذ العلم: «فالعلم النافع هو ضبط نصوص الكتاب والسنة، وفهم معانيها، والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد، والرقائق، والمعارف وغير ذلك، والاجتهاد على تمييز صحيحه وسقيمه أولًا، ثم الاجتهاد على الوقوف على معانيه وتفهمه ثانيًا، وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشغل لمن بالعلم النافع عُني واشتغل...»[(١)].

---

(١) فضل علم السلف على علم الخلف (ص/٩٦).

وإذا كان هذا هو المقصود بطلب العلم النافع، فإن أهل العلم هم أهل خشيته، بل خصهم الله بذلك بين الناس، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: ٢٨]، فالعلم النافع يثمر هذه الخشية لله عز وجل[١].

وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٤﴾ [الحَجّ].

أي: ليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرّقون به بين الحق والباطل، أنه الحق من ربك، فيؤمنوا به ويزداد إيمانهم، فتُخبت له قلوبهم، أي تخشع وتخضع، وتذل وتسكن[٢]، يقول شيخ الإسلام رحمه الله مبينا حال القلوب المؤمنة المخبتة: «ولهذا وصف من عدا هؤلاء (أي؛ القلوب القاسية والقلوب المريضة) بالعلم والإيمان والإخبات، وفي قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٤﴾ [الحَجّ] دليل على أن العلم يدل على الإيمان»[٣].

إذًا العلم النافع هو ما أوصل إلى الإيمان بالله، وعبادته وحده سبحانه وتعالى، ويشمل ذلك مصدرين[٤]:

**المصدر الأول**: الوحي المسموع المنزّل من عند الله سبحانه وتعالى، قرآنا وسنة، والذي يعرف به العبد ربه بأسمائه وصفاته جل وعلا، ويدرك المسلك الصحيح الذي يعبده به جل شأنه، ويعلم الوعد المترتب على الطاعة والاهتداء، والوعيد المرتب على المعصية والضلال.

---

(١) انظر: الإيمان الكبير (ص/ ٢٠)، ومجموع الفتاوى (١٤/ ٢٩٢-٢٩٣).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٧-٣٠٨)، وتفسير السعدي (ص/ ٥٤٢).
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٧١).
(٤) المصدر نفسه (٦/ ٧١).

**المصدر الثاني:** الآيات الكونية المشهودة التي يدل التأملُ والتفكر والنظر فيها على عظمة الله وقدرته، وعلى عزه وسلطانه، وعلى استحقاقه للعبودية وحده دون سواه.

فإن اتصاف العبد بوصف العلم من هذين الطريقين يضفي على قلبه حياة ونورًا وإشراقا، ويثمر فيه خشية وإنابة وحبّا[(١)].

ولما كانت جهات العلم النافع التي تستجلب بها أعمال القلوب كثيرة، سأقتصر في الكلام على أبرزها وأفضلها وأقواها، وهو: العلم بالله ﷻ وبأسمائه وصفاته وربوبيته، فالعلم بالله ﷻ من أشرف العلوم ومن أعظم الأسباب الجالبة لأعمال القلوب.

والعلم بالله ﷻ يتضمن جوانب عدة، سأذكر هنا بعضها مع بيان وجه كونها أسبابًا تستجلب بها أعمال القلوب.

الأول: **العلم بأسماء الله وصفاته.**

هو العلم بالله نفسه، وبما اتصف به من نعوت الجلال والإكرام، وما دلت عليه أسماؤه الحسنى، فهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة[(٢)]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: ٢٨].

يقول ابن كثير رحمه الله: «أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر»[(٣)].

فإن معرفة أسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة، والتي تدل

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣٠-٣٣١).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٧٢٤-٧٢٥).

على كمال الله المطلق من كافة الوجوه، من أعظم أبواب العلم التي يحصل بها زيادة الإيمان، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنه من المعلوم أن معرفة الشيء المحبوب تقتضي حبه، ومعرفة المعظم تقتضي تعظيمه، ومعرفة المخوف تقتضي خوفه، فنفس العلم والتصديق، وما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى يوجب محبة القلب له، وتعظيمه وخشيته، وذلك يوجب إرادة طاعته وكراهية معصيته»[١].

ويقول أيضًا: «وكذلك من عرف أسماء الله ومعانيها، فآمن بها، كان إيمانه أكمل ممن لا يعرف تلك الأسماء، بل آمن إيمانًا مجملًا، أو عرف بعضها، وكلما ازداد الإنسان معرفة بأسماء الله وصفاته وآياته، كان إيمانه أكمل»[٢].

وإنما كانت معرفة الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى سببًا من أسباب تفاضل أعمال القلوب لأنها مقتضية لآثارها من العبودية والخضوع، فلكل اسم أو صفة عبودية خاصة هي من مقتضياتها، ومن موجبات العلم بها، والتحقق بمعرفتها، وهذا مطرد في جميع العبادات القلبية بل وفي عبودية الجوارح.

فمن ذلك: أن العبد إذا علم بكمال الله وجماله وصفاته العلى، فإن ذلك يثمر له محبة خاصة وشوقًا عظيمًا إلى لقاء الله.

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء.

وعلمه بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه، وهكذا.

---

(١) الإيمان الأوسط (ص/ ٧٣).

(٢) الإيمان الكبير (ص/ ١٨٤).

فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها.

ثم ينبغي أن يُعلم أن هذا الكمال للإيمان إنما يحصل لأهل السنة والجماعة الذين عصمهم الله من داء التعطيل ومن داء التمثيل؛ اللذين ابتلي بهما أهل البدع المخالفة لما جاء به الرسول، فإن معرفة أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات ـ بل في كل أبواب الدين ـ متلقاة من الكتاب والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فهذه هي المعرفة النافعة التي لا يزال صاحبها في زيادة في إيمانه وقوة يقينه، وطمأنينة في أحواله(١).

**الثاني: العلم بربوبية الله ﷻ.**

إن توحيد العبد ربه بأفعاله ﷻ من أعظم الأسباب الجالبة لأعمال القلوب، فإذا تحقق العبد أن أفعال الرب من الإحياء والإماتة، والعطاء والمنع، والإذلال والإعزاز، والهدى والضلال وغيرها، أنها بيد الله سبحانه وتعالى فإن هذا سبب واضح لخشوع القلب وخضوعه وتعلقه بربه خوفًا ورجاء ومحبة، قال شيخ الإسلام: «إن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل، بل ربه هو الذي خلقه ورزقه، وبصره وهداه وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله... فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به، ودعاءه، ومسألته، دون ما سواه، ويقتضي أيضًا محبة الله وعبادته لإحسانه إلى عبده، وإسباغ نعمه عليه»(٢).

---

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص/ ٧٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٧-٢٨).

وكذلك التأمل في الآيات الكونية من أعظم الآيات الدالة على ربوبيته وألوهيته، فيعد سببًا لاستجلاب أعمال القلوب.

فإن التأمل في الآيات الكونية، والنظر في مخلوقات الله المتنوعة العجيبة، من سماء وأرض، وشمس وقمر، وكواكب ونجوم، وليل و نهار، وجبال وأشجار، وبحار وأنهار، وغير ذلك من مخلوقات الله التي لا تعد ولا تحصى ـ والتي تدل على وحدانية الله بالربوبية والألوهية ـ، لمن أعظم دواعي الإيمان، وأنفع أسباب تقويته[1].

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن هذه المسألة (إفراد الله بالعبادة) أعظم المسائل على الإطلاق وأكبرها وأفضلها وأوجبها وأنفعها وأوضحها، وعليها اتفقت جميع الكتب المنزلة وجميع الرسل، وهي أول وأهم ما دعت إليه الرسل أممهم، وأول ما يدعون قومهم يقولون: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ويذكرون لهم من أسمائه وصفاته، و نعمه وآلائه وألطافه ما به يعرفون ربهم، ويخضعون له ويعبدونه، والقرآن العظيم من أوله إلى آخره يبين هذه المسألة، ويذكر لها البراهين المتنوعة، ويصرف لها الآيات، والسنة كذلك»[2]، ثم ذكر جملة من تلك الآيات.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكان المقصود بالدعوة: وصول العباد إلى ما خلقوا له من عبادة ربهم وحده لا شريك له، والعبادة أصلها عبادة القلب المستتبع للجوارح، فإن القلب هو الملك والأعضاء جنوده، وهو المضغة الذي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد. وإنما ذلك بعلمه وحاله كان هذا الأصل الذي هو عبادة الله بمعرفته ومحبته،

---

(١) زيادة الإيمان ونقصانه (ص/ ٢٢٠).

(٢) الرياض الناضرة (ص/٢٤٦)، وما بعدها.

هو أصل الدعوة في القرآن، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال في صدر البقرة ـ بعد أن صنف الخلق ثلاثة أصناف: مؤمن وكافر ومنافق ـ، فقال بعد ذلك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١]، وذكر آلاءه التي تتضمن نعمته وقدرته ثم أتبع ذلك بتقريره النبوة بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]»[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والنظر في هذه الآيات وأمثالها نوعان: نظر إليها بالبصر الظاهر، فيرى مثلا زرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها، وهذا نظر يشارك الإنسان فيه غيره من الحيوانات، وليس هو المقصود بالأمر الثاني: أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء، فيجول في أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن، فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته، ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقه ملقاة بأرض فلاة، ويرى الملائكة حافين من حوله...، والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها، فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين، وإعزاز قوم وإذلال آخرين، وإسعاد قوم وشقاوة آخرين، وإنشاء ملك وسلب ملك، وتحويل نعمة من محل إلى محل، وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسر، وإغناء فقير، وشفاء مريض، وتفريج كرب ومغفرة ذنب، وكشف ضر ونصر مظلوم، وهداية حيران وتعليم جاهل، ورد آبق وأمان خائف وإجارة مستجير، ومدد لضعيف وإغاثة الملهوف، وإعانة لعاجز وانتقام من ظالم

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٦-٧).

وكف العدوان...، فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقا لهيبته، خاشعا لعظمته، عان لعزته، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها الى يوم المزيد...»[(١)].

فهذه النقول تدل دلالة واضحة على أن أعمال القلوب كالخشوع والخضوع والتذلل لله ﷻ تستجلب بأسباب منها: معرفة العبد ربوبية الله ﷻ، الذي يقوى بالتأمل في الآيات الكونية.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكذلك ما يشاهده العباد من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصّلَت]، أي إن القرآن حق، ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فُصّلَت: ٥٣]، فإن الله شهيد في القرآن بما أخبر به، فآمن به المؤمن، ثم أراهم في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات ما يدل على مثل ما أخبر به في القرآن، فبينت لهم هذه الآيات أن القرآن حق مع ما كان قد حصل لهم قبل ذلك، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [قَ: ٦-٨]، فالآيات المخلوقة والمتلوة فيها تبصرة وفيها تذكرة: تبصرة من العمى وتذكرة من الغفلة، فيبصر من لم يكن عرف حتى يعرف، ويذكر من عرف ونسي»[(٢)].

والمقصود أن العلم بربوبية الله ﷻ يعد سببًا جالبا لأعمال القلوب.

**الثالث: العلم بالأحكام الشرعية.**

ويدخل في العلم بالله العلم بالأحكام الشرعية، وهي المعرفة بما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة

(١) مفتاح دار السعادة (١/٣٠٧-٣٠٨).

(٢) الإيمان الكبير (ص/١٨٦).

والأقوال، فيوجب ذلك لمن علمه المسارعة إلى ما فيه محبة الله ورضاه، والتباعد عما يكرهه ويسخطه[(١)].

والفقه في الدين هو من أقوى أسباب استجلاب أعمال القلوب وزيادة الإيمان إذا كان مستلزما للعمل، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**والله، إني لأعلمكم بالله، وأخشاكم له**»[(٢)].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله مبينًا وجه زيادة الإيمان بالعلم من حيث الإجمال والتفصيل: «فمن آمن بما جاء به الرسول مطلقا فلم يكذبه قط، لكن أعرض عن معرفة أمره ونهيه وخبره، وطلب العلم الواجب عليه، فلم يعلم الواجب عليه ولم يعمله، بل اتبع هواه، وآخر طلب علم ما أمر به فعمل به، وآخر طلب علمه فعلمه وآمن به ولم يعمل به، فهؤلاء وإن اشتركوا في الوجوب، لكن من طلب علم التفصيل وعمل به فإيمانه أكمل به ممن عرف ما يجب عليه والتزمه وأقر به لكنه لم يعمل بذلك كله.

وهذا المقر بما جاء به الرسول ﷺ المعترف بذنبه الخائف من عقوبة ربه على ترك العمل أكمل إيمانًا ممن لم يطلب معرفة ما أمر به الرسول ولا عمل بذلك، ولا هو خائف أن يعاقب، بل هو في غفلة عن تفصيل ما جاء به الرسول ﷺ مع أنه مقر بنبوته باطنًا وظاهرًا.

فكلما علم القلب ما أخبر به الرسول فصدقه، وما أمر به فالتزمه، كان ذلك زيادة في إيمانه على من لم يحصل له ذلك، وإن كان معه التزام عام وإقرار عام»[(٣)].

---

(١) فضل علم السلف على علم الخلف (ص/٩٨)، وانظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣٤)، و(١٠/١٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٠٦٤)، في كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، ومسلم في صحيحه (ص/ ٩٥٨)، في كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته.

(٣) الإيمان الكبير (ص/ ١٨٤).

ومن أمثلة ذلك ما سبق معنا في قواعد الورع: أن الورع لا يكون إلا بالعلم، وبصفة خاصة عند تزاحم المصالح والمفاسد.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «الجهة الثالثة، جهة المعارض الراجح هذا أصعب من الذي قبله، فإن الشيء قد تكون جهة فساده تقتضي تركه فيلحظه المتورع، ولا لحظ ما يعارضه من الصلاح الراجح، وبالعكس فهذا هذا. وقد تبين أن من جعل الورع الترك فقط، وأدخل في هذا الورع أفعال قوم ذوي مقاصد صالحة بلا بصيرة من دينهم وأعرض عما فوتوه بورعهم من الحسنات الراجحة، فإن الذي فاته من دين الإسلام أعظم مما أدركه، فإنه قد يعيب أقواما هم إلى النجاة والسعادة أقرب. وهذه القاعدة منفعتها لهذا الضرب وأمثاله كثيرة، فإنه ينتفع بها أهل الورع الناقص أو الفاسد»[١].

ولهذا يحتاج المتدين المتورع إلى علم كثير بالكتاب والسنة والفقه في الدين، وإلا فقد يفسد تورعه الفاسد أكثر مما يصلحه، كما فعله الكفار وأهل البدع من الخوارج والروافض وغيرهم[٢].

فبالعلم والفقه في الدين يسلم من هذا الفساد، ويفعل الصواب المأمور به وبذلك يزداد إيمانًا.

ومن الأمثلة التي تدل على أن الفقه في الدين يستجلب أعمال القلوب ما ذكر شيخ الإسلام عند كلامه عن عناصر الندم، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والندم يتضمن ثلاثة أشياء: اعتقاد قبح من ندم عليه، وبغضه وكراهيته، وألم يلحقه عليه»[٣].

فمن أهم هذه العناصر اعتقاد قبح ما ندم عليه، وهذا الاعتقاد بقبح عمله الذي كان يعمله لا يمكن حصوله إلا بعد معرفته بأن فعله سيء ليتوب

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٤٢)، و (١٠/ ٥٢١).

(٢) المصدر نفسه (٢٠/ ١٤١-١٤٢).

(٣) رسالة في التوبة (١/ ٤٨٤)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٢٥).

منه، أو بأنه ترك حسنًا مأمورًا به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب فيفعله، ولهذا يقول: إن أول التوبة العلم بالذنب، فإن الذي لا يعلم أنه يذنب لا يمكن أن يتوب من شيء لا يعده ذنبًا[(١)]، فمن عرف قبح ذنبه واعتقده، أورده ذلك كراهية لما كان يفعله، فحصل له بذلك ألم وأذى وغم، فيطلب التملص منه ومن تبعاته.

وعلى كل حال، فإن العلم بالله جل شأنه يوجد في القلب حياة، ويوجب خشية، وثمرة ذلك حياة الجوارح وامتثالها، فعلا للحسنات وتركا للسيئات[(٢)].

فالعلم قوت القلوب وغذاؤه، يحس به كما يحس الجسم بالطعام والشراب[(٣)].

وبالمقابل، فإن من يفقد هذا العلم من أهل الجهل بالله ﷻ ودينه فهو محكوم عليه بموت القلب، وإن كان الجسد والبدن معدودًا في دائرة الأحياء[(٤)].

ولهذا قال الله تبارك وتعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر].

◇ المسألة الثانية: العمل الصالح.

ومن أسباب تفاضل أعمال القلوب وتقويتها: الأعمال الصالحة الخالصة لوجه الله تعالى، والإكثار منها، والمداومة عليها، فكل عمل يقوم به المسلم مما شرعه الله، يخلص نيته فيه لله، يزيد في إيمانه، لأن الإيمان

---

(١) انظر: التحفة العراقية (ص/ ٢٩٧).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٩٢-٢٩٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٤١).
(٤) مدارج السالكين (٣/ ١٩٥).

يزيد بالطاعات وكثرة العبادات، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النّحل: ٩٧].

فالآية الكريمة تتضمن وعدًا لمن عمل الصالحات بأن يحييه الله حياة طيبة، وقد ذكر المفسرون في المقصود بالحياة الطيبة أقوالا عدة[١]، منها السعادة[٢]، والانشراح بالعبادة، والتذلل بحلاوة الطاعة، والقناعة، والرضا بالقضاء، والرزق الحلال، والعافية، وغير ذلك.

والظاهر أن اللفظ في الآية عام يحتمل جميع تلك الأقوال، يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت».

وبعد أن أورد عددًا من الأقوال المروية عن بعض الصحابة والتابعين قال: «والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله»[٣].

فلا شك أن المؤمن حين يستجيب لله تعالى ورسوله ﷺ، فيلتزم بالتكاليف الشرعية، فعلًا لما يؤمر له من الطاعات، وتركا للمحرم من الشهوات، وتتقلب أعضاؤه وجوارحه في أنواع العبودية لربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن ذلك العمل الصالح له أثره المحمود على القلب، نورًا وضياءًا، وإشراقًا وصفاءا، وقوة وثباتًا، وانشراحًا وطمأنينة، يطيب حياته، ويلم شعثه، ويزيل كدره، ويطهره من الدنس، ويحميه من أن يكون مرتعا للشيطان وكيده[٤].

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٢٨٩-٢٩١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٤٢٤)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٧٦٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٦٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٩٦)، و (١٠/ ٩٨-٩٩).

بالمعصية، فكلما فعل العبد الطاعة محبة لله وخوفًا منه، وترك المعصية حبًّا له وخوفًا منه قوي حبه له وخوفه منه، فيزيل ما في القلب من محبة غيره ومخافة غيره.

وهكذا أمراض الأبدان: فإن الصحة تحفظ بالمثل، والمرض يدفع بالضد، فصحة القلب بالإيمان تحفظ بالمثل؛ وهو ما يورث القلب إيمانًا من العلم النافع والعمل الصالح فتلك أغذية له، كما في حديث ابن مسعود مرفوعًا وموقوفًا: «**إن كل آدِب يحب أن تؤتى مأدبته، وأن مأدبة الله هي القرآن**»[١]، والآدب المضيف فهو ضيافة الله لعباده[٢].

مثل آخر: الليل، وأوقات الأذان والإقامة، وفي سجوده، وفي أدبار الصلوات، ويضم إلى ذلك الاستغفار، فإنه من استغفر الله ثم تاب إليه متعه متاعا حسنا إلى أجل مسمى.

وليتخذ وردا من الأذكار في النهار، ووقت النوم، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف، فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه، ويكتب الإيمان في قلبه، وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة فإنها عمود الدين، وليكن هجيراه لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها بها تحمل الأثقال، وتكابد الأهوال، وينال رفيع الأحوال.

ولا يسأم من الدعاء والطلب، فإن العبد يستجاب له ما لم يعجل، فيقول: قد دعوت ودعوت فلم يستجب لي، وليعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، ولم ينل أحد شيئًا من ختم

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٥)، والدارمي في السنن (٢/ ٥٢١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١١٢)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٣٣)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٢٩)، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع (٤٢٤٧).

(٢) بياض في الأصل (المحقق).

الخير نبي فمن دونه إلا بالصبر»(١).

والأعمال الصالحة التي تزيد الإيمان وتستجلب بها أعمال القلوب كثيرة، ومن أبرزها، والتي أشار إلى بعضها شيخ الإسلام في النقل السابق ما يلي:

**الأول: قراءة القرآن وتدبره.**

إن تلاوة القرآن والمداومة على ذلك من تعظيمه، لأنه كلام الله تبارك وتعالى، وتعظيم كلام الله تعالى من الإيمان به، لما يحصل للقارئ من الأجر على تلاوته وزيادة الإيمان بتدبر آياته وحضور القلب أثناء قراءته.

وقد مدح الله تعالى التالين لآياته فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ [فَاطِر].

وكما أنه تعالى مدح من يتلوه، كذلك مدح من يعمل به، لأنه الغاية من إنزاله، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ١٢١].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئًا على غير تأويله»(٢).

ومن حقوق التلاوة تدبر آياته، كما قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [صٓ].

وقد أخبر سبحانه أن قراءة المؤمنين للقرآن وتدبره تزيد إيمانهم وتوجل

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٣٦-١٣٧).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٥٦٧).

قلوبهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال].

وعاتب ﷻ المؤمنين على عدم خشوعهم عند سماع القرآن، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

فقراءة القرآن وتدبره من أنفع ما يكون للقلب، فبقراءته تستجلب أعمال القلوب التي بها حياة القلب وكماله، وشفاؤه من جميع أسقامه، وتندفع أسباب هلاكه وفساده.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الإيمان العظيم، وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء»(١).

وقال ابن القيم رحمه الله: «وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه.

فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ٢٢٢).

تدبر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن...»[١].

لكن على العبد لكي تحصل له هذه المعاني التي ذكرها شيخ الإسلام وابن القيم رحمهما الله، ينبغي له أن يتعلم كيفية الاستفادة منه حتى يتم له الانتفاع به، يقول ابن القيم رحمه الله: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك واحضر حضور من يخاطب به، من تكلم به سبحانه منه إليه»[٢].

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله مبينا حال صاحب القرآن الذي ينال رفيع الدرجات وعالي المنازل ـ وفي نفس الوقت هو تعليم لنا كيفية الاستفادة من القرآن ـ، قال رحمه الله: «فهو دائم التفكر في معانيه، والتدبر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئًا من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبله، وإلا رده، وإن لم يشهد له بقبول ولا رد وقفه، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه.

ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالوسوسة في خروج حروفه، وترقيقها، وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمد الطويل، والقصير، والمتوسط، وغير ذلك، فإن هذا حائل للقلوب، قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه...

وكذلك تتبع وجوه الإعراب، واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان.

وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس ونتائج أفكارهم.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٨٩).

(٢) الفوائد (ص/ ٣).

وكذلك تأويل القرآن على قول من قلد دينه أو مذهبه، فهو يتعسف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعًا لمذهبه وتقوية لقول إمامه، وكل محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره»[(١)].

فالخلاصة أن المؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما ركب فيه من الأخبار الصادقة، والأحكام الحسنة يحصل له من أمور الإيمان خير كثير، فكيف إذا أحسن تأمله، وفهم مقاصده وأسراره، وكيف إذا نظر إلى انتظامه وإحكامه، أنه يصدق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف[(٢)].

### ثانيًا: دوام ذكر الله تعالى[(٣)].

الإكثار من ذكر الله ﷻ من الأعمال الصالحة التي تستجلب بها أعمال القلوب، فإنها تزيد الإيمان وتقويه، كالتسبيح، والاستغفار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعاء وغير ذلك.

وقد أمر الله به وبين فضله في كثير من نصوص الكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة]، يقول ابن القيم: «لولم يكن في الذكر إلا هذه وحدها، لكفى بها فضلًا وشرفًا»[(٤)]، فبالذكر تطمئن القلوب، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

ويكفي في شرف الذكر أن الله يباهي ملائكته بأهله، كما في

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٠-٥١).

(٢) التوضيح و البيان (ص/ ٧٢)، بتصرف.

(٣) مع أن قراءة القرآن من ذكره، إلا أنها أفردت لأهميتها.

(٤) الوابل الصيب (ص/ ٩٦).

الصحيحين: أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله، ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومنّ علينا، قال: «آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: «**أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن أتاني جبريل عليه السلام فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة**»(١).

يقول الشيخ السعدي رحمه الله مبينا أهمية الذكر: «فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويغذيها وينميها، وكلما ازداد العبد ذكرا لله قوي إيمانه، كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر، فمن أحب الله أكثر من ذكره؛ ومحبة الله هي: الإيمان، بل هي روحه»(٢).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها، ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته»(٣).

إن بالذكر تحصل طمأنينة القلب، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرّعد]، فالقلوب المؤمنة بالله المصدقة بوعده ووعيده لا تطمئن ولا تستريح ولا تسكن إلا بذكر ربها، فذكر الله هو غذائها وروحها، وهو الذي يزيل قلقها واضطرابها، يقول شيخ الإسلام رحمه الله في سياق تقريره أن الله يجب أن يفرد بالمحبة، وأن الله يجب أن يكون محبوبا مرادا لذاته، وأن هذه المحبة محبة مختصة به سبحانه وتعالى على سبيل الخضوع له والتعظيم، يوضح ذلك علاقته بالذكر فيقول: «ولهذا كانت القلوب تطمئن بذكره كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: ٢٨]، فتقديم المفعول يدل على أنها لا تطمئن إلا بذكره، وهو تعالى

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٨٣)، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

(٢) التوضيح البيان (ص/٧٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٠).

إذا ذكر وجلت (أي قلوب العباد)، فحصل لها اضطراب ووجل لما تخافه من دونه، وتخشاه من فوات نصيبها منه، فالوجل إذا ذُكر حاصل بسبب من الإنسان، وإلا فنفس ذكر الله يوجب الطمأنينة، لأنه هو المعبود لذاته، والخير كله منه»(١).

فالذكر حياة القلب، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ سمعت شيخ الإسلام قدس الله روحه يقول: «الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف كان حال السمك إذا فارق الماء؟!»(٢).

ويقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: «وهؤلاء(٣) هم الذين يطلبون لذة النظر إلى وجهه الكريم، ويتلذذون بذكره ومناجاته، ويكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك، حتى لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم ما لا يطيقون»(٤).

والخلاصة أن ذكر الله يحرك القلوب إلى خالقها جلا وعلا، ويوثق علاقتها وصلتها ببارئها سبحانه(٥)، فيزيد إيمانها، ويربو خشوعها، وتزول قسوتها، ويعظم إخباتها، وذلك علامة حياتها.

**الثالث: إقامة الصلاة.**

إن الصلاة أهم أركان الإسلام الخمسة بعد الشهادتين، وجاءت تسمية الله جل وعلا لها بالإيمان كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ [البَقَرَة: ١٤٣]، أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، وقد وصفها

---

(١) كتاب النبوات (١/ ٣٧٨)، وانظر: التحفة العراقية (ص/ ٤٢٣-٤٢٤).

(٢) الوابل الصيب (ص/ ٩٦).

(٣) يريد شيخ الإسلام بهؤلاء: الذين يحبون الله بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى.

(٤) التحفة العراقية (ص/ ٤٥٢).

(٥) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٩٥-٩٦).

رسول الله ﷺ بأنها عمود الإسلام، وأخبر أنها آخر ما يفقد من الدين، وأول ما يحاسب عليه العبد، وهي الفاصلة بين الكفر والإيمان قال النبي ﷺ: «**إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»(١).

ومما يدل على أهمية شأن الصلاة أيضًا أن الله فرض الصلوات الخمس على رسول الله ﷺ ليلة الإسراء وهو في السماء، كما جاء في حديث الإسراء، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر كما قال الله ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وهي آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ، فعن أم سلمة ﵂: أن رسول الله ﷺ كان يقول في مرضه الذي توفي فيه: «**الصلاة، وما ملكت أيمانكم**»، فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه(٢)، وأيضًا فإن الله لما ذكر صفات المؤمنين في سورتي المؤمنون والمعارج بدأها بالصلاة وختمها بالصلاة، فقال في سورة المومنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون]، وقال في آخرها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ [المؤمنون: ٩]، وقال في سورة المعارج: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ [المعارج]، وقال في آخرها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾ [المعارج].

وإقامة الصلاة تكون على حالتين: إحداهما واجبة، وهو؛ أداؤها على أقل ما يحصل به فعل الواجب وتبرأ به الذمة، ومستحبة، وهو؛ تكميلها وتتميمها بالإتيان بكل ما هو مستحب فيها(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ٦١)، في كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٩/ ٢٠٩)، وابن ماجه في سننه (ص/ ٢٨٥) وصححه الألباني في الإرواء (٧/ ٢٣٨).

(٣) شرح حديث جبريل في تعليم الدين، للعلامة الشيخ عبد المحسن العباد (٣/ ٢٣-٢٤)، ضمن مجموعة (كتب ورسائل الشيخ)، بتصرف.

فالصلاة شأنها عظيم، وهي تجمع جل أسباب تفاضل أعمال القلوب:

- ففيها قراءة القرآن،

- وفيها ذكر الله ﷻ،

- وفي إقامتها دليل على الإيثار لمحاب الله على محاب المقيمين لها، فإنهم لا يقيمونها في الحر والبرد، في الليل والنهار، في الصحة والمرض، في السفر والحضر إلا وقلوبهم مليئة بمحبة الله.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «اعلم أن الله تعالى خلق فعل العبد سببًا مقتضيا لآثار محمودة أو مذمومة، والعمل الصالح مثل صلاة أقبل عليها بقلبه ووجهه وأخلص فيها وراقب، وفقه ما بنيت عليه من الكلمات الطيبات، والأعمال الصالحات، يعقبه في عاجل الأمر نور في قلبه، وانشراح في صدره، وطمأنينة في نفسه، ومزيد في علمه، وتثبيت في يقينه، وقوة في عقله، إلى غير ذلك من قوة بدنه، وبهاء وجهه، وانتهائه عن الفحشاء والمنكر، وإلقاء المحبة له في قلوب الخلق، ودفع البلاء عنه وغير ذلك مما يعلمه ولا نعلمه.

ثم هذه الآثار التي حصلت له من النور والعلم واليقين وغير ذلك أسباب مفضية إلى آثار أخر من جنسها ومن غير جنسها أرفع منها وهلم جرا، ولهذا قيل: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها...»[1].

هذه جملة من الأسباب التي تستجلب به أعمال القلوب، فجدير بكل ناصح لنفسه أن يأخذ بهذه الأسباب، ويحرص على تحقيقها علمًا وعملًا، فإن من نعم الله على عباده تعريفهم بأسباب سعادتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٩٦).



## المطلب الثاني

## الأسباب المضْعِفة لأعمال القلوب

وكما أن هناك أسبابًا تستجلب بها أعمال القلوب، فهناك أسباب لإضعافها أو إنقاصها، وكما أن المسلم مطالب بمعرفة أسباب زيادة أعمال القلوب ليطبقها، فهو كذلك مطالب بمعرفة أسباب إضعافها ليحذرها.

فأسباب إضعاف أعمال القلوب، وعوامل إنقاصها كثيرة ومتنوعة، إلا أنها في جملتها تنقسم إلى قسمين: أسباب داخلية، وأسباب خارجية، وتحت كل قسم منها عدة عوامل[1]:

القسم الأول: **الأسباب الداخلية.**

هي الأسباب الداخلية والعوامل الذاتية التي لها تأثير في أعمال القلوب بالنقص، وهي عدة عوامل:

**الأول: الجهل، وهو ضد العلم.**

فكما أن العلم من أعظم أسباب تفاضل أعمال القلوب، فالجهل ضده، فمحبة الظلم والعدوان سببه الأول هو الجهل وفساد العلم.

فالسيئات عمومًا: منشؤها الجهل، فإنه لا أحد يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة، أو لهواه وميل نفسه إليها، ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجوبها، أو لبغض نفسه لها.

---

(١) انظر: زيادة الإيمان ونقصانه (ص/٢٤٨)، وما بعدها.

وفي الحقيقة: فالسيئات كلها ترجع للجهل، لأن الهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل، فصاحب الهوى إذا علم قطعا أن هذا يضره ضررًا راجحًا لم يفعله، بل انصرفت نفسه عنه بالطبع، فإن الله ﷻ جعل في النفس حبًّا لما ينفعها، وبغضا لما يضرها، فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضررًا راجحًا، بل متى فعله كان لضعف العقل، ولهذا قيل: كل من عصى الله فهو جاهل(١).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وسبب ذلك: أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل، فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه، وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلًا بهذا الاعتبار»(٢).

والحاصل، إذا كان العلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات وترك السيئات، وكل عاص فهو جاهل ليس بتام العلم، تبين أن أصل السيئات الجهل وعدم العلم(٣).

**الثاني: الغفلة والإعراض عن ذكر الله.**

لا ريب أن ذكر الله جل شأنه وعدم الغفلة سبب مؤثر في حياة القلوب وهو من أوجه زيادة الإيمان ونقصانه كما ذكره شيخ الإسلام، قال رحمه الله: «الوجه السابع: ذكر الإنسان بقلبه ما أمره الله به، واستحضاره لذلك بحيث لا يكون غافلًا عنه، أكمل ممن صدق به وغفل عنه، فإن الغفلة تضاد كمال العلم والتصديق، والذكر والاستحضار يكمل العلم واليقين، ولهذا قال عمير ابن

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٨٧- ٢٩٢).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٥٧).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٨٧- ٢٨٩).

حبيب[(١)] من الصحابة: «إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه، فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه»[(٢)]، وهو كذلك...، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات]، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾ [الأعلى]، ثم كلما تذكر الإنسان ما عرفه قبل ذلك، وعمل به حصل له معرفة شيء آخر لم يكن عرفه قبل ذلك، وعرف من معاني أسماء الله وآياته ما لم يكن عرفه قبل ذلك كما في الأثر: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»[(٣)]، وهذا أمر يجده في نفسه كل مؤمن.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت**»[(٤)]، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وذلك أنها تزيدهم علم ما لم يكونوا قبل ذلك علموه، وتزيدهم عملًا بذلك العلم، وتزيدهم تذكرًا لما كانوا نسوه، وعملًا بتلك التذكرة....، والإنسان يقرأ السورة مرات حتى سورة الفاتحة، ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك، حتى كأنها تلك الساعة نزلت، فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله، وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه، ثم كلما فعل شيئًا

---

(١) عُمير بن حبيب بن خماشة بن جويير بن عبيد بن عنان بن عامر بن خطمة الأنصاري الخطمي، قال ابن حجر: «قال البخاري بايع تحت الشجرة، وقال ابن السكن مدني له صحبة، وهو جد أبي جعفر الخطمي»، انظر: الإصابة (٥/ ٣٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في السنة (٦٢٤، ٦٢٥)، وابن أبي شيبة في الإيمان (ص/ ٣٠).

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ١٥)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ٩٠) وابن عساكر في تأريخ دمشق (٣٢/ ٥٠٩).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١١١٢)، في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله ﷻ، ومسلم في صحيحه (ص/ ٣٠٧)، في كتاب صلاة المسافر وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، وجوازها في المسجد، ولفظه: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه، مثل الحي والميت».

مما أمر به استحضر أنه أمر به، فصدق الأمر فحصل له في تلك الساعة من التصديق في قلبه ما كان غافلًا عنه، وإن لم يكن مكذبًا منكرًا»[١].

فالحاصل، كما أن ذكر الله سبب تستجلب به أعمال القلوب، فكذلك الغفلة والإعراض عن ذكر الله من أسباب مرض القلب أو موته وذلك باستيلاء الشهوات والشبهات عليه.

**الثالث: فعل المعاصي، وارتكاب الذنوب.**

كما أن أعمال الجوارح من الطاعات تؤثر في القلب وأعمالها صلاحا وصحة وقوة ونماء، فكذلك أعمال الجوارح من المعاصي والسيئات تؤثر أيضًا في القلوب وأعمالها فسادًا وموتًا ومرضًا وضعفًا.

وقد أخبرنا الله بأن الذنوب والمعاصي تذهب الإيمان شيئًا فشيئًا حتى يطبع على القلب ويختم عليه من كثرة الذنوب، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفّفين]، أي غطت وغلبت على قلوبهم المعاصي وأحاطت بها، قال الحسن البصري وغيره من السلف: «هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت»[٢].

وبهذا جاء التفسير لهذه الآية عن رسول الله ﷺ، قال النبي ﷺ: «**إن العبد إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، فإن زاد زادت، فذلك قول الله:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفّفين]»[٣].

---

(١) الإيمان الكبير (ص/١٨٦-١٨٧)، وانظر: الإيمان الأوسط (ص/١١٠).

(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٢٨٧)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٤٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣/ ٣٣٣)، والترمذي في سننه (ص/٧٥٦) في كتاب التفسير، وقال: هذ حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه في سننه(ص/٧٠٣)، في كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، والحاكم في المستدرك (١/ ١٠٠)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في التعليق الرغيب (٢٣٢٢).

ويؤيد هذا المعنى للآية ما ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير على قلبين، على أبيض مثل الصفاء فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبادا**[1] **كالكوز مجخيًا**[2]**، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه**»[3].

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينا أثر المعاصي على القلوب: «ومعلوم أن من حافظ على الصلوات بخشوعها الباطن وأعمالها الظاهرة، وكان يخشى الله الخشية التي أمره بها، فإنه يأتي بالواجبات، ولا يأتي كبيرة.

ومن أتى الكبائر: مثل الزنا، أو السرقة، أو شرب الخمر وغير ذلك، فلا بد أن يذهب ما في قلبه من تلك الخشية والخشوع والنور، وإن بقي أصل التصديق في قلبه، وهذا من الإيمان الذي ينزع منه عند فعل الكبيرة»[4].

وفي معرض بيان أثر أعمال الجوارح من الطاعات والمعاصي على القلوب وأعمالها، مثل شيخ الإسلام لأثر المعاصي في القلوب بالكذب، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكذلك العمل السيء مثل الكذب ـ مثلًا ـ يعاقب صاحبه في الحال بظلمة في القلب، وقسوة وضيق في صدره، ونفاق واضطراب،

---

(١) مُربد: هو لون بين السواد والغبرة، وهو لون النعام، ومنه قيل للنعام: رُبْدٌ، انظر: غريب الحديث (٥/ ١٣٩)، لأبي عبيد القاسم بن سلام.

(٢) فإن المُجَخِّي المائل، قال أبو عبيد: «ولا أحسبه أراد مع ميله إلا أن يكون منخرق الأسفل، فشبه به القلب الذي لا يَعي خيرًا كما لا يثبت الماء في الكوز المنخرق» (٥/ ١٤٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ٨٢)، في كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا .

(٤) الإيمان الكبير (ص/ ٢٩).

ونسيان ما تعلمه، وانسداد باب علم كان يطلبه، ونقص في يقينه وعقله، واسوداد وجهه وبغضه في قلوب الخلق، واجترائه على ذنب آخر من جنسه أو غير جنسه وهلم جرا، إلا أن يتداركه الله برحمته»(١).

وحين تكلم عن الأضرار التي تترتب على شرب الخمر، ذكر منها أن (الخمر تصد الإنسان عن علمه وتدبره ومصلحته في معاشه ومعاده...، وكذلك إيقاع العداوة والبغضاء هي منتهى الشيطان...، وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن الفواحش والظلم وغير ذلك من الذنوب توقع العداوة والبغضاء، وأن كل عداوة أو بغضاء فأصلها من معصية الله..)(٢).

القسم الثاني: **الأسباب الخارجية.**

هي الأسباب الخارجية والمؤثرات الخارجية التي لها تأثير في أعمال القلوب بالنقص، وهي عدة عوامل:

**الأول: الشيطان.**

أكد الله جل وعلا في أكثر من موضع في كتابه العزيز على عظيم عداوة الشيطان للإنسان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

قال ابن الجوزي: «فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عداوته من زمن آدم عليه السلام، وقد بذل عمره في فساد أحوال ابن آدم، وقد أمر الله بالحذر منه» فذكر جملة من النصوص، ثم قال: «وفي القرآن من هذا كثير»(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٩٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٤٥-٣٤٦).

(٣) تلبيس إبليس (ص/ ٢٣).

ومن عداوة الشيطان الظاهرة دأبه على إضلال المؤمنين وإغوائهم، وتزيين الكفر والمعصية في قلوبهم، والوسوسة في صدورهم، ومحاولته المتجددة في الاستحواذ عليهم، وإيقاعهم في حبائله وأباطيله، فيصدهم عن عبودية الله جل شأنه، وينأى بهم عن الاستقامة على شرعه ودينه، لتصبح قلوبهم محلًّا للغفلة، ومقرًّا للشبهة، ومرتعًا للشهوة، ناسية للحق، تاركة للهدى، غافلة عن الذكر.

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾﴾ [الناس: ٥].

وقال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس][1].

فإذا كان الشيطان يدعو النفوس إلى المحرمات ويزين الطريق إليها حتى يوقعها في الشر، نهانا الله عن اتباع خطواته ومسالكه في الإغواء والإضلال، مبينًا لنا أنه عدو مبين، وأنه يأمر بالفحشاء والمنكر والسوء والقول على الله بلا علم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة].

(١) عبودية القلب لرب العالمين (١/ ٤٤٤-٤٤٥).

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ [النور: ٢١][١].

فالشيطان من أخطر الأسباب الخارجية التي توقع العبد في المحرمات، وأما تأثيرها في إضعاف أعمال القلوب فواضح، فمثلا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران]، فدلت الآية على أن المؤمنين لا يجوز أن يخافوا أولياء الشياطين، ولا أن يخافوا الناس، بل يجب عليهم أن يخافوا الله وحده، وذلك هو تحقيق الإيمان بالله[٢]، فبقدر ما يستسلم العبد لتخويف الشيطان يفوّت من تحقيق إخلاص الخوف لرب العالمين، بل إذا انقاد العبد له واسترسل معه في مخاوفه قد يوصله ذلك إلى الشرك الأكبر.

فمن المهم لمراغمة الشيطان وحماية القلب من كيده، العلم على سد منافذه على القلب، وإغلاق الأبواب التي تفتح له طريقا إليه.

ومن أهم العوامل المؤثرة في إغلاق مداخل الشيطان تقوى الله ﷻ وذكره تبارك وتعالى، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والشيطان وسواس خناس، إذا ذكر العبد ربه خنس فإذا غفل عن ذكره وسوس، فلهذا كان ترك ذكر الله سببًا ومبدأ لنزول الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة في القلب»[٣].

**الثاني: الدنيا وفتنتها.**

فإن من أسباب نقص أعمال القلوب وضعفها الاشتغال بعرض الدنيا الزائل، وشغل الأوقات فيها والانهماك في طلبها، والجري خلف ملذاتها وفتنها ومغرياتها، متى عظمت رغبة العبد وتعلق قلبه بها ضعفت الطاعة عنده ونقص الإيمان بحسب ذلك.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٤٣٦-٤٣٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٠٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٤).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن القلب قد يغمره فيستولي عليه ما يريده العبد ويحبه، وما يخافه ويحذره كائنا من كان، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المؤمنون]، فهي فيما يغمرها عما أنذرت به، فيغمرها ذلك عن ذكر الله والدار الآخرة وما فيها من النعيم والعذاب الأليم، قال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [المؤمنون]، أي فيما يغمر قلوبهم من حب المال والبنين المانع لهم من المسارعة في الخيرات والأعمال الصالحة، وقال تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾ [الذاريات]، الآيات: أي ساهون عن أمر الآخرة، فهم في غمرة عنها، أي فيما يغمر قلوبهم من حب الدنيا ومتاعها، ساهون عن أمر الآخرة وما خلقوا له، وهذا يشبه قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، فالغمرة تكون من اتباع الهوى، والسهو من جنس الغفلة، ولهذا قال من قال: السهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه، وهذا جماع الشر؛ الغفلة والشهوة.

فالغفلة عن الله والدار الآخرة تسد باب الخير الذي هو الذكر واليقظة، والشهوة تفتح باب الشر والسهو والخوف، فيبقى القلب مغمورا فيما يهواه ويخشاه، غافلًا عن الله، مريدًا غير الله، ساهيًا عن ذكره، قد اشتغل بغير الله، قد انفرط أمره، قد ران حب الدنيا على قلبه، كما روي في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي، وإن منع سخط»**[1].

جعله عبد ما يرضيه وجوده ويسخطه فقده، حتى يكون عبد الدرهم، وعبد ما وصف في هذا الحديث، والقطيفة هي التي يجلس عليها فهو

---

(١) تقدم تخريجه.

خادمها كما قال بعض السلف: «البس من الثياب ما يخدمك، ولا تلبس منها ما تكون أنت تخدمه»، وهي كالبساط الذي تجلس عليه، والخميصة هي التي يرتدي بها، وهذا من أقل المال، وإنما نبه به النبي ﷺ على ما هو أعلى منه، فهو عبد لذلك: فيه أرباب متفرقون، وشركاء متشاكسون، ولهذا قال: «**إن أعطي رضي وإن منع سخط**»، فما كان يرضي الإنسان حصوله، ويسخطه فقده فهو عبده، إذ العبد يرضى باتصاله بهما ويسخط لفقدهما، والمعبود الحق الذي لا إله إلا هو إذا عبده المؤمن وأحبه حصل للمؤمن بذلك في قلبه إيمان، وتوحيد ومحبة، وذكر وعبادة، فيرضى بذلك، وإذا منع من ذلك غضب»[١].

وقد سبق معنا أن الزهد في الدنيا منزلة يتطلع إليها المؤمنون الصادقون، فإنه صفة من أجل الصفات، وفضيلة من أرقى الفضائل، يحرص عليها الصادقون بالتدبر والتأمل والمجاهدة، فإنه معرفة عميقة بحقيقة الدنيا، ويقين صادق قوي بالآخرة، وأنس واطمئنان بالله سبحانه ذكرًا وتلاوة وقيامًا واستقامة ودعوة وجهادا في سبيل الله.

ولا يحصل الزهد في الحقيقة إلا لمن يعرف الدنيا ما هي، ويعرف عيوبها وآفاتها، ويتحقق ما يستغني عنه منها، ويعرف الآخرة وافتقاره إليها، ولا بد له في ذلك من العلم، وإذا أراد الله بعبد خيرًا أقام في قلبه شاهدًا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة، ويؤثر منها ما هو أولى بالإيثار[٢].

**الثالث: قرناء السوء.**

فهم أضر الناس على إيمان الشخص وسلوكه وأخلاقه، فمخالطتهم ومصاحبتهم سبب عظيم من أسباب نقص الإيمان وضعفه.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٥٠٦-٥٩٨).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/٨).

فالمصاحبة والمؤاخاة لا تجوز إلا مع أهل طاعة الله تعالى على مراد الله[(١)]، قال النبي ﷺ: «**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[(٢)].

قال أبو سليمان الخطابي: «قوله: المرء على دين خليله، معناه؛ لا تخالل إلا من رضيت دينه وأمانته، فإنك إذا خاللته قادك إلى دينه ومذهبه، ولا تغرر بدينك ولا تخاطر بنفسك فتخالل من ليس مرضيًّا في دينه ومذهبه»[(٣)].

وإنما جاء النهي عن مخالطة قرناء السوء والتحذير من مجالستهم، لأن طباع الإنسان مجبولة على الاقتداء والتشبه بمن يقارن، فمجالسة طلاب العلم تحرك في النفس الحرص على طلب العلم، ومجالسة الزهاد تزهد في الدنيا، ومجالسة المبتدعة وأهل الأهواء تردي في مهاوي البدع، ومجالسة الحريص على الدنيا تحرك في النفس الحرص على الدنيا، وهكذا[(٤)].

لذا، فإن من الحزم والرشاد، ورجاحة العقل وحصافة الرأي، ألا يجالس المرءُ إلا من يرى في مجالسته ومؤاخاته النفع له في أمر دينه، و يجتنب مجالسة أهل الشر وقرناء السوء، فإنه من أعظم أسباب نقص الإيمان وضعفه، بل وربما اضمحلاله وتلاشيه، وذلك بحسب حال هؤلاء في السوء وبحسب خلطة الرجل لهم.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٢٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٣/ ٣٩٨) وأبو دواد في سننه (ص/ ٨٧٦)، في كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، الترمذي في سننه (ص/ ٥٣٥)، في كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقد حسنه الألباني في الصحيحة (٩٢٧).

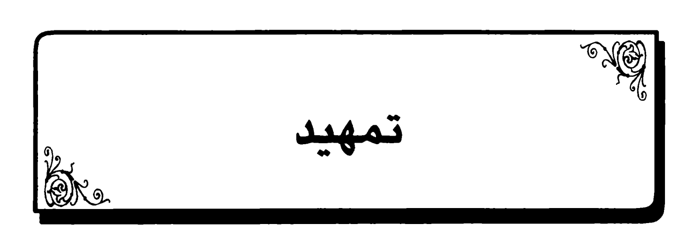
(٣) العزلة (ص/ ١٤١).

(٤) زيادة الإيمان ونقصانه (ص/ ٢٧٢/ ٢٧٥).



# المبحث الثاني:

# درجات الناس في أعمال القلوب



# تمهيد

إنما يتفاضل المؤمنون بتفاضلهم في الإيمان، والإيمان يتفاضل كما هو المقرر عند أهل السنة والجماعة، وتفاضل الإيمان زيادته ونقصانه، تكون زيادته بالطاعة ويكون نقصانه بالمعصية، ولقد قامت الأدلة من الكتاب والسنة بأن الإيمان يزيد وينقص.

ووجه كون الأصل في تفاضل المؤمنين تفاضل الإيمان، أن الإيمان إنما كان متفاضلًا يقبل الزيادة والنقصان لأنه شعب كما قال النبي ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأعلاها لا إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»(١)، فمن استكمل الشعب استكمل الإيمان ومن نقص منها نقص من إيمانه، وبهذا يتصور تفاضل المؤمنين إذ لو كان الإيمان شيئًا واحدًا لا يقبل الزيادة والنقصان فلا يتفاضل أهله فيه لتساوي حظهم منه، لأنه يكون حينها شيئًا واحدًا فلا يقبل الزيادة فيزيد أحد المؤمنين على آخر فيه فيفضله، ولا يقبل النقص فينقص أحد المؤمنين عن آخر فيه فيكون مفضولا، وعليه فيكون إيمان الأنبياء وإيمان آحاد المؤمنين متساويا، وهذا باطل قطعًا.

ونذكر أولا بعض الأدلة التي تدل على تفاضل المؤمنين في الإيمان:

قد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم أربع مراتب فقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ

(١) تقدم تخريجه.

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩﴾ [النساء]، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه الأربعة هي مراتب العباد: أفضلهم الأنبياء، ثم الصديقون، ثم الشهداء، ثم الصالحون»[(١)].

وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمٗا ۝٩٥﴾ [النساء]، هذا نص في التفاضل بين المؤمنين، وبيان لوجه من وجوه ذلك التفاضل، فالآية ناطقة بأن من جاهد في سبيل الله أفضل ممن قعد عن الجهاد من غير عذر مانع من الجهاد، ومع أن الجميع مؤمن بالله وكلا وعد الله الحسنى، إلا أن الله فضل المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٞ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٞ وَمِنْهُمْ سَابِقُۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢﴾ [فاطر]، ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٞ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢] وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٞ﴾ [فاطر: ٣٢] وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقُۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [فاطر: ٣٢] وهو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

وأما الأحاديث النبوية الدالة على تفاضل أهل الإيمان فيه فهي كثيرة جدا، منها:

قال النبي ﷺ: «**إن من خياركم أحاسنكم أخلاقًا**»[(٢)]، فهذا دليل على

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٠٥٤)، في كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل، ومسلم صحيحه (ص/ ٩٤٩)، في كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ.

تفاضل المؤمنين، وأن من أوجه تفاضلهم حسن الخلق، قال النووي رحمه الله: «فيه الحث على حسن الخلق، وبيان فضيلة صاحبه، وهو صفة أنبياء الله تعالى وأوليائه»[١].

وسئل النبي ﷺ: أي المسلمين أفضل؟، قال: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[٢]، أي: المسلم الذي سلم المسلمون من لسانه ويده أعلى درجة من المسلم الذي ليس كذلك، وإن كان فيه أصل الإيمان.

وقال النبي ﷺ: «**بينما أنا نائم رأيت الناس يعرضون علي وعليهم قمص، منها ما يبلغ الثُدِيّ، ومنها ما يبلغ دون ذلك، ومر عليّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره.** قالوا: ما أوّلت يا رسول الله؟ قال: **الدين**»[٣]، فهذا صريح في تفاضل المؤمنين في الإيمان، قال ابن حجر رحمه الله: «ومطابقته للترجمة[٤] ظاهرة من جهة تأويل القمص بالدين، وقد ذكر إنهم متفاضلون في لبسها فدل على أنهم متفاضلون في الإيمان»[٥].

فدلت هذه الأدلة من الكتاب والسنة أن أهل الإيمان يتفاضلون بما قام لديهم من إيمان ويقين، وبما يقومون به من البر والتقوى، وترك ما نهى عنه الله تعالى من المنهيات والمحرمات وما يتردد بينهما من المتشابهات، استبراء للدين والعرض ونيلًا للدرجات العلى.

---

(١) شرح النووي (١٥/ ٧٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٥)، في كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، ومسلم في صحيحه (ص/ ٤١)، في كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٧)، في كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال، ومسلم في صحيحه (ص/ ٩٧٤)، في كتاب الفضائل، باب من فضائل عمر.

(٤) أي مطابقة الحديث لترجمة الباب عند البخاري في صحيحه، لأنه رحمه الله بوّب لهذا الحديث بابا بعنوان: «تفاضل أهل الإيمان في الأعمال».

(٥) فتح الباري (١/ ٧٤).

فمنهم من بلغ من الكمال درجة يستطيع معها تنفيذ الأوامر الشرعية، واجتناب جميع المنهيات التي نهى عنها الشارع الحكيم، ثم إنه لم يقف عند هذا الحد بل طفق ينشد درجة أكمل، بالمحافظة على الإتيان بطاعات حث الشارع على الإتيان بها استحبابًا لا إيجابًا.

وصنف آخر شارك هؤلاء في الإتيان بسائر الأوامر، واجتناب كافة المنهيات، إلا أنه اقتصر عليها ولم يتعدها إلى ما سواها من النوافل.

وثالث تقبل التشريع وصدّق به، إلا أنه قصر في الإتيان ببعض الواجبات تهاونا، وقادته شهوته الجامحة إلى ارتكاب بعض المحرمات[1].

ونجد شيخ الإسلام قسم الناس في أعمال القلوب على ثلاث درجات كما هم في أعمال الأبدان[2]: فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والناس فيها على ثلاث درجات كما هم في أعمال الأبدان على ثلاث درجات: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات. فالظالم لنفسه: العاصي بترك مأمور أو فعل محظور. والمقتصد: المؤدي الواجبات والتارك المحرمات. والسابق بالخيرات: المتقرب بما يقدر عليه من فعل واجب ومستحب، والتارك للمحرم والمكروه»[3].

ويقول أيضًا: «العبادات المأمور بها، كالإيمان الجامع وكشعبه... لها ثلاثة أحوال، وربما لم يشرع لها إلا حالان، لأن العبد إما أن يقتصر

---

(١) الإيمان بين السلف والمتكلمين (ص/٤١-٤٣) لشيخنا: أحمد بن عطية الغامدي رحمه الله.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ١٦١-١٦٢)، و (١٣/ ٣٨٣).

(٣) التحفة العراقية (ص/ ٢٩٠).

على الواجب فقط، وإما أن يأتي بالمستحب فيها، وإما أن ينقص عن الواجب فيها. فالأول حال المقتصدين فيها وإن كان سابقا في غيرها، والثاني حال السابق فيها، والثالث حال الظالم فيها»[1].

وهذا التقسيم بالنظر إلى درجات المسلمين فقط بدون اعتبار الكفار، أما لو أردنا إدخال الكفار في هذ التقسيم لكانت الدرجات أربع، هي:

١ ـ المعرضون عن عبادة الله من الكفار والمنافقين.

٢ ـ الظالم لنفسه.

٣ ـ المقتصد.

٤ ـ السابق بالخيرات.

وقد أشار شيخ الإسلام إلى القسم الأول ـ وهم المعرضون عن عبادة الله ـ حين تكلم على درجات الناس في التوكل، فقال رَحِمَهُ اللهُ: «ومن أعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله بل خارج عن حقيقة الإيمان»[2].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «قاعدة نافعة: العبد من حين استقرت قدمه في هذه الدار فهو مسافر فيها إلى ربه، ومدة سفره هي عمره الذي كتب له، فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه، ثم قد جعلت الأيام والليالي مراحل سفره، فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي السفر.. .ثم الناس في قطع هذه المراحل قسمان:

**فقسم:** قطعوها مسافرين فيها إلى دار الشقاء، فكلما قطعوا منها مرحلة قربوا من تلك الدار، وبعدوا عن ربهم وعن دار كرامته، فقطعوا تلك

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢٩٠).

(٢) مجموع الفتاوى (ص/ ٣٤٧).

المراحل بمساخط الرب، ومعاداة رسله وأوليائه ودينه، والسعي في إطفاء نوره وإبطال دعوته، وإقامة دعوة غيرها، فهؤلاء جعلت أيامهم يسافرون فيها إلى الدار التي خلقوا لها واستعملوا بها، فهم مصحوبون فيها بالشياطين الموكلة بهم تسوقهم إلى منازلهم سوقًا...

**القسم الثاني**: قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام، وهم ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله، وهؤلاء كلهم مستعدون للسير، موقنون بالرجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره، وفي نفس السير وسرعته وبطئه...»[(١)].

إذن، إذا أردنا بيان درجات الناس في أعمال القلوب عند الاطلاق، أدخلنا الكافرين والمنافقين، لكن بما أنهم لا حظّ لهم في أعمال القلوب التي أمر الله بها، فسنذكر ما يتعلق بالأقسام الثلاثة (الظالم لنفسه ـ والمقتصد ـ والسابق بالخيرات)، فمن هم؟ وما صفاتهم؟ وما حكمهم في الدار الآخرة، هذا ما سنبينه في المطالب القادمة بإذن الله.

---

(١) طريق الهجرتين (ص/ ٢٨٨-٢٨٩).



## المطلب الأول
## الظلم لنفسه

إذا كان ما قام بالقلب، منها أعمال قلبية مأمور بها، ومنها أمراض قلبية منهي عنها، فمن ترك بعض الواجبات القلبية أو قصّر في الإتيان ببعضها فهو ظالم لنفسه، وكذلك من ارتكب بعض المحرمات القلبية فهو ظالم لنفسه.

وقد ذكر شيخ الإسلام أن الظالم لنفسه هو التارك لبعض الواجبات الفاعل لبعض المحرمات، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالظالم لنفسه: العاصي بترك مأمور أو فعل محظور»[(١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشبهًا فعل الطاعات بزاد السفر، وأن الظالم لنفسه مفرّط في الأخذ بالزاد: «فالظالم لنفسه: مقصر في الزاد، غير آخذ منه ما يبلغه المنزل، لا في قدره ولا في صفته، بل مفرط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده، ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به في طريقه»[(٢)].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو المفرط في فعل بعض الواجبات، والمرتكب لبعض المحرمات»[(٣)].

ومن صور الظالم لنفسه في أعمال القلوب ما ذكره شيخ الإسلام عند كلامه عن الخشوع، فخشوع القلب لذكر الله وما نزل من الحق واجب،

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٢٩٠).

(٢) طريق الهجرتين (ص/ ٢٨٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٧٢٦).

لكن الناس فيه على ثلاثة أقسام: مقتصدون، وهم الذين يأتون بالواجبات، وهم عموم المؤمنين المستحقين للجنة، وسابقون: وهم الذين يأتون بالمستحبات بعد أداء الواجبات، ومن لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء فهو ظالم لنفسه(١).

ومن صوره أيضا، حين ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أن التوبة واجبة، ومستحبة، فالواجبة هي التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور، والمستحبة هي التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات، فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين، ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين: إما الكافرين وإما الفاسقين(٢).

ويصف ابن القيم حال هذه المرتبة ويذكر جزاءهم فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما الظالم لنفسه، فإنه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه، فحركت جوارحه طالبة لها، فإذا زاحمها حقوق ربه فتارة وتارة، فمرة يأخذ بالرخصة ومرة بالعزيمة، ومرة يقدم على الذنب وترك الحق تهاونا ووعدا بالتوبة. فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والتصديق بالثواب والعقاب، فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران وهو للأغلب منهما، فإذا ورد القيامة ميز ربحه من خسرانه وحصل ربحه وحده وخسرانه وحده، وكان الحكم للراجح منهما، وحكم الله من وراء ذلك لا يعدم منه فضله وعدله»(٣).

ويقول في موضع آخر: «وأما السائرون إليه، فظالمهم قطع مراحل

---

(١) انظر: الإيمان الكبير (ص/٢٨).

(٢) رسالة في التوبة (١/ ٢٢٧).

(٣) طريق الهجرتين (ص/ ٢٩٠).

عمره في غفلاته، وإيثار شهواته ولذاته على مراضي الرب سبحانه وأوامره، مع إيمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، لكن نفسه مغلوبة معه مأسورة مع حظه وهواه، يعلم سوء حاله ويعترف بتفريطه ويعزم على الرجوع إلى الله، فهذا حال المسلم، وأما من زين له سوء عمله فرآه حسنًا، وهو غير معترف ولا مقر ولا عازم على الرجوع إلى الله والإنابة إليه أصلا، فهذا لا يكاد إسلامه أن يكون صحيحا أبدًا، ولا يكون هذا إلا منسلخ القلب من الإيمان ونعوذ بالله من الخذلان»[1].

فالظالم لنفسه إذا: هو العاصي بترك مأمور أو فعل محظور، مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والتصديق بالثواب والعقاب.

فهو أهل الإيمان، فمعه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه، كما معه من ضد ذلك بقدر فجوره، إذ الشخص الواحد قد يجتمع فيه الحسنات المقتضية للثواب والسيئات المقتضية للعقاب حتى يمكن أن يثاب ويعاقب، وهذا قول جميع أصحاب رسول الله ﷺ وأئمة الإسلام وأهل السنة والجماعة الذين يقولون: إنه لا يخلد في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما القائلون بالتخليد: كالخوارج والمعتزلة القائلين: بأنه لا يخرج من النار من دخلها من أهل القبلة، وإنه لا شفاعة للرسول ولا لغيره في أهل الكبائر لا قبل دخول النار ولا بعده، فعندهم لا يجتمع في الشخص الواحد ثواب وعقاب، وحسنات وسيئات، بل من أثيب لا يعاقب ومن عوقب لم يثب.

ودلائل هذا الأصل من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة كثيرة، منها أنه ثبت في السنة النبوية أن المذنب بالشرب قد يكون محبًّا لله

---

(١) المصدر نفسه (ص/ ٣١٤).

ورسوله، وحب الله ورسوله أوثق عرى الإيمان، حيث روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلًا على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله ويلقب حمارًا، وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يومًا فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنوه، فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله**»(١)(٢).

فالظالم لنفسه من أهل القبلة لا ينفى عنه أصل الإيمان بفسوقه، ولا يوصف بالإيمان الكامل، ولكنه مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته، مع إجراء أحكام المؤمنين عليه في الدنيا(٣).

أما في الآخرة، فإن من مات مصرا على المعصية، فهو تحت مشيءة الله، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه على قدر ذنبه، ثم مصيره إلى الجنة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء](٤).

فما دون الشرك من الذنوب فهو تحت مشيءة الله، إن شاء غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه وعاقب بعدله وحكمته.

ويفصل القول العلامة السعدي في حال الظالم لنفسه في الآخرة، فيقول رحمه الله: «وهذا القسم ينقسم إلى قسمين:

**القسم الاول**: من يرد القيامة وقد كفر عنه السيئات كلها، إما بدعاء،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٦٩)، في كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر، وإنه ليس بخارج من الملة.

(٢) التحفة العراقية (٢٩٢-٢٩٥).

(٣) نظر: العقيدة الواسطية (ص/٢٦٨-٢٦٩)، والإيمان الكبير (ص/١٩٠)، والإيمان الأوسط (ص/١٦٣).

(٤) انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص/١١٠-١١٢).

أو شفاعة، أو آثار خيرة ينتفع بها في الدنيا، أو عذاب في البرزخ بقدر ذنوبه، ثم رفع عنه العقاب وعمل الثواب عمله، فهذا من أعلى هذا القسم وهو الظالم لنفسه[١].

**القسم الثاني**: من ورد القيامة وعليه سيئات، فهذا توزن حسناته وسيئاته ثم هم بعد هذا ثلاثة أنواع:

**النوع الأول**: من رجح حسناته على سيئاته فهذا لا يدخل النار، بل يدخل الجنة برحمة الله وبحسناته، وهي من رحمة الله.

**النوع الثاني**: من تساوت حسناته وسيئاته فهؤلاء هم أصحاب الأعراف، وهو موضع مرتفع بين الجنة والنار يكونون عليه، وفيه ما شاء الله، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة كما وصف ذلك في القرآن.

**النوع الثالث**: من رجحت سيئاته على حسناته، فهذا قد استحق دخول النار، إلا أن يمنع من ذلك مانع، من شفاعة الرسول ﷺ له، أو شفاعة أحد أقاربه أو معارفه ممن يجعل الله لهم في القيامة شفاعة لعلو مقاماتهم على الله وكرامتهم عليه، أو تدركه رحمة الله المحضة بلا واسطة، وإلا فلا بد له من دخول النار يعذب فيها بقدر ذنوبه، ثم مآله إلى الجنة، ولا يبقى في النار أحد في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان، كما تواترت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ وأجمع عليه سلف الأمة وأئمتها»[٢].

---

(١) انظر: الإيمان الأوسط (ص/٣٣-٥٠)، فقد ذكر شيخ الإسلام عشرة أسباب لرفع العقوبة في الآخرة.

(٢) فوائد قرآنية (ص/ ٦١).

## المطلب الثاني

## المقتصد

المقتصد هو الذي يؤدي الواجبات، ويترك المحرمات، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقتصد: المؤدي للواجبات، والتارك للمحرمات»[(١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأما مرتبة أصحاب اليمين، فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات، وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات»[(٢)].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات»[(٣)].

ويصف شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ حال المقتصد، فيقول: «فالأبرار أصحاب اليمين هم المتقربون إليه بالفرائض يفعلون ما أوجب الله عليهم ويتركون ما حرم الله عليهم، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات، ولا الكف عن فضول المباحات... والمقتصدون كان في أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم فلا يعاقبون عليه ولا يثابون عليه، فلم يشربوا صرفًا بل مزج لهم من شراب المقربين بحسب ما مزجوه في الدنيا»[(٤)].

ثم شبّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ حال المقتصد بحال النبي الملك مثل داود وسليمان ونحوهما عليهما السلام، فقال: «فالنبي الملك يفعل ما فرض الله عليه

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٢٩٠).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٨٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٧٢٦).

(٤) الفرقان (ص/ ٩٨-١٠٠).

ويترك ما حرم الله عليه، ويتصرف في الولاية والمال بما يحب ويختار من غير إثم عليه»(١).

ويفصل حالهم ابن القيم فيقول رَحِمَهُ اللهُ: «وأما المقتصدون: فأدوا وظيفة تلك المرحلة ولم يزيدوا عليها ولا نقصوا منها، فلا حصلوا على أرباح التجار ولا بخسوا الحق الذي عليهم. فإذا استقبل أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام والصلاة التامة في وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها، ثم ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله فيها مشتغلا بها قائما بأعيانها مؤديا واجب الرب فيها، غير متفرغ لنوافل العبادات وأوراد الأذكار والتوجه، فإذا حضرت الفريضة الأخرى بادر إليها فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأول فهو كذلك سائر يومه، فإذا جاء الليل إلى حين النوم يأخذ الواجب ويقوم بحقه، وكذلك الزكاة الواجبة والحج الواجب، وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط لا يظلمهم ولا يترك حقه لهم»(٢).

هذا حالهم في هذه الدينا، أما حالهم في الآخرة، فإن الله لما ذكر السابقين في سورة الواقعة وهم المقربون، عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين وهم أصحاب الأبرار، فذكر لهم ما أعد لهم من النعيم، فقال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الواقعة].

---

(١) المصدر نفسه (ص/ ١٠٠-١٠١).

(٢) طريق الهجرتين (ص/ ٢٩٠)، وانظر (ص/ ٣١٤-٣١٩).

ثم ذكر حالهم عند الاحتضار والموت، فقال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١﴾ [الواقعة][١].

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما من كان من أصحاب اليمين، ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١﴾ [الواقعة]، فهؤلاء سلموا من عذاب البرزخ وعذاب النار، وسلم الله لهم إيمانهم وأعمالهم، فأدخلهم بها الجنة، كل على حسب مرتبته»[٢].

---

(١) انظر: الفرقان (ص/ ٩٢-٩٣)، ومن أراد الاستزادة عن حالهم في الآخرة، فليراجع أيضًا سورة المطففين، وسورة الإنسان.

(٢) فوائد قرآنية (ص/ ٦١).



## المطلب الثالث

## السابق بالخيرات

السابق بالخيرات هو الفاعل للواجبات والمستحبات، والتارك للمحرم والمكروه وبعض المباحات، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والسابق بالخيرات: المتقرب بما يقدر عليه من واجب ومستحب، والتارك للمحرم والمكروه»[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

وخاصتهم قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية، فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة، ومن دونهم يترك المباحات مشتغلًا عنها بالعبادات وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات»[2].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات»[3].

ويصف شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ حال السابق بالخيرات، فيقول: «وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ففعلوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباته أحبهم الرب حبًّا تامًّا، كما قال تعالى: «**ولا يزال**

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٢٩٠).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٨٢-٨٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٧٢٦).

**عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه»**[١]، يعني الحب المطلق...

فهؤلاء المقربون صارت المباحات في حقهم طاعات يتقربون بها إلى الله ﷻ، فكانت أعمالهم كلها عبادات لله فشربوا صرفا كما عملوا له صرفا»[٢].

ثم شبّه رحمه الله حال السابق بالخيرات بحال العبد الرسول مثل نبينا عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فقال: «وأما العبد الرسول فلا يعطي أحدا إلا بأمر ربه، لا يعطي من يشاء ويحرم من يشاء، بل يعطي من أمره ربه بإعطائه، ويولي من أمره ربه بتوليته، فأعماله كلها عبادات لله تعالى»[٣].

أما ابن القيم حين وصف حالهم استغفر الله من وصف حالهم خشية أن لا يتصف به مع وصفه لحالهم، فقال رحمه الله: «وأما السابقون المقربون فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولا من وصف حالهم وعدم الاتصاف به، بل ما شممنا له رائحة، ولكن محبة القوم تحمل على تعرف منزلتهم والعلم بها وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم، ففي معرفة حال القوم فوائد عديدة»[٤].

ثم بين رحمه الله فوائد العلم بوصف حالهم، محذرا من التثبيط عن معرفته، بحجة عدم منفعته، ومؤكدا على التفريق بين العلم بحال هؤلاء المقربين وبين الاقتداء والتأسي بهم ـ وهو المطلوب ـ، فبعد أن ذكر جملة من فوائد العلم بحالهم قال: «وبالجملة ففوائد العلم بهذا الشأن لا تنحصر فلا ينبغي أن تصغي إلى من يثبطك عنه، وتقول: إنه لا ينفع، بل احذره واستعن الله ولا تعجز ولكن لا تغتر، وفرق بين العلم والحال، وإياك أن

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) الفرقان (ص/ ٩٩-١٠٠).
(٣) الفرقان (ص/ ١٠١).
(٤) طريق الهجرتين (ص/ ٣١٩).

تظن أن بمجرد علم هذا الشأن قد صرت من أهله، هيهات! ما أظهر الفرق بين العلم بوجوه الغنى وهو فقير، وبين الغني بالفعل، وبين العالم بأسباب الصحة وحدودها وهو سقيم، وبين الصحيح بالفعل»(١).

ثم أخذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان وصف حال السابقين المقربين في سلوكهم وعبادتهم، ثم ذكر جماع الأمر ـ في وصف حالهم ـ بتكميل عبودية الله عَزَّوَجَلَّ في الظاهر والباطن، فيحقق الكمال من جهة العلم وجهة العمل.

أما من جهة العلم، فإن أبرز ما اتصف به هؤلاء المقربون هو المعرفة الصحيحة الموافقة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ في أسمائه وصفاته وأفعاله.

أما من جهة العمل، فإن أبرز ما يتصف به المقربون موافقة أمر الله فيما يحبه الله وبذل الجهد في تحصيل ذلك، وكراهيته لما يكره الله وبذل الجهد في اجتنابه.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجماع الأمر في ذلك إنما هو بتكميل عبودية الله في الظاهر والباطن، فتكون حركات نفسه وجسمه كلها في محبوبات الله، وكمال عبودية العبد موافقته لربه في محبته ما أحبه وبذل الجهد في فعله، وموافقته في كراهة ما كرهه وبذل الجهد في تركه، وهذا إنما يكون للنفس المطمئنة، لا للأمارة ولا للوامة، فهذا كمال من جهة الإرادة والعمل.

وأما من جهة العلم والمعرفة فأن تكون بصيرته منفتحة في معرفة الأسماء والصفات والأفعال، له شهود خاص فيها مطابق لما جاء به الرسول لا مخالف له، فإن بحسب مخالفته له في ذلك يقع الانحراف، ويكون مع ذلك قائمًا بأحكام العبودية الخاصة التي تقتضيها كل صفة بخصوصها، وهذا سلوك الأكياس الذين هم خلاصة العالم، والسالكون على هذا الدرب أفراد من العالم»(٢).

---

(١) طريق الهجرتين (ص/ ٣٢٠).

(٢) طريق الهجرتين (ص/ ٣٣٤).

فإذا كانت هذه صفات المقربين، وقد حققوا أقصى الكمال في تكميل عبوديتي الظاهر والباطن، فكيف يكون جزاؤهم؟

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة].

والمقربون هم خواص الخلق، ولذلك لما ذكر الله نعيم الأبرار في الجنة قال: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين].

فالمقربون يشربون من هذه العين (التسنيم) التي هي أعلى شربة أهل الجنة على الإطلاق صرفًا، بينما تمزج لأصحاب اليمين مزجا، فلذلك كانت خالصة للمقربين، لأنهم أعلى الخلق منزلة، ومخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة لأصحاب اليمين.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنه تعالى قال ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ [الإنسان: ٦]، ولم يقل: يشرب منها، لأنه ضمن قوله يشرب معنى يروى، فإن الشارب قد يشرب ولا يروى، فإذا قيل: يشربون منها لم يدل على الرّي، فإذا قيل: يشربون بها، كان المعنى: يروون بها، فالمقربون يرون بها فلا يحتاجون معها إلى ما دونها، فلهذا يشربون منها صرفا بخلاف أصحاب اليمين، فإنها مزجت لهم مزجًا»[1].

(١) الفرقان (ص/ ٩٥-٩٦).

والجدير بالذكر أن المقتصدين أتوا بالإيمان الواجب، فأما المقربون فأتوا بالإيمان المستحب، وهذا الوجوب والاستحباب قد يكون فيما بين أعمال القلوب، وقد يكون في كل عمل قلبي.

**من أمثلة الحالة الأولى**: قال ابن القيم رحمه الله: «عبودية الرضا وهي للسابقين، والصبر لأصحاب اليمين»[(١)].

وقال: «مراتب الناس في المقدور ثلاثة: الرضا: وهو أعلاها، والسخط وهو أسفلها، والصبر عليه بدون الرضا به، وهو أوسطها، فالأولى للمقربين السابقين، والثانية للمقتصدين، والثالثة للظالمين»[(٢)].

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والصبر واجب باتفاق العلماء، وأعلى من ذلك الرضا بحكم الله، والرضا قد قيل: إنه واجب، وقيل: هو مستحب وهو الصحيح، وأعلى من ذلك أن يشكر الله على المصيبة»[(٣)].

وأعلى من الصبر والرضا حمد الله تبارك وتعالى وشكره، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والرضا وإن كان من أعمال القلوب فكماله هو الحمد حتى إن بعضهم فسر الحمد بالرضا، ولهذا جاء في الكتاب والسنة حمد الله على كل حال وذلك يتضمن الرضا بقضائه»[(٤)].

**ومن أمثلة الحالة الثانية**: يقول شيخ الإسلام رحمه الله مبينا درجات المحبة: «ومحبة الله ورسوله ﷺ على درجتين:

واجبة؛ وهي درجة المقتصدين.

ومستحبة؛ وهي درجة السابقين.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٧١).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٨٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٦٠).

(٤) التحفة العراقية (ص/ ٣٦١).

فالأولى تقتضي أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، بحيث لا يحب شيئًا يبغضه كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وذلك يقتضي محبة جميع ما أوجبه الله تعالى وبغض ما حرمه الله تعالى، وذلك واجب، فإن إرادة الواجبات إرادة تامة تقتضي وجود ما أوجبه، كما تقتضي عدم الأشياء التي نهى الله عنها وذلك مستلزم لبغضها التام. فيجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله، ويبغض ما أبغضه.

وأما محبة السابقين بأن يحب ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة، وهذه حال المقربين الذين قربهم الله إليه»(١).

ومن أمثلتها أيضًا، تقسيم شيخ الإسلام الزهد إلى الواجب والمستحب، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فثبت أن الزهد الواجب هو ترك ما يمنع عن الواجب من إرادة الله والدار الآخرة، فالزهد المستحب هو ما يشغل عن المستحب من أعمال المقربين والصديقين»(٢).

وقال أيضًا: «ومن زهد فيما يشغله عن الواجبات أو يوقعه في المحرمات، فهو من المقتصدين أصحاب اليمين.

ومن زهد فيما يشغله عن المستحبات والدرجات، فهو من المقربين السابقين»(٣).

ومن أمثلتها أيضًا، ما ذكر شيخ الإسلام عن الرضا، فالقدر الواجب من الرضا هو الرضا بأمر الله الشرعي، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الرضا بما أمر الله به فأصله واجب، وهو من الإيمان كما قال النبي ﷺ:

---

(١) قاعدة في المحبة (ص/ ١٦٤-١٦٥)، باختصار.
(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٤٧).
(٣) المصدر نفسه (٢٠/ ١٥١).

«**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا**»، وهو من توابع المحبة»[١].

وأما الرضا بما يفعله الله بعبده من المصائب كالمرض والفقر والزلازل فمختلف فيه، حكى الخلاف شيخ الإسلام ورجح استحبابه، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الرضا فقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم في الرضا بالقضا، هل هو واجب أو مستحب؟ على قولين، فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلى الثاني يكون من أعمال المقربين»، ثم رجح استحبابه فقال: «ولهذا لم يجئ في القرآن إلا مدح الراضين، لا إيجاب ذلك»[٢].

وقد مر معنا تقسيم شيخ الإسلام التوبة إلى الواجبة والمستحبة، وأنه من اقتصر على الأولى فهو من المقتصدين، ومن جاء بهما فهو من السابقين، وكذلك الخشية.

والمقصود، أن كل عمل من أعمال القلوب فالسالكون بالنسبة إليه نوعان: أبرار ومقربون، فالأبرار في أذياله، والمقربون في ذروة سنامه، بل هكذا مراتب الإيمان جميعًا، وكل من النوعين لا يحصي تفاوتهم وتفاضل درجاتهم إلا الله[٣].

قال شيخ الإسلام: «والجنة درجات متفاضلة تفاضلًا عظيمًا، وأولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم، قال تبارك وتعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٣٥٧).
(٢) التحفة العراقية (ص/ ٣٥٦-٣٥٧).
(٣) مدارج السالكين (١/ ١٠٤-١٠٥).

عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء]، فبين الله سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا وأن درجاتها أكبر من درجات الدنيا وقد بين تفاضل أنبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين»[1]، ثم ذكر شواهد على ذلك .

وأختم هذا المبحث بلطيفة ذكرها العلامة السعدي رحمه الله حين تكلم عن حال الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات، فذكر رحمه الله الأمور التي اشترك وافترق فيها هؤلاء الثلاثة.

يقول العلامة السعدي رحمه الله : «اشترك هؤلاء الثلاثة :

١ ـ في أصل الإيمان.

٢ ـ في اختيار الله لهم من بين الخليقة،

٣ ـ في أنه منّ عليهم بالكتاب،

٤ ـ وفي دخول الجنة.

وافترقوا :

١ ـ في تكميل مراتب الإيمان،

٢ ـ في مقدار الاصطفاء من الله،

٣ ـ في ميراث الكتاب،

٤ ـ وفي منازل الجنة، ودرجاتها بحسب أوصافها»[2].

فأسأل الله العظيم أن يجعلنا من المصطفين الأخيار، ويدخلنا الجنة مع الأبرار.

---

(١) الفرقان (ص/ ١١٧)، وما بعدها.

(٢) فوائد قرآنية (ص/ ٦٠)، بتصرف يسير



# الباب الثالث:

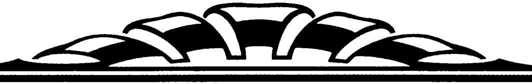
## المخالفون في أعمال القلوب، والرد عليهم من كلام شيخ الإسلام

وفيه فصلان:

**الفصل الأول: موقف الصوفية من أعمال القلوب، والرد عليهم.**

**الفصل الثاني: موقف المرجئة من أعمال القلوب، والرد عليهم.**





# الفصل الأول:

## موقف الصوفية من أعمال القلوب، والرد عليهم من كلام شيخ الإسلام

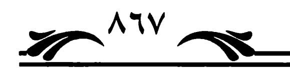
وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

**التمهيد: التعريف بالصوفية وبعض مصطلحاتهم.**

**المبحث الأول: مذاهبهم في أعمال القلوب.**

**المبحث الثاني: ذكر شبهاتهم.**

**المبحث الثالث: الرد عليهم.**





# التمهيد:

# التعريف بالصوفية وبعض مصطلحاتهم

## المطلب الأول
## التعريف بالصوفية

❂ المسألة الأولى: التصوف لغة:

تباينت أقوال العلماء في الاشتقاق اللغوي[(١)] لكلمة التصوف وهل هي مأخوذة من الصفاء أو الصوف أو من الصفة أو الصف أو غير ذلك.

فالشيء الذي اشتقت منه هذه الكلمة لم يعرف له مصدر محدد من قبل أكثر المؤلفين سواء من الصوفية أو من غيرهم، ولكنهم ذكروا عدة احتمالات لتحديد الشيء الذي قد تكون مشتقة منه.

وقد بين شيخ الإسلام سبب إطلاق لفظ الصوفية على العباد والنساك، وعرض أقوال الناس في ذلك، فقال في جواب سؤال عن الصوفية وأصل تسميتهم، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحمد لله، أما لفظ «الصوفية» فإنه لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ: كالإمام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الداراني، وغيرهما، وقد روي عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري. وتنازعوا في المعنى الذي أضيف إليه الصوفي فإنه من أسماء النسب: كالقرشي والمدني وأمثال ذلك، فقيل:

---

(١) فبالنظر في المعاجم اللغوية، نجد أنهم يطلقون كلمة (صوف) على الصوف المعروف من شعر الحيوانات، ومنها صوفان وصوفانة وتطلق على بقلة زغباء قصيرة، وقد أطلقت كلمة (صوف) في بعض دلالتها بمعنى الميل، فيقال صاف السهم عن الهدف بمعنى مال عنه، وصاف عن الشر أي عدل عنه، انظر: مقاييس اللغة (ص/٥٥٨)، ولسان العرب (٨/ ٣٠٧-٣٠٨)، والمفردات (ص/ ٤٩٩)، والمصباح المنير (ص/ ٢٨٩).

١ ـ إنه نسبة إلى «أهل الصفة» وهو غلط، لأنه لو كان كذلك لقيل: صُفِّيّ[١].

٢ ـ وقيل نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله وهو أيضًا غلط، فإنه لو كان كذلك لقيل: صَفِّيّ.

٣ ـ وقيل نسبة إلى الصفوة من خلق الله وهو غلط، لأنه لو كان كذلك لقيل: صَفَوِيّ،

٤ ـ وقيل: نسبة إلى صُوفة بن مُر بن أدّ بن طابخة، قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم، ينسب إليهم النساك[٢]، وهذا وإن كان موافقًا للنسب من جهة اللفظ، فإنه ضعيف أيضًا؛

ـ لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك.

ـ ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى.

ـ ولأن غالب من تكلم باسم «الصوفي» لا يعرف هذه القبيلة، ولا يرضى أن يكون مضافا إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام.

٥ ـ وقيل ـ وهو المعروف ـ إنه نسبة إلى لبس الصوف»[٣].

---

(١) كما أنها غير صحيحة من الناحية الشرعية، فإن أهل الصفة أغلبهم من الصحابة الذين لم يكن لهم سكن ومكان يأوون إليه، فحالهم كحال بقية الصحابة لم يكونوا قاعدين عن العمل، وإنما قعدوا في المسجد ضرورة، وأكلوا من الصدقة ضرورة، انظر: مجموع الفتاوى (١١/٣٨-٤٥).

(٢) قد مال إلى هذا القول ابن الجوزي رحمه الله، فإنه حكاه أولا، وحكى بعده أقوالا عديدة، ثم قال: «والصحيح الأول»، انظر: تلبيس إبليس (ص/١٤٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٥-٦)، و (١١/ ١٩٥).

٦ ـ وقيل نسبة إلى الصفاء، وهو غلط أيضا، لأنه ينبغي أن يقال صفائية، ولو كان مقصورًا لقيل صفوية[(١)][(٢)].

وقد رجح شيخ الإسلام أن التصوف منسوب إلى لبس الصوف، واستدل على ذلك أن هذا موافق للغة.

وقد اعترض القشيري على هذه النسبة، وذلك أن الصوفية ليسوا وحدهم الذين يلبسون الصوف، بل يشاركهم غيرهم، فما الداعي لتخصيص الصوفية بهذه النسبة دون غيرهم[(٣)].

وقد تصدى للرد على هذا الاعتراض ابن خلدون[(٤)] من طريقين:

الأول: أنه لو استعرضنا طوائف الناس كالصناع والزراع والعمال لا نجد أن طائفة منهم يغلب على أفرادها لبس الصوف كما غلب على الطائفة الصوفية.

والثاني: أن هذه الطائفة كانت تلبس الصوف زهدًا وورعًا عن لبس

---

(١) المصدر نفسه (١٠/ ٣٦٩).

(٢) وقيل: إن الصوفية منسوبون إلى «الصوفانة» وهي بقلة زغباء قصيرة، وذلك لاكتفائهم بالقليل من الطعام ولو من نبات الصحراء، وهذا غير سليم من ناحية اللغة، لأن النسبة إلى صوفانة هي صوفاني لا صوفي، انظر: تلبيس إبليس (ص/ ١٤٦).

وقيل: إنهم منسوبون إلى صوفة القفاء وهي الشعيرات النابتة في مؤخرة الرأس، وكأن الصوفي انحرف عن الخلق إلى الحق، انظر: تلبيس إبليس (ص/ ١٤٦).

وقيل: إنهم منسوبون إلى «السوفية»، وهم الحكماء القائلون بالوحدة، وأن الصوفية أول من أدخل ذلك في الإسلام، فسموا باسمهم، انظر: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة (ص/ ٢٤-٢٥).

(٣) الرسالة للقشيري (ص/ ٣٨٥).

(٤) فهو عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون، أبو زيد، ولي الدين الإشبيلي، الفيلسوف المؤرخ العالم الاجتماعي البحاثة، اشتهر بكتابه: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تأريخ العرب والعجم والبربر، وأوله المقدمة التي تعد من أصول علم الاجتماع، وله أيضًا: شرح البردة وغيرها، توفي سنة ٨٠٨ هـ، الأعلام (٣/ ٣٣٠).

فاخر الثياب، أما سائر الناس من غيرهم فيلبسونه لا لهذا الغرض الذي ينشده الصوفية، وحنيئذ يكون تميزهم بلبس الصوف أمرًا واضحًا[(١)].

## المسألة الثانية: التصوف اصطلاحًا.

مما سبق تبين أن هناك شيء من الارتباط بين التعريف اللغوي والتعريف الاصطلاحي للتصوف، فذكر الطوسي[(٢)] أن لفظ تصوف وصوفية أطلق على أهله نسبة إلى ردائهم، ولأنهم جماع المعارف والعلوم، فلهم جميع الأحوال، وتتغير أحوالهم دائما، فلا يثبت عليهم اسم مطلقا، ولهذا استحسن إطلاق اسم ردائهم عليهم للتعرف بهم[(٣)].

فالناظر في حقيقة الصوفية يجد صعوبة في تعريف التصوف بعبارة جامعة مانعة، ولقد كثرت التعاريف التي وردت على ألسنة كثير من العلماء[(٤)] وبعض كبار المتصوفة[(٥)] والتي لا تخرج في عمومها عن وصف

---

(١) مقدمة ابن خلدون (١/ ٦١١)، وانظر: موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية (ص/ ٦٩-٧٠)، تأليف: الدكتور؛ أحمد بن محمد بناني.

(٢) هو أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، الزاهد، شيخ الصوفية ومن أكثر المؤلفين الصوفيين، وهو صاحب كتاب «اللمع»، توفي سنة ٣٧٨ هـ، انظر: شذرات الذهب (٤/ ٤١٣).

(٣) اللمع (ص/ ٤٥-٤٦).

(٤) يعرف ابن خلدون أصل التصوف بأنه: «العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد للخلوة في العبادة»، انظر: مقدمة ابن خلدون (١/ ٦١١).

ويبين شيخ الإسلام أن من معاني التصوف عند الصوفية أنه (نوع من الصديقية، فهو أي الصوفي الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهد فيه، فكان الصديق من أهل هذه الطريق كما يقال صدّيقو العلماء وصدّيقو الأمراء، فهم أخص من الصديق المطلق، ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم)، انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ١٧).

(٥) وقد عرف التصوف معروف الكرخي، فقال: «التصوف: الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق»، انظر: الرسالة القشيرية (ص/ ٣٨٦).

وعرفه الجنيد: «التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة»، انظر: اللمع (ص/ ٤٩)، وقال أيضًا: =

مرحلة من المراحل التي مرت بها التصوف، وهو وصف حال الإنسان المنقطع للعبادة الزاهد في الدنيا المعرض عن زخارف الحياة.

فالتصوف في أوله كان زهدا في الدنيا وانقطاعا لعبادة الله، ثم صار حركات ومظاهر خالية من العبادة، ثم إلحادا وخروجا عن دين الله ﷻ كما سنبينه في الموجز عن نشأة الصوفية وتطورها.

وقد تناول كثير من العلماء المحدثين التصوف بتعريف[١] أيضًا، فقال بعضهم: «إن التصوف طريقة زهدية في التربية النفسية، يعتمد على جملة من العقائد الغيبية مما لم يقم على صحتها دليل في الشرع، ولا في العقل»[٢].

وقال آخر: «هو السير في طريق الزهد، والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها، وأخذ النفس بأسلوب من التقشف، وأنواع من العبادة والأوراد، والجوع، والسهر في صلاة أو تلاوة ورد، حتى يضعف في الإنسان الجانب الجسدي للنفس بهذا الطريق المتقدم سعيا إلى تحقيق الكمال الأخلاقي للنفس كما يقولون، وإلى معرفة الذات الإلهية وكمالاتها، وهو ما يعبرون عنه بمعرفة الحقيقة»[٣].

فالصوفية فرقة دينية أخلاقية فلسفية، تقوم على الزهد في الدنيا والانصراف إلى الروح، وتعتمد على التأمل والتعبد والتقشف وما إلى ذلك من المجاهدات والرياضات الروحية مما لم يستند إلى دليل شرعي صحيح،

---

= «تصفية القلب عن الموافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة والوفاء لله على الحقيقة واتباع الرسول في الشريعة»، انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي (ص/٢٥).

وعرفه سمنون بقوله: «التصوف هو أن لا تملك شيئًا ولا يملكك شيء»، انظر: اللمع (ص/٤٩).

(١) أورت هذين التعريفين لأنهما شاملين - في نظري - لحقيقة الصوفية.

(٢) التصوف بين الحق والخلق (ص/٧)، تأليف: محمد فهر شقفة.

(٣) التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة (ص/١)، تأليف: د. إبراهيم هلال.

وذلك للوصول إلى الغاية البعيدة، ألا وهي الخلاص والتجرد عن الدنيا وما فيها والاتصال بالذات الإلهية والفناء فيها[١].

## المسألة الثالثة: موجز عن نشأة الصوفية وتطورها.

إن أول بوادر ظهور الصوفية كان في القرن الثاني للهجرة، وذلك حين فشا الإقبال على الدنيا، وجنح الناس إلى مخالطتها والانشغال فيها، اختفى المقبلون على الزهادة والعبادة باسم الصوفية والمتصوفة.

فبداية نشأة الصوفية كانت في أوائل القرن الثاني، إلا أنه لم يشتهر التكلم به إلا بعد القرن الثالث، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، ولهذا كان يقال: فقه كوفي وعبادة بصرية»[٢].

ويقول أيضًا: «أما لفظ الصوفية لم يكن مشهورًا في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك»[٣].

ويبين ابن الجوزي[٤] بداية الانحراف عند الصوفية، فيقول: «وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين.

---

(١) البوذية، تأريخها وعقائدها وعلاقة الصوفية بها (ص/ ٣٨٠-٣٨١)، تأليف: الدكتور. عبد الله مصطفى نومسوك.

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٥-٦).

(٣) المصدر نفسه (١١/ ٥).

(٤) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج، علامة عصره في التأريخ والحديث، كثير التصانيف، مولده ووفاته ببغداد، له نحو ثلاث مئة مصنف، منها: تلبيس إبليس، والمنتظم في تأريخ الملوك والأمم، وكتاب الموضوعات، وزاد المسير في علم التفسير، وغيرها، ولد سنة ٥٠٨ وتوفي سنة ٥٩٧ انظر: وفيات الأعيان (٣/ ١٤٠)، والسير (٢١/ ٣٦٥)، والأعلام (٣/ ٣١٦).

ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة، وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة، وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الأخرى.

وعلى هذا كان أوائل القوم، فلبس إبليس عليهم في أشياء، ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم، فكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني، فزاد تلبيسه عليهم، إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن.

وكان أصل تلبيسه عليهم أنه صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل، فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات، فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة، فرفضوا ما يصلح أبدانهم، وشبهوا المال بالعقارب، ونسوا أنه خلق للمصالح، وبالغوا في الحمل على النفوس حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع، وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير أنهم على غير الجادة، وفيهم من كان لقلة علمه يعمل بما يقع اليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري.»[(١)].

ثم تطور الأمر، حيث إن التصوف لم يقف عند حدود الزهد والرياضة والمجاهدة وإنما تجاوز هذا إلى ظهور الطرق، والمصطلحات الصوفية الغامضة، ونزعات الأهواء والبدع، وعلم الإشارات والمكاشفات والذوق وإلى غير ذلك.

وفي هذه المرحلة نشأ ما يسمى بعلم الظاهر والباطن، وإعلان سقوط التكاليف الشرعية عن الأولياء بزعمهم أنهم اطلعوا على علم الحقيقة عن طريق الكشف والإلهام[(٢)].

---

(١) تلبيس إبليس (ص/١٤٧).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١١/٤١٧) وما بعدها، و(١١/٤٣٩) وما بعدها.

ويصف ابن الجوزي هذه المرحلة، فيقول: «ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات، وصنفوا في ذلك مثل الحارث المحاسبي، وجاء آخرون فهذبوا مذهب التصوف، وأفردوه بصفات ميزوه بها، من الاختصاص بالمُرقَّعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق، وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة، ثم ما زال الأمر ينمي والأشياخ يضعون لهم أوضاعا، ويتكلمون بواقعاتهم، ويتفق بُعدُهم عن العلماء، لا بل رؤيتهم ما هم فيه أو في العلوم حتى سموه العلم الباطن، وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر، ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة، فادعى عشق الحق والهيمان فيه، فكأنهم تخايلوا شخصًا مستحسن الصورة فهاموا به»[(١)].

ثم ازداد الأمر سوءا، فتسربت إلى التصوف الفلسفة اليونانية، والاتجاهات الفارسية، وتأثر التصوف بالديانات اليهودية والنصرانية.

فبدأت المخالفة تزداد والانحراف يتضح، حتى ظهرالقول بالفناء والتناسخ[(٢)]، والقول بالحلول[(٣)]........................

---

(١) تلبيس إبليس (ص/١٤٧).

(٢) التناسخ هو من العقائد الفاسدة التي يقصد بها انتقال الروح من بدن قد مات صاحبه إلى بدن آخر لمخلوق حي، إنسانا كان أم حيوانا، وذلك لمنح الروح الفرصة بعد الفرصة لكي تتطهر من أدرانها على أساس أن الحياة قصيرة ولا بد من إعطاء الروح وقتا كافيا لكي تتحرر من أخطائها، ويعرف التناسخ بتجوال الروح، أو تكرار المولد (الموسوعة الميسرة: ٢/١٠٢٢).

(٣) الحلول هو عقيدة تقوم على فكرة تجسد الخالق في المخلوق بحلوله في كل أو بعض مخلوقاته، وامتزاجه امتزاجًا كاملًا، ينمحي معه التغاير بين ذاتين كانتا متميزتين (انظر: الموسوعة الميسرة: ٢/١٠٥٩-١٠٦٠)، وهو نوعان:

١ - الحلول الخاص: وهو دعوى حلول الله ﷻ في بعض خلقه، كدعوى غلاة الرافضة حلوله في علي بن أبي طالب وأئمة أهل بيته، ودعوى غالية الصوفية حلوله في بعض أوليائه.

٢ - الحلول العام: وهو دعوى حلول الله عز وجل في جميع مخلوقاته، وهو قول طائفة من الجهمية المتقدمين الذين يقولون بأن الله بذاته في كل مكان (انظر: مجموع الفتاوى: ٢/ ١٧١-١٧٢).

والاتحاد[(١)] ووحدة الوجود[(٢)].

ووقعوا في كثير من البدع الاعتقادية كالتشيع والتجهم والإرجاء والقدر، وما ذلك إلا لبعدهم عن منهج التلقي الصحيح وهو الكتاب والسنة[(٣)].

يقول ابن الجوزي عن هذه المرحلة: «ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق، ففسدت عقائدهم، فمن هؤلاء من قال بالحلول، ومنهم من قال بالاتحاد، وما زال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سننا...»[(٤)].

ومن خلال ما سبق يمكن إعطاء معالم عامة للأطوار التي مر بها التصوف، فهو في الطور الأول يدور حول إظهار الزهد والتقشف والمحبة، وفي الطور الثاني برزت ملامح المصطلحات الغامضة وتقسيم العلم إلى قسمين: علم الشريعة وعلم الحقيقة، وفي الطور الثالث وهو أسوأه برز القول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود.

---

(١) الاتحاد هو امتزاج الشيء بالشيء واختلاطه به، حتى لا تكاد تفرق أحدهما عن الآخر (انظر: التعريفات للجرجاني: ص/١٣)، وهو نوعان:

١ ـ الاتحاد الخاص: وهو دعوى اتحاد الخالق بأشخاص معينين، كدعوى بعض المنتسبين للإسلام أن الله اتحد بأشخاص معينين (انظر: مجموع الفتاوى ٢م١٧٢).

٢ ـ الاتحاد العام: هو عين عقيدة وحدة الوجود التي تقوم على دعوى الوحدة الذاتية لجميع الأشياء مع تعدد صورها في الظاهر، فالعالم بما فيه هو التجلي الإلهي الدائم، فوجود الله - تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا- هو عين وجود المخلوقات، والاختلاف الموجود إنما هو اختلاف في الصور والصفات فقط، والذات والحقيقة واحدة (انظر: بغية المرتاد: ص/٤٣٧).

والفرق بين الحلول والإخلاص:

أ ـ أن الحلول إثبات لوجودين، بخلاف الاتحاد فهو إثبات لوجود واحد.

ب ـ أن الحلول يقبل الانفصال، أما الاتحاد فلا يقبل الانفصال.

(٢) درء التعارض (٥/ ٨٢).

(٣) درء التعارض (٥/ ٧).

(٤) تلبيس إبليس (ص/١٤٧-١٤٨).





## المطلب الثاني
## التعريف ببعض مصطلحاتهم

سيرد علينا أثناء الكلام عن شبهات الصوفية في أعمال القلوب والرد عليهم بعض المصطلحات التي اصطلحتها الصوفية والتي تحمل غموضا ومعنى باطلا في كثير من الأحيان، لذا أحببت أن أعرف ببعض المصطلحات التي يأتي ذكرها في هذه المطالب ليكون القارئ مستوعبا لمراد المتكلم، سواء كان المتكلم من الصوفية أو من أهل السنة(١).

**۞ المسألة الأولى: معنى الحال في اللغة وعند الصوفية.**

الحال في اللغة: جمعه أحوال، وهو الوقت الذي أنت فيه(٢).

وفي اصطلاح النحويين: ما يبين هيئة الفاعل أو المفعول به، لفظا، نحو: ضربت زيدًا قائمًا. أو معنىً، نحو: زيد في الدار قائمًا(٣). فلفظة «**قائمًا**» في الجملتين حال لما قبلها.

أما الحال عند الصوفية: فهو ما يرد على القلب من معان بدون اختيار المريد ولا اكتساب منه، أو: ما يحل بالقلب من فرح أو حزن، أو قبض أو بسط، وهي لا تدوم بل تتحول(٤).

---

(١) لأن المتبع لكلام العلماء - وخاصة شيخ الإسلام وابن القيم- يجد أنهم يطلقون بعض هذه المصطلحات - أحيانا- من باب مخاطبة أهل الزمان باصطلاحاتهم، انظر: التحفة العراقية (ص/٢٨٩)، ومدارج السالكين (١/١٠٦).

(٢) انظر: القاموس المحيط (ص/١٢٧٩).

(٣) انظر: التعريفات للجرجاني (ص/٨٦).

(٤) انظر: الرسالة القشيرية (ص/١١٩).

يقول الجنيد: «الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم»[(١)].

◊ **المسألة الثانية: معنى المقام في اللغة وعند الصوفية.**

أما المقام في اللغة: فهو الموضع الذي تقيم فيه[(٢)].

وقد وردت هذه الكلمة في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النّازعَات: ٤٠].

قال القرطبي: «فمقام: مصدر بمعنى القيام، والمعنى: خاف مقامه بين يدي ربه للحساب، فترك المعصية»[(٣)].

أما المقام في اصطلاحات الصوفية، فهو: ما يقوم به العبد في الأوقات من أنواع المعاملات وصنوف المجاهدات، متى أقيم العبد بشيء منها على التمام والكمال فهو مقامه حتى ينتقل إلى غيره[(٤)].

قال الطوسي: «فإن قيل: ما معنى المقامات؟ يقال: معناه مقام العبد بين يدي الله فيما يقوم من العبادات والمجاهدات والرياضات[(٥)] والانقطاع إلى الله»[(٦)].

والفرق بين المقامات والأحوال: أن الأحوال تزول والمقامات تدوم، «فالحال سمي حالا لتحوله، والمقام مقاما لثبوته واستقراره»[(٧)].

---

(١) اللمع (ص/٦٦).

(٢) انظر: لسان العرب (١٢/ ٢٢٤).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ١٤٨)، و(٢٢/ ٦٤).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين (٤/ ١٧٩).

(٥) الرياضة: عبارة عن تهذيب الأخلاق النفسية بترك مألوفاتها، لتزكوا بترك المألوفات ورفع العادات ومخالفة المرادات والأهواء المرديات، ورياضة النفس عن الالتفات إلى ما سوى الحق، انظر: معجم اصطلحات الصوفية (ص/ ٢٠١-٢٠٣) للكاشاني.

(٦) اللمع (ص/٦٦).

(٧) عوارف المعارف، المطبوع بذيل إحياء علوم الدين (٥/ ٢١٩).

وأيضًا فالأحوال من قبيل المواهب، أما المقامات فهي من قبيل المكاسب، أو بعبارة أخرى: الأحوال من عين الجود، والمقامات ببذل المجهود[(١)].

**۞ المسألة الثالثة: السلوك في اللغة وعند الصوفية.**

السلوك لغة: هو النَفَاذ في الطريق[(٢)].

والسلوك عند الصوفية: هو تهذيب الأخلاق ـ على مفهوم الصوفية ـ ليستعد العبد للوصول بتطهير نفسه عن الأخلاق الذميمة، مثل؛ حب الدنيا والجاه، ومثل؛ الحقد والحسد والكبر والبخل والعجب والكذب والغيبة والحرص والظلم ونحوها من المعاصي، وبالنهج على الأخلاق الحميدة مثل العلم والحلم والحياء والرضا والعدالة ونحوها[(٣)].

**۞ المسألة الرابعة: معنى السكر في اللغة وعند الصوفية.**

السكر لغة: مصدر سَكِرَ يَسْكَرُ سكرا، وهو السكران ضد الصاحي[(٤)].

والسكر غفلة تعرض بغلبة السرور على العقل بمباشرة ما يوجبها من الأكل والشرب[(٥)].

أما السكر عند الصوفية، فقد تعددت عباراتهم في تعريفه:

فقيل: هو أن يغيب عن تمييز الأشياء، ولا يغيب عن الأشياء[(٦)].

---

(١) انظر: الرسالة القشيرية (ص/١١٩).

(٢) مقاييس اللغة (ص/٤٦٨).

(٣) انظر: معجم مصطلحات الصوفية (ص/١٣٣).

(٤) انظر: القاموس المحيط (ص/٥٢٤).

(٥) التعريفات للجرجاني (ص/١٢٢).

(٦) التعرف لمذهب أهل التصوف (ص/١١٦).

وقيل: هو غيبة بوارد قوي[١].

وقيل: هو غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب[٢].

والسكر عند الصوفية كما يقول الجرجاني: «غيبة بوارد قوي وهو يعطي الطرب والالتذاذ، وهو أقوى من الغيبة وأتم منها.

## ◇ المسألة الخامسة: معنى الجمع والفرق في اللغة وعند الصوفية.

الفرق في اللغة: هو الفصل والتمييز بين شيئين[٣].

أما الجمع في اللغة: هو تأليف المتفرق[٤].

والجمع والفرق عند الصوفية هو: الفرق؛ ما نسب إليك، والجمع؛ ما سلب عنك، ومعناه؛ أن ما يكون كسبًا للعبد من إقامة وظائف العبودية فهو فرق، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو الجمع[٥].

وحقيقة الجمع والفرق عند الصوفية هو: أن الجمع إشارة إلى حق بلا خلق، والفرق إشارة إلى خلق بلا حق، ويقصدون أن الفرق هو ما يكون كسبا للعبد من إقامة العبودية لله، والجمع هو مشاهدة الربوبية، والجمع قريب من الفناء بالمعنى الثالث الذي هو وحدة الوجود[٦].

## ◇ المسألة السادسة: معنى الفناء في اللغة وعند الصوفية.

الفناء لغة: مصدر فَنِيَ يَفْنَى فناءً، أي: عُدِمَ، فهو نقيض البقاء، وتفانى

---

(١) الرسالة القسيرية (ص/ ١٣٤).

(٢) عوارف المعارف، المطبوع بذيل إحياء علوم الدين (٥/ ٢٤٣).

(٣) انظر: القاموس المحيط (ص/ ١١٨٣)، ومقاييسس اللغة (ص/ ٨١٤).

(٤) انظر: القاموس المحيط (ص/ ٩١٧).

(٥) انظر: الرسالة القشيرية (ص/ ١٢٦)، والتعريفات للجرجاني (ص/ ٨٢).

(٦) انظر: العبودية (ص/ ١١٤).

القوم: أفنى بعضهم بعضا بالقتل في الحرب، والفاني: الشيخ الكبير[(١)].

وقد وردت هذه الكلمة في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ [الرَّحمٰن]، أي؛ هالك[(٢)].

أما الفناء عند الصوفية، فقد تعددت عباراتهم في تعريفه:

فقال بعضهم: إن الفناء هو سقوط الأوصاف المذمومة، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة، وقيل: الفناء تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية، وقيل: الفناء عدم شعور الشخص بنفسه أو بلوازم نفسه[(٣)].

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والفناء الذي يشير إليه القوم، ويعملون عليه:

أن تذهب المحدثات في شهود العبد، وتغيب في أفق العدم، كما كانت قبل أن توجد، ويبقى الحق تعالى كما لم يزل.

ثم تغيب صورة المشاهد ورسمه أيضًا، فلا يبقى له صورة ولا رسم.

ثم يغيب شهوده أيضًا، فلا يبقى له شهود، ويصير الحق هو الذي يشاهد نفسه بنفسه، كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات، وحقيقته أن يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل»[(٤)].

والمراد به كما يبينه شيخ الإسلام أن لا يفرق العارف بين الحسن والقبيح، ولا بين محبوب الرب تعالى ومبغوضه، ولا بين الخالق والمخلوق، بل الكل عنده سواء[(٥)].

---

(١) انظر: القاموس المحيط (ص/ ١٧٠٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣٨).

(٣) انظر: التعريفات للجرجاني (ص/ ١٧١)، ومعجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني (ص/ ٣٦٥-٣٦٦).

(٤) مدارج السالكين (١/ ١١٣).

(٥) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٣١٠-٣١١)، والعبودية (ص/ ١١٢).



# المبحث الأول: مذهب الصوفية في أعمال القلوب

# مدخل

الصوفية من الفرق التي خالفت مذهب أهل السنة والجماعة في أعمال القلوب، فالصوفية في الحقيقة لم يهملوا أعمال القلب، بل هم مع اهتمامهم الشديد بها وتسميتها أحوال ومقامات وتفصيل دقائقها وتصنيف المصنفات فيها، إلا أنهم قد انحرفوا فيها انحرافًا عظيمًا، ومن صور انحرافهم في أعمال القلوب:

**١) دعواهم أنها من منازل العوام، وأنها معلولة**[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس المراد من العوام في كلامهم العامة الجهال، وإنما مرادهم بهذه اللفظة عموم السالكين، دون أهل الخصوص الواصلين منازل الفناء وعين الجمع»[٢].

**٢) ومن صور انحرافهم فيها أيضًا: حصر أعمال القلوب في عدد معين، وترتيبها لمن أراد سلوك الطريق الصوفي.**

**٣) ومن صور انحرافهم فيها أيضًا: جعلهم معالم لسلوك الطريق الصوفي، وهذه المعالم في الحقيقة هي نتيجة لسوء فهمهم في الأحوال والمقامات.**

لكن قبل الشروع في بيان مذهب الصوفية في أعمال القلوب والرد

---

(١) انظر: التحفة العراقية (ص/٣١٣).

(٢) طريق الهجرتين (ص/٣٤٠).

عليهم، أحببت أن أقدم بين يدي القارئ بيانا عن مصادر التلقي عند الصوفية.

## مصادر التلقي عند الصوفية

مصدر التلقي له أهمية كبرى في معتقد وسلوك من يصدر عنها، وكلما كانت المصادر مستمدة من الكتاب والسنة كان السير عليها أقوم، وكلما بعُدت عن الكتاب والسنة حصل الاضطراب والزيغ والضلال.

ومن أخطر البدع الموجودة في التصوف: مصادر الصوفية في تلقي العقيدة ومسائل الدين، وسلوكهم لذلك مسلكا فارقوا به أهل السنة والجماعة، مما جرّهم إلى كثير من الانحرافات في العقيدة والعبادة والسلوك.

ومن يقرأ في كتب المتصوفة يلاحظ بأن القوم لا يهتمون بعلم الكتاب والسنة اللذيْن لا يمكن الحصول على الهداية إلا عن طريقهما، وذلك لأن القوم يزعمون بأن لهم علوما خاصة يتلقونها عن طريق الكشوفات المزعومة، والأدهى من ذلك أن منهم من يزعم أنه غير محتاج للتلقي عن الرسل: لأنه يتلقى من المصدر الذي يتلقى منه الرسول، فهو يأخذ عن جبريل عليه السلام مباشرة، وقد يرتقي به الحال فيأخذ من الله تبارك وتعالى.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وكان هذا لقلة علمه بالفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وظن أن ما يؤمر به الشيوخ في قلوبهم هو من الله، وأن من قال: حدثني قلبي عن ربي فإن الله هو يناجيه، ومن قال: أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، هو كذلك، وهذا أضل ممن ادعى الاستغناء عن الأنبياء وأنه لا يحتاج إلى واسطتهم»[(١)].

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢١٨)، وانظر: (١٠/ ٤١٢)، و(١٤/ ١٦٦).

ولعل أبرز المحاور التي تدور عليها مصادر الصوفية: الكشف، والذوق والوجد، وكل واحد من هذه يدخل تحته أقسام:

**الأول: الكشف.**

وهو في اللغة: رفعك الشيء عما يواريه ويغطيه، وكشف الأمر يكشفه كشفا، أظهره[(١)].

وفي اصطلاح الصوفية هو: الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية، والأمور الحقيقية وجودا وشهودا[(٢)].

وقيل هو: بيان ما يستتر على الفهم، فيكشف عنه للعبد كأنه رأي عين[(٣)].

ومما يدخل تحته؛ الإلهام، والفراسة، والهواتف[(٤)]، ومن زعمائه أبو حامد الغزالي، وابن عربي[(٥)].

**أ) الإلهام:**

الإلهام في اللغة: ما يلقى في الروع، أو ما يلقيه الله في النفس من الأمور التي تبعث على الفعل[(٦)].

وفي الاصطلاح: إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر، ويطمئن،

---

(١) لسان العرب (١٣/ ٧٢).

(٢) معجم مصطلاحات الصوفية (ص/ ٢٢٥).

(٣) اللمع (ص/ ٣٦٩)، للطوسي.

(٤) انظر: المصادر العامة للتلقي عند الصوفية، عرضا ونقدا (ص/ ٢١٨)، لصادق سليم صادق.

(٥) انظر: بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد (ص/ ١٩٨)، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٦) لسان العرب (١٣/ ٢٤٥) مادة «لهم».

ويسكن، من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة، يخص الله تعالى به بعض أصفيائه[١].

وقد يسمى بالعلم اللدني، قال الإمام ابن القيم: «والعلم اللدني: هو العلم الذي يقذفه الله في القلب إلهاما بلا سبب من العبد ولا استدلال، ولهذا سمي لَدُنِّيًّا»[٢].

وذهب الغزالي إلى التسوية بين وحي الأنبياء وإلهام الأولياء من جميع الوجوه، ولم يثبت فرقا إلا في مشاهدة السبب، وهو الملك الذي استفاد منه العلم، فقال: «ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك، بل في مشاهدة المَلَك المُلْقِي للعلم، فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة»[٣].

وللإلهام طريقان عند الصوفية:

**الطريق الأول**: من طريق المَلَك ولكن من حيث لا يراه، كما قرره الغزالي.

**الطريق الثاني**: من الله على وجه خاص بين العبد وربه، وهو أعلى من سابقه[٤].

كما أن بعض الصوفية يرون في الإلهام وحيًا أشرف من الوحي الذي نزل على الأنبياء عن طريق الملك، يقول إبراهيم الدسوقي[٥]: «الله تعالى

---

(١) انظر: التعريفات للجرجاني (ص/٣٨)، والمصادر العامة للتلقي عند الصوفية (ص/٣١٧).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣١٩).

(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٦).

(٤) انظر: اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر (٢/ ٨٤) لعبد الله الشعراني، والمصادر العامة للتلقي عند الصوفية (ص/ ٢٧٠-٢٧٥).

(٥) هو إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن الدسوقي، ولد سنة ٨٣٣ هـ، من كبار المتصوفين، كثير الأخبار، تفقه على مذهب الشافعي في أوليته ثم اقتفى آثار الصوفية وكثر مريدوه ونقلوا عنه كلاما على طريقة القوم، فيه الكثير مما لا معنى له، أورد الشعراني من كلامه مجموعة كبيرة اختارها من كتاب له اسمه (الجواهر) قال: وهو مجلد ضخم، انظر: الأعلام ١/ ٥٩).

يقذف في سر خواص عباده ما لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولا بدل ولا صديق، ولا ولي»[(١)].

وقد غالى ابن عربي في هذا الباب، فادعى أن كل ما سجل في كتبه إنما هو من وحي الإلهام، فيقول: «فوالله ما كتبت منه حرفا، إلا من إملاء إلهي، أو إلقاء ربّاني، أو نفث روحني في روع كياني، هذا جملة الأمر مع كوننا لسنا برسل مشرعِّين، ولا أنبياء مكلَّفين»[(٢)].

**ب) الفراسة:**

الفِراسة بكسر الفاء تطلق في اللغة على: النظر والتثبت والبصيرة النافذة في الشيء، وهي مشتقة من فريسة السبع، تشبيها لهجوم الخواطر على القلب بهجوم الأسد على الفريسة، وهي على وزن فِعالة كالإمارة والولاية[(٣)].

وفي الاصطلاح هو: خاطر على القلب ينفي ما يضاده، وله على القلب حكم[(٤)].

وسئل بعض الصوفية عن الفراسة، فقال: «أرواح تتقلب في الملكوت، فتشرف على معاني الغيوب، فتنطق عن أسرار الخلق نطق شهادة، لا نطق ظن وحسبان»[(٥)].

**ج) الهواتف:**

وهي عبارة عن سماع صوت أو خطاب عن طريق الأذن، من حيث لا

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني المسمى بـ «لواقح الأنوار في طبقات الأخيار» (١/ ١٤٧).
(٢) الفتوحات المكية (٣/ ٤٥٦).
(٣) انظر: لسان العرب (١١/ ١٥٣)، والتعريفات للجرجاني (ص/ ١٦٨)، ومدارج السالكين (٢/ ٣٥٧-٣٥٨).
(٤) الرسالة القشيرية (ص/ ٣٢٢).
(٥) المصدر نفسه (ص/ ٣٢٤).

يرى صاحب الصوت[١]، وقد عبر عنه الغزالي: «لفظ منظوم يقرع السمع لمن صفا قلبه في اليقظة»[٢].

وهذه الهواتف إما أن تكون من الله، أو ملك من الملائكة، أو الخضر، أو ولي من الأولياء، أو جني صالح، أو الشيطان[٣].

قال ابراهيم الخواص[٤]: «دخلت خربة في بعض الأسفار في طريق مكة بالليل، فإذا فيها سبع عظيم فخفت، فهتف به هاتف؛ اثبت فإن حولك سبعين ألف ملك يحفظونك»[٥].

وقال أبو سعيد الخزاز[٦]: «بينا أنا عشية عرفة، قطعني قرب الله عن سؤال الله، ثم نازعتني نفسي بأن أسأل الله تعالى، فسمعت هاتفا يقول؛ أبعد وجود الله تسأل الله غير الله؟!»[٧].

**الثاني: الذوق.**

الذوق في اللغة: هو اختبار طعم الشيء بإدارته في الفم باللسان لمعرفة حلاوته أو مرارته[٨].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٦١١-٦١٢).

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٤٠٧).

(٣) انظر: المصادر العامة للتلقي عند الصوفية (ص، ٢٨٧).

(٤) هو ابراهيم بن أحمد بن اسماعيل، أبو اسحاق الخواص، صوفي كان أوحد المشايخ في وقته، من أقران الجنيد، ولد في سر من رأى ومات في جامع الري، وله بعض مصنفات انظر: الحلية (١٠/ ٣٢٥)، والأعلام (١/ ٢٨).

(٥) الرسالة القشيرية (ص/ ٥٥٦).

(٦) هو أحمد بن عيسى، أبو سعيد الخزاز، من أئمة التصوف الذين قالوا بوحدة الوجود، قال عنه الجنيد: لو طالبنا الله بحقيقة ما عليه أبو سعيد الحزاز لهلكنا، توفي سنة ٢٧٧ هـ وقيل ٢٨٦ هـ، انظر: حلية الأولياء (١٠/ ٢٤٦) وصفة الصفوة (٢/ ٢٧٢).

(٧) التعرف لمذهب أهل التصوف (ص/ ١٥٠).

(٨) انظر: لسان العرب (٦/ ٥٢).

قال الجرجاني: «هو قوة في العصب المفروش على جرم اللسان تدرك بها الطعوم بمخالفة اللعابية في الفم بالمطعوم ووصولها إلى العصب»(١).

والذوق في عرف الصوفية: عرفه القشيري بقوله: «ومن جملة ما يجري في كلامهم؛ الذوق والشرب، ويعبرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التجلي ونتائج الكشوفات»(٢).

قال ابن عربي: «اعلم أن الذوق عند القوم أول مبادئ التجلي، وهو حال يفجأ العبد في قلبه، فإن أقام نفسين فصاعدا كان شربا، وهل بعد الشرب رِيٌّ أم لا، فذوقهم في ذلك مختلف»(٣).

وقال الجرجاني: «الذوق في معرفة الله؛ عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقل ذلك من كتاب أو غيره»(٤).

فالذوق إذًا ثمرة من ثمرات التجلي ونتيجة من نتائج الكشوفات يقذفه الله في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل من غير استناد إلى الكتاب والسنة.

**الثالث: الوَجْد.**

والوجد في اللغة: يقال وجد المطلوب يجده، والوجد: الغنى، وأوجده: أغناه(٥).

واختلفت العبارات في تعريفه اصطلاحا على أقوال منها:

---

(١) التعريفات (ص/ ١١٠).

(٢) الرسالة القشيرية (ص/ ١٤٦).

(٣) الفتوحات المكية (٢/ ٥٤٨).

(٤) التعريفات (ص/ ١١٠).

(٥) انظر: لسان العرب (١٥/ ١٥٦).

أن الوجد: لهيب ينشأ في الأسرار ويسنح عن الشوق، فتضطرب الجوارح طربا، أو حزنا عند ذلك الوارد[١].

وقيل: هو ما صادف القلب من فزع، أو غم، أو رؤية معنى من أحوال الآخرة، أو كشف حالة بين العبد وبين الله [٢].

وقيل: الوجد رفع الحجاب أو مشاهدة الرقيب، وحضور الفهم، وملاحظة الغيب، ومحادثة السر، وإيناس المفقود، هو فناؤك من حيث أنت[٣].

وقيل: الوجد ما صادف قلبك ويرد عليك بلا تعمد وتكلف[٤].

والمقصود من هذا العرض السريع لمصادر التلقي عند الصوفية بيان أن منشأ ضلال من ضل من الصوفية في الإيمان والسلوك وفي جميع أبواب الدين هو جعلهم الذوق والوجد والكشف حاكما يتحاكمون إليه فيما يسوغ ويمتنع، وفيما هو صحيح وفاسد، وجعلوها فرقانا يفرقون بها بين الحق والباطل، فنبذوا لذلك موجب العلم والنصوص.

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف (ص/١١٣).

(٢) المصدر نفسه (ص/١١٢).

(٣) اللمع (ص/٣٣٠)، للطوسي.

(٤) الرسالة القشيرية (ص/١٢٤).



## المطلب الأول

## تقسيم أعمال القلوب للخاصة وللعامة

الأول: الإرادة.

تقدم بأن الإرادة أصل العبادة، وأساس بنائها الذي لا تقوم إلا عليه، فلا عبودية لمن لا إرادة له، بل أكمل الخلق عبودية أتمهم إرادة لما يحبه الله تعالى، ومع هذا فالإرادة عند الصوفية من حلية العوام، أو من منازل العوام.

فيرى بعض السالكين أن الإخلاص لا يتحقق إلا إذا تجرد الإنسان عن إرادته، وتجرد عن رؤية أعماله، وعدّوا النظر إلى شيء من ذلك قادحا في الإخلاص، فالسهروردي[1] يصف هؤلاء بأنهم غابوا في إخلاصهم عن إخلاصهم، ويذكر عن بعضهم قوله: «متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص»[2].

وقد أخطأ بعض السالكين خطأ قريبا من هذا، فظن أن الطريقة الكاملة للعبد ألا تكون له إرادة أصلا، وأن مرادهم هو ما يقدره الرب، ويرون أن هذا القيام بالحقيقة الكبرى، وقالوا: إن هذا النهج يجمع على المرء قلبه، فلا تتفرق به السبل، لأنه لا يرى للمخلوقات أفعالًا، يقول أبو

---

(١) هو شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله القرشي السهروردي، ولد سنة ٥٣٩هـ، من كبار الصوفية، وكان شيخ شيوخ بغداد، وصحب قليلا الشيخ عبد القادر، وسمع من هبة الله الشبلي، انظر: سير الأعلام (٢٢/ ٣٧٣)، والأعلام (٥/ ٦٢).

(٢) عوارف المعارف (٥/ ٦٩).

العباس المعروف بابن العريف[(١)]: «الإرادة حلية العوام وهي تجريد القصد إلى الله تعالى وجزم النية والجد في الطلب له، وذلك في طريق الخواص نقص وتفرغ ورجوع إلى الأسباب والنفس، فإن إرادة العبد عين حظه وهو رأس الدعوى، وإنما الجمع والجود فيما يراد بالعبد من الله لا فيما يريد...

عن أبي يزيد[(٢)] رضي الله عنه أنه قال: ركبت مركب الصدق حتى بلغت الهوى، ثم ركبت مركب الشوق حتى بلغت السماء، ثم ركبت مركب المحبة حتى بلغت سدرة المنتهى، فنوديت: يا أبا يزيد، ما تريد؟ قلت: أريد أن لا أريد، لأني أنا المراد وأنت المريد.

فصحة الإرادة بذلك الوسع، واستفراغ الوسع مع ترك الاختيار، والسكون إلى مجاري الأقدار، فيكون كالميت بين يدي المغسل يقلبه كيف يشاء»[(٣)].

فالإرادة عند الصوفية تعني المحبة والرضا؛ فكل ما وقع في الكون فإن الله يحبه ويرضاه، يقول الكلاباذي: «المريد مراد في الحقيقة، والمراد مريد لأن المريد لله تعالى لا يريد إلا بإرادة من الله عز وجل تقدمت له، قال الله تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البيّنة: ٨]»[(٤)]، فالصوفية لا يفرقون بين

---

(١) هو أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي، أبو العباس المعروف بابن العريف، صاحب المقامات والإشارات، كان العباد والزهاد يقصدونه، ويحمدون صحبته، صاحب كتاب محاسن المجالس، توفي بمراكش سنة ٥٣٦هـ، انظر: سير الأعلام (٢٠/ ١١١)، وشذرات الذهب (٦/ ١٨٣).

(٢) هو طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي، أبو يزيد، من مشاهير الصوفية، كان جده مجوسيا فأسلم، ولد سنة١٨٨هـ، تروى عنه شطحات كثيرة وأقوال منكرة، اعتذر عنه شيخ الإسلام بأنه يقولها في حال غيبة العقل (انظر: مجموع الفتاوى؛ ٢/ ٤٦١)، توفي سنة ٢٦١هـ، انظر: حلية الأولياء (١٠/ ٣٣)، والسير (١٣/ ٨٦).

(٣) محاسن المجالس (ص٦/ ٧) مخطوط، وهذه المخطوطة موجودة بمعهد الثقافة والدراسات الشرقية بجامعة طوكيو ـ اليابان.

(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف (ص/ ١٣٩).

المشيئة الكونية والإرادية الشرعية، إذ كلا الأمرين عندهم سواء، ولعل يأتي مزيد بيان عن هذه القضية حين نذكر مذهب القوم في المحبة والرضا.

ومن أوجه الخطأ عند بعض السالكين في تجريد القصد إلى الله والتقرب إليه، هو عدّهم طلب الثواب الأخروي الذي وعد الله به عباده الصالحين قادحًا في الإخلاص[(١)]، وقد تناقل العلماء قول رويم[(٢)] في تعريف الإخلاص: «الإخلاص ألا يريد على عمله عوضًا في الدارين، ولا حظا من الملكين»[(٣)].

ووصفت رابعة العدوية[(٤)] الذي يعبد رجاء الجنة وخوف النار بأنه أجير السوء حيث تقول: «ما عبدته خوفًا من ناره ولا حبًّا في جنته فأكون كأجير السوء، بل عبدته حبًّا له وشوقًا إليه»[(٥)].

**الثاني: المحبة.**

تقدم بأن محبة الله هي روح الإسلام والإيمان، وهي أحد أركان العبادة وأحد محركات القلوب، وهي شرط من شروط الشهادتين إلى غير ذلك من فضائلها، إلا أن الصوفية قد انحرفوا فيها انحرافًا عظيمًا، وفيما يلي أجمل أبرز انحرفاتهم فيها.

---

(١) قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم إن مما أوقع هؤلاء في هذ الغلط أنهم وجدوا كثيرا من الناس لا يسألون الله جلب المنافع ودفع المضار، حتى طلب الجنة والاستعاذة من النار، من جهة كون ذلك عبادة وطاعة وخيرا، بل من جهة كون النفس تطلب ذلك، فرأوا أن من الطريق ترك ما تختاره النفس وتريده، وأن لا يكون لأحدهم إرادة أصلا»، الاستقامة (٢/ ١٣٣-١٣٤).

(٢) هو رويم أبو الحسن بن أحمد بن يزيد البغدادي، الفقيه، المقرئ، العابد، شيخ الصوفية، ومن الفقهاء الظاهرية توفي سنة ٣٠٣هـ، انظر: السير (١٤/ ٢٣٥).

(٣) المجموع (١/ ٣٨) للنووي .

(٤) هي رابعة بنت إسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن أبي طالب، وهي صوفية كبيرة وعابدة شهيرة، هي السابقة إلى وضع قواعد الحب والحزن في هيكل التصوف، توفيت سنة ١٣٥هـ، انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٢٨٥)، والسير (٨/ ٢٤١).

(٥) إحياء علوم الدين (٥/ ٢٦).

سبق أن بينا أن للمحبة الحقة لوازم كثيرة تجمعها هذه العبارة (موافقة المحبوب في حب محبوباته وبغض مبغوضاته)، ومع ذلك فإن كثيرًا من المدعين للمحبة غلطوا في ظنهم أن موافقة المحبوب تكون في مراده الكوني، قال بعض السالكين: «إن المحبة نار في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب»(١).

ومما انحرف فيه الصوفية ـ أيضًا ـ في هذا الباب، تصور الصوفية أن المحبة دعوى مطلقة غير مقيدة باتباع، ومما جرأهم إلى ذلك حبهم لله لذاته ـ بزعمهم ـ لا خوفًا من ناره ولا طمعًا في جنته، أي تجريدهم المحبة عن الخوف والرجاء جعل المحبة مجرد دعوى لا حقيقة لها، ولذلك توسعوا في المعاصي والمحرمات حتى حُقّ لبعض أهل العلم تسمية بعضهم بالإباحية.

ومن صور انحراف الصوفية في المحبة، تقسيم المحبة إلى خاصة وعامة وتفضيلهم الدرجات هي دون الدرجات المفضولة بسبب قولهم بالفناء.

قال ابن العريف: «وأما محبة العوام فإنها تنبت من مطالعة المنة، وتثبت باتباع السنة، وتنموا على الاجابة بالعناية، وهي محبة تقطع الوساوس وتلذ الخدمة، وتسلي عن المصائب، وهي في طريق العوام عمدة الإيمان.

أما محبة الخواص فهي محبة خاطفة تقطع العبارة وتدقق الإشارة، ولا تنتهي بالنعوت ولا تعرف إلا بالحيرة والسكوت»(٢).

فجعل المحبة مرتبتين: محبة العوام ومحبة الخواص، بينما نجد أن الهروي في كتابه منازل السائرين جعلها ثلاث درجات:

---

(١) الرسالة القشيرية (ص/ ٤٢٧).

(٢) محاسن المجالس (ص/ ٣٠).

**الدرجة الأولى:** محبة تقطع الوساوس وتَلِذّ الخدمة، وتُسَلِّي عن المصائب.

**الدرجة الثانية:** محبة تبعث على إيثار الحق على غيره وتلهج اللسان بذكره وتعلق القلب بشهوده، وهي محبة تظهر من مطالعة الصفات والنظر في الآيات والارتياض بالمقامات.

**الدرجة الثالثة:** محبة خاطفة، تقطع العبارة وتدفع الإشارة، ولا تنتهي بالنعوت، وهذه المحبة هي قطب هذا الشأن وما دونها محاب، نادت عليها الألسن وادعتها الخليقة وأوجبتها العقول»[(١)].

الثالث: الرضا.

الرضا من أعمال القلوب نظير الجهاد من أعمال الجوارح، فإن كل واحد منهما ذروة سنام الإيمان، ولهذا فالرضا آخذ بزمام أعمال القلوب، فهو روحها، فهو روح التوكل وحقيقته، وروح اليقين، وروح المحبة ودليلها، وروح الشكر ودليله[(٢)]، مع ذلك فإن للصوفية فيه انحرافًا كبيرًا، أبرزها.

ظنّهم أن محبة الحق ورضاه وغضبه وسخطه يرجع إلى إرادته، وقد علموا أنه مريد لجميع الكائنات خلافا للقدرية، فشهدوا أن الله رب الكائنات جميعها، وعلموا أنه قدر كل شيء وشاءه، فظنوا أنهم لا يكونون راضين حتى يرضوا بكل ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان، حتى قال بعضهم: «المحبة نار تحرق من القلب كل ما سوى مراد المحبوب».

ومن صور انحراف الصوفية في الرضا أيضًا، ظنهم أنه لا يتم مقام الرضا إلا بعد تجريد القصد إلى الله من طلب الثواب الأخروي الذي وعد

---

(١) منازل السائرين، المطبوع ضمن مدارج السالكين (٣/٢٨-٣٠).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/١٥٩، ١٦٢).

الله به عباده الصالحين، لأنه قادح في الرضا، ولهم مقالة مشهورة: «الرضا ألا تسأل الله الجنة، ولا تستعيذه من النار»[(١)].

ومن أخطر صور انحراف الصوفية في الرضا تقسيم الرضا إلى خاص وعام وتفضيلهم الدرجات هي دون الدرجات المفضولة بسبب قولهم بالفناء قال صاحب منازل: «**الدرجة الثالثة**: الرضا برضى الله، فلا يرى العبد لنفسه سخطا ولا رضى، فيبعثه على ترك التحكم، وحَسْم الاختيار، وإسقاط التمييز، ولو أدخل النار»[(٢)].

والرضا بهذا المعنى هو رضا خاصة الخاصة الذين هم أهل الجمع والفناء، فيغيب أحدهم بشهود ربوبية الله وإرادته ومشيئته عن نفسه، ويغيب بشهود رضا الله بوقوع الأشياء على مقتضى إرادته عن مشهود رضاه هو.

**الرابع: التوكل.**

للتوكل منزلة عظيمة في الدين، فهو من لوازم الإيمان، ينفى الإيمان بانتفائه ويضعف بضعفه وهو دليل صحة الإيمان، وقد جمع الله بينه وبين عبادته، ومع ذلك فقد هضم الصوفية منزلته في الدين فجعلوه من منازل العوام، لشبهة فاسدة ـ يدور حولها انحرافهم في هذا الباب ـ وهو قولهم بالفناء الذي لزم عنه القول بإنكار الأسباب.

قال أبو العباس ابن عريف: «وأما التوكل فإنه للعوام أيضًا، لأنه كِلَتُك أمرك إلى مولاك، والتجاؤك إلى علمه ورأفته ليدبر أمرك ويكفيك همك، وهذا في طريق الخواص عمى عن الكفاية ورجوع إلى الأسباب، لأنك رفضت الأسباب ووقفت مع التوكل فصار عوضًا عن تلك الأسباب، فكأنك معلق بما رفضته من حيث معتقدك الانفصال عنه.

---

(١) الرسالة القشيرية (ص/٢٦٦).

(٢) مدارج السالكين (٢/١٧٨).

وحقيقة التوكل عند القوم هو: التوكل في تخليص القلب عن علة التوكل، وهو أن يعلم أن الله لم يترك أمرا مهملا؛ بل فرغ من الأشياء وقدرها، وإن اختلف منها شيء في المعقول أو شوش في المحسوس أو اضطرب في المعهود فهو المدبر، وشأنه سوق المقادير إلى المواقيت، فالمتوكل من أراح نفسه عن كد النظر ومطالعة السبب سكونا إلى ما سبق من القسمة مع استواء الحالين عنده، وهو يعلم أن الطلب لا يجمع وأن التوكل لا يمنع، ومتى طالع بتوكله عوضا كان توكله مدخولا وقصده معلولا، فإذا خلص من رق هذه الأسباب ولم يلاحظ في توكله سوى خالص حق الله، كفاه الله كل مهم»[(١)].

فإذا كان التوكل بهذه الصورة، فإنه لا يعد من الأسباب التي يستجلب بها المنافع وتدفع بها المضار، لذلك بين شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك فقال: «قد ظن طائفة ممن تكلم في أعمال القلوب أن التوكل لا يحصل به جلب منفعة أو دفع مضرة، بل ما كان مقدرًا بدون التوكل فهو مقدر مع التوكل، ولكن التوكل عبادة يثاب عليها من جنس الرضا بالقضاء»[(٢)].

وقد بالغوا في إنكار الأسباب توكلا على الله ـ كما يظنون ـ، قال الغزالي: «والمتوكلون في ملابسة الأسباب على ثلاث مقامات:

**الأول**: مقام الخواص ونظرائه، وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله عليه في تقويته على الصبر أسبوعا فما فوقه.

**الثاني**: من يقعد في بيته أو في المسجد ولكنه في القرى والأمصار، وهذا أضعف من الأول، لكنه أيضًا متوكل؛ لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة، معول على فضل الله تعالى في تدبير أموره من جهة الأسباب الخفية.

---

(١) محاسن المجالس (ص/ ٩-١١).

(٢) رسالة في تحقيق التوكل (١/ ٨٧)، ضمن جامع الرسائل.

**الثالث**: أن يخرج ويكتسب»[١].

والمقصود مما سبق: أن التوكل عند الصوفية لا يكون تحقيقه إلا بالإعراض التام عن الأسباب ـ والتوكل سبب من الأسباب ـ، لأن الالتفات إليها مناف لحقيقة التوكل.

**الخامس: الزهد.**

إن للزهد في الدنيا أهمية عظيمة، فهو أمر لازم لكل من أراد رضوان الله تعالى والفوز بجنته، ويكفي في فضيلته أنه اختيار نبينا محمد وأصحابه، قال ابن القيم رحمه الله: «لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، فإيثار الدنيا على الآخرة؛ إما من فساد في الإيمان، وإما من فساد في العقل، أو منهما معًا»[٢].

لكن نشأ في صفوف السالكين اتجاه أن الرغبة في الآخرة لا تتحقق ولا تتم إلا إذا تجرد الإنسان عن الدنيا ومتاعها، بل غلا بعضهم في ذلك إلى أن قال بمحو الإنسان في نفسه النوازع التي خلقها الله فيه، بحيث يقضي عليها قضاء لا رجعة فيه، فلا تدعوه بعد ذلك إلى الدني ولا تطالبه النفس بمتاع، وقد عرف الجنيد الزهد قائلًا: «الزهد هو خلو اليد من الملك، والقلب من التتبع»[٣].

ويقول أبو حفص[٤]: «الزهد لا يكون إلا في الحلال، ولا حلال في الدنيا فلا زهد»[٥]، وقال السري[٦]: «الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٣٤).

(٢) الفوائد (ص/ ١٣٧).

(٣) الرسالة للقشيري (ص/ ١٩١).

(٤) هو عمرو بن سلمة الحدادي النيسابوري، أبو حفص، من شيوخ الصوفية، توفي سنة ٢٧٠ هـ، وقيل ٢٦٠ هـ، انظر: حلية الأولياء (١٠/ ٢٢٩).

(٥) الرسالة للقشيري (ص/ ١٩١).

(٦) هو السري بن المغلِّس السَقَطي البغدادي، أبو الحسن، من كبار الصوفية، وهو خال الجنيد =



في الدنيا، ويجمع هذه الحظوظ المالية والجاهلية وحب المنزلة عند الناس، وحب المحمدة والثناء»[(١)].

فإذا نظرنا في هذا التعريفات التي مر ذكرها ترى بوضوح أن مفهوم الزهد عند المتصوفة هو ترك الدنيا والإعراض عنها بالكلية، بحيث لا يهتم الإنسان بشوؤن الدنيا ولو بقدر ما يسد به رمقه، وأن الزهد الحقيقي عندهم هو ترك القيام بالأسباب نهائيًا، وإخلاء الأيدي من كل ما يملكه الإنسان حتى يصبح فقيرًا.

ولعل سر المسألة أن أصحاب هذا الاتجاه ظنوا في بداية الأمر أن القصد الذي يتطلع صاحبه إلى ثمرات الأعمال ونتائجها وحظوظها منها ـ مزاحم للقصد المتجه إلى الله ـ فيكون تشريكا يجب أن ننزه عنه نهائيًا، ومن هنا اندفعوا جاهدين كي ينتزعوا من أعماق نفوسهم تلك الخواطر والمقاصد التي تطلع إلى محبوباتها من الأعمال المشروعة، فلما وجدوا صعوبة في الأمر تحول دون تحقيق المراد رموا الدنيا وراء ظهورهم، وقصروا تطلعاتهم على الأعمال التي أمروا بتحقيقها، وجاهدوا النفس كي لا يبقى لهم مراد غير ذلك المراد[(٢)].

هذه بعض انحرفات الصوفية في بعض الأعمال التي وجدت لشيخ الإسلام ردا فيها، وإلا فلا تكاد تجد عملًا قلبيًا إلا ولهم فيه ضلال وانحراف وابتداع.

---

= وأستاذه، صحب معروفا الكرخي، وهو أول من تكلم ببغداد في الحقائق والأحوال، توفي سنة ٢٥٣ هـ على خلاف في ذلك، انظر: حلية الأولياء (١٠/ ١١٦)، وسير أعلام النبلاء (١٢/ ١٨٥).

(١) عوارف المعارف (٥/ ٢٢٧).

(٢) الإخلاص (ص/ ٥٦)، تأليف الدكتور: عمر سليمان الأشقر، وانظر: الاستقامة (٢/ ١٣٣-١٣٤).

## المطلب الثاني

## عدد الأحوال والمقامات وترتيبها عند الصوفية

المتأمل في كتب الصوفية يجد أنهم قد اختلفت أقوالهم في عدد المقامات والأحوال وترتيبها.

فقد جعل الطوسي في اللمع سبع مقامات، وهي: التوبة، والورع، والزهد، والفقر، والصبر، والتوكل، والرضا[1].

كما جعل الأحوال عشرة هي: المراقبة، والقرب، والمحبة، والخوف، والرجاء، والشوق، والأنس، والطمأنينة، والمشاهدة، واليقين[2].

أما القشيري فقد جعلها أبوابًا دون أن يسميها بالأحوال والمقامات، فقد جعل أكثر من أربعين بابًا فيها، بدأ بالتوبة وانتهى بالشوق[3].

أما الهروي ـ وهو من المتأخرين ـ فقد جعلها مائة مقام وسماها بالمنازل، وجعلها في عشرة أبواب لكل باب عشرة منازل، ورتبها ترتيبًا تصاعديًا، بدءًا بالتوبة وانتهاء بالتوحيد.

فتبدأ هذه المقامات بالتوبة ثم تأتي مقامات أخرى حتى يصل المريد

---

(١) اللمع (ص/٦٨-٨٠).

(٢) المصدر نفسه (ص/ ٨٠-٩٦).

(٣) الرسالة القشيرية (ص/ ١٦٣-٤٣٧).

إلى مقام الجمع فجمع الجمع وهو أن يرى الأشياء قائمة بالله، ثم يرتقي إلى أن يرى الله وحده!

هذه نظرة موجزة في الأحوال والمقامات التي أعطاها الصوفية حجمًا كبيرًا في كلامهم ومصنفاتهم، فغاية هذه المقامات عند الصوفية هي الوصول إلى الفناء ومشاهدة الحق والاتحاد به.

## المطلب الثالث

## جعل الصوفية معالم لسلوك الطريق الصوفي

تبين لنا في المسائل السابقة، مدى اختلاف منطلقات الصوفية عن أهل السنة في أعمال القلوب نوعًا، والآن ننتقل إلى بيان ما يدل على اختلاف منطلقات الصوفية في أعمال القلوب كيفًا[(١)]، ونبين أهم المعالم والوسائل التي ينبغي سلوكها لتزكية النفس عند الصوفية.

**العنصر الأول: الخلوة والعزلة.**

ومعنى الخلوة في اللغة: مصدر خلا يخلو، إذا اعتزل الناس وانفرد عنهم[(٢)].

والخلوة في اصطلاح الصوفية تعني: التخلي واختيار الخلوة، والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق، والخلوة: محادثة السر مع الحق، حيث لا أحد ولا ملك[(٣)].

وفي الحقيقة، تعد الخلوة عند الصوفية من المستلزمات الروحية للسالك في الطريق الصوفي، كما يعتقدون أنها تدعيم لصدق التوبة وتثبيت الإخلاص، وهي عندهم أفضل اللحظات التي يقضيها الإنسان مع ربه، وتهدف الخلوة عندهم إلى معرفة مدى استعداد الشخص للانتقال إلى المقامات والأحوال الأخرى.

---

(١) أي من جهة الوسائل لتحقيق أعمال القلوب وتزكية النفوس.

(٢) انظر: لسان العرب (٥/١٤٨).

(٣) التعريفات (ص/١٠٥)، للجرجاني.

قال القشيري: «الخلوة صفة أهل الصفوة، والعزلة من أمارات الوصلة، ولا بد للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه، ثم في نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه، ومن حق العبد إذا أثار العزلة أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره، ولا يقصد سلامته من شر الخلق»[(١)].

ويقول الغزالي ـ بعد أن قرر مشروعية الخلوة ـ مبينًا آدابها: «ثم يخلو بنفسه في زاوية، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم، ولا يفرق فكره بقراءة القرآن ولا بالتأمل في تفسيره ولا بكتب حديث ولا غيره، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى»[(٢)].

ويقول في موضع آخر: «وأما حياة الخلوة، ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر فإنهما دهليز القلب...، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم، وإن لم يكن له مكان مظلم، فيلُفَّ رأسه في جيبه، أو يتدثَّر بكساء أو إزار، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق، ويشاهد جلال الحضرة الربوبية»[(٣)].

**العنصر الثاني: الزهد في الدنيا.**

المتأمل في طريق المتصوفة للوصول إلى حقيقة العبادة والقرب من الله تعالى، يجد أن أكثر طرقهم تقوم على رياضات بدعية غير شرعية، أو أن تكون أصلها شرعية لكنهم يغلون فيها ويبالغون حتى يقعوا في الابتداع.

ومن ذلك تشديد كثير من المتصوفة على أنفسهم، وشدة تقشفهم في

---

(١) الرسالة القشيرية (ص/ ١٧٦).
(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٧).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ١٠٠).

إعطاء النفس حظوظها، ويؤدب أحدهم نفسه الجوع الشديد ومداومة السهر وكثرة التعري والاحتفاء وغير ذلك، وعند النظر في مجموع هذه المجاهدات نجد أنهم يزعمون أنهم بها يزهدون في الدنيا ولا يريدون تدنيس أنفسهم بلذاتها.

**العنصر الثالث: الأوراد[(١)]، والأذكار.**

ذكر الله تعالى عبادة من أعظم العبادات، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بذكره في جميع الأحوال، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢)﴾ [الأحزاب].

ولكن إذا نظرنا في واقع الصوفية، وجدنا فريقا غير قليل منهم يكثرون من ذكر الله تعالى ولكن بأذكار وطرق مبتدعة، حتى تفرقوا أحزابًا وفرقًا، وصار لكل شيخ طريقة أذكار يخترعها لأتباعه، يذكرون الله بها ويرتب الأجور عليها[(٢)].

---

(١) هي جملة: من الأدعية أو كمية من الآيات يقرأها الشخص في وقت محدد من كل يوم.

(٢) يقول صاحب الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية: «ويجمع هذه الآداب كلها عشرون أدبا، من لم يتحقق بها فبعيد عليه الفتح، خمسة منها سابقة على الذكر، واثنا عشر حال الذكر، وثلاثة بعد الفراغ من الذكر».

**فمن الآداب التي تسبق الذكر:**

١ - الغسل أو الوضوء كلما أراد الذكر، وتعطير ثيابه وفمه بالبخور والماورد.

٢ - أن يستمد عند شروعه في الذكر بهمة شيخه بأن يشخصه بين عينيه ويستمد من همته ليكون رفيقه في السر.

٣ - أن يرى استمداده من شيخه هو استمداده حقيقة من رسول الله.

**ومن الآداب حال الذكر:**

١ - تطييب مجلس الذكر بالرائحة الطيبة.

٢ - اختيار الموضع المظلم من خلوة أو سرداب.

٣ - أن يخيل شخص شيخه بين عينيه، وهذا من آكد الآداب، لأن المريد يرتقي منه إلى الأدب مع الله والمراقبة له.

وقد انتشرت هذه الأذكار المبتدعة حتى صدّتهم عن ذكر الله المشروع وعن قراءة القرآن، وصار أحدهم يقيم على هذه الأذكار المبتدعة سنين عديدة من عمره وهو يظن أنه على خير، وما أشبه حاله بمن قال الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ [الكهف][1].

**العنصر الرابع: السماع.**

السماع في اللغة: مصدر سمع يسمع، وهو ما وقر في الأذن من صوت، سواء كان هذا الصوت كلاما أو غيره.

---

= ومن الآداب التي بعد الذكر:

١ - أن يسكت بعد سكون وتخشع، وتحضر مع قلبه مترقبا لوارد الذكر، فلعله يرد عليه وارد فيعمر في وجوده في تلك اللحظة.

٢ - جمع الحواس بحيث لا تتحرك منه شعرة كحال الهرة عند اصطياد الفأرة.

٣ - نفي الخواطر كلها، وإجراء معنى الله على القلب.

٤ - أن يذم نفسه مرارا بقدر ثلاثة أنفاس إلى أربعة أنفاس حتى يدور الوارد في جميع عوامله.

٥ - منع شرب الماء البارد عقيب الذكر، فإن الذكر يورث حرقة وهيجانا وأشواقا إلى المذكور، وشرب الماء يطفئ تلك الحرارة، انظر: الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية (١/٣٦-٤٠)، لعبد الوهاب الشعراني.

وهذا غيض من فيض من آداب القوم للذكر، وما ذكر هنا ليس من باب الحصر، وإنما للتدليل على شذوذ هؤلاء في مجمل مناحيهم، انظر: ذكر الله تعالى بين الاتباع والابتداع (ص/٢٨٤-٢٨٦) تأليف: عبد الرحمن محمود خليفة.

(١) من هذه الأذكار المبتدعة ما يسمى بأحزاب الشاذلي، كحزب النصر وحزب البر وغيرهما، وحزب النصر هو أن يقول: «حم حم حم حم حم حم حم الأمر وجاء النصر فعلينا لا ينصرون، حم عسق حمايتنا مما نخاف، اللهم قنا شر الأسوء، ولا تجعلنا محلا للبلوى، اللهم أعطنا أمل الرجاء، ونور الإيمان، يا هو يا هو يا هو»، انظر: مجموع الأوراد الكبير والأدعية والأحزاب والاستغاثات (١/٣٦-٤٠).

ومنها أيضًا صلاة الفاتح التي تعد شعارا للتجانية، والتي تعدل المرة الواحدة منها أضعاف المرات من القرآن، ونصها: «اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، الهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله وأصحابه حق قدره ومقداره العظيم»، انظر: التيجانية (ص/١١٣).

والسماع: مصطلح كان يطلقه مقدمو الصوفية على فهم يقع لأحدهم بغتة يكون عند غيبة، سواء كان ذلك حال سماع نظم أو نثر أو غيرهما، وأما عند المتأخرين منهم فهو عبارة عن مجموع أمور منكرة، يقيمونها وقد أحضروا المشتغلين بالغناء ومعهم آلات اللهو كالدفوف والمزامير وغيرها، ثم تضاف إلى ذلك بقية المفاسد من الاختلاط والرقص والسهو والاسراف وغير ذلك[١].

والسماع أصل من أصول الصوفية التي يعتمدونها في سلوكِهم طريقَهم إلى الله، بل زاد عن ذلك عند فريق منهم حتى صاروا يتعبدون الله تعالى ويتقربون إليه بها، وهو من معالم الطريق التي لا يصح للعارف السلوك فيه حتى يتعاطاه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض كلامه عن السماع عند المتصوفة: «مقصودهم بذلك أن يتخذ طريقا إلى الله: يجتمع عليه أهل الديانات لصلاح القلوب والتشويق إلى المحبوب، والتخويف من المرهوب والتحزين على فوات المطلوب، فتستنزل به الرحمة، وتستجلب به النعمة، وتحرك به مواجيد أهل الإيمان، وتستجلى به مشاهد أهل العرفان، حتى يقول بعضهم: إنه أفضل لبعض الناس أو للخاصة من سماع القرآن من عدة وجوه[٢]، حتى يجعلونه قوتا للقلوب وغذاء للأرواح وحاديا للنفوس يحدوها إلى السير إلى الله ويحثها على الإقبال عليه.

---

(١) انظر: كشف القناع عن حكم الوجد والسماع (ص/ ٤٤)، لأحمد بن عمر إبراهيم القرطبي.

(٢) ذكر أبو حامد الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» (٢/ ٤١٤-٤١٧): أن السماع يحرك القلوب إلى الله أكثر من القرآن، وذلك من سبعة أوجه:

**الوجه الأول**: أن جميع آيات القرآن لا تناسب حال المستمع، فمن استولى عليه شوق من أين يناسب حاله قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١].

**الوجه الثاني**: أن القرآن محفوظ للأكثرين، ومتكرر على الأسماع والقلوب...

ولهذا يوجد من اعتاده واغتذى به لا يحن إلى القرآن ولا يفرح به، ولا يجد في سماع الآيات كما يجد في سماع الأبيات، بل إذا سمعوا القرآن سمعوه بقلوب لاهية وألسن لاغية، وإذا سمعوا سماع المكاء والتصدية خشعت الأصوات وسكنت الحركات وأصغت القلوب وتعاطت المشروب»[(١)].

**العنصرالخامس: الأحوال المبتدعة (السكر، والوله، والجنون، وغيرها).**

الأحوال: جمع حال، ونعني به هنا: ما يعتري بعض المتصوفة أثناء الذكر أو السماع، أو عند ذكر الجنة والنار والثواب والعقاب من صعق[(٢)] وسكر وغيبة عقل[(٣)] ونحوها.

---

= **الوجه الثالث**: أن لوزن الكلام بذوق الشعر تأثيرا في النفس، فليس الصوت الموزون الطيب كالصوت الطيب الذي ليس بموزون، فالوزن إذًا مؤثر، فلذلك طاب الشعر.

**الوجه الرابع**: أن الشعر يختلف تأثيره في النفس بالألحان، بمد المقصور وقصر الممدود، والوقف في أثناء الكلامات، ولا يجوز في القرآن إلا التلاوة...

**الوجه الخامس**: أن الألحان الموزونة تُعضد وتُؤكد بايقاعات وأصوات كالضرب بالقضيب والدف وغيره، وواجب أن يصان القرآن عن مثل هذه القرائن...

**الوجه السادس**: أن المغني قد يغني ببيت لا يوافق حال السامع فيكرهه ويستدعي غيره...

**الوجه السابع**: أن القرآن كلام الله لا تطيقه البشرية، ولوكشف للقلوب ذرة من معناه وهيبته. . .اهـ.

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٦٧-٥٦٨).

(٢) معنى الصعق في اللغة: مصدر صعِق الرجل صَعْقًا وصَعَقًا، فهو صَعِق: أي غشي عليه وذهب عقله من صوت سمعه كالهدة الشديدة، ويقال صعق فلان: أي مات، انظر لسان العرب (٨/٢٤٢).

ومعنى الصعق عند الصوفية هو: الفناء في الله عند التجلي الذاتي الوارد بسبحات يحترق ما سوى الله فيها، انظر: التعريفات للجرجاني (ص/ ١٣٦).

(٣) معنى الغيبة في اللغة: بفتح الغين وسكون الياء، فقدان الشيء والبعد عنه وعدم المعرفة به، انظر: لسان العرب (١١/ ١٠٥).

ومعنى الغيبة عند الصوفية: الغيبة عن الأشياء بمشاهدة الحق، وهي بهذا التعريف قريبة المعنى =

والصوفية يعدون هذه الأحوال من أكمل المقامات، ومن أصابته صار عندهم من الأولياء أصحاب الكرامات.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض كلامه عن مدح الصوفية للسكر وزوال العقل: «وكثير من المتصوفة يذمون العقل ويعيبونه، ويرون أن الأحوال العالية والمقامات الرفيعة لا تحصل إلا مع عدمه، ويقرون من الأمور بما يكذب به صريح العقل، ويمدحون السكر والجنون والوله، وأمورًا من المعارف والأحوال التي لا تكون إلا مع زوال العقل والتمييز، كما يصدقون بأمور يعلم بالعقل الصريح بطلانها ممن لم يعلم صدقه، وكلا الطرفين مذموم»(١).

---

= مما يسمونه بالفناء، قال الجرجاني: «الغيبة: غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق بل من أحوال نفسه بما يرد عليه من الحق إذا عظم الوارد واستولى عليه سلطان الحقيقة» التعريفات (ص/ ١٦٥).

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣٨).



# المبحث الثاني:
# ذكر شبهات الصوفية في أعمال القلوب

لعل بما سبق من بيان مذاهب الصوفية في أعمال القلوب، تبين لنا أن أصل انحرافهم وضلالهم في هذه المسائل مبني على عدم اعتمادهم على النصوص الشرعية من الكتاب والسنة وما يستنبط منها من قواعد وأحكام، بل كان اعتمادهم على الحكايات والقصص ـ من الكشف، والإلهام، والهتف، والذوق، والوجد ـ والتي يحكونها عن شيوخهم بلا أسانيد، ولهذا لم يميزوا في أعمال القلوب بين الموافق للشرع والمخالف له.

والمتأمل في أقوالهم السابقة في أعمال القلوب واعتقادهم أنها معلولة، ومن منازل العوام، يجد أن الشبهة التي عرضت لهم هي اعتقادهم أنها من حظوظ النفس لا محض العبودية كما صرحوا بذلك، ولهذا يزعمون أنهم يعبدون الله لذاته لا رغبة في جنته ولا خوفًا من ناره، ولهذا عللوا كون الإرادة من منازل العوام لأنها تفرق وهي رجوع إلى حظوظ النفس، وهكذا التوكل عندهم عمى عن الكفاية ورجوع إلى الأسباب.

ومنشأ الشبهة التى لأجلها جعلوا أعمال القلوب معلولة من منازل العوام هي قولهم بالفناء، فهي عندهم الغاية التي يسعون إليها، كما قال أبو العباس بن عريف: «فالإرادة والتوبة والزهد والتوكل والصبر والحزن والخوف والرجاء والشكر والمحبة والشوق والأنس منازل أهل الشرع السائرين إلى عين الحقيقة، فإذا شهدوا عين الحقيقة اضمحلت فيها أحوال السائرين، ووصلوا إلى مقام الفناء عما سواه سبحانه، فإن ما قبل هذه المقامات مرادة إلى هذه الغاية»[1].

وقال أيضًا: «فعند القوم كل ما هو من العبد فهو علة تليق بعجز العبد وفاقته، وإنما عين الحقيقة عندهم أن يكون قائما بإقاماته له، محبا بمحبته

---

(١) محاسن المجالس (ص/ ٣٩).

له، ناظرا بنظره، لا من غير أن يبقى معه بقية تناط باسم، أو تقف على رسم، أو تتعلق بنظر، أو تنعت بنعت، أو توصف بوصف، أو تنسب إلى وقت»[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا على هذا القول: «هذا هو مقام الفناء الذي يشير إليه كثير من المتأخرين، ويجعلونه غاية الغايات ونهاية النهايات، وكل ما دونه فمرقاة إليه وعالة عليه.

ولهذا كانت المحبة عندهم آخر منازل الطريق وأول أودية الفناء، والعقبة التي ينحدر منها على منازل المحو، وهي آخر منزل يلقى فيه مقدمة العامة ساقة الخاصة، وما دونها أعراض الإعراض، فجعلوا المحبة منزلا من المنازل ليست غاية، وجعلوها أول الأدوية التي سلك فيها أصحاب الفناء، فهي أول أوديتهم والعقبة التي ينحدرون منها إلى منازل الفناء والمحو، فليست هي الغاية عندهم، وأصحابها عندهم مقدمة العامة، وساقة أصحاب الفناء عندهم مقدمون عليهم سابقون لهم فإنهم ساقة الخاصة وهؤلاء مقدمة العامة، فهذا كله بناء على أن الفناء هو الغاية التي لا غاية للعبد وراءها، ولا كمال له يطلبه فوقها»[٢].

وقد بين شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الفناء نوعان، الفناء البدعي والفناء الشرعي.

والفناء البدعي[٣] هو أن لا يفرق العارف بين الحسن والقبيح، ولا بين

---

(١) المصدر نفسه ( ).

(٢) طريق الهجرتين (ص/ ٤٨٠-٤٨١).

(٣) ثم هذا الفناء البدعي منقسم إلى قسمين:
القسم الأول: الفناء عن شهود السوى «وهو أن يفنى عن شهود ما سوى الله تعالى، فيفنى بمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، بحيث قد يغيب عن شهود نفسه لما سوى الله تعالى، فهذا حال ناقص قد يعرض لبعض السالكين، وليس هو من لوازم =

محبوب الرب تعالى ومبغوضه، بل الكل عنده سواء، ويمتدحون بذلك ويجعلونها من المقامات العالية، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «المقصود هنا: أن الفرق بين الأفعال الحسنة التي يحصل لصاحبها بها لذة، وبين السيئة التي يحصل له بها ألم، أمر حسي يعرفه جميع الحيوان، فمن قال من المدعين للحقيقة القدرية والفناء في توحيد الربوبية والاصطلام[١]: أنه يبقى في عين الجمع بحيث لا يفرق بين ما يؤلم أو ما يلذ؛ كان هذا مما يعلم كذبه فيه إن كان يفهم ما يقول، وإلا كان ضالا يتكلم بما لا يعرف حقيقته، وهو الغالب على من يتكلم في هذا، فإن القوم قد يحصل لأحدهم هذا المشهد ـ مشهد الفناء في توحيد الربوبية ـ فلا يشهد فرقا ما دام في هذا المشهد، وقد يغيب عنه الإحساس بما يوجب الفرق مدة من الزمان، فيظن هذا الفناء مقاما محمودًا، ويجعله إما غاية وإما لازما للسالكين، وهذا غلط»[٢].

---

= طريق الله، ولهذا لم يعرف مثل هذا للنبي وللسابقين الأولين، ومن جعل هذا نهاية السالكين فهو ضال ضلالاً مبينًا، وكذلك من جعله من لوازم طريق الله فهو مخطئ، بل هو من عوارض طريق الله التي تعرض لبعض الناس دون بعض، ليس هو من اللوازم التي تحصل لكل سالك» مجموع الفتاوى (٣/١١٨-١١٩)، وانظر: (٢/ ٣٧٠)، و (١٠/ ٣٣٨).

القسم الثاني: الفناء عن وجود السوى؛ وهو أن يشهد أن لا موجود إلا الله، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق، فلا فرق بين الرب وبين العبد، بل ليس عندهم في الحقيقة رب وعبد، وهذا القول بالفناء للاتحادية الملاحدة القائلين بوحدة الوجود، الذين يجعلون الله عين الموجودات وحقيقة الكائنات، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا، انظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٣٧٠)، و (٣/ ١١٩)، و (١٠/ ٣٤٢).

(١) الاصطلام لغة: مصدر من اصطلم؛ أي: استأصل، واصطُلِم القوم: أُبيدوا، والاصطلام: إذا أبيد القوم من أصلهم قيل: اصطلموا، والاصطلام أيضا: هو الاضطراب والارتعاش، انظر: لسان العرب (٨/ ٢٧٤-٢٧٥).

ومعنى الاصطلام في عرف الصوفية: وَلَه غالب على القلب، سلطانه قوي، فيسكن من قام به تحته، وهو قريب من الهيمان، وقيل: هو غلبات الحق الذي يجعل كلية العبد مغلوبة به بامتحان اللطف في نفي إرادته، انظر: معجم اصطلاحات الصوفية (ص/ ٥٥) للكاشاني، ومعجم مصطلحات الصوفية (ص/ ١٧)، للحفني

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣١٠-٣١١).

فيقول مبينا الفناء الشرعي ـ وهو الذي للمؤمنين ـ: «وكلا الطائفتين: الذين يسلكون إلى الله محض الإرادة والمحبة والدنو والقرب منه، من غير اعتبار بالأمر والنهي المنزَّلَين من عند الله، الذين ينتهون إلى الفناء في توحيد الربوبية، يقولون بالجمع والاصطلام في توحيد الربوبية، ولا يصلون إلى الفرق الثاني[١]، ويقولون: إن صاحب الفناء لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة، ويجعلون هذا غاية السلوك.

والذين يفرقون بين ما يستحسنونه ويستقبحونه ويحبونه ويكرهونه ويأمرون به وينهون عنه، لكن بإرادتهم ومحبتهم وهواهم، لا بالكتاب المنزل من عند الله.

كلا الطائفتين متبع لهواه بغير هدى من الله، وكلا الطائفتين لم يحققوا شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدًا رسول الله.

فإن تحقيق الشهادة بالتوحيد يقتضي: أن لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا لله، ولا يعادي إلا لله، وأن يحب ما يحبه الله، ويبغض ما أبغضه، ويأمر بما أمر الله به، وينهى عما نهى الله عنه، وأنك لا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلا الله، ولا تسأل إلا الله، وهذا ملة إبراهيم وهذا الإسلام الذي بعث الله به جميع المرسلين.

والفناء في هذا هو الفناء المأمور به، الذي جاءت به الرسل، وهو؛

---

(١) وهو الفرق بعد الجمع، وهو الفرق الشرعي، (وهو أن يشهد أن المخلوقات قائمة بالله، ومدبرة بأمره، ويشهد كثرتها معدومة بوحدانية الله سبحانه وتعالى، وأنه سبحانه رب المصنوعات، وإلهها وخالقها ومالكها، فيكون مع اجتماع قلبه على الله إخلاصا ومحبة وخوفا ورجاء واستعانة وتوكلا على الله وموالاة فيه ومعادة فيه، ناظرا إلى الفرق بين الخالق والمخلوق، مميزا بين هذا وهذا، ويشهد تفرق المخلوقات وكثرتها، مع شهادته أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه، وأنه هو الله لا إله إلا هو)، العبودية (ص/ ١١٤)، مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٩٧).

أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه، وبرجائه وخوفه عن رجاء ما سواه وخوفه، فيكون مع الحق بلا خلق، كما قال الشيخ عبد القادر: كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس»[١].

ثم بيَّن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بعد هذا الكلام خطأ القائلين بالفناء المبتدع: «وأما الذي لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة، فهذا لم تبق عنده الأمور نوعان: محبوب للحق ومكروه، بل كل مخلوق فهو عنده محبوب للحق كما أنه مراد.

فإن هؤلاء أصل قولهم: هو قول جهم بن صفوان من القدرية، فهم من غلاة الجهمية الجبرية في القدر، وإن كانوا في الصفات يكفرون الجهمية نفاة الصفات...

وهؤلاء إذا شهدوا هذا لم يبق عندهم فرق بين جميع الحوادث في الحسن والقبح إلا من حيث موافقتها للإنسان ومخالفة بعضها له، فما وافق مراده ومحبوبه كان حسنا عنده، وما خالف ذلك كان قبيحا عنده، فلا يكون في نفس الأمر حسنة يحبها الله ولا سيئة يكرهها، إلا بمعنى أن الحسنة هي ما قرن بها لذة صاحبها، والسيئة ما قرن بها ألم صاحبها، من غير فرق يعود إليه ولا إلى الأفعال أصلًا، ولهذا كان هؤلاء لا يثبتون حسنًا ولا قبيحًا، لا بمعنى الملائم للطبع والمنافي له.

والحسن والقبح الشرعي هو: ما دل صاحبه على أنه قد يحصل لمن فعله لذة، أو حصول ألم له، ولهذا يجوز عندهم أن يأمر الله بكل شيء حتى الكفر والفسوق والعصيان، وينهى عن كل شيء حتى عن الإيمان والتوحيد، ويجوز نسخ كل ما أمر به بكل ما نهى عنه، ولم يبق عندهم في

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٣٧-٣٣٨).

الوجود خير ولا شر، ولا حسن ولا قبيح، إلا بهذا الاعتبار، فما في الوجود ضر ولا نفع، والنفع والضر أمران إضافيان؛ فربما نفع هذا ما ضر هذا، كما يقال:

مصائب قوم عند قوم فوائد.

فلما كان هذا حقيقة قولهم الذي يعتقدونه ويشهدونه صاروا حزبين.

**حزبًا من أهل الكلام والرأي**، أقروا بالفرق الطبيعي[1]، وقالوا: ما ثم فرق إلا الفرق الطبيعي، ليس هنا فرق يرجع إلى الله بأنه يحب هذا ويبغض هذا...

**والحزب الثاني من الصوفية**: الذي كان هذا المشهد هو منتهى سلوكهم، عرفوا الفرق الطبيعي، وهم قد سلكوا على ترك هذا الفرق الطبيعي، وأنهم يزهدون في حظوظ النفس وأهوائها، لا يريدون شيئًا لأنفسهم، وعندهم أن من طلب شيئًا للأكل والشرب في الجنة، فإنما طلب هواه وحظه، وهذا كله نقص عندهم ينافي حقيقة الفناء في توحيد الربوبية، وهو بقاء مع النفس وحظوظها.

والمقامات كلها عندهم ـ التوكل والمحبة؛ وغير ذلك ـ إنما هي منازل أهل الشرع السائرين إلى عين الحقيقة، فإذا شهدوا توحيد الربوبية كان ذلك عندهم عللا في الحقيقة، إما لنقص المعرفة والشهود، وإما لأنه ذب عن النفس وطلب حظوظها، فإنه من شهد أن كل ما في الوجود: فالرب

---

(١) وهو الفرق الأول، وهو: الفرق (بإرادة هذا وكراهة هذا، ورؤية فعل هذا وترك هذا، فإن الإنسان قبل أن يرى التوحيد (الجمع) يرى للخلق فعلا يتفرق به قلبه في شهود أفعال المخلوقات، ويكون متبعا لهواه فيما يريده، فإذا أراد الحق خرج بإرادته عن إرادة الهوى والطبع، ثم شهد خالق كل شيء، فخرج بشهود هذا الجمع عن ذاك الفرق)، مجموع الفتاوى (١٠/٤٩٧).

يحبه ويرضاه ويريده، لا فرق عنده بين شيء وشيء، إلا أن من الأمور ما معه حظ لبعض الناس من لذة يصيبها، ومنها ما معه ألم لبعض الناس، فمن كان هذا مشهده؛ فإنه قطعا يرى أن كل من فرق بين شيء وشيء لم يفرق إلا لنقص معرفته، وشهوده أن الله رب كل شيء، ومريد لكل شيء ومحب ـ على قولهم ـ لكل شيء، وإنما لفرق يرجع إلى حظه وهواه، فيكون طالبا لحظه، ذابا عن نفسه، وهذا علة وعيب عندهم.

فصار عندهم كل من فرّق: إما ناقص المعرفة والشهادة، وإما ناقص القصد والإرادة، وكلاهما علة، بخلاف صاحب الفناء في مشهد الربوبية: فإنه يشهد كل ما في الوجود بإرادته ومحبته ورضاه عندهم، لا فرق بين شيء وشيء، فلا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة، كما قاله صاحب منازل السائرين...»(١).

ومن أسباب ضلالهم وانحرافهم هو؛ المبالغة في تجريد الإرادة إلى الله والتقرب إليه، حتى رأوا أن كل ما تطلبه النفس سواء أكان من متاع الدنيا أو من ثواب الآخرة ـ من طلب الجنة، والاستعاذة من النار ـ مزاحم للقصد المتجه إلى الله فيكون ذلك تشريكًا يجب التنزه عنه، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ثم إنه مما أوقع هؤلاء في هذا الغلط؛ أنهم وجدوا كثيرًا من الناس لا يسألون الله جلب المنافع ودفع المضار، حتى طلب الجنة والاستعاذة من النار من جهة كون ذلك عبادة وطاعة وخيرا، بل من جهة كون النفس تطلب ذلك، فرأوا أن من الطريق ترك ما تختاره النفس وتريده، وأن لا يكون لأحدهم إرادة أصلا، بل يكون مطلوبه الجريان تحت القدر كائنا من كان، وهذا هو الذي أدخل كثيرًا منهم في الرهبانية والخروج عن الشريعة، حتى تركوا من الأكل والشرب واللباس والنكاح ما يحتاجون اليه،

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٣٩-٣٤٦).

وما لا تتم مصلحة دينهم الا به، فإنهم رأوا العامة تعد هذه الأمور عبادة بحكم الطبع والهوى والعادة، ومعلوم أن الأفعال التي تقع على هذا الوجه لا تكون عبادة ولا طاعة ولا قربة، فرأى أولئك أن الطريق إلى الله ترك هذه الأمور لأنها من الطبيعيات والعادات، فلازموا من الجوع والسهر والخلوة والصمت وغير ذلك، مما فيه ترك الحظوظ واحتمال المشاق ما أوقعهم في ترك واجبات ومستحبات وفعل مكروهات ومحرمات»[١].

---

(١) الاستقامة (٢/١٣٣-١٣٤).



# المبحث الثالث:
# الرد على الصوفية

# تمهيد
# موقف أهل السنة
# من مصادر التلقي عند الصوفية

الكتاب والسنة هما مصدر التلقي عند أهل السنة والجماعة قاطبة ـ بما فيه هذا العَلَم شيخ الإسلام ومفتي الأنام العلامة ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ـ فلا يُعرف الحق والهدى والصواب إلا عن طريق الكتاب والسنة وما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، فما وافق ذلك هو الحق، وليس وراء ذلك إلا الهوى والضلال.

قال شيخ الإسلام في معرض تقريره اشتمال الكتاب والسنة على ما يحتاج العباد إلى معرفته، وأن الدين كامل لا يحتاج إلى من يزيد فيه، أو يُصلح أو يُبدل أو يُغيِّر: «والحمد لله الذي بعث إلينا رسولًا من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة، الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام دينا، الذي أنزل الكتاب تفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف].

وإنما يظن عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان ذلك من كان ناقصا في عقله وسمعه، ومن له نصيب من قول أهل النار الذين قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [المُلك]، وإن كان ذلك كثيرًا في كثير من المتفلسفة والمتكلمة وجهال أهل الحديث والمتفقهة والمتصوفة»[1].

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٩٥-٢٩٦)، وانظر: الفرقان بين الحق والباطل (ص/ ١٧-١٨).

والأدهى من ذلك ـ كما تقدم ـ أن فريقًا منهم يزعم أنه غير محتاج للتلقي عن الرسل، لأنه يتلقي من المصدر الذي يتلقي منه الرسول، فهو يأخذ عن جبريل عليه السلام مباشرة، وقد يرتقي به الحال فيأخذ عن الله.

أما موقف شيخ الإسلام الخاص من مصادر التلقي عند الصوفية فأجمله فيما يلي:

◇ الكشف:

سبق أن قلنا أن الكشف عند الصوفية هو: الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجودا وشهودا، وبينا أنه مصدر من مصادر التلقي عندهم.

وقد بين شيخ الإسلام رحمه الله أن الكشف نوعان:

الكشف الشرعي؛ وهو ما ينجلي للقلب المؤمن المعمور بالتقوى من الأمور على ما هي عليه، فرأى الأمور عيانا مع غيبها عن غيرها، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن الله فطر عباده على الحق، فإذا لم تستحل الفطرة شاهدت الأشياء على ما هي عليه، فأنكرت منكرها وعرفت معروفها، قال عمر: الحق أبلج لا يخفى على فطن.

فإذا كانت الفطرة مستقيمة على الحقيقة منورة بنور القرآن، تجلت لها الأشياء على ما هي عليه في تلك المزايا، وانتفت عنها ظلمات الجهالات، فرأت الأمور عيانا مع غيبها عن غيرها.

وفي السنن والمسند وغيره عن النواس بن سمعان عن النبي قال: **«ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتي الصراط سوران، وفي السورين أبواب مُفتّحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو من فوق الصراط، فالصراط المستقيم هو الإسلام، والستور**

**المرخاة حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، فإذا أراد العبد أن يفتح بابًا من تلك الأبواب ناداه المنادي: يا عبد الله لا تفتحه، فإنك إن فتحته تلِجْهُ، والداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن»**(١)، فقد بين في هذا الحديث العظيم ـ الذي مَن عرفه انتفع به انتفاعا بالغا إن ساعده التوفيق، واستغنى به عن علوم كثيرة ـ أن في قلب كل مؤمن واعظًا، والوعظ هو الأمر والنهي، والترغيب والترهيب.

وإذا كان القلب معمورًا بالتقوى انجلت له الأمور وانكشفت، بخلاف القلب الخراب المظلم، قال حذيفة بن اليمان: «إن في قلب المؤمن سراجا يزهر»(٢).

وفي الحديث الصحيح: «**إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ**»(٣) فدل على أن المؤمن يتبين له ما لا يتبين لغيره، ولا سيما في الفتن، وينكشف له حال الكذاب الوضاع على الله ورسوله، فإن الدجال أكذب خلق الله، مع أن الله يجري على يديه أمورًا هائلة، ومخاريق مزلزلة، حتى إن من رآه افتتن به، فيكشفها الله للمؤمن حتى يعتقد كذبها وبطلانها .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٩/ ١٨١-١٨٢)، الترمذي في سننه (ص/ ٦٣٩)في كتاب الأمثال عن رسول الله، باب ما جاء في مثل الله لعباده، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ١٧٢)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولا أعلم له علة ولم يخرجاه، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (ص/ ٣٢)، وصححه الألباني في ظلال الجنة (ص/ ٣٢).

(٢) أخرجه عبد الله بن مبارك في الزهد (ص/ ٥٠٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤٨١) وأبو نعيم الحلية (١/ ٢٧٦)، كلهم عن حذيفة موقوفًا، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧/ ٢٠٨) مرفوعًا، وهو ضعيف لأن في سنده ليث بن أبي سليم وهو مخلّط، والأثر مع وقفه في سنده انقطاع، فأبو البختري: سعيد بن فيروز (الراوي عن حذيفة) لم يدرك حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٠٣٨)، في كتاب اللباس، باب الجعد، ومسلم في صحيحه (ص/ ٩٤)، في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات.

وكلما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور له وعرف حقائقها من بواطلها، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف، وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم، ولهذا قال بعض السلف في قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، قال: هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمع فيها بالأثر كان نورا على نور، فالإيمان الذي في قلب المؤمن يطابق نور القرآن، فالإلهام القلبي تارة يكون من جنس القول والعلم، والظن أن هذا القول كذب، وأن هذا العمل باطل، وهذا أرجح من هذا، أو هذا أصوب.

وفي الصحيح عن النبي قال: «**قد كان في الأمم قبلكم مُحَدَّثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر**»[(١)]، والمحدَّث: هو الملهم المخاطب في سره، وما قال عمر لشيء: إني لأظنه كذا وكذا إلا كان كما ظن، وكانوا يرون أن السكينة تنطق على قلبه ولسانه.

وأيضًا فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن لقوة إيمانه يقينا وظنا، فالأمور الدينية كشفها له أيسر بطريق الأولى، فإنه إلى كشفها أحوج.

فالمؤمن تقع في قلبه أدلة على الأشياء لا يمكنه التعبير عنها في الغالب، فإن كل أحد لا يمكنه إبانة المعاني القائمة بقلبه، فإذا تكلم الكاذب بين يدي الصادق عرف كذبه من فحوى كلامه، فتدخل عليه نخوة الحياء الإيماني فتمنعه البيان، ولكن هو في نفسه قد أخذ حِذْره منه، وربما لوّح أو صرّح به خوفًا من الله، وشفقة على خلق الله ليحذروا من روايته أو العمل به.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٦٢٠)، في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر، ومسلم في صحيحه (ص/٩٧٦)، في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر.

وكثير من أهل الإيمان والكشف يلقي الله في قلبه أن هذا الطعام حرام، وأن هذا الرجل كافر أو فاسق أو ديوث أو لوطي أو خمار أو مغن أو كاذب من غير دليل ظاهر، بل بما يلقي الله في قلبه.

وكذلك بالعكس يلقي في قلبه محبة لشخص، وأنه من أولياء الله، وأن هذا الرجل صالح، وهذا الطعام حلال، وهذا القول صدق، فهذا وأمثاله لا يجوز أن يستبعد في حق أولياء الله المؤمنين المتقين»(١).

ثم بين النوع الثاني من الكشف وهو الكشف البدعي الذي يكون سببه الجن والشياطين، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكل من كان من أهل الإلهام والخطاب والمكاشفة لم يكن أفضل من عمر، فعليه أن يسلك سبيله في الاعتصام بالكتاب والسنة، تبعا لما جاء به الرسول، لا يجعل ما جاء به الرسول تبعا لما ورد عليه، وهؤلاء الذين أخطئوا وضلوا، وتركوا ذلك واستغنوا بما ورد عليهم، وظنوا أن ذلك يغنيهم عن اتباع العلم المنقول، وصار أحدهم يقول: أخذوا علمهم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، فيقال له: أما ما نقله الثقات عن المعصوم فهو حق، ولولا النقل المعصوم لكنت أنت وأمثالك إما من المشركين، وإما من اليهود والنصارى، وأما ما ورد عليك فمن أين لك أنه وحي من الله؟ ومن أين لك أنه ليس من وحي الشيطان؟. . .

وهؤلاء الذين لهم مكاشفات ومخاطبات يرون ويسمعون ما له وجود في الخارج، وما لا يكون موجودا إلا في أنفسهم كحال النائم، وهذا يعرفه كل أحد، ولكن قد يرون في الخارج أشخاصا يرونها عيانًا، وما في خيال الإنسان لا يراه غيره، ويخاطبهم أولئك الأشخاص، ويحملونهم ويذهبون

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٢-٤٧).

بهم إلى عرفات فيقفون بها...، فهذا كله موجود كثيرًا، لكن من الناس من يعلم أن هذا من الشيطان، وأنه من السحر، وأن ذلك حصل بما قاله وعمله من السحر، ومنهم من يعلم أن ذلك من الجن»[١].

ثم بين شيخ الإسلام أن الكشف مهما قوي وكان صاحبه صالحا، فإنه لا يعصمه من الخطأ، لذا لا بد من عرض كل كشف على الكتاب والسنة، قال رَحِمَهُ اللهُ: «فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات، فأفضل هؤلاء في هذه الأمة بعد أبي بكر عمر بن الخطاب، فإن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر.

وقد ثبت في الصحيح تعيين عمر بأنه مُحَدَّث في هذه الأمة، فأي محدث ومخاطب فرض في أمة محمد فعمر أفضل منه، ومع هذا فكان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يفعل ما هو الواجب عليه، فيعرض ما يقع له على ما جاء به الرسول، فتارة يوافقه فيكون ذلك من فضائل عمر، كما نزل القرآن بموافقته غير مرة، وتارة يخالفه فيرجع عمر عن ذلك، كما رجع يوم الحديبية...»[٢].

فإذا كان هذا حال الكشف الشرعي لا يقبل إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة، فما بال الكشف البدعي، لا شك أن الأمر أبعد وأخطر.

وقلنا إن مما يدخل تحت الكشف: الإلهام، والفراسة، والهواتف.

**المسألة الأولى: الإلهام.**

سبق أن بينا أن الإلهام: إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر ويطمئن ويسكن، من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة، يخص الله تعالى به بعض أصفيائه، وهو مصدر من مصادر التلقي عند القوم.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٧٤-٧٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٠٥).

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن الإلهام: «وحقيقته أن الله وكل بالإنس ملائكة وشياطين، يلقون في قلوبهم الخير والشر، فالعلم الصادق من الخير، والعقائد الباطلة من الشر، كما قال ابن مسعود: «لمة الملك تصديق بالحق، ولمة الشيطان تكذيب بالحق»[(١)]...

وكما أخبر الله أن الملائكة توحي إلى البشر ما توحيه، وإن كان البشر لا يشعر بأنه من الملك، كما لا يشعر بالشيطان الموسوس، لكن الله أخبر أنه يكلم البشر وحيًا، ويكلمه بملك يوحي بإذنه ما يشاء، والثالث التكليم من وراء حجاب»[(٢)].

فبين شيخ الإسلام أن الإلهام ـ الذي من أهم أنواع الكشف ـ نوعان، الإلهام الشرعي الذي يحصل لمن كان قلبه معمورًا بالإيمان والتقوى، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ففي الجملة القلب المعمور بالتقوى إذا رجح بمجرد رأيه فهو ترجيح شرعي، فمتى ما وقع عنده وحصل في قلبه ما يظن معه أن أحد الأمرين أحب إلى الله ورسوله كان هذا ترجيحًا بدليل شرعي، والذين أنكروا كون الإلهام طريقًا على الإطلاق أخطأوا، كما أخطأ الذين جعلوه طريقًا شرعيًّا على الإطلاق.

ولكن إذا اجتهد السالك في الأدلة الشرعية الظاهرة فلم ير فيها ترجيحا، وألهم حينئذ رجحان أحد الفعلين مع حسن قصده وعمارته

---

(١) روي عن ابن مسعود مرفوعًا وموقوفًا، ولفظه: «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الاخرى فليتعوذ بالله من الشيطان، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾»، أخرجه الترمذي في سننه (ص/٦٦٩) في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله، ﷺ، باب ومن سورة البقرة، وابن حبان في صحيحه (٣/٢٧٨)، والبيهقي في الشعب (٦/ ٢٨٥)، والطبراني في معجم الكبير (٩/١٠١) وصحح الحديث مرفوعًا الشيخ الألباني في المشكاة (٧٤) التحقيق الثاني.

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٣١-٥٣٢).

بالتقوى، فإلهام مثل هذا دليل في حقه، قد يكون أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة والأحاديث الضعيفة والظواهر الضعيفة والاستصحابات الضعيفة التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذهب والخلاف وأصول الفقه»[(١)].

وقال في معرض كلامه عن أحوال بعض الصوفية ومصادرهم في التلقي: «.. فمنهم من يظن أنه يُلقّن القرآن بلا تلقين، ويحكون أن شخصا حصل له ذلك، وهذا كذب..، أو يحكى أن بعضهم قال: أخذوا علمهم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، وهذا لايقع، لكن منهم من يظن أنما يُلقى إليه من خطاب أو خاطر هو من الله تعالى بلا واسطة، وقد يكون من الشيطان، وليس عندهم فرقان يفرق بين الرحماني والشيطاني، فإن الفرق الذي لا يخطئ هو القرآن والسنة، فما وافق الكتاب والسنة فهو حق وما خالف ذلك فهو خطأ.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف]، وذكر الرحمن هو ما أنزله على رسوله...

ثم إن هؤلاء لما ظنوا أن هذا يحصل لهم من الله بلا واسطة صاروا عند أنفسهم أعظم من أتباع الرسول، يقول أحدهم: فلان عطيته على يد محمد، وأنا عطيتي من الله بلا واسطة، ويقول أيضًا: فلان يأخذ عن الكتاب، وهذا الشيخ يأخذ عن الله ومثل هذا»[(٢)].

إذا، يكون الفرق بين الإلهام المحمود الشرعي وبين الوسوسة المذمومة هوالكتاب والسنة، فإن كان ما ألقي في النفس مما دل عليه

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٧٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤١٣-٤١٤).

الكتاب والسنة على أنه تقوى الله، فهو الإلهام المحمود، وإن كان مما دل على أنه فجور، فهو من الوسواس المذموم، وهذا الفرق مطرد لا ينتقض[١].

ثم الإلهام وإن كان شرعيًّا ليس مصدرًا مستقلًّا للتلقي، بل يوزن بالكتاب والسنة[٢].

**المسالة الثانية: الفراسة.**

وقد سبق معنى الفراسة عند الصوفية أنها: أرواح تتقلب في الملكوت فتشرف على معاني الغيوب، فتنطق عن أسرار الخلق نطق شهادة لا نطق ظن وحسبان، وهي مصدر من مصادر التلقي عند القوم.

وقد قسمه ابن القيم إلى ثلاثة أنواع:

**- الفراسة الإيمانية:**

وسببها؛ نور يقذفه الله في قلب عبده يفرق به بين الحق والباطل، والحالي والعاطل، والصادق والكاذب.

وحقيقتها؛ أنها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضاده، يثب على القلب كوثوب الأسد على الفريسة..، وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان، فمن كان أقوى إيمانًا فهو أحدُّ فراسة.

**- فراسة الرياضة والجوع، والسهر والتخلي:**

فإن النفس إذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها، وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر، ولا تدل على إيمان ولا على ولاية، وكثير من الجهال يغتر بها، وللرهبان فيها وقائع معلومة، وهي فراسة لا تكشف عن حق نافع ولا عن طريق مستقيم، بل كشفها جزئي من جنس فراسة الولاة، وأصحاب عبارة الرؤيا، والأطباء ونحوهم.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٢٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/ /٢٢٦-٢٢٧)، و (٣٥/ ١٢٢-١٢٤).

ـ **الفراسة الخَلْقية:**

وهي التي صنف فيها الأطباء وغيرهم، واستدلوا بالخَلْق على الخُلُق لما بينهما من الارتباط الذي اقتضته حكمة الله، كالاستدلال بصغر الرأس الخارج عن العادة على صغر العقل، وبكبره على كبره[(١)] .

إذا، المعرفة بما في الضمائر والقلوب ـ سواء كان عن طريق الفراسة أو غيرها ـ، فليس بمجرده دليلًا على الولاية الرحمانية، وقد ذكر شيخ الإسلام عن بعض أهل السماع الشيطاني، أنه ربما كاشف بعض الحاضرين لمجلس السماع بما في قلبه، وذلك بعد أن تقترن الشياطين بأهل هذا السماع البدعي، وتخبرهم بذلك.

فالعلم بما في القلوب له أسباب شيطانية، وهي شيء لا يخلص من الكهانة، بدليل قصة ابن صياد الكاهن، لما أضمر له النبي في نفسه سورة الدخان، فلما سأله رسول الله عما خبأ له؟ قال ابن صياد: الدخ، فقال به رسول الله : «**اخسأ، فلن تعدو قدرك**»[(٢)].

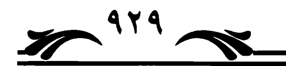
فشيء للشيطان فيه نصيب، كيف تطمئن له النفوس وتسكن إليه وتتلقى عنه، وقد دلت الشريعة ألا عبرة بالفراسة، ولا سيّما إذا تضمنت نقض حكم شرعي، أو خَرْم قاعدة من قواعده، والدليل على ذلك: أن الرسول لم يحكم بالفراسة في شأن المتلاعنين، لما قال: إذا جاءت به على صفة كذا، فهو لفلان»، بل قال: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن[(٣)]، مع أنها جاءت

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٥٧-٣٦٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١١٧٢)، في كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٤٣٥)، في كتاب الشهادات، باب: إذا ادعى أو قذف فله أن يلتمس البينة، وينطلق لطلب البينة، وفي كتاب التفسير (ص/ ٨٢٨)، وفي الطلاق (ص/ ٩٤٨) باب: يبدأ الرجل بالتلاعن.



به على إحدى الصفتين، وهي المقتضية للمكروه، فدل على أن الأيمان هي المانعة، وامتناعه مما همَ به ـ وهو الرجم بغير بينة ـ يدل على أن ما تفرَس به لا حكم له، حين شرعية الأيمان[1].

**المسألة الثالثة: الهواتف.**

بيَّن شيخ الإسلام أن من يخاطب من المنتسبين إلى الزهد والتصوف بأمور غير شرعية أنها من وساوس الشيطان والنفس، وليست مصدرا تبنى عليها أمور الدين، بل لا تحصل مثل هذه الهواتف والمخاطبات إلا لمن فيه شرك في عبادته أو عنده بدعة، ولا يقع لمخلص متمسك بالسنة البتة، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمنتسبون إلى السلوك، يقول أحدهم: إنه يخاطب في باطنه على لسان الشاهد، فمنهم من يصلي بالليل وذاك بإزائه ليشاهده في الضوء، ومنهم من يشاهده في حال السماع في غيره، ويظنون أنهم يخاطبون، ويجدون المريد في قلوبهم بذلك، وذلك لأنهم يتمثلونه في أنفسهم، وربما كان الشيطان يتمثل في صورته فيجدون في نفوسهم خطابا من تلك الصورة، فيقولون: خوطبنا من جهته، وهذا وإن كان موجودا في المخاطَب فمن المخاطِب له؟ فالفرقان هنا، فإنما ذلك المخاطب من وسواس الشيطان والنفس.

وقد يخاطبون بأشياء حسنة رشوة منه لهم، ولا يخاطبون بما يعرفون أنه باطل، لئلا ينفرون منه، بل الشيطان يخاطب أحدهم بما يرى أنه حق...

ولهذا كثير من أهل الزهد والعبادة يكون من أعوان الكفار ويزعم أنه مأمور بذلك، ويخاطب به ويظن أن الله هو الذي أمره بذلك، والله منزه عن ذلك، وإنما الآمر له بذلك النفس والشيطان وما في نفسه من الشرك، إذ لو

---

(١) المصادر العامة للتلقي عند الصوفية (ص/ ٤٩٣-٤٩٤).

كان مخلصًا لله الدين لما عرض له شيء من ذلك، فإن هذا لا يكون إلا لمن فيه شرك في عبادته أو عنده بدعة، ولا يقع هذا لمخلص متمسك بالسنة ألبتة»[(١)].

## الذوق:

سبق أن قلنا أن الذوق عند الصوفية ثمرة من ثمرات التجلي ونتيجة من نتائج الكشوفات، يقذفه الله في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل من غير استناد إلى الكتاب والسنة، وهو مصدر من مصادر التلقي عند الصوفية، قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن مناهج الاستدلال عند مختلف الفرق، وذكر المصالح المرسلة، ثم قال: «ومنهم من يسميها الرأي، وبعضهم يقرب إليها الاستحسان، وقريب منها ذوق الصوفية ووجدهم وإلهاماتهم، فإن حاصلها أنهم يجدون في القول والعمل مصلحة في قلوبهم وأديانهم ويذوقون طعم ثمرته»[(٢)].

فبين شيخ الإسلام حقيقة الذوق البدعي الموجود عند الصوفية ـ والذي هو من مصادر التلقي عندهم ـ، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض كلامه عن المتصوفة: «وهؤلاء قد يسمون ما أحدثوا من البدع حقيقة، كما يسمون ما يشهدون من القدر حقيقة، وطريق الحقيقة عندهم هو السلوك الذي لا يتقيد صاحبه بأمر الشارع ونهيه، ولكن بما يراه ويذوقه ويجده في قلبه، مع ما فيه من غفلة عن الله . . .

وأصل ضلال من ضل هو تقديم قياسه على النص المنزل من عند الله، واختياره الهوى على اتباع أمر الله، فإن الذوق والوجد ونحو ذلك هو

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦١١-٦١٢).

(٢) المصدر نفسه (١١/ ٣٤٣).

بحسب ما يحبه العبد، فكل محب له ذوق ووجد بحسب محبته»[1]، ثم ذكر محبة المؤمنين وأذوقاهم، ومحبة أهل الكفر والبدع والشهوات وأذواقهم.

وقد بين شيخ الإسلام الذوق الشرعي وحقيقته حتى يكون المرء على بينة من الأمر في الفرق بينهما، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فاستعمال لفظ الذوق في إدراك الملائم والمنافر كثير، وقال النبي: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان**»[2] كما تقدم ذكر الحديث، فوجود المؤمن حلاوة الإيمان في قلبه وذوق طعم الإيمان أمر يعرفه من حصل له هذا الوجد.

وهذا الذوق أصحابه فيه يتفاوتون: فالذي يحصل لأهل الإيمان عند تجريد توحيد قلوبهم إلى الله، وإقبالهم عليه دون ما سواه بحيث يكونون حنفاء له مخلصين له الدين، لا يحبون شيئًا إلا له، ولا يتوكلون إلا عليه، ولا يوالون إلا فيه، ولا يعادون إلا له، ولا يسألون إلا إياه، ولا يرجون إلا إياه، ولا يخافون إلا إياه، يعبدونه ويستعينون له وبه، بحيث يكونون عند الحق بلا خلق، وعند الخلق بلا هوى، قد فنيت عنهم إرادة ما سواه بإرادته، ومحبة ما سواه بمحبته، وخوف ما سواه بخوفه، ورجاء ما سواه برجائه، ودعاء ما سواه بدعائه.

هو أمر لا يعرفه بالذوق والوجد إلا من له نصيب، وما من مؤمن إلا له منه نصيب، وهذا هو حقيقة الإسلام الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه، والله سبحانه أعلم»[3].

وقد تبين بهذا أن الذوق الصحيح: هو الذوق الإيماني الشرعي الذي

---

(١) العبودية (ص/ ٤٤-٤٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٣٥-٣٣٦).

قام عليه الدليل من الكتاب والسنة فوافقهما، وأن ما خالفهما فهو ذوق ضالي بدعي باطل، لا يعدو أن يكون هوى النفس وحظها، والله أعلم.

### الوجد:

تقدم أيضًا أن الوجد هو ما يجد المرء من نفسه من معان ترد على القلب من فرح أو غم أو حزن أو بكاء أو خشية أو نحو ذلك، لكن الحكم على هذا الوجد بكونه حقًّا أو باطلًا إنما يتوقف على موافقته للكتاب والسنة أو مخالفتهما، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكل حب وذوق ووجد لا تشهد له هذه الشريعة، فهو من أهواء الذين لا يعلمون، فإن العلم بما يحبه الله إنما هو ما أنزله الله إلى عباده من هداه»[١].

وقال في موضع آخر، في معرض بيان أن مشايخ الطريقة يوصون بأن تكون أحوالهم موافقة للكتاب والسنة، لما يعلمونه من حال كثير من السالكين: أنه يجري مع ذوقه ووجده وما يراه ويهواه، غير متبع لسبيل الله التي بعث بها رسله، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وذلك لأنه لما كان أصل الطريق هو الإرادة والقصد، والعمل في ذلك فيه من الحب والوجد ما لا ينضبط، فكثيرًا ما يعمل السالك بمقتضى ما يجده في قلبه من المحبة، وما يدركه ويذوقه من طعم العبادة، وهذا إذا لم يكن موافقًا لأمر الله ورسوله، وإلا كان صاحبه في ضلال من جنس ضلال المشركين وأهل الكتاب الذين اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله»[٢].

فالوجد الشرعي الصحيح: هو ما يجده الإنسان في نفسه من المحبة والإنابة والخشية من الله والإيمان به، ونحو ذلك ما يوافق كتاب الله وسنة

---

(١) الاستقامة (١/ ٢٥٣).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٥١).

رسوله، وما خالفهما من وجد الصوفية المصحوب بالمكاء والتصدية والرقص المؤدي إلى زوال العقل فهو باطل وضلال[1].

والمقصود: أن الكشف والذوق والوجد لا يمكن أن يعتبر مصدرا للتلقي لأنه عرضة للخطأ، ويختلف باختلاف أحوال صاحبه، فأين هذا المصدر من الوحي المعصوم الذي تكفل بحفظه الحي القيوم، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

---

(١) قد استفدت في هذا الرد من كتاب: «موقف ابن تيمية من الصوفية» (١/ ٣١٧-٣٧١)، تأليف: د. محمد بن عبد الرحمن العريفي.

# مدخل

تقدم بيان انحراف الصوفية في أعمال القلوب والشبهات التي بنوا عليها ضلالهم في فهمها، كما بينا مخالفتهم لأهل السنة والجماعة في عدم جعلهم الكتاب والسنة مستندًا يتلقى عنهما أمور الدين، بل اعتمدوا فيها على القصص والحكايات عن شيوخهم المبنية على الكشف والذوق والوجد.

وفيما يلي يكون الرد عليهم من خلال المطالب الثلاثة:



## المطلب الأول

## الرد على الصوفية في تقسيم أعمال القلوب للخاصة وللعامة

والمتأمل في أقوالهم السابقة في أعمال القلوب واعتقادهم أنها معلولة، ومن منازل العوام، يجد أن الشبهة التي عرضت لهم هي اعتقادهم بأنها من حظوظ النفس لا محض العبودية، بل أعمال القلوب عندهم من منازل أهل الشرع السائرين إلى عين الحقيقة، فإذا شاهدوا عين الحقيقة اضمحلت فيها أحوال الشاهدين حتى يفنى ما لم يكن، ويبقى ما لم يزل.

وقد أجاب شيخ الإسلام عن هذه الشبهة إجمالا فقال رحمه الله: «وأما المحبة لله، والتوكل عليه، والإخلاص له ونحو ذلك، فهذه كلها خير محض، وهي حسنة محبوبة في حق جميع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ومن قال: إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط في ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها، فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط، وإنما يخرج عنها كافر و منافق»[1].

والآن أنتقل إلى الرد التفصيلي على ما أوردوا حول بعض الأعمال القلبية:

### ◇ الإرادة:

يرى بعض السالكين أن الإخلاص لا يتحقق إلا إذا تجرد الإنسان عن

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٣١٣)، وانظر: التحفة العراقية (ص/ ٣١١).

إرادته، وتجرد عن رؤية أعماله، وعدّوا النظر إلى شيء من ذلك قادحا في الإخلاص، وظن بعضهم أن الطريقة الكاملة للعبد ألا تكون له إرادة أصلًا، وأن مرادهم هو ما يقدره الله تعالى، ويرون أن هذا هو القيام بالحقيقة الكبرى.

وقف شيخ الإسلام لهذا الأمر ثلاثة وقفات:

**الوقفة الأولى**: مع ظنهم أن كمال العبد ألا تبقى له إرادة أصلا، حتى تخيل بعض الناس إمكان وجود العمل بغير إرادة[١]، ولعل السبب في خطئهم أنهم لم يشعروا بإرادتهم لفرط تعبدهم، فالإرادة شيء والشعور به شيء آخر، فلما لم يشعروا بها ظنوا انتفاءها، وهذا غلط، فالعبد لا يتصور أن يتحرك إلا عن إرادة وهمّ كما قال النبي: «**إن أصدق الأسماء الحارث وهمام**»[٢][٣].

**الوقفة الثانية**: قد يريد بعض العباد والسالكين بالتجرد عن الإرادة قصد الله وحده دون سواه، والفناء في ذلك بحيث لا يشهدون سواه، ويسمون هذا (الفناء عن شهود السوى) وواقع الأمر أن شدة انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته سبب للقلوب ضعفا عن أن تشهد غير ما تعبد وترى غير ما تقصد، فلا يخطر بقلوبهم غير الله، بل ولا يشعرون بغيره، كما قيل في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص] قالوا: فارغًا من كل شيء إلا من ذكر موسى، ومثل هذا يحدث لمن فجأه أمر شديد من حب أو خوف أو رجاء، فإن القلب يبقى منصرفا عن كل شيء إلا عما قد أحبه أو خافه أو طلبه، بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره.

---

(١) مما يؤثر في هذا المجال: «ينبغي للمريد أن يكون بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل»، انظر: قاعدة في الإخلاص لله تعالى (ص/٩)، ضمن جامع المسائل.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) التحفة العراقية (ص/٤٠٢-٤٠٣)، قاعدة في الإخلاص لله تعالى (ص/٨).

وعندما يقوى هذا الحال عند السالكين يغيب الواحد منهم بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته حتى يفنى من لم يكن وهي المخلوقات المعبدة ممن سواه، ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى، والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره، وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها، وفي مثل هذه الحال يضعف المحب ويضطرب في تمييزه فقد يظن أنه هو محبوبه، كما يذكر: أن رجلًا ألقى نفسه في اليم، فألقى محبه نفسه خلفه، فقال: أنا وقعت فما أوقعك خلفي، قال: غبت بك عني فظننت أنك أني.

وهذا الموضع زل فيه أقوام وظنوا أنه اتحاد، وأن المحب يتحد بالمحبوب حتى لا يكون بينهما فرق في نفس وجودهما، وهذا غلط؛ فإن الخالق لا يتحد به شيء أصلًا...

وأكابر الأولياء كأبي بكر وعمر والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يقعوا في مثل هذا، فضلا عمن هو فوقهم من الأنبياء، وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة.

فإن الصحابة ﭫ كانوا أكمل وأقوى وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم، أو يحصل لهم غشي أو صعق أو سكر أو فناء أو وله أو جنون، وإنما كان مبادئ هذه الأمور في التابعين من عباد البصرة، فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن، ومنهم من يموت.

وهذه الأحوال ليست كمالًا بحال من الأحوال، فالكمال هو قصد الله وحده دون سواه، وأن تكون القلوب ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته، مع بقاء العلم والتمييز، بحيث يعرف القاصد الأمور على ما هي عليه، والكمال لا يقتضي أن يغيب عن مشاهدة المخلوقات، بل يشهدونها قائمة بأمر الله مدبرة بمشيءته مستجيبة له قانتة له، فيكون للعباد فيها تبصرة وذكرى، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيدا وممدا لما في قلوبهم من

إخلاص الدين وتجريد التوحيد له والعبادة له وحده لا شريك له: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

وحسبنا أن نعلم أن نبينا إمام هؤلاء وأكملهم، ولهذا لما عرج به إلى السموات العلا وعاين ما هنالك من الآيات، وأوحي إليه ما أوحي من أنواع المناجاة، أصبح في غداة تلك الليلة في مكة وهو لم يتغير حاله ولا ظهر عليه ما يظهر على العباد حال الذكر والمناجات، ولا غابت عنه المخلوقات حال عروجه(١).

**الوقفة الثالثة:** مع ظنهم أن الطريقة الكاملة للعبد أن لا تكون له إرادة أصلا، وأن مرادهم هو ما يقدره الرب، ويرون أن هذا هو القيام بالحقيقة الكبرى، وقالوا: إن هذا النهج يجمع على المرء قلبه فلا تتفرق به السبل، لأنه لا يرى للمخلوقات أفعالًا، ولا يرى الله إلا الله وحده، وهؤلاء يتناقضون، فقد يقع من العبد الفسق والفجور والقتل وغير ذلك مما أذن الله في كونه وقدره، ولكنه كرهه من العبد وأبغضه، فكان لا بد للعبد من أن ينظر إلى الأمور لا من حيث هي مقدرة كائنة، بل من حيث كونها مأمورًا بها أو منهيًّا عنها، فيريد العبد ما أمره، ويقصر عما نهي عنه، فالمريد ما قدر عليه سيقع في المحرمات ويترك الواجبات، ثم يزعم أنه قائم بالحق، لأنه هذا فعل الله فيه لا فعله هو، وما دام الأمر كذلك فلا تثريب عليه، وهذا ضلال وبُعد عن الحق، فليس الحق في ألا يريد العبد شيئًا، ولا أن يريد ما هو واقع وكائن، بل يريد مراد الله، ويحب ما يحبه ويبغض ما يبغضه(٢).

---

(١) العبودية (ص/١٠٨-١١١)، بتصرف.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٨٥)، و(١٠/ ٤٩٦-٤٩٩)، والعبودية (ص/ ٢٩)، و(ص/ ٩٧).

ونكتفي بهذا القدر، إذ يأتينا ـ في أثناء الرد عليهم في مفهومهم للمحبة والرضا والتوكل والزهد ـ أمور ترجع في الأصل إلى خطئهم في مفهوم الإرادة.

**المحبة:**

سبق أن بينا أن للمحبة الحقة لوازم كثيرة وتجمعها هذه العبارة (موافقة المحبوب في حب محبوباته وبغض مبغوضاته) **ومع ذلك فإن كثيرًا من المدعين للمحبة غلطوا في ظنهم أو موافقة المحبوب تكون في مراده الكوني،** قال بعض السالكين: «إن المحبة نار في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب»[1].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «أرادوا أن الكون كله قد أراد الله وجوده، فظنوا أن كمال المحبة أن يحب العبد كل شيء، حتى الكفر والفسوق والعصيان، ولا يمكن أحدًا أن يحب كل موجود، بل يحب ما يلائمه وينفعه، ويبغض ما ينافيه ويضره، ولكن استفادوا بهذا الضلال اتباع أهوائهم، ثم زادهم انغماسًا في أهوائهم وشهواتهم، فهم يحبون ما يهوونه؛ كالصور والرئاسة وفضول المال والبدع المضلة زاعمين أن هذا من محبة الله»[2].

وقال ابن القيم رحمه الله: «ولكن ههنا مسألة يغلط فيها كثير من المدعين للمحبة، وهي أن موافقة المحبوب في مراده ليس المعنى بها مراده الخلقي الكوني، فإن كل الكون مراده، وكل ما يفعله الخلائق فهو موجب مشيءته وإرادته الكونية، فلو كانت موافقته في هذا المراد هي محبته لم يكن له عدو

(١) الرسالة القشيرية (ص/ ٤٢٧).

(٢) العبودية (ص/ ٩٧).

أصلا، وكانت الشياطين والكفار والمشركون عباد الأوثان والشمس والقمر أولياءه وأحبابه، **تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا**...

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: قال لي بعض شيوخ هؤلاء؛ «المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب، والكون كله مراده، فأي شيء أبغض منه»، قال: فقلت له: فإذا كان المحبوب قد أبغض بعض ما في الكون، فأبغض قومًا ومقتهم ولعنهم وعاداهم فأحببتهم أنت وواليتهم، تكون مواليًا للمحبوب موافقًا له، أو مخالفًا له معاديًا له؟ قال: فكأنما ألقم حجرًا، ويبلغ الجهل والكفر ببعض هؤلاء إلى حد بحيث إذا فعل محظورا يزعم أنه مطيع لله ﷻ، ويقول أنا مطيع لإرادته، وينشد في ذلك:

**أصبحت منفعلاً لما يختاره ... مني ففعلي كله طاعات**

ويقول أحدهم: إبليس وإن عصى الأمر، لكنه أطاع الإرادة! يعني أن فعله طاعة لله من حيث موافقة إرادته، وهذا انسلاخ من ربقة العقل والدين وخروج عن الشرائع كلها، فإن الطاعة إنما هي موافقة الأمر الديني الذي يحبه الله ويرضاه، وأما دخوله تحت القدر الكوني الذي يبغضه ويسخطه ويكفر فاعله ويعاقبه، فهي المعصية والكفر ومعاداته ومعاداة دينه.

ولا ريب أن المسرفين على أنفسهم المنهمكين في الذنوب والمعاصي المعترفين بأنهم عصاة مذنبون أقرب إلى الله من هؤلاء العارفين المنسلخين عن دين الأنبياء كلهم، الذين لا عقل لهم ولا دين، فنسأل الله أن يثبت قلوبنا على دينه»(١).

وشبهتهم هذه كما بينه شيخ الإسلام هو ظنّهم أن محبة الحق ورضاه

---

(١) طريق الهجرتين (ص/ ٤٥٢-٤٥٣).

وغضبه وسخطه يرجع إلى إرادته، وقد علموا أنه مريد لجميع الكائنات خلافا للقدرية، فشهدوا أن الله رب الكائنات جميعها، وعلموا أنه قدر كل شيء وشاءه، فظنوا أنهم لا يكونون راضين حتى يرضوا بكل ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان[(١)].

**ومن انحرافاتهم أيضًا، تصور الصوفية أن المحبة دعوى مطلقة غير مقيدة بسلوك ولا شرع،** فشيخ الإسلام عالج هذه الدعوى من عدة جوانب:

**الجانب الأول:** بيان أن للمحبة الحقة الصادقة لوازم وشروطًا، وأنها بدونها مجرد دعوى لا حقيقة لها.

سبق أن ذكرت أن المحبة ميدان يكثر فيها الادعاء، ويكثر فيها الخوض دون أي سهم فيها، فالمحبة ليست بالادعاء فقط، بل هناك لوازم له لا بد من الالتزام فيها حتى تصح الدعوة، وهذه اللوازم في نفس الوقت تكون علامات على صدق المحبة، ومن هذه اللوازم ما ذكر شيخ الإسلام في كتاب الاستقامة، حيث قال: «إن الله ﷻ بين في كتابه محبته، وذكر موجباتها وعلاماتها، وذلك أن الله يقول في كتابه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة].

وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٨٤).

فهذه ثلاثة أصول لأهل محبة الله؛ إخلاص دينهم، ومتابعة رسوله، والجهاد في سبيله»[(١)].

قال شيخ الإسلام بعد إيراده آية الامتحان: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١]، «فبين سبحانه أن محبته توجب اتباع الرسول، وأن اتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد، وهذه محبة امتحن الله بها أهل دعوى محبة الله، فإن هذا الباب تكثر فيه الدعاوى والاشتباه، ولهذا يروى عن ذي النون المصري أنهم تكلموا في مسألة المحبة عنده فقال: اسكتوا عن هذه المسألة لئلا تسمعها النفوس فتدعيها.

وقال بعضهم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحِّد، وذلك لأن الحب المجرد تنبسط النفوس فيه حتى تتوسع في أهوائها إذا لم يزعها وازع الخشية لله، حتى قالت اليهود والنصارى ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المَائدة: ١٨]، ويوجد في مدعي المحبة من مخالفة الشريعة ما لا يوجد في أهل الخشية.

وكثير ممن يدعي المحبة هو أبعد من غيره عن اتباع السنة، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، ويدعي مع هذا أن ذلك أكمل لطريق المحبة من غيره، لزعمه أن طريق المحبة لله ليس فيه غيرة ولا غضب لله، وهذا خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة»[(٢)].

**الجانب الثاني**: مناقشة شبهتهم التي قادتهم إلى القول بذلك، وهي شبهة؛ نحب الله محبة لذاته لا طمعًا في جنته ولا خوفًا من ناره، لأن طلب

---

(١) الاستقامة (١/ ٢٦١-٢٦٢)، باختصار، وانظر العبودية (ص/ ٧٤).

(٢) التحفة العراقية (ص/ ٤٤٤-٤٤٧)، باختصار، وانظر: والعبودية (ص/ ٩٥-٩٦).

الجنة والاستعاذة من النار من حظوظ النفس، ونسوا أن طلب رؤية الله لا يحصل إلا لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة.

وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني، فالخوف والرجاء وغيرهما تستلزم المحبة وترجع إليها، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يفر من الخوف لينال المطلوب

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، ورحمته: اسم جامع لكل خير، وعذابه: اسم جامع لكل شر، ودار الرحمة الخالصة هي: الجنة، ودار العذاب الخالص هي: النار.

فالجنة: اسم جامع لكل نعيم، وأعلاه النظر إلى الله، ومن هنا يتبين زوال الاشتباه في قول من قال: «ما عبدتك شوقا إلى جنتك، ولا خوفًا من نارك، وإنما عبدتك شوقا إلى رؤيتك»، فإن هذا القائل ظن هو ومن تابعه أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل والشرب واللباس والنكاح والسماع ونحو ذلك، يعني لا يدخل في مسمى الجنة إلا التمتع بالمخلوقات و أخرج رؤية الله من نعيم الجنة التي هي أعلى نعمها، ولا تحصل رؤية الله إلا لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة.

لذا، فالخوف من التعذب بمخلوق والرجاء له يسوق العبد إلى محبة الله التي هي الأصل، فالراجي الخائف إذا تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب باحتجاب الرب عنه والتنعم بتجليه له، فمعلوم أن هذا من توابع المحبة له، فالمحبة هي التي أوجبت رجاء التجلي والخوف من الاحتجاب، وإن تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب بمخلوق أو التعذب به فهو إنما يطلب ذلك بعبادة الله المتضمنة لأصل المحبة، ثم إذا ذاق حلاوة محبة الله وجدها أحلى من كل شيء»[1].

---

(١) التحفة العراقية (ص/٣٩٩-٤٠٥)، باختصار، وسيأتي مزيد رد على هذه الشبهة عند كلامنا على مفهوم الرضا عند الصوفية.

**ومما انحرف الصوفية ـ أيضًا ـ في هذا الباب، تقسيمهم المحبة إلى خاصة وعامة، وتفضيلهم الدرجات هي دون الدرجات المفضول بسبب قولهم بالفناء.**

فشيخ الإسلام وابن القيم رحمهما الله بينا أن انقسام المحبة إلى خاص وعام ليس انقساما حقيقيًّا متميزًا بالنسبة بفصل يميز أحد النوعين عن الآخر، وإنما تنقسم باعتبار الباعث عليها وسببها إلى قسمين: محبة تنشأ عن مطالعة المنن والإحسان، ومحبة تنشأ من معرفة ومطالعة الأسماء والصفات[1].

فشيخ الإسلام وابن القيم رحمهم الله لا يعارضان مسألة تفاوت درجات المحبة، فإنها درجات متفاوتة، وبعضها أكمل من بعض، فإن كل درجة خاصة بالنسبة إلى ما تحتها، عامة بالنسبة إلى ما فوقها، ولكن يعارضان تقسيمها انقسامًا حقيقيًّا مميزًا ـ كما فعل الصوفية ـ يفضي إلى القول بالفناء.

وقد تقدم أن الهروي ومن تبعه في تفضيل الدرجة الثالثة من المحبة على الدرجة الثانية باعتبارها الأكمل، مبينًا أن سبب ذلك هو القول بالفناء، قال ابن القيم معلقًا على كلامه: «والمرتبة الثانية عند صاحب المنازل ومن تبعه دون هذه المرتبة ـ يعني الثالثة ـ وهي المحبة التي تنشأ من مطالعة الصفات...

وإنما جعل هؤلاء هذه المحبة أنقص من المحبة الثالثة بناء على أصولهم، فإن الفناء هو غاية السالك التي لا غاية له وراءها، فهذه المحبة لما أفنت المحب واستغرقت روحه، بحيث غيبته عن شهوده وفني فيها

---

(١) انظر: التحفة العراقية (ص/٤٤٩- ٤٥١)، وقاعدة في الإخلاص لله تعالى (ص/١٧-٢١)، وطريق الهجرتين (ص/٤٧٦).

المحب، وانمحت رسومه بالكلية ولم يبق هناك إلا محبوبه وحده، فكأنه هو المحب لنفسه بنفسه إذ فني من لم يكن وبقي من لم يزل، ولما ضاق نطاق النطق بهم عن التعبير عنها عدلوا إلى التعبير عنها بكونها قاطعة للعبارة مدققة للإشارة، يعني تدق عنها الإشارة ولأن الإشارة تتناول محبا ومحبوبا، وفي هذه المحبة قد فني المحب فانقطع تعلق الإشارة به، إذ الإشارة لا تتعلق بمعدوم.

وسر هذا المقام عندهم هو الفناء في الحب بحيث لا يشاهد له رسما ولا محبة ولا سببًا، ولهذا كانت الدرجتان اللتان قبله عنده معلولتين؛ لأنهما مصحوبتان بالبقاء وشهود الأسباب، بخلاف الثالثة، ولهذا قال: ولا تنتهي بالنعوت، يعني أن النعت لا يصل إليها ولا يدركها.

وهذا بناء على قاعدته في كل باب من أبواب كتابه، يجعل الدرجة العالية التي تتضمن الفناء أكمل مما قبلها، والصواب أن الدرجة الثانية أكمل من هذه وأتم، وهي درجة الكملة من المحبين»[(١)].

## ۞ الرضا:

بين شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أن فريقين من الناس ضلوا في مفهوم الرضا بالمنهيات:

**الطائفة الأولى**: قوم من أهل الكلام المنتسبين إلى السنة في مناظرة القدرية، ظنوا أن محبة الحق ورضاه وغضبه وسخطه يرجع إلى إرادته، وقد علموا أنه مريد لجميع الكائنات خلافا للقدرية. وقالوا: هو أيضًا محب لها مريد لها، ثم أخذوا يحرفون الكلام عن مواضعه. فقالوا: لا يحب الفساد بمعنى لا يريد الفساد، أي لا يريده للمؤمنين، ولا يرضى لعباده الكفر، أي

(١) طريق الهجرتين (ص/ ٤٧٧).

لا يريده لعباده المؤمنين. وهذا غلط عظيم، فإن هذا عندهم بمنزلة أن يقال: لا يحب الإيمان ولا يرضى لعباده الإيمان بمعنى لا يريده للكافرين ولا يرضاه للكافرين.

**الطائفة الثانية**: من غالطي المتصوفة شربوا من هذه العين: فشهدوا أن الله رب الكائنات جميعها، وعلموا أنه قدر كل شيء وشاءه، وظنوا أنهم لا يكونون راضين حتى يرضوا بكل ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان، حتى قال بعضهم: (المحبة نار تحرق من القلب كل ما سوى مراد المحبوب).

وهؤلاء يؤول الأمر بهم إلى ألا يفرقوا بين المأمور والمحظور، وأولياء الله وأعدائه، ويجعلون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، ويجعلون المتقين كالفجار، ويجعلون المسلمين كالمجرمين، ويعطلون الأمر والنهي، والوعد والوعيد والشرائع، وربما سموا هذا (حقيقة)، ولعمري إنه حقيقة كونية، لكن هذه الحقيقة الكونية قد عرفها عباد الأصنام كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [المؤمنون].

فالمشركون الذين يعبدون الأصنام كانوا مقرين بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، فمن كان هذا منتهى تحقيقه كان أقرب أن يكون كعباد الأصنام.

والمؤمن إنما فارق الكفر بالإيمان بالله وبرسله، وبتصديقهم فيما أخبروا، وطاعتهم فيما أمروا، واتباع ما يرضاه الله ويحبه، دون ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان، ولكن يرضى بما أصابه من المصائب لا بما فعله من المعائب، فهو من الذنوب يستغفر، وعلى المصائب يصبر.

ثم أخذ شيخ الإسلام يرد على مقولة الصوفية المعروفة: (الرضا ألا تسأل الله الجنة، ولا تستعيذه من النار)، وأنا أذكر هنا ملخص ما ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ.

قدم شيخ الإسلام الرد بمقدمة يتبين بها أصل ما وقع في مثل هذه الكلمات من الاشتباه والاضطراب، والمقدمة لها شقان:

**الشق الأول**: ظن هؤلاء وغيرهم أن الجنة هي التنعم بالمخلوقات من أكل وشرب ونكاح ولباس، وسماع أصوات طيبة، وشم روائح طيبة، ولم يدخلوا في مسمى الجنة نعيما غيرها، وجعلوا رؤية الله والتنعم بالنظر إليه خارجا من الجنة، ولم يعرفوا أن كل مطلوب للعبد بعبادة أو دعاء أو غير ذلك من مطالب الآخرة هو في الجنة.

**الشق الثاني**: طلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله ورسله، وجميع أوليائه السابقين المقربين وأصحاب اليمين، كما ثبت عن النبي أنه قال لرجل: «كيف تقول في الصلاة؟» قال أتشهّد، ثم أقول: اللهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ. فقال النبي: «**حولها ندندن**»[1]، فقد أخبر أنه هو ومعاذ ـ وهو أفضل الأئمة الراتبين بالمدينة في حياة النبي ـ إنما يدندنون حول الجنة، أفيكون قول أحد فوق قول رسول الله ومعاذ، ومن يصلي خلفهما من المهاجرين والأنصار؟!

فإذا عرفت هذه المقدمة، فيكون الرد عليهم من وجوه:

**الوجه الأول**: فقول القائل: الرضا ألا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار، إن أراد بذلك ألا تسأل الله ما هو داخل في مسمى الجنة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٥/ ٢٣٤)، وأبو داود في سننه (ص/ ١٣٠)، في كتاب الصلاة، باب في تخفيف الصلاة، وابن ماجه في سننه (ص/ ١٦٨)، في كتاب الصلاة، باب ما يقال بعد التشهد والصلاة على النبي ﷺ، وصحح الحديث الألباني في صفة الصلاة (ص/ ١٨٦).

الشرعية، فلا تسأله النظر إليه ولا غير ذلك مما هو مطلوب جميع الأنبياء والأولياء، وإنك لا تستعيذ به من احتجابه عنك ولا من تعذيبك في النار.

١ ـ فهذا الكلام مع كونه مخالفًا لجميع الأنبياء والمرسلين وسائر المؤمنين.

٢ ـ فهو متناقض في نفسه فاسد في صريح العقول، وذلك أن الرضا الذي لا يسأل، إنما لا يسأله لرضاه عن الله، ورضاه عنه إنما هو بعد معرفته به ومحبته له، فإذا قُدّر أنه حُجب فرضي بزوال كل نعيم، فرضي بزوال رضاه عن الله وبزوال محبته لله، وإذا لم يبق معه رضا عن الله ولا محبة لله فكأنه قال: يرضى ألا يرضى وهذا جمع بين النقيضين.

٣ ـ ويوضح ذلك: أن الراضي إنما يحمله على احتمال المكاره والآلام ما يجده من لذة الرضا وحلاوته، فإذا فقد تلك الحلاوة واللذة امتنع أن يحتمل ألما ومرارة، فكيف يتصور أن يكون راضيا، وليس معه من حلاوة الرضا ما يحمل به مرارة المكاره!

**الوجه الثاني:** وإن أراد بذلك أن لا يسأل التمتع بالمخلوق، بل يسأل ما هو أعلى من ذلك، فقد غلط من وجهين:

**الأول:** من جهة أنه لم يجعل ذلك المطلوب من الجنة وهو أعلى نعيم الجنة.

**الثاني:** ومن جهة أنه أيضًا أثبت أنه طالب[1] مع كونه راضيًا، فإذا كان الرضا لا ينافي هذا الطلب، فلا ينافي طلبا آخر إذا كان محتاجا إلى مطلوبه، ومعلوم أن تمتعه بالنظر لا يتم إلا بسلامته من النار وبتنعمه من الجنة بما هو دون النظر. وما لا يتم المطلوب إلا به فهو مطلوب، فيكون

(١) لأنهم يطلبون النظر إلى وجهه الكريم.

طلبه للنظر طلبا للوازمه التي منها النجاة من النار، فيكون رضاه لا ينافي طلب حصول المنفعة ودفع المضرة عنه، ولا طلب حصول الجنة ودفع النار، ولا غيرهما مما هو من لوازم النظر فتبين تناقض قوله.

**الوجه الثالث:** وأيضًا فإذا لم يسأل الله الجنة ولم يستعذ به من النار، فإما أن يطلب من الله ما هو دون ذلك مما يحتاج إليه من طلب منفعة ودفع مضرة، وإما ألا يطلبه.

أ ـ فإن طلب ما هو دون ذلك، واستعاذ مما هو دون ذلك، فطلبه للجنة أولى واستعاذته من النار أولى.

ب ـ وإن كان الرضا أن لا يطلب شيئًا قط، ولو كان مضطرا إليه ولا يستعيذ من شيء قط وإن كان مضرا، فلا يخلو: إما أن يكون ملتفتا بقلبه إلى الله في أن يفعل به ذلك وإما أن يكون معرضا عن ذلك.

١ ـ فإن التفت بقلبه إلى الله فهو طالب مستعيذ بحاله، ولا فرق بين الطلب بالحال والقال، وهو بهما أكمل وأتم، فلا يعدل عنه.

٢ ـ وإن كان معرضًا عن جميع ذلك، فمن المعلوم أنه لا يحيا ويبقى إلا بما يقيم حياته ويدفع مضاره بذلك، والذي به يحيا من المنافع ودفع المضار إما أن يحبه ويطلبه ويريده من أحد، أو لا يحبه ولا يطلبه ولا يريده.

- فإن أحبه وطلبه وأراده من غير الله كان مشركًا مذمومًا، فضلًا عن أن يكون محمودًا.
- وإن قال لا أحبه وأطلبه وأريده لا من الله ولا من خلقه، قيل: هذا ممتنع في الحي، فإن الحي ممتنع عليه ألا يحب ما به يبقى، وهذا أمر معلوم بالحس، ومن كان بهذه المثابة امتنع أن يوصف بالرضا، فإن الراضي موصوف بحب وإرادة خاصة، إذ الرضا مستلزم لذلك، فكيف يسلب عنه ذلك كله.

**والوجه الرابع:** أن يقال؛ الراضي لا بد أن يفعل ما يرضاه الله، وإلا فكيف يكون راضيا عن الله من لا يفعل ما يرضاه الله؟ وكيف يسوغ رضا ما يكرهه الله ويسخطه ويذمه وينهى عنه، ثم بين شيخ الإسلام أن الرضا المحمود هو الرضا بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه وزجر، والرضا بما يفعل الرب بعبده من المصائب، أما الرضا بالمنهيات فهذا لا يشرع الرضا به، هو الرضا المذموم وقد يصل إلى الكفر والشرك.

**الوجه الخامس:** فإذا كان الأمر كذلك، فالراضي الذي لا يسأل الله الجنة ولا يستعيذه من النار، يقال له: سؤال الله الجنة واستعاذته من النار؛ إما أن تكون واجبة، وإما أن تكون مستحبة، وإما أن تكون مباحة، وإما أن تكون مكروهة، ولا يقول مسلم: إنها محرمة ولا مكروهة، وليست أيضًا مباحة مستوية الطرفين. ولو قيل: إنها كذلك ففعل المباح المستوي الطرفين لا ينافي الرضا، إذ ليس من شرط الراضي ألا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يفعل أمثال هذه الأمور، فإذا كان ما يفعله من هذه الأمور لا ينافي رضاه، أينافي رضاه دعاء وسؤال هو مباح.

وإذا كان السؤال والدعاء كذلك واجبًا أو مستحبًّا، فمعلوم أن الله يرضى بفعل الواجبات والمستحبات، فكيف يكون الراضي الذي من أولياء الله لا يفعل ما يرضاه ويحبه، بل يفعل ما يسخطه ويكرهه، وهذه صفة أعداء الله لا أولياء الله.

والمقصود أن الرضا الذي هو من طريق الله لا يتضمن ترك واجب، ولا ترك مستحب، فالدعاء الذي هو واجب أو مستحب لا يكون تركه من الرضا، كما أن ترك سائر الواجبات لا يكون من الرضا المشروع، ولا فعل المحرمات من المشروع. فقد تبين غلط هؤلاء من جهة ظنهم أن الرضا مشروع بكل مقدور، ومن جهة أنهم لم يميزوا بين الدعاء المشروع إيجابًا واستحبابًا، والدعاء غير المشروع.

وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن طلب الجنة من الله والاستعاذة به من النار، هو من أعظم الأدعية المشروعة لجميع المرسلين والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأن ذلك لا يخرج عن كونه واجبًا أو مستحبًّا، وطريق أولياء الله التي يسلكونها لا تخرج عن فعل واجبات ومستحبات، إذ ما سوى ذلك محرم أو مكروه أو مباح لا منفعة فيه في الدين[١].

## ۞ التوكل:

من خلال استعراضنا لبعض الأدلة من الكتاب والسنة[٢] تبين لنا أن التوكل من الأعمال القلبية التي يجب إخلاصها لله تبارك وتعالى، وأنه أصل من أصول العبادة التي لا يتم توحيد العبد إلا به، وأنه من صفات أولياء الله المتقين وعباده الصالحين، كما بينا بعض النتائج المرتبة عليه، وبعد كل هذا فلا يغترن أحد بقول من يقول أن التوكل من مقامات العامة، وأنه مناف لمقام الخواص من عباد الله، بل هو من المقامات المأمور بها العامة والخاصة على السواء، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه الأعمال الباطنة، كمحبة الله والإخلاص له، والتوكل عليه، والرضا عنه، ونحو ذلك كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة، لا يكون تركها محمودًا في حال أحد، وإن ارتقى مقامه»[٣].

وحقيقة التوكل عند من يرى أنه من مقامات العامة دون الخاصة، (أن التوكل مناضلة عن النفس في طلب القوت، والخاص لا يناضل عن نفسه،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٩٤-٧١٥).

(٢) في مبحث التوكل من هذه الرسالة.

(٣) التحفة العراقية (ص/ ٣١١).

وقال: المتوكل يطلب بتوكله أمرا من الأمور، والعارف يشهد الأمور مفروغا منها، فلا يطلب شيئًا)[١].

وقد رد شيخ الإسلام على هاتين الشبهتين برد قوي رصين، وملخصه:

- **الشبهة الأولى:** أن التوكل يكون لطلب الحصول على الأمور الدنيوية فقط، أوكما عبروا (التوكل مناضلة عن النفس في طلب القوت، والخاص لا يناضل عن نفسه)، رد عليهم من ثلاثة أوجه:

**الوجه الأول:** أن التوكل يكون في حصول المطالب الدنيوية والدينية والأخروية، بل هو في الأمور الدينية أعظم، فإن المتوكل يتوكل على الله سبحانه في صلاح قلبه ودينه وحفظ إيمانه وزيادته، وهذه أهم الأمور إليه، فإن التوكل هو وسيلة والطريق الذي ينال به مقصود العبد ومطلوبه من العبادة، ولهذا يناجي ربه في كل صلاة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة]، فجمع بين العبادة والتوكل، لأنهما يجمعان الدين كله[٢].

**الوجه الثاني:** إن الأمور الدينية التي لا تتم الواجبات أو المستحبات إلا بها هي من الدين، والتوكل من هذه الأمور كما أسلفنا أنه وسيلة وطريق إلى تحقيق العبادة، والزاهد فيه زاهد فيما يحبه الله ويأمر به ويرضاه، وهذا ليس زهدا مشروعا[٣].

**الوجه الثالث:** إن التوكل هو محبوب لله مرضي له مأمور به دائمًا، وما كان محبوبًا لله مرضيًّا له، مأمورًا به دائمًا، لا يكون من فعل المقتصدين دون المقربين[٤].

---

(١) المصدر نفسه (ص/ ٣١٤).

(٢) انظر هذا الوجه في التحفة العراقية (ص/ ٣١٤-٣٢٠).

(٣) انظر: التحفة العراقية (ص/ ٣٢٠-٣٢١).

(٤) التحفة العراقية (ص/ ٣٢١).

- **الشبهة الثانية:** التوكل لا تأثير له في الحصول على المطلوب، إذ كل شيء مقدر مفروغ منه، أو كما عبروا (المتوكل يطلب بتوكله أمرا من الأمور، والعارف يشهد الأمور مفروغا منها، فلا يطلب شيئًا)، والجواب عليها من وجهين:

**الوجه الأول:** أن الله أثبت في القرآن الكريم أن التوكل يجلب المنفعة ويدفع المضرة، وذكر شيخ الإسلام عدة آيات في ذلك مع بيان وجه الاستدلال منها، ومن هذه الآيات إخبار الله بأن توكل المؤمن على الله هو سبب كونه حسبًا له، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾ [الطّلَاق]، وجه الاستدلال من الآية على أن التوكل سبب لحصول المنفعة وهو الحسب هنا، من وجهين:

١ - أن الله رتب هذا الأجر على الوصف المناسب، وأنه علق هذه الجملة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط، فيمتنع في مثل هذا أن يكون وجود الشرط كعدمه، فلا يقال: هو حسب غير المتوكلين كما هو حسب المتوكلين، فعلم أن توكل العبد هو سبب كونه حسبًا له.

٢ - أن سياق الآية في الترغيب في التوكل كما رغب في التقوى، فلو لم يحصل للمتوكل من الكفاية ما لا يحصل لغيره، لم يكن مرغبا في التوكل، كما جعل التقوى سببًا للخروج من الشدة وحصول الرزق من حيث لا يحتسب[(١)].

ومن الآيات ما ذكر الله أن التوكل سبب نعمة الله و فضله قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ

---

(١) رسالة في تحقيق التوكل (١/ ٨٨-٨٩)، ضمن جامع الرسائل.

سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عِمرَان]، فعقب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل بحرف الفاء وهي تفيد السبب، فدل ذلك على أن التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل، وأن هذا الجزاء على ذلك العمل(١).

ومن الآيات، قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزّمل]، و قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ [الإسرَاء]، ووجه الاستدلال من الآية أن الله أمر أن يُتخذ وكيلًا، ونهى أن يتخذ من دونه وكيلًا، فلو كان الذي يحصل للمتوكل على الله يحصل وإن توكل على غيره، أو يحصل بلا توكل، لكان اتخاذ بعض المخلوقين وكيلًا أنفع من اتخاذ الخالق وكيلًا، وهذا من أقبح لوازم هذا القول الفاسد(٢).

**الوجه الثاني**: أن هؤلاء ظنوا أن كون الأمور مقدرة مقضية يمنع أن يتوقف على أسباب مقدرة أيضًا تكون من العبد، ولم يعلموا أن الله سبحانه يقدر الأمور ويقضيها بالأسباب التي جعلها معلقة بها من أفعال العباد وغير أفعالهم، ولهذا كان طرد قولهم يوجب تعطيل الأعمال بالكلية(٣).

وهذه الشبهة سئل عنها النبي لما قال: «**ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة والنار**»، قالوا: أولا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال: «**لا، اعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فسييسر إلى عمل أهل الشقاء**»(٤).

---

(١) رسالة في تحقيق التوكل (١/ ٩٠).

(٢) رسالة في تحقيق التوكل (١/ ٨٩).

(٣) التحفة العراقية (ص/ ٣٢٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١١٤١)، في كتاب القدر، ومسلم في صحيحه (ص/ ١٠٦١)، في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه.

وهذا المعنى قد ثبت عن النبي في الصحيح في مواضع، تبين أن ما سبق به الكتاب سُبق بالأسباب التي تفضي إليه، فالسعادة سُبقت بأن صاحبها يُستعمل فيما يصير به سعيدًا، والشقاوة سُبقت بأن صاحبها يُستعمل فيما يصير به شقيا، فالقدر يتضمن الغاية وسببها، لم يتضمن غاية بلا سبب كما يتضمن أن هذا يولد له بأن يتزوج ويطأ المرأة، وهذا ينبت أرضه بأن يزرع ويسقي الزرع، وأمثال ذلك.

وكذلك في السنن أنه قيل له: «يا رسول الله، أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقيها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ فقال: **هي من قدر الله**»[1]، بين أن الأسباب التي تُدفع بها المكاره هي من قدر الله، ليس القدر مجرد دفع المكروه بلا سبب[2].

ويتبين من ذلك أن كون الأمور مقدرة لا ينافي ارتباطها بالأسباب المتعلقة بها من أفعال العباد وغير أفعالهم، (فكما أن المسببات من قدره الذي فرغ منه، فأسبابها أيضًا من قدره الذي فرغ منه، فتقدير المقادير بأسبابها لا ينافي القيام بتلك الأسباب، بل يتوقف حصولها عليها)[3].

وبعدما انتهى شيخ الإسلام من الرد على من يقول أن التوكل للعامة دون الخاصة، ختم كلامه في ذلك ببيان درجات الناس في التوكل، وذكر أنهم أربع درجات:

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (ص/٤٦٧)، في كتاب الطب، باب ما جاء في الرقى والأدوية، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في سننه (ص/٥٧٥)، في كتاب الطب، باب «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء».

(٢) رسالة في تحقيق التوكل (١/٩٣-٩٤) ضمن جامع الرسائل، وانظر: التحفة العراقية من (ص/٣٢٢-٣٤٧).

(٣) طريق الهجرتين (ص/٣٩٦).

١ ـ توكل العامة: وهو (من كان توكله على الله، ودعاؤه له) في حصول المباحات.

٢ ـ توكل الخاصة: وهو (ما كان في حصول مستحبات وواجبات).

٣ ـ وأما (من دعاه وتوكل عليه في حصول محرمات فهو ظالم لنفسه).

٤ ـ ومن (أعرض عن التوكل عليه، فهو عاص لله ورسوله، بل خارج عن حقيقة الإيمان)[١].

ومن هذا يتبين لنا غلط من ظن التوكل من مقامات العامة، بل هو من أعلى المقامات وأشرفها وأنه من أحوال المقربين، ونكتفي بهذا، إذ سبق معنا مطلب مستقل في بيان العلاقة بين التوكل والأخذ بالأسباب.

### الزهد:

سبق أن قلنا إن الزهد خلاف الرغبة، يقال: فلان زاهد في كذا، وفلان راغب فيه، والرغبة: هي من جنس الإرادات. فالزهد في الشيء انتفاء الإرادة، إما مع وجود كراهته، وإما مع عدم الإرادة والكراهة، بحيث لا يكون مريدا له ولا كارها، وكل من لم يرغب في الشيء ويريده فهو زاهد فيه[٢].

فالزهد الذي هو ضد الرغبة، وهو عدم الإرادة أو عدم الإرادة مع الكراهية، فحقيقة المشروع منه أن يكون إرادة العبد وكراهته وبغضه تابعا لحب الله وبغضه ورضاه وسخطه، فيحب ما أحب الله، ويبغض ما أبغضه الله، ويرضى ما يرضاه، ويسخط ما يسخطه الله، بحيث لا يكون تابعا لهواه بل لأمر مولاه[٣].

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٣٤٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦١٥).

(٣) المصدر نفسه (٧/ ٦٥١).

فالذي أريد أن أنبه إليه في هذه المقدمة أن الزهد عبادة كسائر العبادات، يشترط فيها ما يشترط في غيرها، والعبادة لا بد فيها من توفر الشرطين الأساسيين للقبول عند الله، ألا وهما: الإخلاص والمتابعة.

فإذا كان الأمر كذلك، فبالنظر والتتبع نجد كثيرًا من الناس يخل بهذين الشرطين أو بأحدهما في كثير من عباداتهم ـ والزهد من جملة تلك العبادات ـ، فمن الناس من يزهد لطلب الراحة من تعب الدنيا، ومنهم من يزهد لمسألة أهلها والسلامة من أذاهم، إلى غير ذلك من أمثال الزهد الذي لا يكون المراد فيه وجه الله تبارك وتعالى، وكذلك نجد من يكون مخلصًا فيه، لكنه يزهد بغير الزهد المشروع، مثل الذي يصمت دائما، أو يقوم في الشمس، أو على السطح دائمًا في شدة البرد، أو يتعرى من الثياب دائمًا، ويلازم لبس الصوف، أو يمتنع من أكل الخبز، أو اللحم، أو يمتنع من الزواج إلى غير ذلك من الأمثلة، مما يبين لنا حصول الخطأ في الزهد وفي فهمه، ولما كان الخطأ في الزهد يرجع غالبًا إلى عدم متابعة الرسول وهديه، سأقف قليلًا في مناقشة هذا الفهم والرد على أصحابه.

فمن خلال التعريفات التي مرّ ذكرها نستطيع أن نتصور الزهد في مفهوم الصوفية، ونرى بوضوح أن مفهوم الزهد عند المتصوفة هو ترك الدنيا والإعراض عنها بالكلية، بحيث لا يهتم الإنسان بشؤون الدنيا ولو بقدر ما يسد به رمقه، وأن الزهد الحقيقي عندهم هو ترك القيام بالأسباب نهائيًا، وإخلاء الأيدي من كل ما يملكه الإنسان حتى يصبح فقيرًا.

بل قد يتعدون هذا، فيدعون أن الزهد الحقيقي هو من زهد حتى في الآخرة، قال ابن أبي جمرة الصوفي[1] معلقًا على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ

---

(١) هو عبد الله بن أبي حمرة الأندلسي، أبو محمد، مؤلف مختصر صحيح البخاري المسمى جمع النهاية في بدء الخير والغاية، وشرحه: بهجة النفوس وتحليها بما لها وما عليها، توفي سنة ٦٩٩ هـ، انظر: الأعلام (٤/ ٨٩).

ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، (فالزهد في هذه الأشياء هو المطلوب، خلو القلب والنفس منها، **وحقيقة الزهد هو أعلى من هذا وهو لأهل الخصوص**، ويشهد لذلك ما حكي عن بعض الفضلاء أنه قال: زهدت في ثلاثة أيام؛ الأول: في الدنيا وما فيها، والثاني: في الآخرة وما فيها، والثالث: فيما سوى الله، وهذه هي الهجرة العظمى)[(١)].

ولا شك في أن من له أدنى معرفة بالإسلام يدرك أن هذا المفهوم للزهد بعيد عن التصور الصحيح الإسلامي السني، وأنه فهم خاطئ له، وأن فيه إعراضًا عما أنعم الله به على عباده وامتن به عليهم، وأنه فيه سوء أدب مع الله ظاهرًا وتطاول على الله، حيث يصل الأمر ببعض الذين يرون هذا الرأي إلى أن يجعلوا من يطمع في الجنة ونعيمها من غير الزاهدين، وأن الزهد الحقيقي يستوي عنده عذاب الله ونعيمه، فلا يلتفت إلى واحد منهما، وإنما التفاته إلى الله وحده.

فإذا علمنا أن هذا المفهوم ليس إسلاميًّا بل هو مفهوم مستورد من الرهبانية النصرانية المقيتة، ومن بقايا موروثات الفلسفات اليونانية والحكم الفارسية والهندية والبوذية[(٢)]، سهل علينا فهم الصحيح من السقيم، وأن الإسلام دين الحق، وأن تلك الأديان والخرافات اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

و(الزهد المشروع فهو ترك كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة، وثقة القلب بما عند الله.

---

(١) بهجة النفوس شرح مختصر صحيح البخاري لابن أبي جمرة (٣/ ١٠٣).

(٢) انظر: هذه هي الصوفية (ص/ ١٣٨)، لعبد الرحمن الوكيل، والمصادر العامة للتلقي عند الصوفية، عرضا ونقدا (ص/ ٦٢) وما بعدها.

وجماع ذلك خلق رسول الله، كما ثبت عنه في الصحيح أنه كان يقول: «**خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**»(١). وكان عادته في المطعم أنه لا يرد موجودا، ولا يتكلف مفقودا، ويلبس من اللباس ما تيسر من قطن وصوف وغير ذلك، وكان القطن أحب إليه، وكان إذا بلغه أن بعض أصحابه يريد أن يعتدي فيزيد في الزهد، أو العبادة على المشروع، ويقول: أينا مثل رسول الله؟! يغضب لذلك، ويقول: «**والله، إني لأخشاكم لله وأعلمكم بحدود الله تعالى**»، وبلغه أن بعض أصحابه قال: أما أنا فأصوم فلا أفطر، وقال الآخر: أما أنا فأقوم فلا أنام، وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال آخر: أما أنا فلا آكل اللحم، فقال ﷺ: «**لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»(٢).

فأما الإعراض عن الأهل والأولاد فليس مما يحبه الله ورسوله ولا هو من دين الأنبياء، بل قد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرّعد: ٣٨]، والإنفاق على العيال والكسب لهم يكون واجبًا تارة ومستحبًّا أخرى، فكيف يكون ترك الواجب أو المستحب من الدين)(٣).

(فالزهد النافع المشروع الذي يحبه الله ورسوله هو الزهد فيما لا ينفع في الآخرة، وأما ما ينفع في الآخرة وما يستعان به على ذلك، فالزهد فيه زهد في نوع من عبادة الله وطاعته، والزهد إنما يراد لأنه زهد فيما يضر، أو زهد فيما لا ينفع، فأما الزهد في النافع فجهل وضلال كما قال النبي:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٩٠٦)، في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ومسلم في صحيحه (ص/٥٤٩)، في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح.

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٤١-٦٤٣).

**«احرص على ما ينفعك واستعن بالله، ولا تعجزن»**[١][٢].

وقد وضح شيخ الإسلام أن المطلوب بالزهد فعل المأمور به (وليس الزهد الإعراض عن الدنيا بالكلية)، وذلك من ثلاثة أوجه:

**أحدها**: أنه لولا كون الدنيا تشغل عن عبادة الله والدار الآخرة لم يشرع الزهد فيها، بل كان يكون فعله وتركه سواء، أو يرجح هذا أو يرجح هذا ترجيحًا دنيويًّا[٣].

**الثاني**: أنه إذا قدر أن شخصين أحدهما يريد الآخرة ويريد الدنيا، والآخر زاهد في الدنيا وفي الآخرة، لكان الأول منهما مؤمنًا محمودًا، والثاني كافرًا ملعونًا، مع أن الثاني زاهد في الدنيا والأول طالب لها، لكن امتاز الأول بفعل مأمور مع ارتكاب محظور، والثاني لم يكن معه ذلك المأمور به، فثبت أن فعل المأمور به من إرادة الآخرة ينفع، والزهد بدون فعل هذا المأمور لا ينفع.

**الثالث**: المحمود في الكتاب والسنة إنما هو إرادة الدار الآخرة، والمذموم إنما هو من ترك إرادة الدار الآخرة واشتغل بإرادة الدنيا عنها، فأما مجرد مدح ترك الدنيا فليس في كتاب الله ولا سنة رسوله[٤].

ثم بين رَحِمَهُ اللهُ بعض المحاذير التي وقع فيها الصوفية:

**أحدها**: أن قومًا زهدوا فيما ينفعهم بلا مضرة، فوقعوا به في ترك واجبات أو مستحبات، كمن ترك النساء واللحم، ونحو ذلك، وقد قال:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥١١)، وانظر أيضًا (١٤/ ٤٥٨-٤٥٧).

(٣) فلما كانت الدنيا تشغل عن عبادة الله والدار الآخرة شرع فيها الزهد، أي شرع من أجل امتثال الأمر، فإذا كان الأمر كذلك؛ فكيف يدعى أن الزهد هو ترك ما يستعان به في عبادة الله.

(٤) تقدم تخريجه.

**«لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني»**[(١)].

**والثاني**: أن زهد هذا أوقعه في فعل محظورات، كمن ترك تناول ما أبيح له من المال والمنفعة، واحتاج إلى ذلك فأخذه من حرام، أو سأل الناس المسألة المحرمة، أو استشرف إليهم، والاستشراف مكروه.

**والثالث**: من زهد زهد الكسل والبطالة والراحة، لا لطلب الدار الآخرة بالعمل الصالح والعلم النافع، فإن العبد إذا كان زاهدًا بطالًا فسد أعظم فساد، فهؤلاء لا يعمرون الدنيا ولا الآخرة، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إني لأكره أن أرى الرجل بطالًا، ليس في أمر الدنيا ولا في أمر الآخرة».

فمن ترك بزهده حسنات مأمورًا بها كان ما تركه خيرًا من زهده، أو فعل سيئات منهيًّا عنها، أو دخل في الكسل والبطالات، فهو من الأخسرين أعمالًا: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف][(٢)].

فلو سار المسلمون في هذا التوجه في تفسير الزهد فإن العاقبة ستكون دمار الكيان الإسلامي، وهدم المجتمع الإسلامي، وعجزه عن القيام بواجب الدعوة إلى الله والدفاع عن دينه، فكيف تنهض الأمة الإسلامية بواجب الدعوة إذا كان الزهد عندها يعني التبتل وعدم الزواج، وكان يعني الانقطاع عن طلب أي شيء يشغل عن الأذكار في الزوايا، حتى و لو كان ذلك طلب العلم أو طلب قوت اليوم، كما يرى بعض أساطين التصوف.

بدون أدنى شك لو عمل المسلمون في أي عصر بمثل هذه النصائح

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٤٧-١٤٨).

(٢) المصدر نفسه (٢٠/ ١٥٠-١٥١).

الصوفية، فإن المجتمع الإسلامي سيكون وجوده مسألة وقت، لأن الأمم لا تستقيم لها الأمور إلا بالقيام بما أمر الله به من عمارة الأرض، والحكم فيها بالقسط، والمجتمع المسلم لا يقوم أمره إلا بالجهاد في سبيل الله والدعوة إليه، والحفاظ على مقومات وجوده في الأرض، وإذا استسلم لمثل هذه الوصايا الصوفية فسيترك الاهتمام بذلك كله، وينزوي على نفسه في الزوايا والمقابر، معتمدا في حياته على ما يأتيه من فتات موائد الآخرين[١].

---

(١) انظر: هذه هي الصوفية (ص/١٦٩)، لعبد الرحمن الوكيل.

# المطلب الثاني

## الرد على الصوفية
## في عدد الأحوال والمقامات وترتيبها

مع أن الصوفية اهتموا بأعمال القلوب اهتماما شديدا، وصنفوا فيها تصانيف كثيرة، إلا أنهم في حقيقة الأمر هضموا كثيرًا من حقائقها ـ كما سبق ـ، وقسموا أنواع المجاهدات والرياضات التي يمارسها المريد لتزكية نفسه إلى مراحل، وأطلقوا على كل مرحلة منها اسم مقام، مثل التوبة والورع والزهد والصبر والتوكل وغيرها، وخصوا كل مقام بنوع من المجاهدة والسلوك، بل لا يمكن أن يرتقي المريد من مقام إلى الذي فوقه إلا بعد أن يستوي حق وأحكام المقام تامة، فالمقامات تأخذ صورة السلم ـ عندهم ـ الذي يتسلسل عليه المريد من درجة وسلم إلى الذي يليه حتى يصل المريد إلى النهاية المقصودة المراد لهم وهي الفناء.

يقول القشيري عن شروط المقام: «وشرطه: أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر، ما لم يستوف أحكام ذلك المقام، فإن من لا قناعة له لا تصح له التوكل، ومن لا توكل له لا يصح له التسليم، وكذلك من لا توبة له لا تصح له الإنابة، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد...

ولا يصحُّ لأحد منازلة مقام إلا بشهود إقامة الله تعالى إياه بذلك المقام، ليصحَّ بناء أمره على قاعدة صحيحة»(١).

---

(١) الرسالة القشيرية (ص/١١٨-١١٩).

فابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ انتقد حصر المقامات في عدد معين، وأشار إلى أنه قد اشتهر عن متأخريهم على خلاف أئمتهم المتقدمين كسهل التستري، وأبي طالب المكي، والجنيد بن محمد وغيرهم، الذين تكلموا كلاما جامعا مفصلا غير محصور بعدد المقامات[١].

وكما انتقد ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ مسألة حصر المقامات في عدد معين، انتقد ترتيب المقامات عندهم أيضا، فإنه رَحِمَهُ اللَّهُ نبه إلى أن الترتيب الذي يشير إليه كل مُرتِّب للمقامات والمنازل لا يخلو من تحكم، ودعوى غير مطابقة، فليس هناك ترتيب كلي لازم للسلوك.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن العبد إذا التزم عقد الإسلام، ودخل فيه كله، فقد التزم لوازمه الظاهرة والباطنة، ومقاماته وأحواله، وله في كل عقد من عقوده وواجب من واجباته أحوال ومقامات، لايكون موفيًا لذلك العقد والواجب إلا بها، وكلما وفّى واجبًا أشرف على واجب آخر بعده، وكلما قطع منزلة استقبل أخرى.

وقد يعرض له أعلى المقامات والأحوال في أول بداية سيره، فينفتح عليه من حال المحبة والرضا والأنس والطمأنينة ما لم يحصل بعد لسالك في نهايته، ويحتاج هذا السالك في نهايته إلى أمور من البصيرة والتوبة والمحاسبة أعظم من حاجة صاحب البداية إليها، فليس في ذلك ترتيب كلي لازم للسلوك»[٢].

فترتيب المقامات والمنازل ليس ترتيبًا حسيًّا كمنازل السير الحسي، بمعنى أن السالك يقطع المقام ويفارقه وينتقل إلى الثاني، فإن هذا محال، فاليقظة معه في كل مقام لا تفارقه، وكذلك البصيرة والإرادة والعزم.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٠٥).

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٠٥).

وكذلك التوبة، فإنها كما هي من أول المقامات فهي آخرها أيضًا، بل هي مستصحبة في كل مقام، وهذا الترتيب من قبيل ترتيب المشروط على الشرط المصاحب له.

ومثال ذلك: أن الرضا مرتب على الصبر لتوقف الرضا عليه، واستحالة ثبوته بدونه، فإذا قيل: إن مقام الرضا أو حاله ـ على اختلاف بينهم ـ بعد مقام الصبر، لا يعني به أنه يفارق الصبر وينتقل إلى الرضا، وإنما يعني أنه لا يحصل له مقام الرضا حتى يتقدم له قبله الصبر.

وإذا كان كذلك علمت أن القصد والعزم متقدم على سائر المنازل فلا وجه لتأخيره، وعلمت بذلك أن المحاسبة متقدمة على التوبة بالرتبة أيضًا، فإنه إذا حاسب العبد نفسه خرج ما عليه، وهي حقيقة التوبة.

وعلمت أن منزلة التوكل قبل منزلة الإنابة لأنه يتوكل في حصولها، فالتوكل وسيلة، والإنابة غاية.

وعلمت أن مقام التوحيد أولى المقامات أن يبدأ به[١]، فتوحيد الله هو الأساس الذي يقوم عليه بنيان الإيمان، ومنه يبتدئ السالكون سيرهم إلى الله، ولهذا كان مفتاح دعوة الرسل عليهم السلام[٢].

ومما يذكر كذلك في موقف شيخ الإسلام وابن القيم من المقامات والأحوال، نقدهما لبعض المقامات التي ليست من منازل السلوك، مثل الفقر والحزن وغير ذلك.

---

(١) لأن الهروي ـ صاحب منازل السائرين ـ جعل التوحيد آخر المنازل، بدلا من تقديمه على سائر المنازل .

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٠١-١٠٢)، انظر: أعمال القلوب عند ابن القيم، جمع ودراسة (ص/ ٣٩٢-٣٩٤).

الفقر:

من أهم الموضوعات التي أوضح فيها شيخ الإسلام ابن تيمية رأيه، ووضع الأمور في نصابها الصحيح مسألة الفقر والغنى، وهل الفقير الصابر أفضل من الغني الشاكر؟ وما مدى علاقة الفقر بالزهد؟ وهل الزهد يقتضي معانقة الفقر واختياره؟

يبين شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أن الأغنياء والفقراء كانوا يستوون في مقاعدهم عند النبي وفي الاصطفاف خلفه في الصلاة، وفي غير ذلك من الأمور، وأن من أغنياء الصحابة كعثمان وطلحة والزبير وسعد بن معاذ ونحوهم من له منزلة ليست لغيرهم من الفقراء(١).

وهذا هو العدل والقسط الذي جاء به الكتاب والسنة كما يراه شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ ويحكيه عن الخليفة عمر بن عبد العزيز والليث بن سعد وابن المبارك ومالك وأحمد بن حنبل وغيرهم في معاملتهم للأغنياء والفقراء(٢).

وليس هذا هو رأي الكثير من الصوفية، فإن أكثر الصوفية يقررون أن الفقر مقام شريف، وأن الفقراء أفضل من الأغنياء على كل حال ونحو ذلك(٣).

ولقد نبه شيخ الإسلام إلى موقع الالتباس في هذه المسألة فبين أن الزهد يكثر عند الفقراء فعلًا، وهذا ما دفع الناس إلى اعتقاد أن الفقر مقام شريف كما يدعون، والحقيقة أن الزهد يكثر في الفقراء لأن من العصمة أن لا يجد المرء ما يدفعه إلى حب الدنيا، ولكن الحقيقة عند شيخ الإسلام أن

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ١٢٥-١٢٦).
(٢) المصدر نفسه (١١/ ١٢٦).
(٣) انظر: اللمع (ص/ ٧٣-٧٤).

الزهد عند الأغنياء كما هو هو عند الفقراء، بل قد يكون هو عند الأغنياء أكمل منه عند الفقراء، وإن كان عند الفقراء أكثر منه عند الأغنياء[(١)].

فليس للفقر أي ميزة على الغنى، ولا للفقير على الغني، فأفضلهما أتقاهما لله، فإن كان الغني أتقى لله كان أفضل من الفقير، وهو أن يكون أعمل بما يحبه الله، وأترك لما لا يحبه، وإن كان الفقير أعمل بما يحبه الله وأترك لما لا يحبه كان أفضل من الغني، فإن استويا في فعل المحبوب وترك غير المحبوب استويا في الدرجة[(٢)].

وهذا هو الحق الواضح، وأنه لا فضيلة للفقر على الغنى، وليس الفقر مقاما من المقامات كما زعمه كثير من الصوفية. فقد زعم كثير من الصوفية أن الفقر أمر محمود لذاته، وأنه مقام شريف من مقامات الوصول إلى الولاية[(٣)]، حتى قال الغزالي في كتاب الإحياء: «باب فضيلة الفقر مطلقًا»[(٤)].

ولفظ الفقر في الشرع يطلق ويراد به قلة المال وعدمه، ويطلق ويراد افتقار المخلوق لخالقه[(٥)].

فإن أراد الصوفية تمجيد الفقر بالمعنى الأول وهو قلة ذات اليد فهذا خطأ على اطلاقه، لأن الفقر نازلة تنزل بالعبد كغيرها من النوازل، فمن صبر عليها وشكر نال الأجر والثواب، وكان فقره سببًا في ارتقائه أعلى الدجات، ولكن لا يقال هنا المحمود هو الفقر بذاته، بل هو حسن الصبر

---

(١) مجمع الفتاوى (١١/ ٢٧).

(٢) المصدر نفسه (١١/ ٢٢).

(٣) الرسالة القشيرية (ص/ ٣٧٦).

(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٤٣).

(٥) مجموع الفتاوى (١١/ ١٩٦-١٩٧).

عليه وعدم إظهار الضجر منه واحتساب ذلك كله عند الله، وقد مدح الله هذا الصنف من الفقراء فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البَقَرَة]، فالممدوح في هؤلاء هو كونهم متعففين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، وليس المحمود هو اتصافهم بالفقر مطلقا كما قال بعض الصوفية.

وإن أرادوا تمجيد الفقر بالمعنى الثاني وهو افتقار المخلوق إلى خالقه فهذا أيضًا لا يؤخذ على إطلاقه، لأن جنس الافتقار موجود عند جميع المخلوقات سواء اعترفوا أو لم يعترفوا، حتى الجماد والحيوان مفتقر في خلقه واستمرار وجوده إلى خالقه، فهذا الافتقار من حيث هو ليس بموضع مدح ولا ذم.

ولكن المحمود هو استشعار وتذكر نعمة الله دائمًا، والشكر عليها[1].

### ۞ الحزن.

قد انتقد شيخ الإسلام الصوفية في اعتبار الحزن مقاما من المقامات[2]، فالحزن أحد المصائب التي تنزل بالإنسان، وهو عارض من عوارض الطريق، وليس من مقامات الإيمان، ولا من منازل السائرين.

فالحزن كما بين شيخ الإسلام لم يأمر الله به ولا رسوله، بل قد نهى عنه في مواضع وإن تعلق بأمر الدين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عِمرَان]، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ

---

(١) موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية (ص/ ١١٣-١١٥).

(٢) كما يعد عند الصوفية، انظر: الرسالة القشيرية (ص/ ٢١١)، منازل السائرين (١/ ٣٧٧) مطبوع ضمن مدارج السالكين .

إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل]، وكقوله: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الحديد: ٢٣]، وأمثال ذلك كثير.

وذلك أن الحزن لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه، وما لا فائدة فيه لا يأمر الله به، نعم لا يأثم صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم، كما يحزن على المصائب كما قال النبي : «**إن الله لا يؤاخذ بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يؤاخذ على هذا** ـ وأشار بيده إلى لسانه ـ **ويرحم**»(1)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف].

وقد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه، فيكون محمودًا من تلك الجهة لا من جهة الحزن، كالحزين على مصيبة في دينه وعلى مصائب المسلمين عمومًا، فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك.

ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد، وجلب منفعة ودفع مضرة نهي عنه، وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه من جهة الحزن.

وأما إن أفضى إلى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما أمر الله ورسوله به، كان مذمومًا عليه من تلك الجهة وإن كان محمودًا من جهة أخرى(2).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٢٠٩)، في كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض.
(٢) التحفة العراقية (ص/٣١١-٣١١).

## المطلب الثالث

## الرد على الصوفية
## في جعلهم معالم لسلوك الطريق الصوفي

لقد أشرنا - في بيان مذاهب الصوفية في أعمال القلوب -، أن للصوفية معالم ووسائل ينبغي سلوكها لتزكية النفس، وقلنا أن من أهمها: الخلوة، والزهد، والذكر، والسماع، والأحوال المبتدعة (كالسكر والوله والجنون)، وقبل أن أتطرق للرد على هذه العناصر أحب أن أبين طريق القرآن والسنة في التزكية والذي ينبغي سلوكه من قبل السالكين(١)، فأقول:

التزكية، معناها تطهير النفس وتنقيتها من الرذائل، وهي تجمع بين إزالة الشر وتطبيبها بالخير، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، فهي تجمع بين التطهير والتزكية لأنهما متلازمان.

والتزكية وإن كان أصلها النماء والزيادة؛ فهي لا تحصل إلا بإزالة الشر الموجود في النفس كي ترتاح وتطمئن، وهذا لا يحصل إلا بالتوحيد وإخلاص العبودية لله وحده، والبراءة من الشرك، يقول شيخ الإسلام في توضيح ذلك: «فإن التزكي هو التطهر بترك السيئات الموجب لزكاة النفس كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس]، ولهذا تفسر الزكاة تارة بالنماء وبالزيادة، وتارة بالنظافة والإماطة، والحقيقة أن الزكاة تجمع بين

(١) هذا المنهج الرباني للتزكي والتزكية مقتبس من كتاب «منهج شيخ الإسلام في العبادة والتزكية» تأليف: عبد الله بن محمد الحيالي.

الأمرين؛ إزالة الشر وزيادة الخير، وهذا هو العمل الصالح وهو الإحسان»[١].

والتزكي بترك السيئات أصله بترك الشرك قليله وكثيره لأنه يدنس القلب، وليس هناك حق أعظم من حق الله وصرف العبادة لله، فإنكاره ـ أي حق الله ـ والشرك بالله من أعظم ما يدنس القلب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، والمراد بالنجاسة النجاسة المعنوية لا البدنية، فقد وصف الله المشركين بنجاسة قلوبهم ونفوسهم بما يتلبسونه من الشرك والتعبد لغير الله.

١ ـ **ضرورة التمسك بالسنة في أمور التعبد والتزكية**، وذلك لأن اتباع السنة في مسائل العبادات والقرب هو المصدر الصافي لطريقة الهداية وتزكية النفس، وهو الذي يحمي المسلم من الوقوع في الابتداع والتقول على الله بلا علم ويجنبه ضياع الأجر والثواب، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لزوم السنة هو يحفظ من شر النفس والشيطان بدون الطرق المبتدعة، فإن أصحابها لا بد أن يقعوا في الإصر والانحلال وإن كانوا متأولين، فلا بد لهم من اتباع الهوى ولهذا سمي أصحاب البدع أصحاب الأهواء، فإن طريق السنة علم وقول وهدى، وفي البدعة جهل وظلم، وفيها اتباع الظن وما تهوى الأنفس»[٢].

ويجب الحذر من النظر إلى حال أكثر الخلق وما هم عليه من بدع في العبادة؛ لأن الحق هو ما كان عليه الجماعة الأولى من عهد النبي وأصحابه، ولا ينظر إلى كثرة أهل البدع من بعدهم، يقول ابن القيم مبينًا أن من علامات سعة القلب وعبوديته لله هو التمسك بالحق الذي كان عليه

(١) مجموع الفتاوى (١٦/١٩٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٥٦٨).

أصحاب الرسول: «والبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق، ولا من فقده إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول، الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، فتفرد العبد في طريق طلبه دليل على صدق الطلب»[١].

**٢ ـ الرسول أتم منهج التزكية علمًا وعملاً، قال تعالى:** ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فقد أتم الله علينا النعمة وأكمل لنا الدين ببعثة الرسول، ومما يوضح هذا المعنى أن الله نعت رسوله بأنه على دين عظيم فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

وقد تمثل هذا الخلق بالعمل بكتاب الله الذي تضمن كل أنواع التزكية والتطهير، فمن المحال أن يكون الرسول مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين وإن دقت، ترك تعليم الناس ما يزكي قلوبهم ويهذب نفوسهم ويقربهم إلى الجنة، يقول شيخ الإسلام في معرض الرد على أهل البدع ممن يزعم أن الرسول الكريم وأصحابه رضي الله عنهم لم يحكموا هذا الباب ـ باب التزكية والتعبد ـ قولًا وعملًا، يقول رحمه الله: «ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين وإن دقت، أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم وقلوبهم في ربهم ومعبودهم، ورب العالمين الذي معرفته غاية المعارف، وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية»[٢].

**٣ ـ طريقة القرآن في عرض منهج التزكي،** قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٤٠-١٤١).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٧).

[الجُمُعَة: ٢]، فقد امتن الله على هذه الأمة ببعثة الرسول الكريم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، ويرشدهم إلى ما فيه صلاحهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

وقدم في الآية العلم على التزكية من باب تقديم العلم على العمل، لأن التزكية ثمرة من ثمار سماع كلام الأنبياء وإرشاداتهم، وهذا يحصل بالعلم الإجمالي والذكر العام الذي ينتفع به أقوامهم فيهتدون إلى الحق وتقوم به الحجة على آخرين فيستحقون العذاب في الآخرة، يقول شيخ الإسلام في التذكير العام وافتراق الناس فيه: «والتذكير المطلق العام ينفع، فإن من الناس من يتذكر فينتفع به، والآخر تقوم عليه الحجة ويستحق العذاب على ذلك، فيكون عبرة لغيره، فيحصل بتذكيره نفع أيضًا، ولأن بتذكيره تقوم عليه الحجة، فتجوز عقوبته بعد هذا بالجهاد وغيره فتحصل بالذكرى منفعة»[1].

وقال أيضًا: «كذلك التذكير عام وخاص، فالعام هو تبليغ الرسالة إلى كل أحد، وهذا يحصل بإبلاغهم ما أرسل به من الرسالة»[2].

والمقصود أن التزكي لا بد أن يسبقه علم عام وتذكرة عامة كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾ [الأعلى]، فهذا لابد منه لحصول التزكي، فإذا حصل التزكي حصل التذكر التام النافع المؤثر.

ولهذا قال تعالى في حق الأعمى الذي جاء إلى الرسول يطلب منه التعليم والإرشاد والنفع: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ [عَبَسَ]، فأمر رسوله أن يقبل على من جاء يطلب التزكي والتذكر.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٦٢).

(٢) المصدر نفسه (١٦/ ١٥٧).

وذكر هنا التذكر بعد التزكي، وهذا ـ والله أعلم ـ غير التذكر الذي تقوم به الحجة، فقد ذكر هنا الذكر التام الذي يذكره المذكر به وينتفع به كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾ [الأعلى].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ذلك: «فذكر التذكر والتزكي، كما ذكرهما هناك، وأمر أن يقبل على من أقبل عليه دون من أعرض منه، فإن هذا ينتفع بالذكرى دون ذاك، فيكون مأمورًا أن يذكر المنتفعين بالذكرى تذكيرًا يخصهم به غير التبليغ العام الذي تقوم به الحجة»(١). وهذا هو التذكير التام النافع الذي خص الله به المؤمنين قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات]، فهم إذا آمنوا ذكرهم بما أنزل عليهم، وكلما نزل عليهم شيء من معاني القرآن ذكرهم به فيزدادوا إيمانًا.

والتذكير التام يقود إلى الخشية والخوف من الله كما قال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ [الأعلى]، والعلم التفصيلي والتذكرة التامة توجب الخشية والتفكير في عواقب الأمور ـ فليس من يعلم كمن لا يعلم ـ والخشية قد تحصل عقب التذكر وقد تحصل قبله، لأنه إذا خشي أوجب له ذلك علومًا وتذكرة وإرادة صالحة.

**٤ ـ التزكية امتثال حقيقي للعبادة لا امتثال صوري،** ذكرنا أن التزكية لابد أن يقرنها العلم التام المؤثر لا الإجمالي الذي تقوم به الحجة، فلا تكفي العمومات في تزكية النفس وثباتها على الحق، بل لا بد من تعلم ودراسة العلم الشرعي بالقدر المستطاع، ثم العمل به وانصياع القلب بموجبه من معاني العلم النافع والعقيدة السليمة، وكذلك الحذر من وسائل الشرك التي تدنس القلب وتضعف إرادة الخير فيه.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٦٤).

وعدم معرفة الحق والعمل به يؤدي إلى وقوع المسلم في بعض وسائل الشرك وهو لا يشعر، وربما يعرضه للردة ـ والعياذ بالله ـ أو السير على غير هدى وبصيرة فيكون حاله كحال الذي قال الله فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ [الحج: ١١]، وما أكثر فتن الدنيا في هذا الزمان، فيحتاج المؤمن إلى حصانة علمية وزاد إيماني يحميه من الوقوع في المخالفات الشرعية.

ولهذا كانت تربية الرسول لأصحابه الكرام في مكة تتركز على تزكية نفوسهم على معاني العقيدة الصحيحة والعلم النافع حتى صفت نفوسهم وأرواحهم وأصبحوا القدوة العليا والمثل الحية في طهارة النفس والتعبد لله ظاهرًا وباطنًا، ومكن الله لهم في الأرض، وأسعدهم في الآخرة.

**٥ ـ وسائل تحقيق عبودية المسلم لربه.**

لو اطلعنا على رسالة العبودية لشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ لوجدنا أنه رسم لنا طريق عبودية المسلم لربه، والتي قلنا إنها أصل تزكية النفوس وركنها، ومن هذه الوسائل التي ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ـ إخلاص الدين لله والبراءة من الشرك: يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكلما قوي إخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات، وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك»[(١)].

وإذا خلص دينه لله انصرف عن قلبه السوء والفحشاء، وانقهر هواه وشيطانه دون تكلف، لقوة تعلقه بالله ومراقبته له قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، (وهكذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية له والإخلاص له بحيث تغلبه نفسه على

(١) العبودية (ص/ ٨٢).

اتباع هواها، وإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه انقهر له هواه بلا علاج)(١).

ـ قوة الحب لله والمتابعة للرسول، يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكلما ازداد القلب حبًّا له ـ لله ـ ازداد له عبودية، وكلما ازداد عبودية ازداد حبًّا، وفضله عما سواه»(٢).

ومحبة الله لا تنال بالأماني الفارغة والدعاوى العريضة بل تنال بأمرين عظيمين لا ينالهما إلا من أراد الله به خيرًا يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول، والجهاد في سبيله»(٣)، وذلك لأن الجهاد حقيقة الاجتهاد في حصول ما يحبه من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان، فإذا ترك المسلم الجهاد بأنواعه ولم يتحمل التعب والملام في سبيل الله دل على ضعف المحبة لله في قلبه.

ـ قوة الطمع في فضل الله ودعاؤه والتضرع إليه في كل حال، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته لقضاء حاجته ودفع ضرورته، قويت عبوديته وحريته مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوقين يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه»(٤).

ـ الاستغناء عن المخلوقين وعدم سؤالهم والتذلل لهم لكن دون جفوة وإساءة إليهم بل بالإحسان إليهم وإرادة الخير والنصح لهم، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك: «ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقين إلا بأن يكون الله هو مولاه

---

(١) العبودية (ص/ ٧٠).

(٢) المصدر نفسه (ص/ ٧٦-٧٧).

(٣) العبودية (ص/ ٧٤).

(٤) العبودية (ص/ ٦٦).



الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه ...»[(١)]، ولأجل هذا جاء النهي عن سؤال المخلوقين لأنه في الأصل محرم ولكن أبيح بقدر الحاجة.

ـ ذكر الله أفضل الأعمال بعد أداء الفرائض والاعتناء بها، (وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين الأذكار المؤقته من أول النهار وآخره، وعند أخذ المضجع، وعند الاستيقاظ من المنام، وأدبار الصلوات، والأذكار المقيدة؛ مثل ما يقال عند الأكل والشرب، واللباس، والجماع، ودخول المنزل والمسجد، والدخول والخروج من ذلك، وعند المطر والرعد إلى غير ذلك)[(٢)].

وأفضل الذكر على الإطلاق تلاوة القرآن فقد جعل الله في تلاوته الشفاء والضياء، وأفضل ما يتقرب العبد به إلى ربه هو كلامه الذي خرج منه.

فإذا حصلت العبودية لله حصل المسلم على السعادة والاطمئنان وانشراح الصدر وقرة العين قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النّحل]، وانصرف عن قلبه من السوء والفحشاء والتفكر فيهما ما لا يمكن دفعه بنفسه، وكل ذلك يحصل بإعانة الله، (فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه من عبوديته لغيره، إذ ليس في القلب السليم أحلى ولا أطيب ولا ألذ ولا أسر ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له وإخلاص الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى

---

(١) العبودية (ص/ ٨٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٦٠-٦٦١).

الله فيصير القلب منيبًا إلى الله خائفًا منه راغبًا راهبًا)[١].

وبذلك يستريح من التفكير بالوساوس الشيطانية ويستريح أيضًا من كلفة الطلب والنظر.

٦ ـ **محبة الله عنصر أساسي في العبودية والتزكية**، بين الشيخ في مواضع عديدة من كتبه أن المحبة أصل كل حركة في العالم العلوي والسفلي، وأن وجود الفعل لا يكون إلا عن محبة وإرادة، وهذا يحصل بتدبير الملائكة الكرام الذين وكلهم الله تعالى بتصريف الأمور بإذن الله وحتى دفع الإنسان للأمور التي يكرهها، أصله أيضًا المحبة، فهو يحب العاقبة المستلزمة لشرب الدواء المكروه، وقطع اليد الشلاء، ولكنه لا يترك ما يحبه ويهواه، وهذا يدل على أن المحبة أصل كل فعل ومبدؤه، وهذا من الأدلة على أن الحب من أعظم الدوافع إلى السلوك والعمل، يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب فكلما قويت المحبة في القلب طلب فعل المحبوبات»، وهذا بخلاف الخوف فإنه يحصل لسبب ويزول لزواله.

وإذا كان كذلك فليس في الوجود من يحب لذاته إلا الله لما أنعم علينا من النعم العظيمة والآلآء الجسيمة وأتمها بنزول القرآن العظيم وببعثة الرسل الكرام والصالحين فنحن نحبهم لأن الله أمرنا بهذا الحب، والمحبة من أعظم العبادات القلبية التي يجب صرفها لله، أعني المحبة التي تستلزم الخضوع والذل وإيثار المحبوب ـ بخلاف المحبة المشتركة التي لا يقرنها الخضوع مثل محبة الوالد لولده والصديق لقرينه فلا يكون وجودها شركًا ـ، ولكن من تمام المحبة وكمالها أن تحب ما أحبه الله من الأشياء، وفرق بين الحب مع الله ـ وهو الشرك الذي لا يغفر ـ والحب لله.

---

(١) العبودية (ص/١٠٣).



والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يربط بين المحبة والعبودية فبين أنه لا بد من اجتماع الحب والخضوع لله وحده فيقول: «بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء وأن يكون أعظم عنده من كل شيء»[(١)].

وكما تقدم أن محبة الله لا تنال بالأماني الفارغة والدعاوى العريضة، بل تنال بأمرين عظيمين لا ينالهما إلا من أراد الله به خيرًا يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول، والجهاد في سبيله»، وذلك لأن الجهاد حقيقة الاجتهاد في حصول ما يحبه من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان، فإذا ترك المسلم الجهاد بأنواعه ولم يتحمل التعب والملام في سبيل الله دل على ضعف المحبة لله في قلبه.

وبعد هذا العرض السريع لمنهج القرآن في السلوك والتزكية والذي أوضحه لنا شيخ الإسلام بعبارات سهلة وترتيب رائع، يحسن بنا أن ننتقل إلى نقد فكرة السلوك عند الصوفية، والذي قلنا إنه يتمثل في خمسة عناصر:

**العنصر الأول: الخلوة والعزلة.**

بين شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أن الصوفية يخلطون بين الاعتكاف الشرعي في المساجد كما كان رسول الله يفعله هو أصحابه، وبين الخلوات المبتدعة التي ظنوا أنها شبيهة بالاعتكاف وليس كذلك، فهي ليست مثل الاعتكاف لأن الاعتكاف يكون في المساجد أما الخلوات فيختارون لها أماكن بعيدة عن الناس.

وناقش شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ فكرة الخلوة المذكورة في طريقهم، فقال؛ إن منهم من احتج للخلوة بدليلين:

---

(١) العبودية (ص/٢٣).

**الأول**: تحنث النبي في الغار قبل الوحي[١].

**والثاني**: ما جاء في الأثر عنه أنه سئل أي الناس أفضل، فقال: «**من خير معاش الناس لهم، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانه، أو رجل في غنيمة في رأس شعفة من هذه الشعف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير**»[٢][٣].

ويرد شيخ الإسلام على هذين الاستدلالين بما يلي:

**أولا**: إن تحنثه في غار حراء كان قبل الوحي، وأن ما فعله قبل النبوة لا نكون مأمورين باتباعه إلا إذا شرع بعد النبوة.

وهو من حين نبأه الله تعالى لم يصعد بعد ذلك غار حراء ولا خلفاؤه الراشدون، وبهذا يسقط الاستدلال بالدليل الأول[٤].

**ثانيًا**: إن الحديث المذكور جاء فيه قوله: «**يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويدع الناس إلا من خير**[٥]»، وفي هذه الجملة دليل واضح على أن هذا الرجل له مال يزكيه، وأنه ساكن مع الناس يؤذن بينهم وتقام الصلاة فيهم، وأنه لا يدع الناس مطلقًا بل لا يدعهم من الخير الذي يقدر عليه، وهذا يتعارض مع نظام الخلوة عندهم[٦].

---

(١) العبادات الشرعية والفرق بينها وبين البدعية (٥/ ٨٤) ضمن مجموعة الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٧٨٦)، في كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط.

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٠٥-٤٠٦).

(٤) العبادات الشرعية والفرق بينها وبين البدعية (٥/ ٨٥) ضمن مجموعة الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام.

(٥) هذه الزيادة أخرجها ابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ٢٠٣).

(٦) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٠٥).

وبهذا يبطل استدلالهم على الخلوة بالنظام الذي وضعوه من الجهة الشرعية، أما ما يعدده شيخ الإسلام من أنواع المضار في الدين والعقل والبدن التي تصيب أصحاب هذه الخلوات فهو كثير جدًّا، يمكن لمن أراد أن يراجعه في موضعه(١).

العنصر الثاني: الزهد في الدنيا.

أما الزهد في الدنيا عند الصوفية ففيه من المبالغة إلى حد ترك فعل الخيرات وعمارة المساجد ونحو ذلك، ولا يقتصر حد الزهد عندهم على ترك المعاصي أو المباحات التي تشغل عن الله والدار الآخرة.

أما شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ فبين أن الزهد منه ما هو مشروع ومنه غير مشروع، فالزهد المشروع (ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة).

وأما ترك كل ما يستعين به العبد على طاعة الله فليس ذلك من الزهد المشروع.

فشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ وضح حقيقة الزهد، وربطه بغاية شرعية حيث يقول عنه أنه ترك ما لا ينفع في الآخرة، أي فيه ربط للزهد بغاية شرعية وهي الإفادة في الآخرة مع وضوح العبارة وعدم المبالغة اللذين لا تجدهما في عبارات المتصوفة.

ويشهد لما قاله شيخ الإسلام قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ [الأعراف: ٣٢].

---

(١) المصدر نفسه (١٠/ ٤٠٦-٤٠٧).

فالزهد الصحيح ليس هو تحريم ما أحل الله لعباده، ولكنه امتناع شخصي وعزوف من النفس عما لا يفيد في الآخرة، فإذا ما اضطر العبد إلى شيء مما امتنع عنه من المباحات لعدم توفر غيرها أقدم عليها وأخذ منها ما يفي بحاجته منها.

العنصر الثالث: الأوراد والأذكار.

قد تكلم شيخ الإسلام عن الذكر، أي ذكر الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار، وبين فضله وما ورد فيه من ترغيب وحث.

ونقل الشيخ في كتبه كثيرًا من الأذكار المأثورة والتي كان يداوم هو على قراءتها عند النوم وغير ذلك، وأقر شيخ الإسلام الورد، ولم يمنع الاجتماع للذكر في مكان ووقت ما، ولكنه فضل أن لا يكون هذا الاجتماع سنة راتبة معينة في يوم مخصوص من السنة أو من الشهر ونحو ذلك، لكي لا يشتبه الأمر فيظن أن ذلك مما شرع من العبادات المفروضة[(١)].

ومما انتقد على هذا العنصر أيضًا ما تتضمنه هذه الطريقة من الاقتصار على ذكر الله بالاسم المفرد.

والذكر بالاسم المفرد وحده غير مقبول عند شيخ الإسلام رحمه الله لسببين:

**السبب الأول**: أن اللفظ المفرد لا يفيد علمًا، لأنه لا يفيد إثبات حكم ولا يفيد تنزيهًا ولا تقديسًا ولا تمجيدًا.

**السبب الثاني**: أن أفضل الذكر مطلقا هو (لا إله إلا الله) كما ثبت من

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٢٠-٥٢١)، ويقول رحمه الله أيضا: «وليس لأحد أن يسن للناس نوعا من الأذكار والأدعية غير المسنون، ويجعلها عبادة راتبة يواظب الناس عليها كما يواظبون على الصلوات الخمس، بل هذا ابتداع دين لم يأذن الله به، بخلاف ما يدعو به المرء أحيانا من غير أن يجعله للناس سنة، فهذا إذا لم يعلم أنه يتضمن معنى محرمًا لم يجز الجزم بتحريمه»، مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥١١).

أحاديث كثيرة بين فيها رسول الله أن أفضل ما قاله وقالته النبيون من قبله (لا إله إلا الله)، وهكذا جاءت جميع الأذكار المأثورة بكلام تام مفيد.

ويرد شيخ الإسلام حجتهم التي اعتمدوا عليها في القول بالاسم المفرد، وهو ما أخذوا من قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

ثم بين أن من أبين الغلط اجتراؤهم على هذه الآية الكريمة بتقسيمها وعدم ذكر الجزء الموضح للمعنى فيها، والسابق لهذا الجزء من الآية هو الاستفهام الذي اقتضى أن يجاب عنه بالجملة المذكورة في الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام]، فمن قرأ الآية كاملة عرف أن ليس فيها ما يدل على صحة ذكر الله بالاسم المفرد .

ومن أدلتهم أيضًا، قول بعضهم: «أخاف أن أموت بين النفي والإثبات»، أي أموت بين لا إله وبين إلا الله، فلذلك فهو يقول: (يا هو)، فبين شيخ الإسلام أن هذا القول باطل عقلًا وشرعًا، لأن العبد لو مات في هذه الحال لم يمت إلا على ما قصده ونواه، فالحق أن ما عليه سلف الأمة وخيارها من الذكر بالجملة التامة هو الصواب النافع[1].

العنصر الرابع: السماع.

وقد تكلم شيخ الإسلام في مسألة السماع ففرق بين السماع الذي ينتفع به في الدين وبين ما يرخص فيه فقط رفعًا للحرج، كما فرق بين سماع

---

(١) انظر: العبودية (ص/١١٦-١٢٧).

المتقربين وسماع المتلعبين، ومما قال في هذا المجال: «فأما السماع الذي شرعه الله تعالى لعباده، وكان سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم وزكاة نفوسهم فهو سماع آيات الله تعالى، وهو سماع النبيين والمؤمنين وأهل العلم وأهل المعرفة»(١).

واستشهد شيخ الإسلام لذلك بآيات وأحاديث كثيرة منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال]، ومنها حديث في الصحيحين عن ابن مسعود أن النبي قال له: «**اقرأ علي**»، قال: أقرأ عليك وعليك أنزل، قال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**»، فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النساء] فإذا عيناه تذرفان(٢).

وهذا السماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية، والأحوال الزكية يطول شرحها ووصفها، وله في الجسد آثار محمودة من خشوع القلب ودموع العين واقشعرار الجلد، هذا مذكور في القرآن، وهذه الصفات موجودة في الصحابة.

أما سماع الصوفية ـ الذي ابتدعوه ـ المصحوب بالتصفيق والصفير وتحرك الأجساد بالرقص ونحو ذلك، فبين شيخ الإسلام أنه هذا كله كان يفعله المشركون عند البيت الحرام وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥](٣).

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٥٧-٥٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٧٨٣)، في كتاب التفسير، ومسلم في صحيحه (ص/ ٣١٣)، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٥٦٢) وما بعدها.

ثم أخذ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفنيد شبهات الصوفية التي تعلقوا بها في جواز هذا السماع المبتدع، ومن هذا الشبهات.

ـ قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزُّمَر: ١٧-١٨]، قالوا: قد مدح الله تعالى القول السموع ـ مطلقًا ـ ما دام كان حسنًا!

وهو غلط باتفاق الأئمة لوجوه:

**أحدها**: أن الله تبارك وتعالى لا يأمر باستماع كل قول بإجماع المسلمين، حتى يقال: اللام للاستغراق والعموم، بل من القول ما يحرم استماعه ومنه ما يكره، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾ [الأنعَام].

**الثاني**: أن المراد بالقول في هذا الموضع القرآن، كما جاء ذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١﴾ [القَصَص]، فإن القول الذي أمروا بتدبره هو الذي أمروا باستماعه، والتدبر؛ بالنظر والاستدلال والاعتبار والاستماع، فمن أمرنا باستماع كل قول، أو باستماع القول الذي لم يشرع استماعه، فهو بمنزلة من أمر بتدبر كل قول والنظر فيه، أو بالتدبر للكلام الذي لم يشرع تدبره والنظر فيه، فالمنحرفون في النظر والاستدلال بمثل هذه الأقوال من أهل الكلام المبتدع.

**الثالث**: أن الله في كتابه إنما حمد استماع القرآن، وذم المعرضين عن استماعه، وجعلهم أهل الكفر والجهل الصم البكم، فأما مدحه لاستماع كل قول فهذا شيء لم يذكره الله قط، ثم عدّ آيات في مدح استماع القرآن.

**الرابع**: أنهم لا يستحسنون استماع كل قول منظوم ومنثور، بل هم من أعظم الناس كراهة ونفرة لما لا يحبونه من الأقوال؛ منظومها ومنثورها،

ونفورهم عن كثير من الأقوال أعظم من نفور المنازع لهم في سماع المكاء والتصدية عن هذا السماع، وإذا لم يكن العموم مرادًا بالاتفاق كان حمل الآية عليه باطلًا.

**الخامس**: أنه قال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزُّمَر: ١٧-١٨]، فمدحهم باستماع القول واتباع أحسنه، ومعلوم أن كثيرًا من القول ليس فيه حسن، فضلًا أن يكون فيه أحسن، ثم ذكر بعض الشواهد من القرآن.

**السادس**: اتباع الأحسن من القول في هذه الآية هو نفس الأحسن المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزُّمَر: ٥٥]، فاتباع أحسن ما أنزل إلينا من ربنا هو اتباع أحسن القول[(١)].

ـ ومن أدلتهم أيضًا، قول النبي ﷺ: «**ما أذن الله لشيء كأذَنِه لنبي يتغنى بالقرآن**»[(٢)].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالاستدلال بذلك على تحسين الغناء أفسد من قياس الربا على البيع، إذ هو من باب تنظير الشعر بالقرآن، وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩﴾ [يس]. . .

وهذا القياس مثل قياس سماع المكاء والتصدية ـ الذي ذمه الله في كتابه، وأخبر أنه صلاة المشركين ـ على سماع القرآن الذي أمر الله به في كتابه وأخبر أنه سماع النبيين والمؤمنين، وقياسٍ لأئمة الصلاة كالخلفاء الراشدين وسائر أئمة المؤمنين، بالمخنثين المغنين الذين قد يسمون الجد أو

---

(١) الاستقامة (١/ ٢١٦-٢٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٩٠٠)، في كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغن بالقرآن، ومسلم في صحيحه (ص/ ٣١٠)، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت.



القوالين، وقياسٍ للمؤذن الداعي إلى الصلاة وسماع القرآن، بالمزمار الداعى إلى حركة المستمعين للمكاء والتصدية»[١].

ـ ومن أدلتهم أيضا، أن الصوت الحسن نعمة من نعم الله فجائز استعماله في القصائد والسماع لأنه من باب التحدث بالنعمة قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ الله: «فالاستدلال بهذا منزلة من استدل بإنعام الله بالسلطان والمال ـ على ما جرت عادة النفوس باستعمال ذلك فيه من الظلم والفواحش ونحو ذلك ـ، فاستعمال الصوت الحسن في الأغاني وآلات الملاهي مثل استعمال الصور الحسنة في الفواحش، واستعمال السلطان بالكبرياء والظلم والعدوان، واستعمال المال في نحو ذلك.

ثم يقال له هذه النعمة يستعملها الكفار والفساق في أنواع من الكفر والفسوق أكثر مما يستعلها المؤمنون في الإيمان، فإن استمتاع الكفار والفساق بالأصوات المطربة أكثر من استمتاع المسلمين، فأي حمد لها بذلك إن لم تستعمل في طاعة الله ورسوله»[٢].

العنصرالخامس: الأحوال المبتدعة (السكر، والوله، والجنون، وغيرها).

وقد بين شيخ الإسلام رَحِمَهُ الله أن المرء إذا كان لم يصدر منه تفريط وعدوان، لم يكن عليه ذنب فيما أصابه من الإغماء أو الموت أو نحو ذلك، كمن سمع القرآن السماع الشرعي، ولم يفرط بترك ما يوجب له ذلك.

أما ما يرد على القلوب مما يسمونه السكر والفناء ونحو ذلك، بسبب سماع الأصوات المطربة فهو مذموم، فإنه ليس للرجل أن يسمع من الأصوات التي لم يؤمر بسماعها ما يزيل عقله، إذ إزالة العقل محرم، ومتى

---

(١) الاستقامة (١/ ٣٧٥-٣٧٦).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٣٣).

أفضى إليه سبب غير شرعي كان محرما، وما يحصل في ضمن ذلك من لذة قلبية أو روحية ـ ولو بأمور فيها نوع من الإيمان ـ فهي مغمورة بما يحصل معها من زوال العقل، ولم يأذن لنا الله أن نمتع قلوبنا ولا أرواحنا من لذات الإيمان ولا غيرها بما يوجب زوال عقولنا(١).

وقد بين شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن السكر يجمع معنيين: وجود اللذة وعدم التمييز، والذي يقصد السكر قد يقصد أحدهما، وقد يقصد كلاهما، فإن النفس لها أهواء وشهوات تلتذ بنيلها وإدراكها، والعقل والعلم بما في تلك الأفعال من المضرة في الدنيا والآخرة يمنعها من ذلك، فإذا زال العقل الحافظ انبسطت النفس في أهوائها.

فعدم العقل والتمييز لا يحمد بحال من جهة نفسه، فليس في كتاب الله ولا سنة رسوله مدح وحمد لعدم العقل والتمييز والعلم، بل قد مدح الله العلم والعقل والفقه، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾ [الزُّمَر].

ولهذا تجد المشايخ الأصحاء من الصوفية يوصون بالعلم ويأمرون باتباعه، كما الأصحاء من أهل العلم يوصون بالعمل ويأمرون به، لما يخاف في كل طريق من ترك ما يجب من الأخرى.

ولم يكن في الصحابة من حاله السكر لا عند سماع القرآن ولا عند غيره، ولا تكلم الأولون بالسكر، وإنما تكلم به طائفة من متأخري الصوفية، لما يحصل لهم نوع سكر لما في قلوبهم من الذوق والوجد مع سقوط التمييز والعقل، ويفرقون بين الصحو والسكر(٢)(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ١٠-١١).

(٢) الاستقامة (١-١٤٤/ ١٦٣).

(٣) للتوسع في عناصر السلوك والتزكية عند الصوفية، وردّ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عليهم، راجع: «موقف ابن تيمية من الصوفية» (٢/ ١١٣-٣٠٤) تأليف: محمد بن عبد الرحمن العريفي.

ونخلص مما سبق أن هذه العناصر المبتدعة التي وضعها الصوفية، قد فتحت بابا من الزندقة والشر العظيم، والقول بالحلول والاتحاد، وقد اتخذ هؤلاء الصوفية هذه المظاهر طريقا إلى تحقيق شهواتهم وتحصيل ما يريدون من العوام بناءً على أنهم أولياء وأحوالهم تسلم لهم.

وخير الهدي هدي محمد، ولم يؤثر عنه ولا عن أحد من أصحابه الكرام أنهم صدر منهم هذه الأمور والأحوال، فضلا أن يأمروا أحدا بسلوك هذه الطريقة، وقد تبين لنا من كلام شيخ الإسلام ورده عليهم ما يتضح به الحق لطالبه.

وفي الختام أريد أن أنبه بإجمال إلى ما ترتب على مذاهب الصوفية في أعمال القلوب، وأذكر ـ مرة أخرى ـ أنه لما كان منشأ ضلال الصوفية في أعمال القلوب هو قولهم بالفناء، وأنها الغاية التي تسعى إليها، والعارف المحقق هو من يصل إلى مقام الفناء، فإذا شهد عين الحقيقة اضمحلت فيها أحواله حتى يفنى ما لم يكن ويبقى ما لم يزل، فيظن أن كل ما يفعله طاعة ومحبوب ومراد لله تعالى، فلا يفرق بين الحسنة والسيئة، ولا بين الحقيقة الكونية القدرية وبين الحقيقة الدينية الإيمانية التي دعت إليها الرسل ونزلت بها الكتاب.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأن العارف المحقق ـ عنده[1] ـ هو من يصل إلى مقام الفناء، فيفنى عن جميع مراداته بمراد الحق، وجميع الكائنات مرادة له، وهذا هو الحكم عنده.

والحسنة والسيئة يفترقان في حظ العبد، لكونه ينعم بهذه ويعذب

---

(١) يعني أبا إسماعيل الهروي.

بهذه، والالتفات إلى هذا هو من حظوظ النفس، ومقام الفناء ليس فيه إلا مشاهدة مراد الحق»[(١)].

وقال أيضًا: «وكثير ممن يتكلم في الحقيقة ويشهدها، يشهد هذه الحقيقة، وهي الحقيقة الكونية التي يشترك فيها، وفي شهودها ومعرفتها؛ المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وإبليس معترف بهذه الحقيقة، وأهل النار...

فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها، ولم يقم بما أمر به من الحقيقة الدينية؛ التي هي عبادته المتعلقة بإلهيته، وطاعة أمره وأمر رسله، كان من جنس إبليس وأهل النار، وإن ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء الله تعالى، وأهل المعرفة والتحقيق ـ الذين سقط عنهم الأمر والنهى الشرعيان ـ كان شرًّا من أهل الكفر والإلحاد»[(٢)].

فلما جعلوا مقام الفناء هو الغاية عندهم، ترتبت عليه سقوط التكاليف وتعطيل الأمر والنهي وترك القيام بالأعمال الصالحة، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في معرض رده على ملاحدة الفلاسفة والباطنية الذين يقولون بإباحة المحظورات وسقوط الواجبات: «وقد أشبه هؤلاء في بعض الأمور ملاحدة المتصوفة: الذين يجعلون فعل المأمور وترك المحظور واجبًا على السالك حتى يصير عارفا محققا في زعمهم، وحينئذ يسقط عنه التكليف، ويتأولون على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر]، زاعمين أن اليقين: هو ما يدعونه من المعرفة، واليقين هنا الموت وما بعده.

كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر]، قال

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٥٤).

(٢) العبودية (ص/ ٢٧).

الحسن البصري: إن الله لم يجعل لعباده المؤمنين أجلًا دون الموت، وتلا هذه الآية[(١)]، ومنه قوله ﷺ لما توفي عثمان بن مظعون: «**أما عثمان بن مظعون فقد أتاه اليقين من ربه**»[(٢)].

وهؤلاء قد يشهدون القدر أولا وهي الحقيقة الكونية، ويظنون أن غاية العارف أن يشهد القدر ويفنى عن هذا الشهود، وذلك المشهد لا تمييز فيه بين المأمور والمحظور، ومحبوبات الله ومكروهاته، وأوليائه وأعدائه، وقد يقول أحدهم: العارف شهد أولا الطاعة والمعصية، ثم شهد طاعة بلا معصية ـ يريد بذلك طاعة القدر ـ كقول بعض شيوخهم: أنا كافر برب يعصى، وقيل له عن بعض الظالمين: هذا ماله حرام، فقال: إن كان عصى الأمر فقد أطاع الإرادة.

ثم ينتقلون إلى المشهد الثالث لا طاعة ولا معصية، وهو مشهد أهل الوحدة القائلين بوحدة الوجود، وهذا غاية إلحاد المبتدعة جهمية الصوفية، كما أن القرمطة آخر إلحاد الشيعة، وكلا الإلحادين يتقاربان، وفيهما من الكفر ما ليس في دين اليهود والنصارى ومشركي العرب، والله أعلم»[(٣)].

وقال أيضًا: «فلهذا يوجد هؤلاء الذين يشهدون القدر المحض وليس عندهم غيره، إلا ما هو قدر أيضًا ـ من نعيم أهل الطاعة، وعقوبة أهل المعصية ـ، لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، ولا يجاهدون في سبيل الله، بل ولا يدعون الله بنصر المؤمنين على الكفار، بل إذا رأى أحدهم من يدعو قال: الفقير ـ أو المحقق أو العارف ـ ما له؟ يفعل الله ما

---

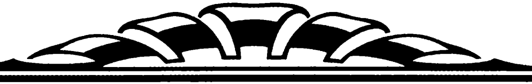
(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص/٢٧٢)، وابن مبارك في الزهد (ص/٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٩٩)، في كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت.

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٣-٥٠٤).

يشاء، وينصر من يريد؛ فإن عنده أن الجميع واحد بالنسبة إلى الله، وبالنسبة إليه أيضا؛ فإنه ليس له غرض في نصر إحدى الطائفتين لا من جهة ربه، فإنه لا فرق ـ على رأيه ـ عند الله تعالى بينهما، ولا من جهة نفسه؛ فإن حظوظه لا تنقص باستيلاء الكفار؛ بل كثير منهم تكون حظوظه الدنيوية مع استيلاء الكفار والمنافقين والظالمين أعظم، فيكون هواه أعظم»[١].

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٥٠).



# الفصل الثاني

## موقف المرجئة من أعمال القلوب، والرد عليهم من كلام شيخ الإسلام

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

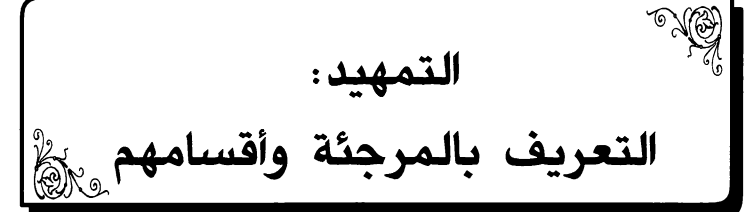
التمهيد: التعريف بالمرجئة وأقسامهم.

المبحث الأول: مذاهبهم في أعمال القلوب.

المبحث الثاني: ذكر شبهاتهم.

المبحث الثالث: الرد عليهم.





# التمهيد:
# التعريف بالمرجئة وأقسامهم

تقرر مما سبق أن الإيمان كما بينه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ قول وعمل، والقول (قول القلب وقول اللسان)، والعمل (عمل القلب وعمل الجوارح)، كما تبين لنا ثبوت زيادة الإيمان ونقصانه من خلال ثبوت التفاضل بين أعمال القلوب، وإن موقف شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هاتين المسألتين (تعريف الإيمان والقول بزيادة الإيمان ونقصانه) تعد من أبرز أوجه مخالفة شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ للمرجئة في هذا الباب، لذا سأعرض لبيان الإيمان عند المرجئة أولا، ثم موقفهم من التفاضل بين أعمال القلوب بالزيادة والنقص، مع الرد عليهم.

## المطلب الأول

## التعريف بالمرجئة

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

يرى شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أن الصحيح هو أن اسم المرجئة مأخوذ من الإرجاء، لكنه يشارك الرجاء في الاشتقاق الأكبر[(١)].

وهذا الترجيح من شيخ الإسلام لأحد قولين في اشتقاق اسم المرجئة[(٢)]:

**أحدهما:** أنه من الرجاء، بمعنى التأخير[(٣)].

يقال منه أرجأته، وأرجيته: إذا أخرته، أرجئه إرجاء، وهو مرجأ، بالهمز وترك الهمز، وهما لغتان معناهما واحد.

ويقال رجل مُرجِئٌ، والنسبة إليه مُرجِئيٌ، هذا إذا همزت.

---

(١) انظر: جامع الرسائل (١/ ١١٢).
ويريد شيخ الإسلام بالاشتقاق الأكبر: اتفاق الألفاظ في بعض الحروف دون بعض، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «أكثر المحققين من علماء العربية والبيان يثبتون المناسبة بين الألفاظ والمعاني، ويقسمون الاشتقاق إلى ثلاثة أنواع:
الاشتقاق الأصغر، وهو: اتفاق اللفظين في الحروف والترتيب: مثل علم وعالم وعليم.
والثاني: الاشتقاق الأوسط، وهو: اتفاقهما في الحروف دون الترتيب، مثل سمي و وسم...
وأما الاشتقاق الثالث: فاتفاقهما في بعض الحروف دون بعض»، مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤١٩)، وانظر أيضا: الفتاوى (١٠/ ٣٦٩)، ومنهاج السنة (٥/ ١٩٢).

(٢) انظر: الملل والنحل (١/ ١٠١).

(٣) انظر: معجم مقاييس اللغة (ص/ ٤٢٤)، ولسان العرب (٦/ ١١٨)، والمصباح المنير (ص/ ١٨٥).

وإذا لم تهمز قلت: رجل مُرجٍ، والنسبة إليه مرجيٌّ، ومرجِيّة بالتشديد[(١)].

وقد جاءت هذه المادة في جملة من النصوص الشرعية بمعنى التأخير، منها قوله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١]، وقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٦]، فمعنى الإرجاء في الآيات هو: التأخير.

وفي حديث كعب بن مالك[(٢)] ﷺ: وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا، أي أخر، وزنا ومعنى[(٣)].

والقول الثاني في اشتقاق اسم المرجئة: أنه من الرجاء، بمعنى الأمل[(٤)]، يقال رجوته، أرجوه، رُجُوًا ـ على فعول ـ أمّلته، أو أردته، قال تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ [النور: ٦٠]، أي لا يريدونه.

والاسم: الرجاء بالمد، ورجيته أرجيه، من باب رمى لغة[(٥)]، والمرجئة على هذا المعنى يجعلون الناس راجين، فهم مرجئة، لا مخيفة[(٦)(٧)].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (١١/ ١٨٣)، والقاموس المحيط (ص/ ١٦٦٠).

(٢) هو كعب بن مالك بن أبي بن كعب بن القين بن كعب، أبو عبد الله الأنصاري السلمي صحابي مشهور ﷺ، شهد العقبة وبايع بها، وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا فتاب الله عليهم، وشهد أحدا وما بعدها، مات في خلافة معاوية ﷺ سنة ٥٠هـ، انظر: طبقات ابن سعد (٤/ ٣٩٣)، وأسد الغابة (٤/ ١٨٧)، والإصابة (٥/ ٣٠٨)، والسير (٢/ ٥٢٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٧٤٩)، في كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك.

(٤) انظر: معجم مقاييس اللغة (ص/ ٤٢٤)، والقاموس المحيط (ص/ ١٦٦٠)، ولسان العرب (١١٨/٦).

(٥) المصباح المنير (ص/ ١٨٥).

(٦) انظر: جامع الرسائل. (١/ ١١٢).

(٧) آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية، عرض ونقد (ص/ ٨٣-٨٥)، تأليف: د.عبد الله بن محمد بن عبد العزيز السنَد.

◇ المسألة الثانية: التعريف الاصطلاحي.

إن الفرق والطوائف تتميز باسم رجالها، أو بنعت أحوالها، فالمرجئة من الفرق التي تميزت بنعت أحوالها، ومثلها في ذلك الشيعة، والقدرية، والخوارج[(١)].

والناظر فيما جاء عن السلف رحمهم الله في تعريف المرجئة يجد أن النعت الجامع لأحوال هذه الفرقة هو إخراج العمل من الإيمان، فكل من قال بذلك فهومرجئ.

يقول الإمام وكيع بن الجراح رَحِمَهُ اللَّهُ: «أهل السنة يقولون: الإيمان قول وعمل، والمرجئة يقولون: إن الإيمان قول بلا عمل، والجهمية يقولون: إن الإيمان المعرفة»[(٢)].

ويقول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «أهل الإرجاء يقولون: الإيمان قول بلا عمل، وتقول الجهمية: الإيمان بلا قول ولا عمل، ويقول أهل السنة: الإيمان المعرفة والقول والعمل»[(٣)].

فالمرجئة أخرجوا العمل من الإيمان، فانبنى على ذلك نفيهم لزيادة الإيمان ونقصانه، ومنعهم الاستثناء فيه، فخالفوا السنة في أمور ثلاثة، إخراجهم العمل من الإيمان، ونفيهم لزيادة الإيمان ونقصانه، ومنعهم الاستثناء فيه.

يقول سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «خالفنا المرجئة في ثلاث: نحن نقول: الإيمان قول وعمل، وهم يقولون: قول بلا عمل، ونحن نقول: يزيد

---

(١) انظر: منهاج السنة (٢/ ٥١٨-٥١٩)، ومجموع الفتاوى (١٢/ ١٧٦-١٧٧).

(٢) انظر: الشريعة (ص/ ١٤٩)، والإبانة الكبرى (٢/ ٨٠٤)، وشرح أصول الاعتقاد (٥/ ١٠٧٢).

(٣) السنة لعبد الله ابن الإمام أحمد (١/ ٣٠٥-٣٠٦).

وينقص، وهم يقولون: لا يزيد ولا ينقص، ونحن نقول: نحن مؤمنون بالإقرار، وهم يقولون: نحن مؤمنون عند الله»[(١)].

ويقول الإمام أحمد مجيبًا لمن سأله: من المرجئة؟

قال: الذين يقولون: الإيمان قول لا عمل[(٢)].

وقال فيمن لا يرى الإيمان قول و عمل، إنهم مرجئة[(٣)].

وقد برأ رَحِمَهُ اللهُ مسعر بن كدام[(٤)] من الإرجاء لقوله إن الإيمان قول وعمل[(٥)]، مع أنه لا يستثني في الإيمان، ويقول: أما أنا فلا أشك في إيماني[(٦)].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «قال أحمد: ولم يكن من المرجئة، فإن المرجئة الذين يقولون: الأعمال ليست من الإيمان، وهو كان يقول هي من الإيمان، لكن أنا لا أشك في إيماني»[(٧)].

ولعل فيما تم نقله عن بعض الأئمة في التعريف بالمرجئة كفاية في إعطاء صورة واضحة عن مرادهم بالإرجاء، وأن أهله يجتمعون في إخراج العمل من الإيمان، وأما ما عدا ذلك من المخالفات في مسائل الإيمان، فإما أن تكون تابعة لهذا الأصل ـ وهو إخراج العمل ـ،كمنع زيادة الإيمان

---

(١) شرح السنة (١/ ٤١)، للبغوي.

(٢) السنة للخلال (٣/ ٥٦٥-٥٦٦).

(٣) السنة للخلال (٣/ ٥٦٦).

(٤) هو أبو سلمة مِسْعَر بن كِدَام بن ظهير بن عبيدة بن الحارث الهلالي، أحد الأعلام، من المحدثين الثقات، كان يقال له المصحف لقوة حفظه، توفي سنة بمكة ١٥٢هـ، انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٤٨٤)، وحلية الأولياء (٧/ ٢٠٩)، وسير أعلام النبلاء (٧/ ١٦٣).

(٥) انظر: حلية الأولياء (٧/ ٢١٨).

(٦) انظر: الإيمان لأبي عبيد (ص/ ٤١).

(٧) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٧).

ونقصانه، ومنع تبعضه وأن يجتمع في العبد إيمان وكفر، وتصور وجود إيمان في القلب دون ظهوره على الجوارح، أو أن تكون المخالفة قد يقول بها من يقول إن الإيمان قول وعمل فلا يعد مرجئا، كمنع نقصان الإيمان[١]، وترك الاستثناء فيه[٢].

وأما ما جاء عن بعض السلف أن الإرجاء يقال على قوم أرجؤوا أمر عثمان وعلي رضي الله عنهما[٣]، فإن هذا مع كونه لم يعرف له طائفة، وإنما هو مقالة عارضة انتهت، فمع ذلك لا يراد به الإرجاء في الإيمان المتعلق بفرقة المرجئة[٤].

---

(١) قال شيخ الإسلام: «وكان بعض الفقهاء من أتباع التابعين لم يوافقوا في إطلاق النقصان عليه، لأنهم وجدوا ذكر الزيادة في القرآن، ولم يجدوا ذكر النقص، وهذا إحدى الروايتين عن مالك» مجموع الفتاوى (٧/٥٠٦).

(٢) آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية، عرض ونقد (ص/ ٨٠-٩١).

(٣) انظر: الملل والنحل (١/١٠١).

(٤) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام، وبيان موقف الإسلام منها (٣/ ١٠٧٣-١٠٧٥)، وانظر: آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية، عرض ونقد (ص/ ١٠١-١٠٨).

## المطلب الثاني

## أقسام المرجئة

أما أقسام المرجئة، انقسمت المرجئة في اعتقاداتها إلى أقسام كثيرة وفرق متعددة يطول ذكرها(١)، وشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان له اهتمام كبير

---

(١) فالشهرستاني يقسم المرجئة إلى أربعة أقسام: مرجئة الخوارج، ومرجئة القدرية، ومرجئة الجبرية، والمرجئة الخالصة، ثم ذكر أن المرجئة الخالصة ستة أصناف:

**الأولى**: اليونسية، أصحاب يونس بن عون النميري، وقد زعم أن الإيمان هو المعرفة بالله، والخضوع له، وترك الاستكبار عليه، والمحبة بالقلب. فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن، وما سوى ذلك من الطاعة فليس من الإيمان، ولا يضر تركها حقيقة الإيمان.

**الثانية**: العبيدية، أصحاب عبيد المكتئب، حكي عنه أنه قال: ما دون الشرك مغفور لا محالة، وأن العبد إذا مات على توحيده لا يضره ما اقترف من الآثام، واجترح من السيئات.

**الثالثة**: الغسانية، أصحاب غسان الكوفي، زعم أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى، وبرسوله، والإقرار بما أنزل الله، وبما جاء به الرسول في الجملة دون التفصيل، وقال: الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

**الرابعة**: الثوبانية، أصحاب أبي ثوبان المرجئ، الذين زعموا أن الإيمان هو المعرفة، والإقرار بالله تعالى، وبرسله عليهم الصلاة والسلام، وأخروا العمل كله عن الإيمان.

**الخامسة**: التومنية، أصحاب أبي معاذ التومني، زعم أن الإيمان هو ما عصم من الكفر، وهو اسم لخصال، إذا تركها العبد، أو ترك خصلة منها، وهي: المعرفة، والتصديق، والمحبة، والإخلاص، والإقرار بما جاء به الرسول ﷺ. قال: كل معصية لم يجمع عليها المسلمون بأنها كفر، لا يقال لصاحبها فاسق، ولكن يقال فَسق وعَصى.

**السادسة**: الصالحية، أصحاب صالح بن عمر، قال: إن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى على الإطلاق وهو أن للعالم صانعا فقط، والكفر هو الجهل به على الإطلاق، ومعرفة الله هي المحبة والخضوع له، و لا عبادة لله إلا الإيمان به، وهو معرفته. انظر: الملل والنحل (ص/ ١٠١-١٠٥).

- أما أبو الحسن الأشعري في كتابه مقالات الإسلاميين (١/ ١١٤-١٢١)، فقد قسم المرجئة إلى اثنتي عشرة فرقة، معظمهم يقولون: الإيمان هو المعرفة بالله، إلا أن أكثرهم يدخلون أعمال القلوب في الإيمان، ما عدا جهم والصالحي ومن وافقهما.

بذلك، حتى إنه نقل جُلّ ما حكاه الأشعري عن فرق المرجئة في الإيمان، وقد بلغت عنده اثنتي عشرة فرقة[1]، لكن الملاحظ أن المنهج الذي سلكه شيخ الإسلام في دراسة آراء المرجئة لم يكن بتتبع أقوال هذه الفرق جميعها وكشف مذاهبها، بل اكتفى رَحِمَهُ اللَّهُ بحصرهم فيما يجمع مقالتهم، من خلال ضابط يندرج تحته فرق المرجئة كلها، وهو ما يقع عليه اسم الإيمان، فيمكن بواسطته ضم كل فرقة إلى مثيلتها، وإن اختلفوا في التفاصيل.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمرجئة ثلاثة أصناف:

**الذين يقولون**: الإيمان مجرد ما في القلب.

ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب، وهم أكثر فرق المرجئة، كما قد ذكر أبو الحسن الأشعري أقوالهم في كتابه، وذكر فرقا كثيرة يطول ذكرهم، لكن ذكرنا مجمل أقوالهم.

ومنهم من لا يدخلها في الإيمان كجهم ومن اتبعه كالصالحي وهذا الذي نصره هو وأكثر أصحابه.

**والقول الثاني**: من يقول هو مجرد قول اللسان، وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية.

---

= ومنهم من يضيف إلى المعرفة بالله الإقرار كأبي حنيفة وأصحابه، إذ جعلهم الفرقة التاسعة من فرق المرجئة.

كما جعل المرجئة الكرامية أصحاب محمد بن كرام، الفرقة الثانية عشرة من المرجئة، وهم الذين زعموا أن الإيمان هو الإقرار فقط، دون التصديق بالقلب ودون سائر الأعمال، وأنكروا أن تكون معرفة القلب أو أي شيء غير التصديق باللسان إيمانا.

- أما البغدادي في الفرق بين الفرق (ص/٢٠٢)، فقد قسم المرجئة إلى ثلاثة أصناف، صنف منهم قالوا بالإرجاء في الإيمان وبالقدر على مذاهب القدرية المعتزلة، وصنف منهم قالوا بالإرجاء في الإيمان وبالجبر في الأعمال على مذهب جهم بن صفوان، والصنف الثالث منهم خارجون عن الجبرية والقدرية، وهم فيما بينهم خمس فرق: اليونسية، والغسانية، والثوبانية، والتومنية، والمريسية.

(١) انظر: الإيمان الأوسط (ص/٨٩-٩٣).

**والثالث**: تصديق القلب وقول اللسان، وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم»[(١)].

ومن خلال هذا التصنيف انحصر بحث شيخ الإسلام مع فرق قليلة تعود إليها عامة أقوال المرجئة[(٢)].

وبعد هذه النبذة المختصرة في ذكر أقسام المرجئة، يحسن بنا أن نشير باختصار إلى مراحل نشأة الإرجاء.

يعد النزاع في حقيقة الإيمان والإسلام أول اختلاف وقع في الأمة، وافترقت لأجله، وصاروا مختلفين في الكتاب والسنة، وكفّر بعضهم بعضا، وقاتل بعضهم بعضًا.

وذلك أنهم اختلفوا فيمن له طاعات ومعاص، وحسنات وسيئات، ومعه من الإيمان ما لا يخلد معه في النار، وله كبائر تستوجب دخول النار، وهو من يسمى الفاسق المليّ، فالخلاف فيه أول خلاف ظهر في الإسلام في مسائل أصول الدين، ومسألة الفاسق المليّ أول مسألة فرّقت الأمة[(٣)].

وأول من أظهر النزاع فيها هم الخوارج، حيث كفّروا أهل القبلة بالذنوب، بل لما يرونه من الذنوب، وقالوا ما الناس إلا مؤمن وكافر[(٤)].

ثم جاءت بعدهم المعتزلة، فقالوا: إن أهل الكبائر مخلدون في النار كما قالت الخوارج ولا نسميهم مؤمنين ولا كفارا، بل فساق ننزلهم بين منزلتين، ولم يوافقوا الخوارج في تسميتهم كفارا[(٥)].

---

(١) الإيمان الكبير (ص/١٥٥-١٥٦)، ومما تجدر به الإشارة إليه هنا؛ أن تقسيم شيخ الإسلام هذا قد سبقه إليه ابن حزم في الفصل (٢/٢٠٩).

(٢) آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام (ص/١١٩-١٢٠).

(٣) انظر: الإيمان الكبير (ص/٧)، والإيمان الأوسط (ص/٢٣)، والاستقامة (١/٤٣١).

(٤) انظر: الإيمان الأوسط (ص/٢٤)، وما بعدها.

(٥) انظر: المصدر نفسه (ص/٢٩).

وأمام هذا الغلو المفرط ظهرت مقالة مرجئة الفقهاء[١]، فقابلوا الخوارج والمعتزلة وصاروا طرفًا آخر[٢]، فحكموا على الفاسق المليّ بالإيمان الكامل، وقد ظهرت مقالة هؤلاء الفقهاء في أواخر المائة الأولى للهجرة.

وبسبب خلاف مرجئة الفقهاء انفتح الباب للجهمية[٣]، وكان ظهور جهم ومقالته في تعطيل الصفات، وفي الجبر، والإرجاء، في أواخر دولة بني أمية، أي في النصف الأول من المائة الثانية للهجرة.

ثم حدث بعد هؤلاء قول الكرامية[٤]، وانتشرت مقالتهم في المائة الثالثة للهجرة.

ثم قال الصالحي مقالته في الإيمان[٥]، فجاء الأشعري وأشهر أصحابه فتلقفوها عنه[٦] في النصف الأول من المائة الرابعة للهجرة، وهي امتداد لمقالة الجهمية[٧].

ولعل هذا الاستعراض السريع قد وضح لنا أقسام المرجئة من حيث الجملة، وعرفنا ظهور ونشأة هذه الأقسام من خلال هذا العرض التسلسلي التأريخي، مما يبرز لنا حقيقةً؛ أن البدعة كل ما كانت أقرب من عهد النبوة كانت أخف، وكلما بعدت فهي أشد، فالله أسأل أن يجنبنا البدع كلها كبيرها وصغيرها، جليها وخفيها، اللهم آمين.

---

(١) انظر: المصدر نفسه (ص/ ٥٥).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٨).
(٣) انظر: الإيمان الأوسط (ص/ ٥٦).
(٤) انظر: المصدر نفسه (ص/ ٥٧).
(٥) انظر: الإيمان الأوسط (ص/ ٥٧).
(٦) انظر: المصدر نفسه (ص/ ٥٧).
(٧) آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام (ص/ ٩٣-٩٥).



# المبحث الأول:
# مذاهب المرجئة
# في أعمال القلوب

## المطلب الأول
## مذهب الجهمية[١] في أعمال القلوب

ذهب جهم ومن وافقه إلى أن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، وأن الكفر هو الجهل به، وأن قول اللسان وعمل القلب والجوارح ليس من الإيمان، وأن الإيمان شيء واحد لا يتفاضل ولا يستثنى منه.

قال الأشعري في المقالات: «اختلف المرجئة في الإيمان ما هو؟ وهم اثنتا عشرة فرقة. **الفرقة الأولى منهم**: يزعمون أن الإيمان بالله هو المعرفة بالله وبرسوله وبجميع ما جاء من عند الله فقط، وأن ما سوى المعرفة من الإقرار باللسان، والخضوع بالقلب والمحبة لله ولرسوله، والتعظيم لهما، والخوف، والعمل بالجوارح فليس بإيمان، وزعموا أن الكفر بالله هو الجهل به، وهذا قول يحكى عن الجهم بن صفوان»[٢].

وقال الشهرستاني[٣] في بيان أقوال جهم: «ومنها قوله: من أتى

---

(١) الجهمية هم المنتسبون إلى جهم بن صفوان أبي محرز وهو من أهل خرسان، وقد تتلمذ على الجعد بن درهم، كما اتصل بمقاتل بن سليمان من المشبهة، وكان الجهم كاتبا للحارث بن سريج من زعماء خراسان وخرج معه على الأمويين فقتلا بمرو سنة ١٢٨هـ، والجهمية تطلق أحيانا بمعنى عام ويقصد بها نفاة الصفات عامة، وتطلق أحيانا بمعنى خاص ويقصد بها متابعو الجهم بن صفوان في آرائه وأهمها: نفي الصفات، والقول بالجبر، وأن الإيمان هو المعرفة، والقول بفناء الجنة والنار، انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٢١٩)، والفرق بين الفرق (ص/ ٢١١)، والملل والنحل (١/ ٦١).

(٢) مقالات الإسلاميين (١/ ١١٤).

(٣) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد، أبو الفتح الشهرستاني، كان عالما في علم الكلام والفلسفة وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة، يلقب بالأفضل، ولد في شهرستان (بين نيسابور وخوارزم) سنة ٤٧٩هـ وتوفي سنة ٥٤٨هـ، من كتبه: الملل والنحل، ونهاية الإقدام في علم الكلام، والإرشاد إلى عقائد العباد، انظر: السير (٢٠/ ٢٨٦)، والأعلام (٦/ ٢١٥).



بالمعرفة ثم جحد بلسانه لم يكفر بجحده، لأن العلم والمعرفة لا يزولان بالجحد، فهو مؤمن. قال: والإيمان لا يتبعض، أي لا ينقسم إلى عقد وقول وعمل. قال: ولا يتفاضل أهله فيه، فإيمان الأنبياء وإيمان الأمة على نمط واحد؛ إذ المعارف لا تتفاضل. وكان السلف كلهم من أشد الرادين عليه، ونسبته إلى التعطيل المحض»[(١)].

وقال ابن القيم في نونيته[(٢)] حاكيًا بعض عقائد هؤلاء:

**قالوا وإقرار العباد بأنه خلّاقهم هو منتهى الإيمان**

**والناس في الإيمان شيء واحد كالمشط عند تماثل الأسنان**

وقال شيخ الإسلام بعد نقل كلام الأشعري عن فرق المرجئة: «فهذه الأقوال التي ذكرها الأشعري عن المرجئة يتضمن أكثرها أنه لا بد في الإيمان من بعض أعمال القلوب عندهم، وإنما نازع في ذلك فرقة يسيرة كجهم والصالحي»[(٣)].

وسبق معنا كلام شيخ الإسلام حين ذكر أصناف المرجئة، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمرجئة ثلاثة أصناف:

**الذين يقولون:** الإيمان مجرد ما في القلب.

ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب، وهم أكثر فرق المرجئة»، ثم قال:

«ومنهم من لا يدخلها في الإيمان كجهم ومن اتبعه كالصالحي وهذا الذي نصره هو وأكثر أصحابه»[(٤)].

---

(١) الملل والنحل (١/ ٦٢).
(٢) الكافية الشافية (ص/ ٢٢).
(٣) الإيمان الأوسط (ص/ ٩٣).
(٤) الإيمان الكبير (ص/ ١٥٥-١٥٦).

فالجهمية تظن (أن ما في القلب من الإيمان ليس إلا التصديق فقط، دون أعمال القلوب)[١]. فعند الجهمية أن (الإيمان مجرد معرفة القلب، وإن لم يقر بلسانه)[٢].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما جهم فكان يقول: إن الإيمان مجرد تصديق القلب وإن لم يتكلم به، وهذا القول لا يعرف عن أحد من علماء الأمة وأئمتها، بل أحمد و وكيع و غيرهما كفّروا من قال بهذا القول...»[٣].

فعند الجهمية أعمال الجوارح ليست من الإيمان أيضا، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الجهمية، فهم يجعلونه (الإيمان) تصديق القلب، فلا تكون الشهادتان ولا الصلاة ولا الزكاة ولا غيرهن من الإيمان»[٤].

وقال: «وزعم جهم ومن وافقه أنه يكون مؤمنًا في الباطن، وأن مجرد معرفة القلب وتصديقه يكون إيمانًا يوجب الثواب يوم القيامة، بلا قول، ولا عمل ظاهر»[٥].

فالإيمان عند الجهمية شيء واحد، يتساوى فيه العباد، لا يتبعض، ولا يتفاضل، بل هو مجرد تصديق القلب وعلمه، كما أن الكفر لا يكون إلا بزوال التصديق من القلب، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وعند الجهمية إذا كان العلم في قلبه، فهو مؤمن كامل الإيمان، كإيمان النبيين، ولو قال وعمل ما عسى أن يقول ويعمل؟ ولا يتصور عندهم أن ينتفى عنه الإيمان إلا إذا زال ذلك العلم من قلبه»[٦].

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ١٦٢).

(٢) الإيمان الأوسط (ص/ ٥٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٧).

(٤) الإيمان الكبير (ص/ ١٢٦).

(٥) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٢١).

(٦) الإيمان الكبير (ص/ ١١٧).

وخلاصة قول الجهمية في الإيمان أنهم يحصرونه في مجرد المعرفة، ويخرجون منه عمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح، كما أنهم ينفون زيادة الإيمان ونقصانه، فمن صدق بقلبه فهو كامل الإيمان.

ومن لم يأت بالشهادتين، أو أتى بكل مكفر، من غير إكراه، فهو كافر في الظاهر، مع احتمال كونه مؤمنًا في الباطن، إذ لا يتصور ذهاب الإيمان عندهم إلا بذهاب المعرفة من القلب.

**والصنف الأول** الذي ذكره شيخ الإسلام ممن لا يدخل عمل القلب في الإيمان أشهر من يمثله: الجهمية ـ وقد مر ذكرهم ـ، ومن وافقهم من الأشاعرة والماتريدية.

**أما الأشاعرة** فلم تكن على مقالة واحدة في مسمى الإيمان، وحتى شيخهم الأشعري مذهبه مختلف في ذلك، وحاصل أقولهم في هذه المسألة ثلاثة، هي:

**القول الأول**: وافقوا فيه السلف في أن الإيمان قول وعمل، وهذا آخر قولي الأشعري(١)، واختاره طائفة من أصحابه(٢).

**القول الثاني**: وافقوا فيه فقهاء المرجئة، وابن كلاب، في أن الإيمان تصديق القلب، وقول اللسان(٣).

**القول الثالث**: وافقوا فيه الجهمية في أن الإيمان مجرد تصديق القلب، وهذا أشهر أقوال شيخهم أبي الحسن الأشعري، وعليه أكثر أصحابه،

(١) انظر: الإبانة عن أصول الديانة (ص/ ٥٤)، ومقالات الإسلاميين (١/ ٢٢٩).

(٢) الإيمان الأوسط (ص/ ٥٧).

(٣) التسعينية (٦/ ٥١١)، ضمن الفتاوى الكبرى.

كالقاضي أبي بكر الباقلاني[١]، وأبي المعالي الجويني وغيرهما[٢][٣].

يقول الباقلاني: «فإن قال قائل ما الإيمان عندكم؟ قلنا: الإيمان هو التصديق بالله تعالى، وهو العلم، و التصديق يوجد بالقلب»[٤]، ويوضحه قوله في حد الكفر: «وإن قال قائل: ما الكفر عندكم؟ قيل له: هو ضد الإيمان، وهوالجهل بالله ﷻ، والتكذيب به الساتر لقلب الإنسان عن العلم به، فهو كالمغطى عن معرفة الحق»[٥].

ويقول الجويني: «والمرضي عندنا أن حقيقة الإيمان التصديق بالله تعالى، فالمؤمن بالله من صدقه، ثم التصديق على التحقيق كلام النفس، ولكن لا يثبت إلا مع العلم»[٦].

ويقول أبو القاسم الأنصاري[٧] ـ شيخ الشهرستاني ـ، في شرح الإرشاد: «وأما مذاهب أصحابنا ـ يعني الأشاعرة ـ، فصار أهل التحقيق من

---

(١) هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن قاسم البصري، ثم البغدادي، ابن الباقلاني، من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة، كان من أهل البصرة، وسكن بغداد، ولد سنة ٣٣٨ هـ وتوفي سنة ٤٠٣ هـ، انظر: السير (١٧/ ١٩٠)، والأعلام (٦/ ١٧٦).

(٢) هو إمام الحرمين، أبو المعالي، عبد الملك ابن أبي محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف الجويني، ثم النيسابوري، ضياء الدين، شيخ الشافعية، صاحب التصانيف، ولد سنة ٤١٩هـ وتوفي سنة ٤٧٨هـ، انظر: السير (١٨/ ٤٦٨)، وطبقات الشافعية (٥/ ١٦٥).

(٣) انظر: الإيمان الكبير (ص/ ١٥٥-١٥٦)، والإيمان الأوسط (ص/ ١٢٧)، والنبوات (١/ ٥٨٠).

(٤) التمهيد (ص/ ٣٨٨-٣٩٩).

(٥) المصدر نفسه (ص/ ٣٩٢-٣٩٤).

(٦) الإرشاد (ص/ ٣٣٣-٣٣٤).

(٧) هو أبو القاسم سليمان بن ناصر بن عمران النيسابوري الأنصاري، الصوفي، الأشعري، الشافعي، تلميذ إمام الحرمين صاحب أبي القاسم القشيري الصوفي، أخذ عنه، وُصف بالذكاء والبراعة، والزهد والتصوف، توفي ٥١١هـ، انظر: السير (١٩/ ٤١٢)، وطبقات الشافعية (٧/ ٩٦)، والوافي بالوفيات (١٣/ ١٠٧).

أصحاب الحديث والنظار منهم إلى أن الإيمان هو التصديق، وبه قال شيخنا أبو الحسن رحمة الله عليه»[١].

فالحاصل أن الذي استقر عليه مذهب الأشاعرة هو الموافقة لقول جهم في إنكار دخول أعمال القلوب في حقيقة الإيمان، وأن الإيمان عندهم إنما هو مجرد المعرفة أو التصديق.

وأما الماتريدية[٢]، فإنهم يوافقون الجهمية والأشاعرة في أحد قوليهم، وهو أن الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، وأما قول اللسان أو الإقرار فليس داخلا في الإيمان، وإنما هو دليل وشرط لإجراء أحكام الدنيا، وكذلك العمل غير داخل في الإيمان[٣].

قال الماتريدي[٤]: «ثم قد ثبت بأدلة القرآن وما عليه أهل الإيمان، والذي جرى به من اللسان أن الإيمان هو التصديق»[٥].

وقال أبو المعين النسفي[٦]: «الإيمان في اللغة عبارة عن التصديق،

---

(١) شرح الإرشاد (٢٧٨/ب-٢٧٠أ)، مخطوط، نقلاً عن آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام (ص/ ٢٣٩).

(٢) هي فرقة كلامية تنتسب إلى أبي منصور الماتريدي، ومصدرهم في تلقي الإلهيات والنبوات العقل، ولم يثبتوا إلا ثمان صفات، ويرون أن الإيمان هو التصديق، وبعضهم يضم إليه الإقرار باللسان، ونفوا زيادة الإيمان ونقصانه، وحرموا الاستثناء فيه، فهي مقاربة لفرقة الأشاعرة في باب الأسماء والصفات، وفي المعتقد عموما، إلا أن بينهم فروقا في مسائل متعددة، انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٩٥)، والماتريدية - دراسة وتقويما للدكتور أحمد الحربي.

(٣) انظر: الإيمان الأوسط (ص/ ٥٨).

(٤) هو أبو منصور، محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي، وماتريد محلة بسمرقند فيما وراء النهر (انظر: معجم البلدان ٥/ ٣٢ وسماها ماتيرب)، من كتبه التوحيد وأوهام المعتزلة، والرد على القرامطة، وتأويلات أهل السنة، وشرح الفقه الأكبر المنسوب للإمام أبي حنيفة، وغيرها. توفي سنة ٣٣٣هـ. انظر: الأعلام (٧/ ١٩).

(٥) التوحيد للماتريدي (ص/ ٤٢٦).

(٦) هو ميمون بن محمد بن محمد بن معبد بن مكحول، أبو المعين النسفي الحنفي، عالم بالأصول والكلام، من كتبه: بحر الكلام، وتبصرة الأدلة، والتمهيد لقواعد التوحيد وغيرها، ولد سنة ٤١٨هـ وتوفي سنة ٥٠٨هـ، انظر: الأعلام (٧/ ٣٤١).

فكل من صدق غيره فيما يخبر يسمى في اللغة مؤمنًا به، ومؤمنًا له...، ثم إن هذا اللغوي وهو التصديق بالقلب، هو حقيقة الإيمان الواجب على العبد حقا لله تعالى، وهو أن يصدق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند الله تعالى، فمن أتى بهذا التصديق فهو مؤمن فيما بينه وبين الله تعالى. والإقرار يحتاج إليه ليقف عليه الخلق فيجروا عليه أحكام الإسلام، هذا هو المروي عن أبي حنيفة رحمه الله، وإليه ذهب الشيخ أبو منصور الماتريدي رحمه الله، وهو أصح الروايتين عن أبي الحسن الأشعري»(١).

وقال ملا علي القاري(٢): «وذهب جمهور المحققين إلى أن الإيمان هو التصديق بالقلب، وإنما الإقرار شرط لإجراء الأحكام في الدنيا...، وهذا اختيار الشيخ أبي منصور الماتريدي»(٣).

فحاصل هذه الأقوال أن الجهمية والأشاعرة والماتريدية يذهبون إلى أن الإيمان مجرد المعرفة أو التصديق الذي في القلب، وإن لم يقترن به قول اللسان، ولم يقتض عملًا في القلب والجوارح.

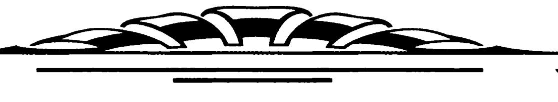
أما ما يتعلق بزيادة الإيمان ونقصانه، فالجهمية والماتريدية يرون عدم زيادته ونقصانه، أما الأشاعرة فلهم في المسألة قولان: فجمهورهم على أنه لا يقبل الزيادة والنقصان، وذهب بعضهم إلى أنه يقبلهما (أي التصديق الذي هو الإيمان عندهم يقبلهما).

---

(١) التمهيد لقواعد التوحيد (ص/ ٣٧٧-٣٧٨).

(٢) هو علي بن (سلطان) محمد، نور الدين الملا الهروي القاري: فقيه حنفي، من صدور العلم في عصره، ولد في هراة وسكن مكة وتوفي بها، له كتب منها: شرح مشكاة المصابيح، وضوء المعالي، ومنح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر، وغيرها، توفي سنة ١٠١٤هـ، انظر: الأعلام (٥/ ١٢).

(٣) شرح الفقه الأكبر (ص/ ٢٥٣).



## المطلب الثاني

## مذهب الكرامية(١) في أعمال القلوب

أما الصنف الثاني الذين ذكرهم شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض تصنيفه لأقوال المرجئة هم الكرامية، قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**والقول الثاني**: من يقول هو مجرد قول اللسان، وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية»(٢).

فالأشعري جعل المرجئة الكرامية أصحاب محمد بن كرام(٣) الفرقة الثانية عشرة من المرجئة، وهم الذين زعموا أن الإيمان هو الإقرار فقط، دون التصديق بالقلب ودون سائر الأعمال، وأنكروا أن تكون معرفة القلب أو أي شيء غير التصديق باللسان إيمانًا(٤).

فالكرامية لهم في الإيمان قول ما سبقهم إليه أحد، وهو قولهم إن الإيمان قول باللسان، وإن لم يعتقد بقلبه.

---

(١) الكرامية هم أتباع محمد بن كرام السجستاني ت٢٥٥هـ، وهم يوافقون السلف في إثبات الصفات، ولكنهم يبالغون في ذلك إلى حد التشبيه والتجسيم، وكذلك يوافقون السلف في إثبات القدر والقول بالحكمة ولكنهم يوافقون المعتزلة في وجوب معرفة الله بالعقل وفي الحسن والقبح العقلين، وهم يعدون من المرجئة لقولهم بأن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط. انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٢٢٣)، والملل والنحل (١/ ٧٨)، والفرق بين الفرق (ص/ ٢١٥).

(٢) الإيمان الكبير (ص/ ١٥٥-١٥٦).

(٣) هو محمد بن كرام السجستاني أبو عبد الله، إمام الكرامية، كان زاهدًا عابدًا، ولكنه يروي الواهيات، قال عنه ابن حبان: خُذل حتى التقط من المذاهب أردأها، ومن الأحاديث أوهاها، توفي سنة ٢٥٥ هـ بأرض بيت المقدس، انظر: السير (١١/ ٥٢٣).

(٤) مقالات الإسلامين (١/ ١٢٠).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقالت الكرامية هو القول فقط، فمن تكلم به فهو مؤمن كامل الإيمان، لكن إن كان مقرا بقلبه كان من أهل الجنة، وإن كان مكذبا بقلبه كان منافقا مؤمنًا من أهل النار، وهذا القول هو الذي اختصت به الكرامية وابتدعته، ولم يسبقها أحد إلى هذا القول، وهو آخر ما أحدث من الأقوال في الإيمان»[١].

ويقول أيضًا: «والكرامية قولهم في الإيمان قول منكر لم يسبقهم إليه أحد، حيث جعلوا الإيمان قول اللسان وإن كان مع عدم تصديق القلب، فيجعلون المنافق مؤمنًا لكنه يخلد في النار، فخالفوا الجماعة في الاسم دون الحكم»[٢].

وقد نبّه شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ على أمرين مهمين في فهم قول الكرامية:

**الأول**: أنهم وإن أخرجوا التصديق من مسمى الإيمان، إلا أنهم يوجبونه، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «مع أن الكرامية لا تنكر وجوب المعرفة والتصديق، ولكن تقول: لا يدخل في اسم الإيمان؛ حذرا من تبعضه وتعدده، لأنهم رأوا أنه لا يمكن أن يذهب بعضه ويبقى بعضه، بل ذلك يقتضي أن يجتمع في القلب إيمان وكفر، واعتقدوا الإجماع على نفي ذلك»[٣].

**والثاني**: أنهم مع قولهم بأن المنافق مؤمن فهذا حكمه في الدنيا فحسب، وأما في الآخرة فهو مخلد في النار، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «حتى الكرامية الذين يسمون المنافق مؤمنًا، ويقولون: الإيمان هو الكلمة، يقولون: إنه لا ينفع في الآخرة إلا الإيمان الباطن. وقد حكى بعضهم عنهم

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٥٦).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ١٠٣).

(٣) الإيمان الكبير (ص/ ٣٠٨).

أنهم يجعلون المنافقين من أهل الجنة، وهو غلط عليهم، إنما نازعوا في الاسم لا في الحكم بسبب شبهة المرجئة في أن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل»[١].

ويقول أيضًا: «والكرامية توافق المرجئة والجهمية في أن إيمان الناس كلهم سواء، ولا يستثنون في الإيمان، بل يقولون: هو مؤمن حقا لمن أظهر الإيمان وإذا كان منافقا فهو مخلد في النار عندهم، فإنه إنما يدخل الجنة من آمن باطنًا وظاهرا.

ومن حكى عنهم أنهم يقولون: المنافق يدخل الجنة فقد كذب عليهم، بل يقولون: المنافق مؤمن، لأن الإيمان هو القول الظاهر، كما يسميه غيرهم مسلما، إذ الإسلام: هو الاستسلام الظاهر»[٢].

وحاصل كلام الكرامية في الإيمان هو؛ أن الإيمان مجرد قول اللسان، فمن أتى به فهو مؤمن كامل الإيمان، فهم يخرجون عمل القلب و الجوارح من الإيمان، بل يخرجون التصديق أيضًا مع قولهم بوجوبه.

ثم إن المنافق عندهم مؤمن في الدنيا لأنه أتى بالقول، لكنه مخلد في النار لأنه مكذب بقلبه.

ويقولون إن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل والناس فيه سواء، ولا يجتمع في العبد إيمان وكفر، وكذلك ينفون الاستثناء في الإيمان[٣].

---

(١) المصدر نفسه (ص/ ١٧١).

(٢) المصدر نفسه (ص/ ١١٦).

(٣) انظر: آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام (ص/ ٢٢١-٢٢٦).

## المطلب الثالث:

## مذهب مرجئة الفقهاء في أعمال القلوب

أما الصنف الثالث الذين ذكرهم شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض تصنيفه لأقوال المرجئة فهم مرجئة الفقهاء، قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**والثالث**: تصديق القلب وقول اللسان، وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم»(١).

والمقصود بمرجئة الفقهاء؛ من نسب إليه الإرجاء من الفقهاء كحماد بن أبي سليمان وأبي حنيفة ومن تبعهما(٢).

وقد ذهبوا إلى أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان، وأخرجوا العمل عن مسمى الإيمان، وزعموا أنه لا يزيد ولا ينقص، ولا يستثنى فيه، مع قولهم إن مرتكب الكبيرة معرض للوعيد، وهو تحت المشيءة كما هو قول أهل السنة والجماعة.

قال الأشعري في المقالات في عد فرق المرجئة: «والفرقة التاسعة من المرجئة: أبو حنيفة وأصحابه، يزعمون أن الإيمان المعرفة بالله والإقرار بالله، والمعرفة بالرسول، والإقرار بما جاء من عند الله في الجملة دون التفسير»(٣).

---

(١) الإيمان الكبير (ص/١٥٦).

(٢) تنبيه: إن المقصود بمرجئة الفقهاء هنا هم المتقدمون منهم، وأما المتأخرون منهم فإنهم أقرب إلى مذهب الأشاعرة والماتريدية، انظر الإيمان الأوسط (ص/٥٦-٥٨)، وانظر أيضا: الإيمان بين السلف والمتكلمين (ص/٩٨-٩٩)، تأليف شيخنا أحمد بن عطية بن علي الغامدي.

(٣) مقالات الإسلاميين (١/١١٩).

وقال ابن حزم: «وذهب قوم أن الإيمان هو؛ المعرفة بالقلب والإقرار باللسان معا، فإذا عرف المرء بقلبه وأقر به لسانه فهو مسلم كامل الإيمان والإسلام، وأن الأعمال لا تسمى إيمانًا ولكنها شرائع الإيمان، وهذا قول أبي حنيفة النعمان بن الثابت الفقيه وجماعة من الفقهاء»[١].

ومع أن بدعة هؤلاء تعد أخف بدع المرجئة، إلا أن أئمة السلف آنذاك كان لهم معها وقفة عظيمة تمثلت في الإنكار على أهلها، وتغليظ القول فيهم، وتبديع مقالتهم، وردها، وبيان ما تحمله من خطر عظيم على الدين[٢].

قال إبراهيم النخعي[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَفِتْنَتُهم - يعني المرجئة - أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة»[٤].

وقال الإمام الزهري[٥] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما ابتدعت في الإسلام بدعة هي أضر على أهله من هذه - يعني: الإرجاء»[٦].

وقال شريك القاضي[٧] رَحِمَهُ ٱللَّهُ وذكر المرجئة فقال: «هم أخبث قوم،

---

(١) الفصل (٢/ ٢٠٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٧).

(٣) هو أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن الأسود النخعي، اليماني، ثم الكوفي، مفتي الكوفة في زمانه، كان واسع الرواية، فقيه النفس، كبير الشأن، كثير المحاسن، توفي سنة ٩٦ هـ، انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٣٨٨)، ووفيات الأعيان (١/ ٢٥)، والسير (٤/ ٥٢٠).

(٤) السنة للخلال (٣/ ٥٦٢-٥٦٣).

(٥) هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، أبو بكر، إمام حافظ حجة ثقة ثبت، ولد سنة ٥٨ هـ، توفي سنة ١٢٤ هـ، انظر: طبقات ابن سعد (٧/ ٤٢٩)، ووفيات الأعيان (١/ ٤٥١)، والسير (٥/ ٣٢٦)، والأعلام (٧/ ٩٧).

(٦) الإيمان لأبي عبيد (ص/ ٦٥).

(٧) هو شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي الكوفي، أبو عبد الله، فقيه، اشتهر بقوة ذكائه وسرعة بديهته، استقضاه أبو جعفر المنصور على الكوفة، توفي سنة ١٧٧ هـ، انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٤٦٤)، والسير (٦/ ١٥٩)، والأعلام (٣/ ١٦٣).

حسبك بالرفض خبثًا، ولكن المرجئة يكذبون على الله»[١].

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تركت المرجئة الإسلام أرق من ثوب سابري»[٢].

أما المسائل التي خالف فيها مرجئة الفقهاء ما عليه سلف الأمة في باب الإيمان خاصة، فقد حررها شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحريرا بالغا، إذ يقول: «ثم بعد ذلك تنازع الناس في اسم المؤمن والإيمان نزاعًا كثيرًا، منه لفظي وكثير منه معنوي، فإن أئمة الفقهاء لم ينازعوا في شيء مما ذكرناه من الأحكام، وإن كان بعضهم أعلم بالدين وأقوم به من بعض، ولكن تنازعوا في الأسماء، كتنازعهم في:

الإيمان هل يزيد وينقص؟

وهل يستثنى فيه أم لا؟

وهل الأعمال من الإيمان أم لا؟

وهل الفاسق الملي مؤمن كامل الإيمان أم لا؟

والمأثور عن الصحابة وأئمة التابعين وجمهور السلف وهو مذهب أهل الحديث وهو المنسوب إلى أهل السنة أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأنه يجوز الاستثناء فيه»[٣].

ـ وقد سبق أن الإيمان عندهم تصديق القلب وقول اللسان، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهؤلاء المعروفون مثل حماد بن أبي سليمان وأبي حنيفة

---

(١) الشريعة للآجري (ص/١٤٨).

(٢) شرح أصول الاعتقاد (٥/١٠٦١)، والثوب السابري؛ هو الرقيق الذي يستشف ما وراءه، انظر: لسان العرب (٧/١٠٩)، مادة «سبر».

(٣) الإيمان الأوسط (ص/٥٤).

وغيرهما من فقهاء الكوفة، كانوا يجعلون قول اللسان، واعتقاد القلب من الإيمان.

وهو قول أبي محمد بن كلاب وأمثاله، لم يختلف قولهم في ذلك ولا نقل عنهم أنهم قالوا الإيمان مجرد تصديق القلب»[١].

ـ فعندهم يمكن أن يحصل الإيمان التام في القلب بدون العمل الظاهر، لأنهم أخرجوا العمل الظاهر من الإيمان، فقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أن من الأغلاط التي يقول بها المرجئة جميعًا: «ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تاما بدون العمل الظاهر»[٢].

ويقول أيضًا: «والمرجئة المتكلمون منهم، والفقهاء يقولون: إن الأعمال قد تسمى إيمانًا مجازا: لأن العمل ثمرة الإيمان ومقتضاه، ولأنها دليل عليه»[٣].

وهذا لا يعني أنهم لا يقيمون للأعمال وزنا، بل عندهم أن الأعمال المفروضة واجبة، ويرون أن الإيمان بدون العمل المفروض ومع فعل المحرمات، يكون صاحبه مستحقا للذم والعقاب[٤]، لكنهم مع ذلك يعدون فعل الواجبات وترك المحرمات ليس من الإيمان.

ـ فعندهم الإيمان شيء واحد، لا يزيد ولاينقص، ولا يتفاضل، ولا يستثنى فيه، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأنكر حماد بن أبي سليمان ومن اتبعه تفاضل الإيمان ودخول الأعمال فيه، والاستثناء فيه، وهؤلاء مرجئة الفقهاء»[٥].

---

(١) المصدر نفسه (ص/ ٥٦).
(٢) الإيمان الكبير (ص/ ٢٨٦).
(٣) الإيمان الكبير (ص/ ١٥٥).
(٤) المصدر نفسه (ص/ ٢٣٣).
(٥) الإيمان الأوسط (ص/ ٥٥).

وقال أيضًا: «والحزب الثاني وافقوا أهل السنة على أنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد، ثم ظنوا أن هذا لا يكون إلا مع وجود كمال الإيمان؛ لاعتقادهم أن الإيمان لا يتبعض، فقالوا: كل فاسق فهو كامل الإيمان، وإيمان الخلق متماثل لا متفاضل، وإنما التفاضل في غير الإيمان من الأعمال، وقالوا: الأعمال ليست من الإيمان لأن الله فرق بين الإيمان والأعمال في كتابه، ثم قال الفقهاء المعتبرون من أهل هذا القول: إن الإيمان هو تصديق القلب وقول اللسان، وهذا المنقول عن حماد بن أبي سليمان ومن وافقه كأبي حنيفة وغيره»(١).

فإذا كان مرجئة الفقهاء يجعلون الإيمان تصديق بالقلب وقول اللسان، وأخرجوا العمل من مسماه، وزعموا أنه لا يزيد ولا ينقص، ولا يستثنى فيه، مع قولهم إن مرتكب الكبيرة معرض للوعيد، وهو تحت المشيئة.

فما هو موقفهم من أعمال القلوب؟

إن المتتبع لأقوال المرجئة وأقوال المحققين من أهل العلم يجد أن هناك اضطرابا في موقفهم من أعمال القلوب هل هي من الإيمان أو لا(٢):

فيقول أبو جعفر الطحاوي(٣) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ونحب أصحاب رسول ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان،

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٧١).

(٢) انظر: أعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها عند أهل السنة ومخالفيهم (٢/ ٨٢٤).

(٣) أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي، أبو جعفر الطحاوي: فقيه انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر، ولد ونشأ في (طحا) من صعيد مصر، وتفقه على مذهب الشافعي، ثم تحول حنفيا، كان إمامًا فقيهًا محدثًا ثقة ثبتًا، من مصنفاته: شرح معاني الآثار، والعقيدة الطحاوية وغيرها، وتوفي سنة ٣٢١ بالقاهرة، انظر: وفيات الأعيان (١/ ٧١)، والسير (١٥/ ٢٧)، الأعلام (١/ ٢٠٦).

وبغضهم كفر ونفاق وطغيان»[١].

قال ابن أبي العز رحمه الله معلقًا على ذلك: «وتسمية حب الصحابة إيمانًا مشكل على الشيخ رحمه الله ـ يعني الطحاوي ـ، لأن الحب عمل القلب وليس التصديق، فيكون العمل داخلا في مسمى الإيمان، وقد تقدم في كلامه أن: الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، ولم يجعل العمل داخلا في مسمى الإيمان، وهذا هو المعروف من مذهب أبي حنيفة، إلا أن تكون هذه التسمية مجازا»[٢].

فأبو جعفر الطحاوي يسمي الحب الذي هو عمل القلب إيمانًا، وأما ابن أبي العز فيصرح أن الحب ليس من الإيمان وإن سمي مجازًا.

ويقول أبو جعفر الطحاوي رحمه الله: «والإيمان: هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان، وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق، والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى، ومخالفة الهوى، وملازمة الأولى»[٣].

فكلام أبي جعفر الطحاوي هنا يدل على أن أعمال القلوب ليست من الإيمان ولهذا دخل فيها التفاضل كما مثل بالخشية والتقوى، مع أنه متناقض في جعله للإيمان أصلًا الذي يفهم أن له فرعا، مع أنه يقرر أن الإيمان واحد.

فلما أراد أن يجمع بين قول أصحابه أن الإيمان واحد، وبين مذهب أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص قال: «وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقوى»، ولهذا قال ابن أبي العز رحمه الله معلقًا على ذلك: «و

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٧٠٤).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٧١٢).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ٥٠٥).

لهذا - والله أعلم - قال الشيخ رحمه الله «وأهله في أصله» سواء يشير إلى أن التساوي إنما هو في أصله، ولا يلزم منه التساوي من كل وجه»[١].

وقال زين الدين ابن همام الحنفي - صاحب المسايرة: «ثم جعل بعض أهل العلم الاستسلام والانقياد - الذي هو معنى الإسلام - داخلا في معنى التصديق»[٢].

فزين الدين يشير إلى أن هذا قول بعض أهل العلم، فهو مشعر بأن من الأحناف من يقول بغير هذا القول.

وقال صاحب الحاشية على المسايرة: «قال العلامة سعد الدين: ليس حقيقة التصديق أن يقع في القلب نسبة التصديق إلى المخبر والخبر من غير إذعان وقبول، قلت: تقدم أنه لا يكون العلم بدون إذعان تصديقا»[٣].

فالحاصل أن مرجئة الفقهاء مضطربون في إدخال أعمال القلوب في مسمى الإيمان، ولهذا نجد شيخ الإسلام أحيانا يجزم أنهم يخرجون أعمال القلوب، فيقول رحمه الله: «ومن هنا غلطت الجهمية والمرجئة، فإنهم جعلوا الإيمان من باب القول، إما قول القلب الذي هو علمه، أو معنى غير العلم عند من يقول بذلك، وهذا قول الجهمية ومن تبعهم، كأكثر الأشعرية وبعض متأخري الحنفية.

وإما قول القلب واللسان، كالقول المشهور عن المرجئة، ولم يجعلوا عمل القلب، مثل حب الله ورسوله، ومثل خوف الله من الإيمان، فغلطوا في هذا الأصل»[٤].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٢/٥٠٩).

(٢) المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة (ص/٢٩١-٢٩٢).

(٣) الحاشية على المسايرة (٢٩٥).

(٤) جامع المسائل (٥/٢٤٦) لشيخ الإسلام، وانظر: الإيمان الكبير (ص/١٥٥-١٥٦)، ومنهاج السنة (٥/٢٠٢).

وأحيانًا تراه لا يجزم أنهم يخرجون أعمال القلوب من الإيمان، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإخراجهم العمل يشعر أنهم أخرجوا أعمال القلوب أيضا، وهذا باطل قطعا»[(١)]، ويقول أيضًا: «لكنهم إذا لم يدخلوا أعمال القلوب في الإيمان لزمهم قول جهم، وإن أدخلوها في الإيمان لزمهم دخول أعمال الجوارح أيضا، فإنها لازمة لها»[(٢)].

ومن خلال هذا الاستعراض السريع لأقوال المخالفين في الإيمان تبين لنا أمور:

ـ إن الإيمان عند الجهمية ومن وافقهم من الأشاعرة والماتريدية هو المعرفة أو التصديق فقط، وأن أعمال القلوب عندهم ليست من الإيمان.

ـ إن الإيمان عند الكرامية هو مجرد قول اللسان، فليست أعمال القلوب من الإيمان، بل حتى التصديق عندهم ليس من الإيمان ولو أنهم يوجبونه.

ـ إن الإيمان عند مرجئة الفقهاء هو تصديق القلب وقول اللسان، فهل أعمال القلوب عندهم من الإيمان أولا، هذا أمر مضطرب عندهم، بل حتى من كلام شيخ الإسلام لم يتبين موقفهم من أعمال القلوب[(٣)].

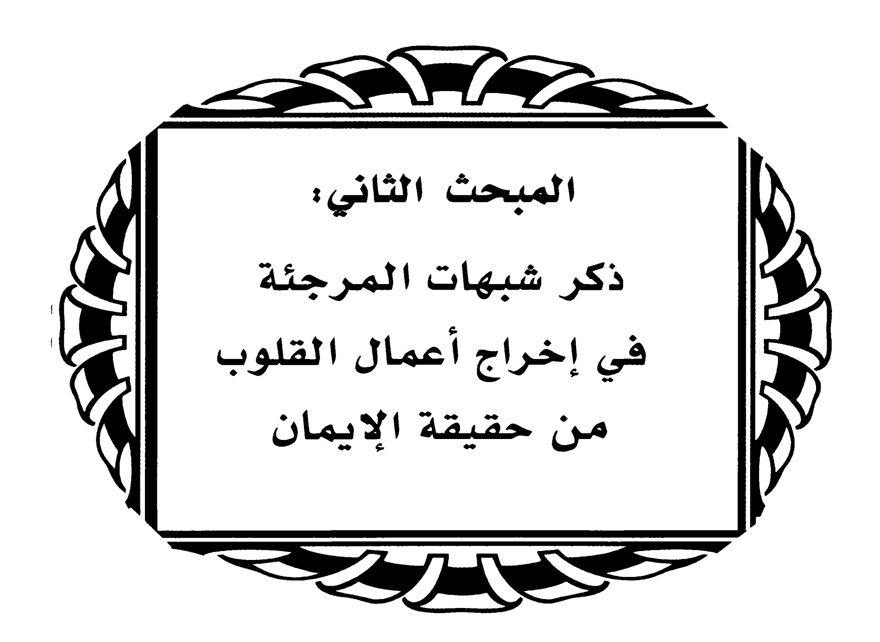
ـ هؤلاء كلهم ينفون زيادة الإيمان ونقصانه، إلا ما ورد عن الأشاعرة أن لهم في المسألة قولين، مع أن من يقول منهم بالزيادة أو النقص فمرادهم بالزيادة والنقص زيادة التصديق أو نقصانه، والله تعالى أعلم.

---

(١) الإيمان الأوسط (ص/ ١٠٠).

(٢) الإيمان الكبير (ص/ ١٥٥).

(٣) رجح صاحب الكتاب: آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام عرض ونقد، الدكتور عبد الله ابن محمد بن عبد العزيز السند، أن مرجئة الفقهاء يخرجون أعمال القلوب من الإيمان كما يخرجون أعمال الظاهر، انظر: (ص/ ١٨٥-١٩٠).



# المبحث الثاني:

# ذكر شبهات المرجئة في إخراج أعمال القلوب من حقيقة الإيمان

لعل مما سبق من استعراض مذاهب المرجئة في الإيمان تبين لنا أن انحرافاتهم في أعمال القلوب تتمثل في أمرين:

**الأول:** إهمال أعمال القلوب بالكلية، بحيث لم يدخلوها في حقيقة الإيمان أصلا، ولم يعتبروها جزءًا منه.

**والثاني:** إهمال أحكامها، وهي مخالفات تنبني على عدم إدخال أعمال القلوب في مسمى الإيمان، كالتفاضل فيها بالزيادة والنقصان، وتفاضل أهلها فيها، والارتباط بينها وبين أعمال الجوارح، وعلاقة التأثير المتبادل بينهما.

وفي هذا المبحث نحاول أن نسلط الضوء على أبرز شبهات المرجئة التي جعلتهم يخالفون أهل السنة في هاتين المسألتين، ويتضح هذا من خلال المطلبين التاليين:

## المطلب الأول

## شبهات المرجئة

## في إخراج أعمال القلوب من حقيقة الإيمان

وعمدة جميع الفرق لإخراج العمل ـ ومن ذلك العمل القلبي ـ من الإيمان هي الشبهة اللغوية، وهو قولهم إن الإيمان في اللغة هو التصديق، بل ادعوا الإجماع على ذلك.

قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فحجة الجهمية، والكرامية، والأشعرية، ومن ذهب مذهب أبي حنيفة حجة واحدة، وهي أنهم قال: إنما نزل القرآن بلسان عربي مبين، وبلغة العرب خاطبنا الله تعالى ورسوله ﷺ، والإيمان في اللغة هو التصديق فقط»[١].

ولما ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ قول المرجئة في الإيمان أعقبه بقوله: «ونحن نذكر عمدتهم، لكونه مشهورًا عند كثير من المتأخرين المنتسبين إلى السنة.

قال القاضي أبو بكر في التمهيد: فإن قالوا: فخبرونا ما الإيمان عندكم؟ قيل: الإيمان هو التصديق بالله وهو العلم، والتصديق يوجد بالقلب.

فإن قال: فما الدليل على ما قلتم؟ قيل: إجماع أهل اللغة قاطبة على أن الإيمان قبل نزول القرآن وبعثة النبي ﷺ هو التصديق، لا يعرفون في اللغة إيمانًا غير ذلك.

---

(١) الفصل (٢/ ٢٠٩).



ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يُوسُف: ١٧]، أي بمصدق لنا.

ومنه قولهم: فلان يؤمن بالشفاعة، وفلان لا يؤمن بعذاب القبر أي: لا يصدق بذلك.

فوجب أن الإيمان في الشريعة هو الإيمان المعروف في اللغة، لأن الله ما غير اللسان العربي ولا قلبه، ولو فعل ذلك لتواترت الأخبار بفعله وتوفرت دواعي الأمة على نقله، ولغلب إظهاره على كتمانه، وفي علمنا بأنه لم يفعل ذلك، بل إقرار أسماء الأشياء والتخاطب بأسره على ما كان؛ دليل على أن الإيمان في الشريعة هو الإيمان اللغوي.

ومما يبين ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزّخرُف: ٣]، فأخبر أنه أنزل القرآن بلغة العرب وسمى الأسماء بمسمياتهم، ولا وجه للعدول بهذه الآيات عن ظواهرها بغير حجة، لا سيما مع القول بالعموم، وحصول التوقيف على أن القرآن نزل بلغتهم، فدل على ما قلناه من أن الإيمان ما وصفناه دون ما سواه من سائر الطاعات من النوافل والمفروضات، هذا لفظه[(١)].

وهذا عمدة من نصر قول الجهمية في مسألة الإيمان»[(٢)].

وذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا أنهم يقولون: «الإيمان في اللغة هو التصديق، والرسول إنما خاطب الناس بلغة العرب لم يغيرها، فيكون مراده بالإيمان التصديق.

ثم قالوا: والتصديق إنما يكون بالقلب واللسان أو بالقلب، فالأعمال ليست من الإيمان.

---

(١) التمهيد (ص/٣٨٨-٣٩٠).

(٢) الإيمان الكبير (ص/١٠٠-١٠١).

ثم عمدتهم في أن الإيمان هو التصديق قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يُوسُف: ١٧]، أي بمصدق لنا»[١].

فهذه الشبهة تقوم على مقدمتين:

**الأولى**: أن الإيمان في اللغة هو التصديق، والرسول ﷺ إنما خاطب الناس بلغة العرب، فيكون مراده بالإيمان التصديق فحسب.

**والثانية**: أن التصديق إنما يكون بالقلب واللسان أو بالقلب فقط، فالأعمال بكل حال ليست من الإيمان.

ـ وتقوية لأصلهم الباطل المبني على هذه الشبهة اللغوية من أن الإيمان هو التصديق، قالوا: إن كل من نفى الشارع إيمانه دل على أنه ليس في قلبه شيء من التصديق أصلًا.

قال أبو بكر الباقلاني: «وإن قال قائل: ما الكفر عندكم؟ قيل له: هو ضد الإيمان، وهوالجهل بالله ﷻ، والتكذيب به الساتر لقلب الإنسان عن العلم به، فهو كالمغطى عن معرفة الحق»[٢].

وقد بين شيخ الإسلام أن المرجئة في مسألة الإيمان غلطوا في أصلين:

**أحدهما**: ظنهم أن الإيمان مجرد تصديق وعلم فقط، ليس معه عمل وحال وحركة وإرادة، ومحبة وخشية في القلب، وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقًا.

**والثاني**: ظنهم أن كل من حكم الشارع بأنه كافر مخلد في النار، فإنما ذاك لأنه لم يكن في قلبه شيء من العلم والتصديق. وهذا أمر خالفوا به الحس والعقل والشرع، وما أجمع عليه طوائف بني آدم السليمي الفطرة[٣].

---

(١) المصدر نفسه (ص/ ٢٢٦).

(٢) التمهيد (ص/ ٣٩٢-٣٩٤).

(٣) الإيمان الكبير (ص/ ١٥٢).



## المطلب الثاني

## شبهات المرجئة في نفي التفاضل في أعمال القلوب بالزيادة والنقصان

ـ الخلاف في هذا المسألة ـ كما تقدم ـ هو بحسب الخلاف في تعريف الإيمان، فمن جعل الإيمان هو التصديق فقط[(١)] ولم يدخل الأعمال فيه، لم يجوّز الزيادة والنقصان.

قال أبو المعين النسفي: «وإذا ثبت أن الإيمان هو التصديق وهو لا يتزايد في نفسه، دل على أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فلا زيادة له بانضمام الطاعات إليه، ولا نقصان له بارتكاب المعاصي، إذ التصديق في الحالتين على ما كان قبلهما»[(٢)].

ـ أما عمدة المرجئة في نفي التفاضل في أعمال القلوب بالزيادة والنقص، هو أن الإيمان عندهم شيء واحد، لا يتبعض ولا يتجزأ، فإذا ذهب بعضه ذهب كله، وبالتالي فهو لا يزيد ولا ينقص.

قال ابن حزم: «قالوا: ولو كانت الأعمال توحيدا وإيمانًا، لكان من ضيع شيئًا منها قد ضيع الإيمان»[(٣)].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما أوقع هؤلاء كلهم (أي المرجئة) ما

---

(١) إذا، ترجع شبهة نفي الزيادة والنقصان إلى أصل شبهتهم اللغوية أن الإيمان في اللغة هو التصديق فقط.

(٢) التمهيد (ص/ ٣٨٤).

(٣) الفصل (٢/ ٢١٠).

أوقع الخوارج والمعتزلة في ظنهم أن الإيمان لا يتبعض، بل إذا ذهب بعضه ذهب كله، ومذهب أهل السنة والجماعة أنه يتبعض وأنه ينقص ولا يزول جميعه»[١].

وقال: «وجماع شبهتهم في ذلك: أن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها، كالعشرة، فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشرة، وكذلك الأجسام المركبة كالسكنجبين[٢] إذا زال أحد جزأيه خرج عن كونه سكنجبينا.

قالوا: فإذا كان الإيمان مركبا من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة لزم زواله بزوال بعضها، وهذا قول الخوارج والمعتزلة

قالوا: ولأنه يلزم أن يكون الرجل مؤمنًا بما فيه من الإيمان، كافرا بما فيه من الكفر، فيقوم به كفر وإيمان، وادعوا أن هذا خلاف الإجماع»[٣].

ـ كما احتج بعضهم على عدم تفاضل الإيمان بالزيادة والنقصان ببعض الأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ.

هذا ملخص شبههم في هاتين المسألتين، وفيما يلي نذكر الرد عليهم.

---

(١) شرح العقيدة الأصبهانية (ص/ ١٨٢).

(٢) اسم فارسي معرب لشراب مركب من حامض وحلو، انظر: المعجم الوسيط (ص/ ٤٤٠).

(٣) الإيمان الأوسط (ص/ ٥٩).



# المبحث الثالث:
# الرد على المرجئة

قبل أن أشرع في الرد على الشبهات التي أوردها المرجئة لإخراج أعمال القلوب من الإيمان، وتقريرهم أن الإيمان هو التصديق فقط، وأنه لا يتبعض ولا يتجزأ، وبالتالي لا يتفاضل، فلا يزيد ولا ينقص، أريد أن أشير إلى ما سبق أن أوردته في بيان حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة، وأنه مركب من قول وعمل واعتقاد، وأنه يزيد وينقص، ـ وقد قررت ذلك مدعّما قول أهل السنة بالأدلة من الكتاب والسنة وأقوال السلف ـ من أقوى الرد على شبهاتهم الباطلة التي لا يساندها الشرع ولا العقل ولا الفطرة، لكن زيادة لتقرير الحق في هذه المسائل سأقف على الشبهات التي سبق ذكرها في المبحث السابق، لنبين أن قولهم في الإيمان ومسائله ليس له خطام ولا زمام.

فأقول، وبالله التوفيق:

# المطلب الأول

# الرد على شبهات المرجئة في إخراج أعمال القلوب من حقيقة الإيمان

وقد تقدم أن المرجئة بنوا مذهبهم في الإيمان ـ ومن ذلك مذهبهم في أعمال القلوب ـ على عدة شبهات، من أشهرها:

ـ قولهم إن الإيمان في اللغة هو التصديق فقط ـ وادعوا الإجماع على ذلك ـ، والنبي ﷺ

إنما خاطبنا بلغة العرب، فيكون مراده بالإيمان التصديق فحسب.

ـ ثم إن التصديق إنما يكون بالقلب واللسان أو بالقلب، فالأعمال بكل حال ليست من الإيمان.

وقد تصدى لهذه الشبهة شيخ الإسلام، وناقشها وبين بطلانها من عدة أوجه، نجملها فيما يلي[1]:

**المقام الأول: كلام عام مطلق.**

وهو في نقد المنهجية التي سلكها المرجئة في هذه المسألة، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فيقال لهم: اسم الإيمان قد تكرر ذكره في القرآن والحديث أكثر من ذكر سائر الألفاظ، وهو أصل الدين، وبه يخرج الناس من الظلمات إلى

---

(١) استفدت في الرد على هذه الشبهة من كتاب: «آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام، عرض ونقد» (ص/ ٣٣٠-٣٥١).

النور، ويفرق بين السعداء والأشقياء، ومن يوالى ومن يعادى، والدين كله تابع لهذا، وكل مسلم محتاج إلى معرفة ذلك.

أفيجوز أن يكون الرسول قد أهمل بيان هذا كله، ووكله إلى هاتين المقدمتين ؟!

ومعلوم أن الشاهد الذي استشهدوا به على أن الإيمان هو التصديق أنه من القرآن، ونقل معنى الإيمان متواتر عن النبي ﷺ أعظم من تواتر لفظ الكلمة، فإن الإيمان يحتاج إلى معرفة جميع الأمة فينقلونه، بخلاف كلمة من سورة، فأكثر المؤمنين لم يكونوا يحفظون هذه السورة[(١)]، فلا يجوز أن يجعل بيان أصل الدين مبنيا على مثل هذه المقدمات، ولهذا كثر النزاع والاضطراب بين الذين عدلوا عن صراط الله المستقيم، وسلكوا السبل وصاروا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، ومن الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات»[(٢)].

وقد بين شيخ الإسلام أن منهج المرجئة في تقرير هذه الحجة مخالف لم يجب سلوكه في فهم المصطلحات الشرعية، يقول رحمه الله: «ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها، وما أريد بها من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ولهذا قال الفقهاء: الأسماء ثلاثة أنواع، نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة، ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر، ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض» ثم بين أن ﷺ قد أوضح معنى الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، ثم قال رحمه الله:

---

(١) المرجئة بنوا معنى الإيمان على قولهم إنه التصديق، ثم استدلوا بالآية التي في سورة يوسف، فشيخ الإسلام يرد عليهم أن معنى الإيمان معلوم بالتواتر في الشريعة حتى لمن لم يعرف هذه الآية، ومن ثم لا يجوز تعليق الدين على ما ادعاه المرجئة، والله أعلم.

(٢) الإيمان الكبير (ص/ ٢٢٦-٢٢٧).

«واسم الإيمان، والإسلام، والنفاق، والكفر هي أعظم من هذا كله، فالنبي ﷺ قد بين المراد بهذه الألفاظ بيانا لا يحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق، وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك، فلهذا يجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله، فإنه شاف كاف، بل معاني هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة»(١).

**المقام الثاني: كلام مفصل.**

فنقض الشبهة ـ أن الإيمان هوالتصديق فقط، ليس معه شيء من العمل ـ التي بنى المرجئة عليها احتجاجهم باللغة يكون على شقين:

**ـ الشق الأول: مبني على منع دعوى الترادف بين الإيمان والتصديق.**

وذلك من وجوه ثلاثة:

**الوجه الأول: المطالبة بإثبات الترادف.**

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في أثناء الرد على الباقلاني: «فمن الذي قال: إن لفظ الإيمان مرادف للفظ التصديق؟

وهب أن المعنى يصح إذا استعمل في هذا الموضع، فلم قلت: إنه يوجب الترادف؟ ولو قلت: ما أنت بمسلم لنا ما أنت بمؤمن لنا صح المعنى، لكن لم قلت: إن هذا هو المراد بلفظ مؤمن؟ وإذا قال الله: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]، ولو قال القائل: أتموا الصلاة، ولازموا الصلاة، التزموا الصلاة، افعلوا الصلاة كان المعنى صحيحا، لكن لا يدل هذا على معنى: ﴿أَقِيمُواْ﴾، فكون اللفظ يرادف اللفظ، يراد دلالته على ذلك(٢)(٣).

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ٢٢٤/ ٢٢٥).

(٢) ولا يلزم تساوي لفظين من كل وجه، بل لا بد في كل لفظ من زيادة في المعنى ـ أو نقص ـ عن مرادفه، ولو بوجه من الوجوه.

(٣) الإيمان الكبير (ص/ ٢٢٧).

**الوجه الثاني: إثبات الفروق اللغوية بين الإيمان والتصديق.**

وقد سبق معنا إيراد هذه الفروق في تعريف الإيمان عند أهل السنة والجماعة، ولا ضير لإعادتها هنا، لأن المقام يدعو لذلك:

١ ـ أن لفظة «آمن» تختلف عن لفظة «صدق» من جهة التعدي، حيث إن «آمن» لا تتعدى إلا بحرف إما اللام أو الباء، فيقال «آمن له» أو «آمن به»، ولا يقال آمنه، بخلاف لفظة «صدق» فإنه يصح تعديتها بنفسها فيقال «صدقه».

٢ ـ أن الإيمان والتصديق لا يترادفان في المعنى، فإن كل مخبر عن مشاهدة أو غيب يقال له في اللغة: صدقت، كما يقال كذبت، وأما لفظ الإيمان لا يستخدم إلا في الأخبار التي يؤتمن فيها المخبر مثل الأمور الغيبية، لأنه مشتق من الأمن.

٣ ـ أن لفظ التصديق في اللغة يقابل بالتكذيب، ويقال صدقت أو كذبت، بخلاف لفظ الإيمان الذي لا يقابل بالتكذيب، بل يقابل بالكفر، يقال آمنا أو كفرنا، هو مؤمن أو كافر، ومن هنا يعلم أن الكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال: أنا أعلم أنك صادق لكن لا أتبعك، بل أعاديك وأبغضك وأخالفك ولا أوافقك لكان كفره أعظم، فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط، علم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط.

٤ ـ أن الإيمان في اللغة مشتق من الأمن الذي هو ضد الخوف، فآمن أي صار داخلًا في الأمن، فهو متضمن مع التصديق معنى الإئتمان والأمانة، كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق، ولهذا قالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يُوسُف: ١٧]، أي لا تقر بخبرنا ولا تثق به ولا تطمئن إليه ولو كنا من الصادقين، لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على

ذلك، فلو صدقوا لم يؤمن لهم، أما التصديق فلا يتضمن شيئًا من ذلك[١].

٥ ـ أن التصديق إنما يعرض للخبر فقط، وأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد له والاستسلام وهو عمل القلب جماعه الخضوع والانقياد للأمر[٢].

**الوجه الثالث:** الرد على ما استدل به المرجئة على دعوى الترادف.

فملخص الأدلة التي ذكرها المرجئة على دعوى الترادف ثلاثة:

**الأول**: استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يُوسُف: ١٧]، لا يتم لهم، لأنه (ليس في الآية على أن المصدق مرادف للمؤمن، فإن صحة المعنى بأحد اللفظين لا يدل على أنه مرادف للآخر)[٣].

وأما الآية فمعنى قولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يُوسُف: ١٧]، (أي لا تقر بخبرنا ولا تثق به ولا تطمئن إليه ولو كنا صادقين، لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك، فلو صدقوا لم يؤمن لهم)[٤].

**الثاني**: احتجاج الباقلاني بأن الناس يقولون: فلان يؤمن بالشفاعة، وفلان لا يؤمن بعذاب القبر، والمعنى: أي لا يصدق بذلك.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله مجيبًا على ذلك: «أنه لم يذكر شاهدًا من كلام العرب على ما ادعاه عليهم، وإنما استدل من غير القرآن بقول الناس: فلان يؤمن بالشفاعة، وفلان يؤمن بالجنة والنار، وفلان يؤمن بعذاب القبر، وفلان لا يؤمن بذلك، ومعلوم أن هذا ليس من ألفاظ العرب قبل نزول

---

(١) انظر: الإيمان الكبير (ص/ ٢٢٧-٢٣٠).

(٢) الصارم المسلول (٣/ ٩٦٧)، والإيمان الأوسط (ص/ ٧٨، ص/ ١٨٢).

(٣) الإيمان الكبير (ص/ ١٠٤).

(٤) المصدر نفسه (ص/ ٢٢٩).

القرآن، بل هو مما تكلم الناس به بعد عصر الصحابة، لما صار من الناس أهل البدع يكذبون بالشفاعة وعذاب القبر، ومرادهم بذلك هو مرادهم بقوله: فلان يؤمن بالجنة والنار وفلان لا يؤمن بذلك.

والقائل لذلك وإن كان تصديق القلب داخلا في مراده، فليس مراده ذلك وحده، بل مراده التصديق بالقلب واللسان، فإن مجرد تصديق القلب بدون اللسان لا يعلم حتى يخبر به عنه»(١).

ثم قال شيخ الإسلام: «من قال ذلك، فليس مراده التصديق بما يرجى ويخاف بدون خوف ولا رجاء، بل يصدق بعذاب القبر ويخافه، ويصدق بالشفاعة ويرجوها، وإلا فلو صدق بأنه يعذب في قبره ولم يكن في قلبه خوف من ذلك أصلا لم يسموه مؤمنًا به، كما أنهم لا يسمون مؤمنًا بالجنة والنار إلا من رجا الجنة وخاف النار»، ثم قال:

«فلا يوجد قط في كلام العرب أن من علم وجود شيء مما يخاف ويرجى، ويجب حبه وتعظيمه، وهو مع ذلك لا يحبه ولا يعظمه ولا يخافه ولا يرجوه، بل يجحد به ويكذب به بلسانه، أنهم يقولون: هو مؤمن، بل ولو عرفه بقلبه، وكذب به بلسانه لم يقولوا: هو مصدق به، ولو صدق به مع العمل بخلاف مقتضاه لم يقولوا هو مؤمن به».

والخلاصة أنه (لا يوجد في كلام العرب شاهد واحد يدل على ما ادعوه)(٢).

**الثالث:** حكاية الباقلاني الإجماع على دعوى الترادف.

وقد رد شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك من عدة أوجه:

---

(١) الإيمان الكبير (ص/١٠٣).

(٢) المصدر نفسه (ص/١٠٤).

١ ـ من نقل هذا الإجماع؟ ومن أين يعلم هذا الإجماع؟ وفي أي كتاب ذكر هذا الإجماع؟

٢ ـ أن يقال: أتعني بأهل اللغة نقلتها؛ كأبي عمرو، والأصمعي، والخليل ونحوهم، أو المتكلمين بها؟

فإن عنيت الأول: فهؤلاء لا ينقلون كل ما كان قبل الإسلام بإسناد، وإنما ينقلون ما سمعوه من العرب في زمانهم، وما سمعوه في دواوين الشعر، وكلام العرب، وغير ذلك بالإسناد، ولا نعلم فيما نقلوه لفظ الإيمان، فضلا عن أن يكونوا أجمعوا عليه.

وإن عنيت المتكلمين بهذا اللفظ قبل الإسلام، فهؤلاء لم نشهدهم، ولا نقل لنا أحد عنهم ذلك.

٣ ـ أنه لا يعرف عن هؤلاء جميعهم أنهم قالوا: الإيمان في اللغة هو التصديق، بل ولا عن بعضهم، وإن قدر أنه قاله واحد أو اثنان، فليس هذا إجماعًا.

٤ ـ أن يقال: هؤلاء لا ينقلون عن العرب أنهم قالوا: معنى هذا اللفظ كذا وكذا، وإنما ينقلون الكلام المسموع من العرب، وأنه يفهم منه كذا وكذا، وحينئذ فلو قدر أنهم نقلوا كلاما عن العرب يفهم منه أن الإيمان هو التصديق، لم يكن ذلك أبلغ من نقل المسلمين كافة للقرآن عن النبي ﷺ، وإذا كان مع ذلك قد يظن بعضهم أنه أريد به معنى ولم يرده، فظن هؤلاء ذلك فيما ينقلونه عن العرب أولى.

٥ ـ أنه لو قدر أنهم قالوا هذا، فهم آحاد لا يثبت بنقلهم التواتر...، وأين التواتر الموجود عن العرب قاطبة قبل نزول القرآن إنهم كانوا لا يعرفون للإيمان معنى غير التصديق[١].

---

(١) الإيمان الكبير (ص/١٠٢-١٠٣).

**ـ الشق الثاني: نقض احتجاج المرجئة باللغة، مبني على فرض التسليم بالترادف بين الإيمان والتصديق.**

وثمة أجوبة عدة ذكرها شيخ الإسلام تحت هذا الجواب:

**الأول**: أنه وإن قيل بأن الإيمان معناه التصديق، فإن قولهم إن التصديق لا يكون إلا بالقلب أو اللسان ممنوع، (بل الأفعال تسمى تصديقا كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**العينان تزنيان وزناهما النظر، والأذن تزني وزناها السمع، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والقلب يتمنى ذلك ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**».

وكذلك قال أهل اللغة، وطوائف من السلف والخلف.

قال الجوهري: «والصديق مثال الفسيق: الدائم التصديق، ويكون الذي يصدق قوله بالعمل»[1].

وقال الحسن البصري: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال»)[2].

**الثاني**: «أنه إذا كان أصله التصديق، فهو تصديق مخصوص، كما أن الصلاة دعاء مخصوص، والحج قصد مخصوص، والصيام إمساك مخصوص»[3].

فالإيمان تصديق مخصوص، يتناول التصديق بالقلب والقول والعمل عند أهل الحديث[4].

فليس (هو التصديق بكل شيء، بل بشيء مخصوص، وهو ما أخبر به

---

(١) الصحاح ( ).

(٢) الإيمان الكبير (ص/ ٢٣٠).

(٣) المصدر نفسه (ص/ ٢٣٢).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٧).

الرسول ﷺ، وحينئذ فيكون الإيمان في كلام الشارع أخص من الإيمان في اللغة، ومعلوم أن الخاص ينضم إليه قيود لا توجد في جميع العام)[١].

**الثالث**: «وإن كان هو التصديق، فالتصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح، فإن هذه لوازم الإيمان التام، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم، ونقول: إن هذه اللوازم تدخل في مسمى اللفظ تارة وتخرج عنه أخرى»[٢].

**الرابع**: أن يقال: إن اللفظ باق على معناه في اللغة، ومتروك على ما كان، ولكن الشريعة زادت فيه أحكامًا، وضمت إليه شروطًا وقيودًا[٣].

**الخامس**: أن يقال: «إن الشارع استعمله في معناه المجازي، فهو حقيقة شرعية مجاز لغوي»[٤].

**السادس**: أن يقال: إنه منقول من معناه اللغوي إلى المعنى الشرعي، كالأسماء الشرعية من الصلاة والزكاة ونحوها[٥].

فكل هذه الأجوبة يكفي الواحد منها لإبطال حجة المرجئة لو سلم لهم دعوى الترادف بين الإيمان والتصديق.

ـ وتقوية لأصلهم الباطل المبني على هذه الشبهة اللغوية من أن الإيمان هو التصديق، قالوا: إن كل من نفى الشارع إيمانه دل على أنه ليس في قلبه شيء من التصديق أصلا، وهذه هي شبهتهم الثانية.

---

(١) الإيمان الكبير (ص/١٠٥)، وانظر: الفصل (٢/ ٢١٠).

(٢) الإيمان الكبير (ص/١٠١).

(٣) المصدر نفسه (ص/١٠٢).

(٤) المصدر نفسه (ص/١٠٢).

(٥) المصدر نفسه (ص/١٠٢).

وقد بين شيخ الإسلام أن المرجئة في مسألة الإيمان غلطوا في أصلين:

«**أحدهما**: ظنهم أن الإيمان مجرد تصديق وعلم فقط، ليس معه عمل وحال وحركة وإرادة، ومحبة وخشية في القلب، وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقًا...

**والثاني**: ظنهم أن كل من حكم الشارع بأنه كافر مخلد في النار، فإنما ذاك لأنه لم يكن في قلبه شيء من العلم والتصديق. وهذا أمر خالفوا به الحس والعقل والشرع، وما أجمع عليه طوائف بني آدم السليمي الفطرة وجماهير النظار، فإن الإنسان قد يعرف أن الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده إياه، أو لطلب علوه عليه، أو لهوى النفس، ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدي عليه ويرد ما يقول بكل طريق، وهو في قلبه يعلم أن الحق معه، وعامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم وأنهم صادقون، لكن إما لحسدهم، وإما لإرادتهم العلو والرياسة، وإما لحبهم دينهم الذي كانوا عليه وما يحصل لهم به من الأغراض كأموال ورياسة وصداقة أقوام وغير ذلك، فيرون في اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة إليهم، أو حصول أمور مكروهة إليهم فيكذبونهم ويعادونهم فيكونون من أكفر الناس كإبليس وفرعون، مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق»(١).

وقد ذكر شيخ الإسلام ثلاثة أجوبة على هذه الشبهة:

«**الأول**: أن الإيمان وإن كان أصله تصديق، فذلك التصديق لا بد أن يوجب حالًا في القلب وعملًا له، وهو تعظيم الرسول وإجلاله ومحبته وذلك أمر لازم كالتألم والتنعم عند الإحساس بالمؤلم والمنعم..، فإذا لم

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ١٥٢).

تحصل هذه الحال والعمل في القلب لم ينفع ذلك التصديق ولم يغن شيئًا، وإنما يمنع حصوله إذا عارضه معارض من حسد الرسول، أو التكبر عليه، أو الإهمال له، وإعراض القلب عنه... ومتى حصل المعارض كان وجود ذلك التصديق كعدمه، كما يكون وجود ذلك كعدمه، بل يكون ذلك المعارض موجبا لعدم المعلول الذي هو حال في القلب، وبتوسط عدمه يزول التصديق الذي هو العلة فينقلع الإيمان من القلب وهذا هو الموجب لكفر من حسد الأنبياء، أو تكبر عليه، أو كره فراق الإلف والعادة.

**والثاني**: أن الإيمان، وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق، وإنما هو الإقرار والطمأنينة، وذلك لأن التصديق إنما يعرض للخبر فقط، فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد والاستسلام، وهو عمل في القلب جماعه الخضوع والانقياد للأمر، وإن لم يفعل المأمور به، فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد فقد حصل أصل الإيمان في القلب وهو الطمأنينة والإقرار...

وإذا كان كذلك فالسب إهانة واستخفاف، والانقياد للأمر إكرام وإعزاز، ومحال أن يهين القلب من قد انقاد له وخضع واستسلم أو يستخف به.

فإذا حصل في القلب استخفاف واستهانة امتنع أن يكون فيه انقياد أو استسلام، فلا يكون فيه إيمان، وهذا هو بعينه كفر إبليس، فإنه سمع أمر الله فلم يكذب رسولًا ولكن لم ينقد للأمر ولم يخضع له، واستكبر عن الطاعة فصار كافرا، وهذا موضع زاغ فيه خلق من الخلف[1].

---

(١) أمثال الجهمية ومن حذا حذوهم (المحقق).

**والثالث**: أن العبد إذا فعل الذنب مع اعتقاد أن الله حرمه عليه، واعتقاد انقياد لله فيما حرمه وأوجبه فهذا ليس بكافر، فأما إن اعتقد أن الله لم يحرمه أو أنه حرمه لكن امتنع من قبول هذا التحريم وأبى أن يذعن لله وينقاد فهو إما جاحد أو معاند، ولهذا قالوا: من عصى الله مستكبرًا كإبليس كفر بالاتفاق، ومن عصى مشتهيًا لم يكفر عند أهل السنة والجماعة، وإنما يكفره الخوارج، فإن العاصي المستكبر وإن كان مصدقًا بأن الله ربه فإن معاندته له ومحادته تنافي هذا التصديق»[(١)].

وهذه بعض الأوجه العقلية يرد من خلالها على هذه الشبهة للمرجئة، وهناك أدلة نقلية عقلية ذكرها شيخ الإسلام في سياق الرد على شبهتهم هذه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنه سبحانه استثنى المكره من الكفار، ولو كان الكفر لا يكون إلا بتكذيب القلب وجهله لم يستثن منه المكره، لأن الإكراه على ذلك ممتنع، فعلم أن التكلم بالكفر كفر لا في حال الإكراه، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النّحل: ١٠٦] أي: لاستحبابه الدنيا على الآخرة، ومنه قول النبي ﷺ: «**يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**»[(٢)]...، فمن تكلم بدون الإكراه، لم يتكلم إلا وصدره منشرح به»[(٣)].

وقال أيضًا: «فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النّحل: ١٠٦]، قيل: وهذا موافق لأولها، فإنه من كفر من غير إكراه فقد شرح بالكفر صدرًا، وإلا ناقض أول الآية آخرها، ولو كان المراد بمن

---

(١) الصارم المسلول (٣/ ٩٦٦-٩٧٠).

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ٧٢)، في كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن.

(٣) الإيمان الأوسط (ص/ ١٠٤).

كفر هو الشارح صدره وذلك يكون بلا إكراه، لم يستثن المكره فقط، بل كان يجب أن يستثنى المكره وغير المكره إذا لم يشرح صدره، وإذا تكلم بكلمة الكفر طوعًا فقد شرح بها صدرًا وهي كفر، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)﴾ [التوبة]، فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم: إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له، بل كنا نخوض ونلعب، وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدره بهذا الكلام، ولو كان الإيمان في قلبه منعه أن يتكلم بهذا الكلام»[(١)].

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ١٧٤-١٧٥).

## المطلب الثاني

## الرد على شبهات المرجئة في نفي التفاضل في أعمال القلوب بالزيادة والنقصان

وأما من أنكر التفاضل في أعمال القلوب، فلهم شبهات عدة كما سبق، منها:

ـ أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص لأن المعرفة القلبية أو التصديق القلبي الذي بلغ حد الجزم، لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان، فإن من حصل له حقيقة المعرفة أو التصديق فسواء أتى بالطاعات وارتكب المعاصي أم لا، فمعرفته وتصديقه باق على حاله لا يتغير فيه أصلًا.

وقد سبق ذكر شبهتهم في جعل الإيمان معرفة أو تصديقا، وذكرت أوجها عديدة من كلام شيخ الإسلام تكشف زيف هذه الشبهة وتبين بطلانها، ثم أيضًا بينا فيما سبق أن الزيادة والنقصان في التصديق متصورة عقلًا، ثابتة شرعًا، واقعة عرفًا، فكل مصدق بشيء يجد في نفسه تفاوتا في التصديق من وقت لآخر بحسب تعدد الأدلة وقوتها، ولعل فيما سبق كفاية إن شاء الله.

ـ أما عمدتهم في نفي التفاضل في الإيمان عموما وفي أعمال القلوب خصوصا فهو قولهم؛ أن الإيمان عندهم شيء واحد، لا يتبعض ولا يتجزأ، فإذا ذهب بعضه ذهب كله، وبالتالي فهو لا يزيد ولا ينقص.

فالجواب عليهم سيكون من ثلاثة أوجه[1]:

**الوجه الأول: إبطال كون الإيمان شيئًا واحدًا، بل هو شعب وأجزاء.**

فإن أهل السنة مجمعون على ما دلت عليه النصوص من أن الإيمان شعب وأجزاء، وأنه يتكون من أقوال وأعمال، باطنة وظاهرة، وهذا الذي أجمعوا عليه هو الذي يقتضي الصلة بين أجزاء الإيمان الباطنة والظاهرة.

فهذان أمران في تقرير هذا الجواب:

**الأمر الأول:** في تحرير مذهب أهل السنة في الإيمان.

فمما أجمع عليه السلف أن الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر، وأن له باطنًا وظاهرًا، وأنه شعب وأجزاء، وقد تقدم بسط هذه المسألة في أول هذه الرسالة[2].

**الأمر الثاني:** في بيان الصلة بين أجزاء الإيمان الباطنة والظاهرة.

وقد بينا أن قول القلب إما أن يكون ضعيفًا بحيث لا يستلزم عمل القلب، وحينئذ لا يكون هذا التصديق إيمانًا، وإما يكون جازمًا، وحينئذ يستلزم عمل القلب لا محالة.

والإنسان مفطور على قول القلب المقتضي لعمله، ما دامت الفطرة صحيحة، والقلب سليمًا من المعارض المانع من عمله واستسلامه وانقياده من الشبهات والشهوات.

فإذا وجد قول القلب وعمله لزم ضرورة أن يكون له أثر في الظاهر من القول والعمل، لأن الظاهر تابع للباطن، لازم له، متى صلح الباطن صلح الظاهر، وإذا فسد فسد، لأن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر

---

(١) استفدت في الرد على هذه الشبهة من كتاب: «آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام، عرض ونقد» (ص/ ٢٧٨-٣٢٩).

(٢) انظر التمهيد من الفصل الأول من الباب الأول من هذه الرسالة.

بحسبه لا محالة، ويمتنع أن يقوم بالقلب إيمان بدون عمل ظاهر، وقد تقدم بسط هذه المسألة أيضا[١].

**الجواب الثاني: إبطال دعواهم؛ إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله.**

فإنهم قالوا: «إن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها، كالعشرة، فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشرة، وكذلك الأجسام المركبة كالسكنجبين إذا زال أحد جزأيه خرج عن كونه سكنجبينًا.

قالوا: فإذا كان الإيمان مركبًا من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة لزم زواله بزوال بعضها، وهذا قول الخوارج والمعتزلة»[٢].

والرد عليهم من وجهين:

**الوجه الأول**: الأدلة الشرعية التي تدل على ذهاب بعض الإيمان وبقاء بعضه.

وقد جاء في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ نصوص تدل على ذهاب بعض الإيمان وبقاء بعضه، من هذه النصوص:

- أن الله أخبرنا بأن الذنوب والمعاصي تذهب الإيمان شيئًا فشيئًا حتى يطبع على القلب ويختم عليه من كثرة الذنوب، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)﴾ [المطففين].

وبهذا جاء التفسير لهذه الآية عن رسول الله ﷺ، قال النبي ﷺ: «**إن العبد إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، فإن زاد زادت، فذلك قول الله**: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)﴾

---

(١) انظر المبحث الأول والثاني من الفصل الثاني من الباب الأول من هذه الرسالة .

(٢) الإيمان الأوسط (ص/ ٥٩).

[المطفّفين]»[١]، فلو ذهب الإيمان بالكلية لما كان للزيادة معنى، إذ قال ﷺ: «فإن زاد زادت».

ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه أبصارهم وهو مؤمن»**[٢].

فالمراد بهذا الحديث نفي كمال الإيمان الواجب عمن اقترف هذه المعاصي[٣]، فالحديث مع قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّسَاء: ٤٨]، ومع إجماع أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك لم يرد نفي جميع الإيمان عن فاعل ذلك، بل كماله الواجب[٤].

ـ حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«يخرج من النار من قال: لا إله الا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله الا الله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله الا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير»**[٥].

فهذا الحديث يدل على أن القائلين «لا إله إلا الله» متفاوتون في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣/ ٣٣٣)، والترمذي في سننه (ص/ ٧٥٦) في كتاب التفسير، وقال: هذ حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ص/ ٧٠٣)، في كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، والحاكم في المستدرك (١/ ١٠٠)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، و وافقه الذهبي، وحسنه الألباني في التعليق الرغيب (٢٣٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١١٧٣)، ومسلم في صحيحه (ص/ ٥٤)، في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٣-٦٥٤).

(٤) انظر: التمهيد (٩/ ٢٤٣)، لابن عبد البر.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٠)، في كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، ومسلم في صحيحه (ص/ ١٠٨)، في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

إيمانهم، وأن منهم من يدخل النار بتفريطه وتقصيره في الطاعة إلا أنه لا يخلد فيها لوجود أصل الإيمان معه[١].

ففي هذه النصوص وغيرها من الآيات والأحاديث دلالة واضحة لقول أهل السنة والجماعة، أن الإيمان يتبعض ويتجزأ، وذلك أن كون ذهاب بعض الإيمان لا يعني ذهاب كله، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا وأمثاله من النصوص المستفيضة عن النبي ﷺ تدل أنه لا يخلد في النار من معه شيء من الإيمان والخير وإن كان قليلًا، وأن الإيمان مما يتبعض ويتجزأ، ومعلوم قطعا أن كثيرًا من هؤلاء المخطئين معهم مقدار ما من الإيمان بالله ورسوله إذ الكلام فيمن يكون كذلك»[٢].

**الوجه الثاني**: الأدلة العقلية التي تدل على أنه لا يلزم من ذهاب بعض أجزاء الشيء انتفاء حقيقته.

ويكون الكلام معهم في نقطتين:

ـ أن الحقيقة الجامعة لأمور ـ سواء كان في الأعيان أو الأعراض ـ إذا زال بعض تلك الأمور فقد يزول سائرها وقد لا يزول، ولا يلزم من زوال بعض الأمور المجتمعة زوال سائرها، سواء سميت مركبة أو مؤلفة أو غير ذلك، لا يلزم من زوال بعض الأجزاء زوال سائرها.

وما مثلوا به من العشرة والسكنجبين مطابق لذلك، فإن الواحد من العشرة إذا زال لم يلزم زوال التسعة، بل قد تبقى التسعة، فإذا زال أحد جزأي المركب لا يلزم زوال الجزء الآخر، لكن أكثر ما يقولون زالت الصورة المجتمعة وزالت الهيئة الاجتماعية وزال ذلك الاسم الذي استحقته الهيئة بذلك الاجتماع والتركيب، كما يزول اسم العشرة والسكنجبين.

---

(١) انظر: الإيمان الأوسط (ص/ ٦٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٩٢).

ـ أما كون ذلك المجتمع المركب ما بقي على تركيبه بعد زوال بعض أجزائه منه، فهذا لا ينازع فيه عاقل، ولا يدعي عاقل أن الإيمان أو الصلاة أو الحج أو غير ذلك من العبادات المتناولة لأمور إذا زال بعضها بقي ذلك المجتمع المركب كما كان قبل زوال بعضه، ولا يقول أحد: إن الشجرة أو الدار إذا زال بعضها بقيت مجتمعة كما كانت، ولا أن الإنسان أو غيره من الحيوان إذا زال بعض أعضائه بقي مجموعًا، ولكن لا يلزم زوال بقية الأجزاء[(١)].

والإيمان المؤلف من الأقوال الواجبة والأعمال الواجبة، الباطنة والظاهرة، هو المجموع الواجب الكامل، وهذه الهيئة الاجتماعية تزول بزوال بعض الأجزاء، وهذه هي المنفية في الكتاب والسنة في مثل قوله ﷺ: «لا يزني الزاني» إلخ، وعلى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحُجرَات: ١٥].

ولكن لا يلزم أن تزول سائر الأجزاء، ولا أن سائر الأجزاء الباقية لا تكون من الإيمان بعد زوال بعضه[(٢)].

**الجواب الثالث: إبطال دعواهم؛ أنه لا يجتمع في الإنسان إيمان وكفر، ولا يكون فيه بعض الإيمان وبعض الكفر.**

قالوا: فإنه «يلزم (من تبعض الإيمان) أن يكون الرجل مؤمنًا بما فيه من الإيمان، كافرًا بما فيه من الكفر، فيقوم به كفر وإيمان، وادعوا أن هذا خلاف الإجماع»[(٣)].

وفي نقض دعوى المرجئة عدم اجتماع الإيمان والكفر في الشخص يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأصل قول أهل السنة الذي فارقوا به الخوارج

---

(١) الإيمان الأوسط (ص/ ٦٠-٦١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٧٦-٢٧٧)، وانظر: الإيمان الأوسط (ص/ ٦٢-٦٤).

(٣) الإيمان الأوسط (ص/ ٥٩).

والجهمية والمعتزلة والمرجئة: أن الإيمان يتفاضل ويتبعض كما قال النبي ﷺ: «**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان**»(١).

ويقول: «وأما أئمة السنة والجماعة فعلى إثبات التبعيض في الاسم والحكم، فيكون مع الرجل بعض الإيمان لا كله، ويثبت له من حكم أهل الإيمان وثوابهم بحسب ما معه، كما يثبت له من العقاب بحسب ما عليه»(٢).

ويقول أيضًا: «يجتمع في الإنسان إيمان ونفاق، وبعض شعب الإيمان وشعبة من شعب الكفر»، ثم ذكر جملة من النصوص تبين ذلك(٣).

ومن هذه النصوص، قول النبي ﷺ: «**أربع من كن فيه كان منافقا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها؛ إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر**»(٤).

ومنها، قول النبي ﷺ: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**»(٥).

ومنها، قول النبي ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»(٦).

ومنها، قول النبي ﷺ: «**من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق**»(٧).

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٥).

(٢) شرح الأصبهانية (ص/ ١٨٣).

(٣) الإيمان الأوسط (ص/ ٦٦-٧٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٩)، في كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، ومسلم في صحيحه (ص/ ٥٦)، في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ٣٦٢)، في كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٨)، في كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ومسلم في صحيحه (ص/ ٦٨٤)، في كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ٧٩٢)، في كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو.

ومنها، قول النبي ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض**»[١]، **وغيرها من النصوص.**

ولعل مما سبق يعلم فساد شبهتهم في زعمهم أن الإيمان واحد لا يتبعض ولا يتجزأ، فإذا ذهب بعضه ذهب كله، وبالتالي أنكروا تفاضله وتفاضل الناس فيه، وهذا من الباطل عقلًا وشرعًا، لمخالفته لنصوص الكتاب والسنة الدالة على زيادة الإيمان ونقصانه وتفاضل الناس فيه.

- ومن أدلتهم لنفي تفاضل الإيمان بالزيادة والنقصان احتجاجهم ببعض الأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ.

ومن هذه الأحاديث المنسوبة إلى النبي ﷺ حديث أبي مطيع البلخي، قال حدثنا حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة: «أن وفد ثقيف جاؤوا إلى النبي ﷺ فسألوه عن الإيمان هل يزيد وينقص؟ فقال: لا، زيادته كفر ونقصانه شرك».

هذا الحديث موضوع، فيه أبو مطيع البلخي وأبو المهزم، وكلاهما متروك، وقد حكم بوضعه الذهبي[٢] وابن الجوزي[٣] وابن حبان[٤] وابن كثير[٥] والجوزقاني[٦].

وهكذا بقية الأحاديث المروية في أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص كلها

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٢١٩)، في كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض»، ومسلم في صحيحه (ص/٥٨)، في كتاب الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض**».

(٢) ميزان الاعتدال (٥/ ٥٥).

(٣) الموضوعات (١/ ١٣١).

(٤) المجروحين (٢/ ١٠٣).

(٥) نقله شارح الطحاوية (٢/ ٥٢٣).

(٦) الأباطيل والمناكير (١/ ٢٢-٢٣).

باطلة مكذوبة على الرسول ﷺ، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله: «وكل حديث فيه أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص فكذب مختلق»[١].

والحاصل مما سبق أنه تبين لنا خطورة مذهب الإرجاء في الإيمان، وهو بدعة أدت إلى إنكار كثير من حقائق الإيمان ـ ومنها أعمال القلوب ـ، وهذا الأمر ترتب عليه مفاسد كثيرة، منها:

ـ أن الإيمان إذا كان هو المعرفة أو التصديق فقط، فإن الإنسان يكون مؤمنًا كامل الإيمان، ولو قال ما قال وعمل ما عمل، فماذا عسى أن يقول ويعمل ولا يتصور عندهم أن يزول عن العبد الإيمان إلا إذا زال العلم أو التصديق من قلبه، ولازم هذا المذهب أن إبليس وفرعون ومن شابههم ممن عرف الله وعاند، فسب الله ورسوله مؤمن كامل الإيمان.

ـ ثم جعل الإيمان معرفة أو تصديقًا مجردة عن أعمال القلوب أدى إلى إهمال كثير من مسائل تتعلق بهذا الأصل، وعلى رأسها؛ ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تاما بدون شيء من الأعمال، ولهذا يجعلون الأعمال ثمرة الإيمان ومقتضاه بمنزلة السبب مع المسبب، ولا يجعلونها لازمة له، والتحقيق إن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة.

ـ من المفاسد المرتبة على إهمالهم أعمال القلوب قولهم؛ أن العبد يكون كامل الإيمان، إيمانه مثل إيمان الأنبياء والصديقين، ولو لم يعمل خيرا قط، لا صلاة ولا زكاة ولا صيام ولا صلة، ولم يدع كبيرة إلا فعلها، وهو مع ذلك مؤمن تام الإيمان، مثل إيمان جبريل وميكائيل.

---

(١) المنار المنيف (ص/١١٣)، وانظر كتاب شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر: «زيادة الإيمان ونقصانه» (ص/ ٣٨٤-٣٩٥)، حيث قام حفظه الله بدراسة هذه الأحاديث الموضوعة ونقدها وبين كذبها على النبي ﷺ واختلاقها عليه.

# الخاتمة

الحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، **وبعد:**

الحمد الله أولا وآخرًا على توفيقه وعونه، وعلى ما يسر من إتمام هذا البحث في «أعمال القلوب عند شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، جمع ودراسة»، وإني لأرجو الله أن يجعل هذا الجهد مباركا مقبولا عنده، ونكون قد وفينا هذا العالِم شيئًا من حقه علينا؛ لما تعلمنا منه بالعمل بمقتضاه أولا، ونشره والدعوة إليه ثانيا، كما أسأله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه مثقلًا لموازين حسناتي يوم القيامة.

وفي الختام أود أن أسجل بين يدي القارئ الكريم أهم ما توصلت إليه من النتائج، وذلك في ما يلي:

- إن من الأصول المتفق عليها عند أهل السنة والجماعة أن الإيمان حقيقة مركبة من القول والعمل لا يجزئ واحد من الاثنين إلا بالآخر، والقول قول القلب واللسان، والعمل عمل القلب والجوارح، قال النبي ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول «لا إله إلا الله»، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**».
- وإن كان من المتقرر أن العمل من الإيمان، فإن الأعمال القلبية أهم أنواع الأعمال، لأن عليها مدار سائر الأعمال، فبدونها لا تنفع تلك الأعمال، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال

الجوارح، وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميزت بينهما، وهل يمكن أحد الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه، وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح .

۞ فلأعمال القلوب أثر على الجوارح، ولأعمال الجوارح تأثير على أعمال القلوب كذلك، وهذا هو مفهوم التلازم بينهما، وهو ارتباط الظاهر بالباطن وتأثير كل منهما في الآخر، بحيث يستحيل وجود إيمان صحيح في الباطن من غير أن يظهر موجبه ومقتضاه على أعمال الجوارح قولًا وفعلًا، بل حيث وجد الإيمان في الباطن لزم أن ينفعل البدن بالممكن من أعمال الجوارح وهو الذي عبر عنه شيخ الإسلام بما مفاده أن وجود الإرادة الجازمة مع القدرة التامة يستلزم العمل، ويمنع معه ترك جميع الأعمال، وإلا لم يصح الإيمان أصلًا.

۞ ومما يبين أهمية أعمال القلوب ومنزلتها من الدين والإيمان؛ أن العبادة التي من أجلها خلق الله الخلق وأرسل الرسل تقوم على ثلاثة أعمال قلبية، هي أركانها: المحبة والخوف والرجاء، وهي محركات القلوب، فمن حقق هذه الأعمال المحبة والخوف والرجاء فقد حقق باقي الأعمال، فمن خاف الله واتقاه اتبع رضاه، ومن رجاه لم ييأس من رحمة الله فأقبل على طاعة الله، ومن أحبه لم يلتفت إلى ما سواه، لاكتفائه بمحبوبه عن غيره، ولذا قال بعض السلف: «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد.

- وإذا كان من المتقرر أن كل إنسان حارث وهمام، فالإنسان متحرك بالإرادة، والإرادة محلها القلب، فالقلب كالملك والأعضاء جنوده، فإذا استقام القلب استقامت الجوارح والعكس بالعكس، إذا كان من المتقرر هذا فإن على المسلم أن يكون شديد العناية والرقابة لقلبه: تزكية ومجاهدة وإخلاصًا وإصلاحًا، لأن بصلاحها يصلح سائر الأعمال كما قال الرسول ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**».

- إن المخالفين لأهل السنة في باب الإيمان، سواء أكانوا من المعتزلة والخوارج، أم كانوا من المرجئة لم يختلفوا على أن أعمال القلوب من الإيمان إلا ما ورد عن بعض غلاة المرجئة كجهم والصالحي ومن سار على نهجهما الذين جعلوا الإيمان مجرد التصديق والمعرفة الخالي عن الأعمال، وهذا الأمر لا يعني أن من وافق أهل السنة في إدخال أعمال القلوب في مسمى الإيمان وخالفهم في إخراج أعمال الجوارح أنهم متفقون معهم في كل شيء، لأنه كما يقول شيخ الإسلام: «إخراج أعمال الجوارح من الإيمان يشعر على إخراج أعمال القلوب أيضًا، وهذا باطل قطعًا».

- إن السلوك الصحيح هو ما كان مبنيًّا على الفهم الصحيح لمبادئ الإسلام التي تضمنها كتاب الله ﷻ وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وما كان مبنيا كذلك على التطبيق الصحيح لتلك المبادئ، والقدوة في ذلك كله هو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام الذين تربوا على يديه، والتابعون الذين تربوا على أيدي الصحابة، ثم كبار أئمة الدين على مرّ العصور.

وأما السلوك المبني على الأذواق والمواجيد والكشوفات فليس من الإسلام في شيء، ولا يؤدي إلى أي نتيجة في مجال إصلاح القلوب وإعمارها بالإيمان.

هذه أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث، والتي لها تعلق مباشر بأصل الموضوع ـ أعمال القلوب ـ، وكذلك أرى أنه لا بد أن أشير إلى بعض نقاط مهمة ـ والتي استفدتها من كلام شيخ الإسلام في هذا الموضوع خاصة والمواضيع الأخرى عامة، وهي ربما ليس لها تعلق مباشر بأصل الموضوع، ولكني رأيت أن أنبه إليها وهي:

- ثقة شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ بما عنده من الحق المبني على الكتاب والسنة وأقوال السلف بارزة في جميع ما كتب، وصدق الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ إذ قال: «ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون، وهابوا وجسر هو عليها، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشأم قياما لا مزيد عليه: وبدعوه، وناظروه، وكابروه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده، وحدّة ذهنه، وسعة دائرته في السنن والأقوال، مع ما اشتهر عنه من الورع، وكمال الفكرة وسرعة الإدراك، والخوف من الله والتعظيم لحرمات الله»[1].

- وحدة منهج شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، فإن الناظر في مؤلفات شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ لا يجد ـ بحمد الله ـ شيئًا من التناقض أو اختلاف الأقوال، ولو أن الباحث كان طالبا الحق، متجردا في

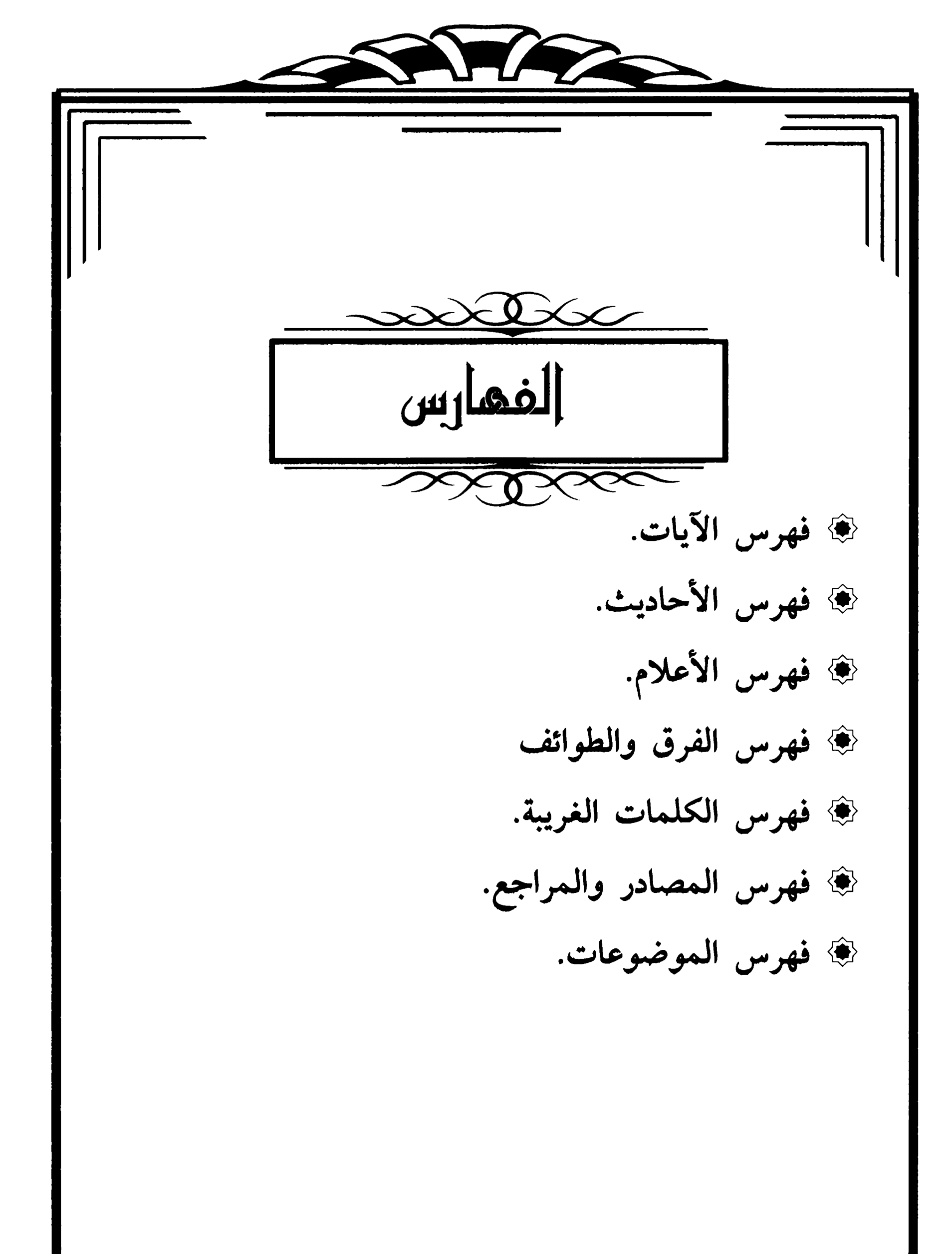
(١) العقود الدرية (ص/١٣٣).

بحثه، وقام بضم كلام شيخ الإسلام لبعض، لظهر له الحق في أنصع مظاهره.

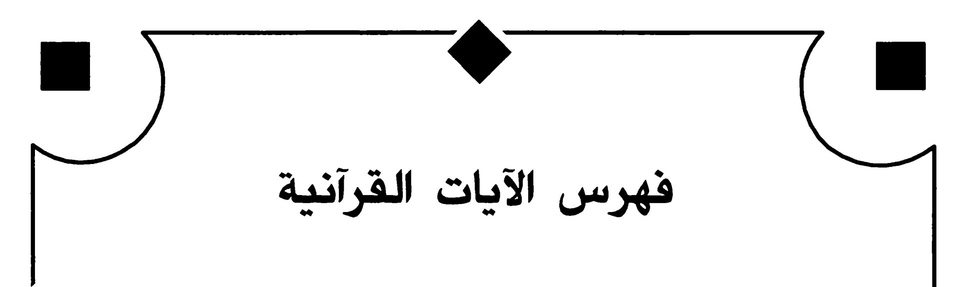
- إنصاف شيخ الإسلام خصومه، وذلك باعترافه بما معهم من حق ـ وإن كان قليلًا ـ وعدم تعميم الحكم بالبدعة، بل تفصيل حالهم، وهذا ظاهر لكل من قرأ كلامه كما هو شأنه مع الصوفية.

وفي الختام أحمد الله ﷻ على توفيقه لإتمام هذا البحث، وأسأل الله ﷻ الإخلاص والقبول، وأن يجعله في موازين حسناتي، يوم لا ينفع مال ولا بنون، وأن يتجاوز عني ما وقع فيه من خطأ وزلل.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



# الفهارس



# فهرس الآيات القرآنية

## سورة آل عمران

## سورة النساء

## سورة المائدة

## سورة الأنعام

## سورة الأعراف

| الآية | رقمها | رقم الصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ | ١٢٤ | ٧٩٤ |

## سورة يونس

| الآية | رقمها | رقم الصفحة |
|---|---|---|
| ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)﴾ | ٨،٧ | ٥٢٦،٣٧٦ |
| ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ | ٦٢ | ٧٩٧،٢٤٥ |
| ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)﴾ | ٦٣،٦٢ | ٦٥٥ |
| ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ...﴾ | ٧١ | ٤٧٢،٤٥٦ |
| ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ | ٧١ | ٤٥٧ |
| ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤)﴾ | ٨٤ | ٤٥٢ |
| ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ | ٩١ | ٦١٢ |
| ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾ | ١٠٩ | ٤٨٤ |

## سورة هود

| الآية | رقمها | رقم الصفحة |
|---|---|---|
| ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ | ٣ | ٦٠٢ |
| ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ | ٣ | ٦٠٥ |
| ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)﴾ | ١٦،١٥ | ٣٢٢ |

## سورة الرعد

## سورة إبراهيم



## سورة الحجر



## سورة النحل

## سورة مريم

## سورة الحج

## سورة سبأ



## سورة فاطر

## سورة يس



## سورة ص

| الآية | رقمها | رقم الصفحة |
| --- | --- | --- |

## سورة الشورى



## سورة الزخرف



## سورة الجاثية

## سورة الرحمن



## سورة الواقعة



## سورة الحديد

## سورة المجادلة



## سورة الحشر

| الآية | رقمها | رقم الصفحة |
| --- | --- | --- |
| ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾ | ٩-١٢ | ٣٨٤ |
| ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ ...﴾ | ٩-١٢ | ٩٧٤ |
| ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ | ١٠ | ٩٧٤ |
| ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١﴾ | ١٠، ١١ | ٨٣١ |
| ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٧﴾ | ١٦، ١٧ | ٦٦٧ |

## سورة الفجر

| الآية | رقمها | رقم الصفحة |
| --- | --- | --- |
| ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ | ٢٩، ٣٠ | ٥٢٥ |

## سورة البلد

| الآية | رقمها | رقم الصفحة |
| --- | --- | --- |
| ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ | ١٧ | ٤٨٥، ٤٨٨ |

## سورة الشمس

| الآية | رقمها | رقم الصفحة |
| --- | --- | --- |
| ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ | ٩ | ٩٧٠ |

## سورة الليل

| الآية | رقمها | رقم الصفحة |
| --- | --- | --- |
| ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ | ١٧-٢١ | ٢٨٩ |

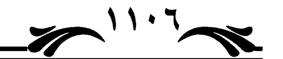
## سورة الضحى

| الآية | رقمها | رقم الصفحة |
| --- | --- | --- |
| ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ | ١١ | ٧٥٨ |

## سورة الشرح

| الآية | رقمها | رقم الصفحة |
| --- | --- | --- |
| ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ | ١ | ٩١ |

## سورة الناس





# فهرس الأحاديث

| طرف الحديث | رقم الصفحة |
| --- | --- |

| طرف الحديث | رقم الصفحة |
|---|---|
| اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضل، أو أزل أو أُزل | ٥٩٠ |
| اللهم هذا منك ولك | ٥٦٦ |
| المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله | ٢٠٧ |
| المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف | ٤٦٣ |
| أما عثمان بن مظعون فقد أتاه اليقين من ربه | ٩٩١ |
| أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله | ١٨٦ |
| إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر | ٩٢١ |
| إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته | ٢١٨ |
| إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله | ٣٨٦ |
| إن العبد إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء في قلبه | ٨٣٢، ١٠٤٢ |
| إن الله ﷻ خلق مائة رحمة، فمنها رحمة | ٤٠٤ |
| إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا | ١٠٨، ٣١٦ |
| إن الله جميل يحب الجمال | ١٣٧ |
| إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم | ٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١ |
| إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة | ٥٢٠، ٧٥٧ |
| إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار | ٦١٢، ٦٢٢ |
| إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده | ٧٥٨ |
| أن النبي ﷺ دخل على شاب، وهو في الموت | ٤١٤ |
| أن النبي ﷺ لم يكن يترك في بيته شيئًا فيه | ٢٥٤ |
| إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف، كما تراءون الكوكب | ٤٣٨ |
| إن روح القدس نفث في رُوعي | ٩٢ |
| إن عظم الجزاء مع عظم البلاء | ٥٣٣ |
| إن لكل دين خلقًا وخلق الإسلام الحياء | ٧٧١ |
| إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت | ٢٩٢ |
| إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى | ٢٩٠ |
| إنه ليغان على قلبي، وإني أستغفر الله | ٦١٧ |

| طرف الحديث | رقم الصفحة |
| --- | --- |

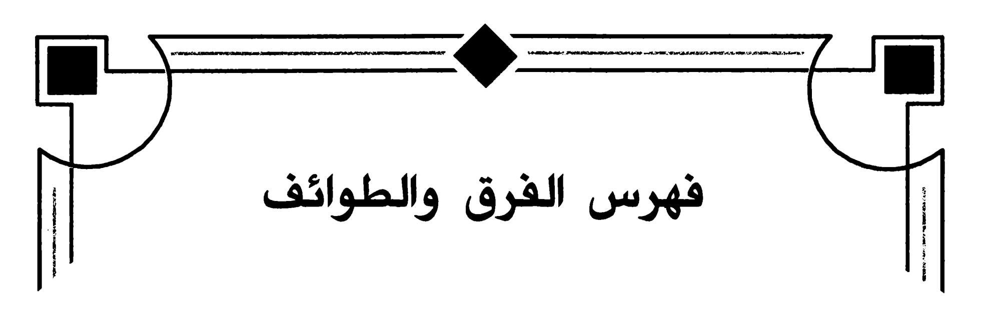
| طرف الحديث | رقم الصفحة |
|---|---|



# فهرس الأعلام

| اسم العلم | رقم الصفحة |
|---|---|

| اسم العلم | رقم الصفحة |
|---|---|
| سعيد بن الجهم بن نافع | ٤٠٧ |
| سعيد بن جبير الأسدي | ٦٤٧ |
| سفيان بن سعيد بن مسروق ........................ | ٥٤٨ |
| سفيان بن عيينة ابن أبي عمران ميمون ................. | ٢٥٧ |
| سهل بن عبد الله بن يونس التستري | ٧٣ |
| شرف الدين عبد الله بن عبد الحليم | ٢٨ |
| شريح بن الحارث بن قيس | ٧٤٠ |
| شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي | ١٠١٧ |
| شهاب الدين عمر بن محمد | ٨٩١ |
| صالح بن عمرو الصالحي | ٧٥ |
| طلْق بن حبيب العنزي البصري | ٦٤٠ |
| عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ................. | ٨٧٣ |
| عبد الرحمن بن محمد بن محمد | ٨٧٠ |
| عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي ................ | ٧٦ |
| عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري | ٢٢٣ |
| عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك | ٣١٠ |
| عبد الله بن أبي بن مالك بن الحارث | ٢٦٦ |
| عبد الله بن أبي حمرة الأندلسي ........................ | ٩٥٧ |
| عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب | ٢٥٢ |
| عبد الله بن علي السراج الطوسي ........................ | ٨٧١ |
| عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي .................... | ٣١٠ |
| عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري | ٧٥٣ |
| عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي | ٦٥٩ |
| عبد الواحد بن زيد البصري | ٤٢٥ |
| عبيدالله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ المخزومي ............... | ٦٨ |
| عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان | ٧٧٤ |

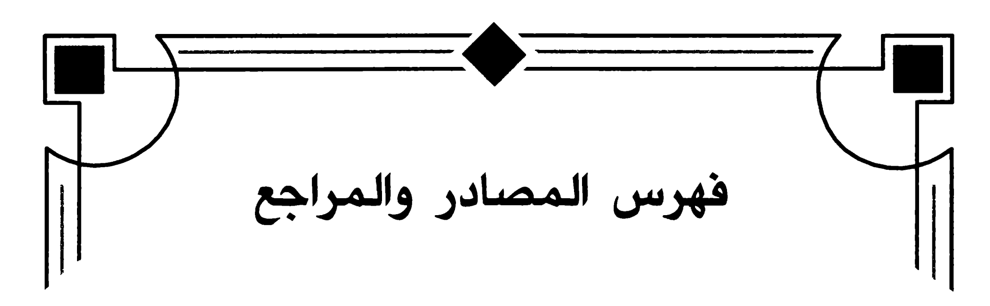


# فهرس الفرق والطوائف



# فهرس الكلمات الغريبة





# فهرس المصادر والمراجع

## (أ)


١. **الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير**، للحافظ أبي عبد الله حسن بن إبراهيم الجوزقاني، تحقيق: عبد الرحمن الفريوائي، الناشر: إدارة البحوث الإسلامية والدعوة والإفتاء بالجامعة السلفية بنارس، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

٢. **الإبانة عن أصول الديانة**، تأليف: أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، تحقيق: محمود ابن جميل، الناشر: مكتبة الأنصار للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦مـ.

٣. **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة**، تأليف: أبي عبدالله عبيدالله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي، تحقيق: د. رضا بن نعسان معطي، الناشر: دار الراية - الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ، ١٩٩٤مـ (كتاب الأول- الإيمان).

٤. **أبو الفتح اليعمري، حياته وآثاره و تحقيق أجوبته (على سؤلات ابن ايبك الديماطي)**، دراسة وتحقيق: محمد الرواندي، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠مـ.

٥. **إحياء علوم الدين**، تأليف: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، (وبهامشه تخريج الحافظ العراقي لأحاديث الإحياء)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان، ٢٠٠٩مـ، وطبعة أخرى للإحياء (بذيله عوارف المعارف للسهروردي)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، ١٩٩٨مـ.

٦. **أخبار القضاة**، تأليف: أبو بكر محمد بن خلف بن حيان بن صدقة الضبي البغدادي، الملقب بـ وكيع، تحقيق: عبد العزيز مصطفى المراغي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٣٦٦هـ، ١٩٤٧مـ.

٧. **الإخلاص**، تأليف: الدكتور عمر سليمان الأشقر، الناشر: دار النفائس، الطبعة الخامسة ١٣١٩هـ، ١٩٩٩مـ.

٨. **الآداب الشرعية**، تأليف: أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعمر القيام، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة ١٤٢٥هـ،٢٠٠٥مـ.

٩. **أدب الدنيا والدين**، تأليف: : أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، شرح وتعليق: محمد كريم راجح، الناشر: دار أقرأ، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥مـ.

١٠. **آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام، عرض ونقد**، تأليف: عبد الله بن محمد بن عبد العزيز السند، الناشر: دار التوحيد للنشر، الرياض-المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧مـ.

١١. **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي سعود)**، تأليف: أبي السعود محمد بن محمد العمادي، الناشر: دار إحياء التراث العربي.

١٢. **الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد**، تأليف: أبي معالي الجويني، تحقيق: أسعد تميم، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ.

١٣. **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥مـ.

١٤. **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تأليف: يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي النمري، تصحيح وتخريج عادل مرشد، الناشر: دار الإعلام، عمان - الأردن، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢مـ.

١٥. **الاستغاثة في الرد على البكري**، تأليف: الشيخ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، دراسة وتحقيق: عبد الله بن دجين السهلي، الناشر: مكتبة دار المنهاج، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ.

١٦. **الاستقامة**، تأليف: الشيخ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: إدارة الثقافة النشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

١٧. **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، تأليف: عز الدين ابن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، تحقيق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، قدم له وقرظه: محمد عبد المنعم البري، عبد الفتاح أبو سنة، جمعة طاهر النجار، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

١٨. **الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعي**، تأليف: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: فريق مركزالدراسات والبحوث بمكتبة نزار الباز، مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

١٩. **الإصابة في تمييز الصحابة**، تأليف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٢٠. **إعانة الطالبين**، تأليف: أبي بكر عثمان بن محمد شطا الدمياطي البكري، الناشر: دار إحياء الكتب العربية.

٢١. **إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد**، لسماحة الشيخ صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٢٢. **الأعلام**، تأليف: خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة عشر ٢٠٠٢م.

٢٣. **الاعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية**، تأليف: أبي حفص عمر بن علي البزار، تحقيق: صلاح الدين بن علي النجار، الناشر: دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م.

٢٤. **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تأليف: أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق وتخريج: أبي عبد الله مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن الجوزي، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

٢٥. **أعمال القلوب عند الإمام ابن القيم**، جمع ودراسة، إعداد الطالبة: وفاء بنت زيد العزيزي، رسالة ماجستير غير منشورة في قسم الثقافة الإسلامية بجامعة الملك سعود.

٢٦. **أعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها عند أهل السنة والجماعة وعند مخالفيهم**، إعداد: سهل بن رفاع بن سهيل الروقي العتيبي، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥مـ.

٢٧. **أعمال القلوب عند شيخ الإسلام ابن تيمية**، جمع وترتيب سليمان بن صالح بن عبد العزيز الغصن، الناشر: دار العاصمة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٢٨. **أعمال القلوب وأثرها في الإيمان**، تأليف: محمد دوكوري بن محمد، رسالة دكتوراه غير منشورة في قسم العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية.

٢٩. **إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان**، تأليف: الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن حسن بن عبد الحميد الحلبي، تخريج: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار ابن الجوزي، الطبعة

٣٠. **إكمال المعلم بفوائد مسلم، (شرح صحيح مسلم)**، تأليف: القاضي عياض ابن موسى بن عياض اليحصبي، تحقيق: يحيى إسماعيل، الناشر: دار الوفاء، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، ١٩٩٨مـ.

٣١. **الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية**، تأليف: عبد الوهاب الشعراني، تحقيق: طه عبد الباقي سرور و السيد محمد عيد الشافعي، الناشر: مكتبة المعارف، ١٤٠٨هـ، ١٩٩٨مـ.

٣٢. **أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية**، تأليف: محمد إبراهيم الشيباني، الناشر: مكتبة ابن تيمية- الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، ١٠٨٩مـ.

٣٣. **الإيمان (الأوسط)**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: أبو يحيى محمود أبوسن، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٣٤. **الإيمان (الكبير)**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، خرج أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الخامسة ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٣٥. **الإيمان بين السلف والمتكلمين**، تأليف: الدكتور أحمد بن عطية بن علي الغامدي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٣٦. **الإيمان، أركانه - حقيقته - نواقضه**، تأليف: الدكتور محمد نعيم ياسين، الناشر: دار الاعتماد الثقافي، بيروت - لبنان .

٣٧. **الإيمان عند السلف وعلاقته بالعمل، وكشف شبهات المعاصرين**، تأليف: محمد بن محمود آل خضير، الناشر: مكتبة الرشد، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

## (ب)

٣٨. **بدائع الفوائد**، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد العمران، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

٣٩. **البداية والنهاية**، تأليف: الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، الناشر: دار هجر للنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

٤٠. **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، تأليف: محمد بن علي الشوكاني، وضع حواشيه: خليل المنصور، الناشر: دار الكتاب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٤١. **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، تأليف: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت - لبنان.

٤٢. **بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: موسى سليمان الدويش، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٤٣. **بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها**، تأليف: أبي محمد عبد الله بن أبي جمرة، الناشر: دار الجيل، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة.

٤٤. **البوذية، تأريخها وعقائدها وعلاقة الصوفية بها**، تأليف: الدكتور. عبد الله مصطفى نومسوك، الناشر: أضواء السلف، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

**(ت)**

٤٥. **تأريخ دمشق**، لابن عساكر.

٤٦. **التبيان في أيمان القرآن**، تأليف: شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الله بن سالم البطاطي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.

٤٧. **تجريد التوحيد المفيد، وملحق به فصل بعنوان: عبادة واستعانة**، تأليف: تفي الدين أحمد بن علي المقريزي، تحقيق: أحمد بن محمد طاحون، الناشر: مكتبة التراث الإسلامي، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م .

٤٨. **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد - (التحرير والتنوير)**، تأليف: محمد الطاهر بن محمد بن عاشور الناشر: الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤هـ.

٤٩. **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، تأليف: أبي ريحان محمد بن أحمد البيروني، الناشر: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدآباد الهند، ١٣٧٨هـ، ١٩٥٨م.

٥٠. **التخويف من النار، والتعريف بحال دار البوار**، للحافظ أبي الفرج زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي البغدادي الدمشقي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشير محمد عيون، الناشر: مكتبة المؤيد، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

٥١. **تذكرة الحفاظ**، تأليف: أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبى، صحح عن النسخة القديمة المحفوظة في مكتبة الحرم المكي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت- لبنان.

٥٢. **ترتيب المدارك في تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تأليف: القاضي عياض أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، تحقيق: سعيد أحمد أعراب، الناشر: وزارة الأوقاف والشوؤن الإسلامية بالمملكة المغربية، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٥٣. **ترجمان شعب الإيمان**، تأليف: سراج الدين أبي حفص عمر بن رسلان البلقيني، دراسة وتحقيق: الدكتور سعود بن عبد العزيز الدعجان، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

٥٤. **الترغيب والترهيب**، تأليف: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

٥٥. **التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة**، تأليف: د. إبراهيم هلال، الناشر: دار النهضة العربية - القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.

٥٦. **التصوف بين الحق والخلق**، تأليف: محمد فهر شقفة، الناشر: الدار السلفية، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٥٧. **التعرف لمذهب أهل التصوف**، لأبي بكر الكلاباذي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

٥٨. **التعريفات**، تأليف: أبي الحسين علي بن محمد بن علي الجرجاني، ضبط: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكبت العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة االثانية ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٥٩. **التعريفات الاعتقادية**، تأليف: سعد بن محمد بن علي آل عبد اللطيف، الناشر: دار الوطن، الرياض-المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

٦٠. **تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، دراسة وتحقيق: عبد العزيز بن محمد الخليفة، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، ١٩٩٧مـ.

٦١. **تفسير القرآن العظيم**، تأليف: أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، بدون تحقيق، الناشر: مؤسسة الريان.

٦٢. **تقريب التهذيب**، تأليف: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عوامة، الناشر: دار الرشيد، سورية - حلب، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ، ١٩٩١مـ.

٦٣. **التقوى، دراسة تفسيرية لغوية إحصائية**، تأليف: أحمد عبده عوض، الناشر: دار الصحابة للتراث، ١٤٠٠هـ، ١٩٩٠مـ.

٦٤. **التقوى، الغاية المنشودة والدرة المفقودة**، تأليف: أحمد فريد، الناشر: دار الصميعي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، ١٩٩٣مـ.

٦٥. **التقوى في هدي الكتاب والسنة وسير الصالحين**، تأليف: محمد أديب الصالح، الناشر: دار القلم، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، ١٩٩٦مـ.

٦٦. **التكفير وضوابطه**، تأليف: أ.د. إبراهيم بن عامر الرحيلي، الناشر: دار الإمام البخاري، الدوحة- دولة قطر، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٦مـ.

٦٧. **تلبيس إبليس**، تأليف: أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠١مـ.

٦٨. **التمهيد لشرح كتاب التوحيد**، دروس ألقاها: معالي الوزير صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، الناشر: دار التوحيد، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣مـ.

٦٩. **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، تألبيف: أبي عمر بن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوى ومحمد عبد الكبير البكرى، الناشر: مؤسسة القرطبة ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧مـ.

٧٠. **التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة**، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: دار بن الأثير للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

٧١. **التواضع والخمول**، لابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

٧٢. **التوبة، وظيفة العمر**، تأليف: محمد بن إبراهيم الحمد، الناشر: دار ابن خزيمة، الرياض-المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٧٣. **التوضيح والبيان لشجرة الإيمان**، تأليف: العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق وتعليق: محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري، الناشر: دار النبلاء.

٧٤. **تهذيب اللغة**، تأليف: أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٧٥. **التيجانية، دراسة لأهم عقائد التيجانية على ضوء الكتاب والسنة**، تأليف: علي بن محمد آل دخيل الله، الناشر: دار العاصمة، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٧٦. **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد**، تأليف: سليمان بن عبد الله، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى من التحقيق الجديد ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٧٧. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تقديم: الشيخ: عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل والشيخ: محمد الصالح العثيمين، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: دار المغني، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

**(ج)**

٧٨. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن - تفسير الطبري**، تأليف: أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٧٩. **جامع الرسائل**، لشيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، الناشر: دار العطاء للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى الخاصة بدار العطاء ١٣٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٨٠. **الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ، وسنه وأيامه (صحيح البخاري)**، تأليف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، الناشر: مكتبة دار السلام، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة االثانية ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

٨١. **جامع العلوم والحكم**، تأليف: زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط و إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة السابعة ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٨٢. **الجامع لأحكام القرآن**، تأليف: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

٨٣. **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، تأليف: الحافظ الخطيب البغدادي، تحقيق: د.محمود الطحان، الناشر: مكتبة المعارف، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٨٤. **الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون**، جمعه ووضع فهارسه: علي بن محمد العمران ومحمد عزير شمس، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد: الناشر: دار عالم الفوائد، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ.

٨٥. **الجامع لشعب الإيمان**، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بين الحسين البيهقي، حققه وراجه نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٨٦. **جامع المسائل**، تأليف: شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق محمد عزيز شمس، الناشر: دار عالم الفوائد- مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٨٧. **الجرح والتعديل،** تأليف: الحافظ أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر الرازي، الطبعة الأولى بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن الهند، سنة ١٣٧٢هـ، ١٩٥٢م. (ت: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان).

٨٨. **جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة،** تاليف: الدكتور أحمد بن عبد الله الغنيمان، رسالة دكتوراة في قسم العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية، (وقد نشرتها عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية مؤخرًا).

٨٩. **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح،** تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق وتعليق: علي بن حسن بن ناصر، عبد العزيز ابن إبراهيم العسكر، حمدان بن محمد، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

## (ح)

٩٠. **حقيقة الولاء والبراء في الكتاب والسنة،** تأليف: د. عصام بن عبد الله السناني، الناشر: مكتبة الإمام الذهبي، الطبعة الأولى١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

٩١. **حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب السنة،** تأليف: الدكتور محمد ابن خليفة التميمي، الناشر:أضواء السلف - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٩٢. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء،** تأليف: أحمد بن عبد الله الأصبهاني، أبو نعيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

٩٣. **الحياء في حياة المسلم،** تأليف: عبد الرحمن بن فؤاد الجار الله، الناشر.

## (خ)

٩٤. **خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه،** تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ.

٩٥. **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، تأليف: محمد أمين بن فضل الله المحبي، الناشر: مكتبة خياط، بيروت - لبنان.

٩٦. **الخوف والرجاء في القرآن الكريم، دراسة تحليلية**، إعداد: عبد الله أسود خلف الجوالي، النأشر: دار الزمان، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

**(د)**

٩٧. **الداء والدواء**، تأليف: شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي وزائد بن أحمد النشيري، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.

٩٨. **الدر النضيد على أبواب التوحيد**، تأليف: سليمان بن عبد الرحمن الحمدان، اعتنى به: عبد الإله بن عثمان الشايع، الناشر: دار الصميعي، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٩٩. **الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي**، تأليف: جمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي الحنبلي الدمشقي الصالحي المعروف بـابن المبرد، إعداد: رضوان مختار بن غربية، الناشر: دار المجتمع - جدة، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

١٠٠. **درء تعارض العقل والنقل**، تأليف: الشيخ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق : محمد رشاد سالم، الناشر: إدارة الثقافة النشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

١٠١. **درء الفتنة عن أهل السنة**، تأليف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار العاصمة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.

١٠٢. **الدرر السنية في الأجوبة النجدية**، مجموعة رسائل ومسائل علماء نجد الأعلام، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، الطبعة السابعة ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

١٠٣.**الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تأليف: شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد الشهير بابن حجر العسقلاني، تصحيح: سالم الكرنكوي الالماني، الناشر: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣مـ.

١٠٤.**دعوة التوحيد، أهميتها، والأدوار التي مر بها، ومشاهير دعاتها**، تأليف: الدكتور محمد بن خليل هراس، الناشر: دار الشريعة القاهرية - جمهروية مصر العربية، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤مـ.

١٠٥.**دليل الرسائل الجامعية في علوم شيخ الإسلام ابن تيمية**، تأليف: عثمان بن محمد الأخضر شوسان، الناشر: مؤسسة الوقف الإسلامي ١٤٢٤.

١٠٦.**دليل الطالب لنيل المطالب**، تأليف: مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤هـ، ٢٠٠٤مـ.

**(ذ)**

١٠٧.**الذكر الجماعي بين الاتباع والابتداع**، تأليف: محمد بن عبد الرحمن الخميس، الناشر: دار الهدي النبوي ودار الفضيلة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤مـ.

١٠٨.**ذكر الله تعالى بين الاتباع والابتداع**، تأليف عبد الرحمن محمود خليفة، الناشر: دار الطيبة الخضراء، مكة المكرمة- المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨مـ.

١٠٩.**ذيل طبقات الحنابلة**، تأليف الحافظ عبد الرحمن بن احمد بن رجب، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥مـ.

**(ر)**

١١٠.**الرد على الشاذلي في حزبيه، وما صنف في آداب الطريق**، تأليف: شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: علي بن محمد العمران، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.

١١١.**الرد الوافر على من زعم بأن من سمى شيخ الإسلام ابن تيمية شيخ الإسلام كافر**، تأليف: محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ، ١٩٩٢م.

١١٢.**الرسالة القشيرية**، تأليف: أبي القاسم عبد الكريم القشيري، تحقيق: هاني الحاج، الناشر: المكتبة التوقيفية، بدون.

١١٣.**الرعاية لحقوق الله**، تأليف: أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطلعة الرابعة.

١١٤.**الروح - في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء**، تأليف: أبي عبد الله ابن قيم الجوزية، تحقيق: صالح أحمد الشامي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٣م.

١١٥.**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تأليف: أبي الفضل محمود الآلوسي الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

١١٦.**روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**، تأليف: الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان البستي، الناشر: دار القاسم، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

١١٧.**روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، تأليف: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، الناشر: دار النبلاء، بيروت - لبنان.

١١٨.**روضة الناظر وجنة المناظر**، تأليف: موفق الدين أي محمد عبد الله بن قدامة، تحقيق: الدكتور محمود حامد عثمان، الناشر: دار الزاحم.

١١٩.**رياض الجنة بتخريج أصول السنة**، تأليف: أبي عبد الله محمد بن عبد الله الأندلسي (ابن أبي زمنين)، تحقيق وتخريج: عبد الله بن محمد عبد الرحيم ابن حسين البخاري، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

١٢٠. **رياض الصالحين**، تأليف: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

١٢١. **الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة**، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: الرئاسة العامة لإدارت البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض- المملكة العربية السعودية.

## (ز)

١٢٢. **زاد المهاجر، الرسالة التبوكية**، تأليف: أبي عبد الله ابن قيم الجوزية، تحقيق: سيد إبراهيم صادق، الناشر: دار الحديث - القاهرة.

١٢٣. **الزهد، تأليف**: أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

١٢٤. **زيادة الإيمان ونقصانه، وحكم الاستثناء فيه**، تأليف: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، الناشر: كنوز إشبيليا، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

## (س)

١٢٥. **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

١٢٦. **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء على الأمة**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

١٢٧. **سلسلة شرح الرسائل**، لمعالي الشيخ صالح بن فوزان الفوزان، اعتنى بإخراجه وأشرف على طبعه: عبد السلام بن عبد الله السليمان، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

١٢٨. **السنة**، تأليف أبي بكر أحمد بن محمد ابن هارون بن يزيد الخلال، تحقيق: الدكتور: عطية بن عتيق الزهراني، الناشر: دار الراية، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ، ١٩٩٤م.

١٢٩. **السنة**، تأليف: الإمام أبي عبد الله محمد بن نصر المروزي، تحقيق: الدكتور عبد الله بن محمد البصيري، الناشر: دار العاصمة - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

١٣٠. **سنن ابن ماجه**، تأليف: أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني- ابن ماجه، اعتنى به: مشهور بن حسن آل سلمان، حكم على أحاديثه وعلق عليه: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى.

١٣١. **سنن أبي داود**، تأليف: أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، اعتنى به: مشهور بن حسن آل سلمان، حكم على أحاديثه وعلق عليه: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٧م.

١٣٢. **سنن الترمذي - الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل، المعروف بجامع الترمذي**، تأليف: الإمام محمد بن عيسى الترمذي، اعتنى به مشهور بن حسن آل سلمان، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى.

١٣٣. **سنن النسائي**، تأليف: أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، اعتنى به: مشهور بن حسن آل سلمان، حكم على أحاديثه وعلق عليه: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى.

١٣٤. **سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي، وحاشية الإمام السندي**، تحقيق: فريق مكتب تحقيق التراث الإسلامي، الناشر: دار المعرفة، بيروت - لبنان.

١٣٥. **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**، تأليف: تقي الدين، أبو العباس أحمد بن عبد السلام بن تيمية، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي بدار الآفاق الجديدة، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

١٣٦. **سير أعلام النبلاء**، تأليف شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق وتخريج شعيب الأرنؤوط وجمع من المحققين، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الحادية عشرة ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

## (ش)

١٣٧. **شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال**، تأليف: عز الدين بن عبد السلام، تحقيق: حسين بن عكاشة، الناشر: دار ماجد عسيري، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

١٣٨. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تأليف: ابن العماد عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، الناشر دار بن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

١٣٩. **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم**، تأليف: أبي القاسم هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي، تحقيق: أحمد بن سعد الغامدي، الناشر: دار طيبة، الطبعة الثامنة ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

١٤٠. **شرح ثلاثة أصول**، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح بن العثيمين، إعداد فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، الناشر: دار الثريا للنشر، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

١٤١. **شرح رياض الصالحين**، لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين، طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، الناشر: مدار الوطن للنشر، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.

١٤٢. **شرح السنة**، تأليف: الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، دمشق ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

١٤٣. **شرح الطحاوية في العقيدة السلفية**، تأليف: صدر الدين علي بن علي بن أبي العز الحنفي، تحقيق: الدكتور عبد المحسن التركي و شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٥م.

١٤٤. **شرح العقيدة الأصفهانية**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: إبراهيم سعيداي، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

١٤٥. **شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية**، تأليف: محمد خليل هراس، ضبط نصه وخرج أحاديثه: علوي بن عبد القادر السقاف، الناشر: دار الهجرة للنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

١٤٦. **شرح العقيدة الواسطية**، تأليف: محمد بن صالح العثيمين، إعداد: فهد بن ناصر السليمان، الناشر: دار الثريا، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

١٤٧. **شرح العمدة**، تأليف: شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: سعود صالح العطيشان، الناشر: مكتبة العبيكان.

١٤٨. **شرح صحيح البخاري لابن بطال**، أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الناشر: مكتبة الرشد.

١٤٩. **شرح نواقض الإسلام**، لمعالي الشيخ: صالح بن فوزان الفوزان، إشراف: محمد بن فهد الحصين، الطبعة الخامسة ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

١٥٠. **الشرح والإبانة (الإبانة الصغري)**، لأبي عبد الله عبيد الله بن بطة العكبري، تحقيق ودراسة: د. رضا بن نعسان معطي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

١٥١. **الشعر والشعراء**، تأليف: أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: أحمد شاكر، الناشر: دار المعرف - القاهرة، ١٩٦٦م .

١٥٢. **الشكر لله** ﷻ، تأليف: عبد الله بن محمد أبو بكر القرشي، المعروف بـ ابن أبي الدنيا، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

١٥٣. **الشهادتان، معناهما وما يستلزم كل منهما**، تأليف: عبد الله بن عبد الرحمن ابن جبرين، الناشر: دار طيبة - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

**(ص)**

١٥٤. **الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ**، تأليف: شيخ الإسلام ابن تيمية، دراسة وتحقيق: محمد بن عبد الله بن عمر الحلواني ومحمد كبير أحمد شودري، الناشر: دار المعالي، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

١٥٥. **الصبر في ضوء الكتاب والسنة**، تأليف: أسماء عمر حسن فدعق، هذه دراسة نالت بها الكاتبة درجة الماجستير من جامعة أم القرى مكة المكرمة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، سنة ١٣٨٩هـ، ١٩٧٨م.

١٥٦. **الصبر في القرآن، مفتاح الفرج وعدة الفلاح**، تأليف أ.د سيد محمد ساداتي الشنقيطي، الناشر: دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

١٥٧. **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تأليف: إساعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أميل بديع يعقوب ومحمد نبيل طريقي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١٥٨. **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تأليف: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤ - ١٩٩٣

١٥٩. **صحيح مسلم**، تأليف: مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، الناشر: بيت الأفكار الدولية، الرياض - المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

١٦٠. **صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة لثالثة ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

١٦١.**الصدق في القرآن الكريم، دراسة موضوعية**، تأليف: مذكر محمد عارف، الناشر: مكتبة الرشد -الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، ١٩٩٨مـ.

١٦٢.**صفة الصفوة**، تأليف: عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج ابن الخزري، تحقيق: مود فاخوري ومحمد رواس قلعه جي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩مـ.

١٦٣.**صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها**، تأليف: **محمد** ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض.

١٦٤.**الصفدية**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق : د. محمد رشاد سالم، الناشر: دار الهدي النبوي - مصر، دار الفضيلة - السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ،٢٠٠٠مـ.

١٦٥.**الصلاة، وحكم تاركها**، تأليف: ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي الحنبلي، بعناية بسام عبد الوهاب الجامي، الناشر: مكتبة الجفان والجاني، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ، ١٩٩٧مـ.

**(ط)**

١٦٦.**طب القلوب لشيخ الإسلام الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية**، إعداد: الدكتور عجيل جاسم النشمي، الناشر: دار الدعوة للنشر والتوزيع - الكويت، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ، ١٩٩٢مـ.

١٦٧.**طبقات الحفاظ**، تأليف: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣مـ.

١٦٨.**طبقات الحنابلة**، تأليف: القاضي أبي الحسين ابن أبي يعلى الفراء البغدادي الحنبلي، تحقيق وتقديم وتعليق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة - المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ ١٩٩٩مـ.

١٦٩. **طبقات الشافعية الكبرى**، تأليف: تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي و عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

١٧٠. **طبقات علماء الحديث**، تأليف: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي الصاحي، تحقيق: أكرم البوشي وإبراهيم الزيبق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ، ١٩٩٦مـ.

١٧١. **الطبقات الكبرى (طبقات ابن سعد)**، تأليف: أبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري، تحقيق: علي محمد عمر، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠١مـ.

١٧٢. **الطبقات الكبرى للشعراني المسمى بـ «لواقح الأنوار في طبقات الأخيار»**، تأليف: عبد الوهاب الشعراني، طبع بالمطبعة العامرة الشرقية، سنة ١٤٢٥هـ.

١٧٣. **طبقات المفسرين**، تأليف: أحمد بن محمد الأدنروي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٩٩٧مـ.

١٧٤. **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، تأليف: أبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، الناشر: دار ابن القيم، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤مـ.

## (ع)

١٧٥. **عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي**، تأليف: تأليف: أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، إعداد: هشام سمير البخاري، الناشر: دار إحياء التراث، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ١٩٩٥مـ.

١٧٦. **العبر في خبر من غبر**، تأليف: تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥مـ.

١٧٧.**العبودية**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: علي حسن عبد الحميد، الناشر: دار المغني، الطبعة الرابعة ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

١٧٨.**عبودية القلب لرب العالمين في القرآن الكريم**، تأليف: الدكتور عبد الرحمن بن محمد البرادعي، الناشر: دار طيبة الخضراء، مكة الكرمة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

١٧٩.**عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، تأليف: شمس الدين محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية، تحقيق: إسماعيل بن غازي مرحبا، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.

١٨٠.**العزلة**، تأليف: أبي سليمان أحمد بن محمد الخطابي، تحقيق: ياسين محمد السواس، الناشر: دار ابن كثير، بيروت - لبنان، الطبعة الثالنية ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

١٨١.**العقيدة الاصبهانية**، تأليف:أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: إبراهيم سعيداي، الناشر: مكتبة الرشد، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

١٨٢.**عقيدة السلف أصحاب الحديث**، تأليف: أبي إسماعيل عبد الرحمن بن إسماعيل الصابوني، دراسة وتحقيق: د. ناصر بن عبد الرحمن بم محمد الجديع، الناشر: الدار العاصمة، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

١٨٣.**العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، تأليف: الإمام محمد بن أحمد بن عبد الهادي، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار الكاتب العربي.

١٨٤.**عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، تأليف: بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني الحنفي، ضبط وتصحيح: عبد الله محمود محمد عمر، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

(غ)

١٨٥.**غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

١٨٦.**غريب الحديث**، تأليف: أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، تحقيق: د.عبدالمعطي أمين قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

١٨٧.**غريب الحديث**، تأليف: أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: حسين محمد شرف وعبد السلام محمد هارون/ الناشر: الهيئة العامة لشوؤن المطابع الأميرية - القاهرة، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤.

(ف)

١٨٨.**الفتاوى الكبرى**، تأليف: تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا - مصطفى عبدالقادر عطا ؛ دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

١٨٩.**فتاوى السبكي في فروع الفقه الشافعي**، تأليف: تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، اعتنى به: محمد عبد السلام شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

١٩٠.**فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تعليق الشيخ: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الناشر: دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٣٧٩هـ.

١٩١.**فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تأليف: زين الدين أبي الفرج ابن رجب الحنبلي، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية - الدمام، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ.

١٩٢. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، تأليف: محمد ابن علي الشوكاني، تحقيق: سعيد محمد اللحام، الناشر: دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

١٩٣. **الفتوحات الربانية على الأذكار النووية**، تأليف: محمد بن علي بن محمد بن علان البكري الصديقي الشافعي، تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

١٩٤. **الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية**، تأليف: محيي الدين ابن علي بن محمد الطائي الحاتمي ابن عرب، الناشر: دار صادر، بيروت - لبنان.

١٩٥. **الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم**، تأليف: عبد القاهر بن طاهر البغدادي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م .

١٩٦. **فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام، وبيان موقف الإسلام منها**، تأليف: غالب بن علي عواجي، الناشر: المكتبة العصرية الذهبي، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

١٩٧. **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق وتخريج: الدكتور عبد الرحمن بن عبد الكريم اليحيى، الناشر: دار الفضيلة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١٩٨. **الفرقان بين الحق والباطل**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق وتخريج: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: مكتبة دار البيان، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

١٩٩. **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تأليف: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، وضع حواشيه: أحمد شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٢٠٠.**فضل علم السلف على علم الخلف**، تأليف: زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي، تحقيق وتعليق: أبو القاسم عبد العظيم، الناشر: دار القبس، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩مـ.

٢٠١.**فقه الأدعية والأذكار**، تأليف: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥مـ.

٢٠٢.**الفوائد**، تأليف: شمس الدين محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزير شمس، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.

٢٠٣.**فوائد قرآنية**، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩، والطبعة الثانية ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤مـ.

٢٠٤.**الفيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير**، تأليف: محمد بن عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: أحمد عبد السلام، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١مـ.

## (ق)

٢٠٥.**قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة**، تأليف: شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: الشيخ ربيع بن هادي عمير المدخلي، الناشر : مكتبة الفرقان، عجمان، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١مـ.

٢٠٦.**قاعدة في الصبر**، تأليف: شيخ الإسلام ومفتي الأنام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد بن خليفة التميمي، مطبوعة في مجلة الجامعة الإسلامية، العدد (١١٦).

٢٠٧.**قاعدة في المحبة**، تأليف: شيخ الإسلام ومفتي الأنام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩مـ.

٢٠٨.**القاموس المحيط**، تأليف: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الناشر: مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧مـ.

٢٠٩.**القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه**، تأليف: عبد الرحمن بن صالح المحمود، الناشر: دار الوطن، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ، ١٩٩٧مـ.

٢١٠.**القلوب وآفاتها**، تأليف: صلاح الدين علي عبد الموجود، الناشر: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

٢١١.**قواطع الأدلة في أصول الفقه**، تأليف: أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني الشافعي، تحقيق: عبد الله بن حافظ بن أحمد الحكمي، الناشر: مكتبة التوبة - رياض، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، ١٩٩٨مـ.

٢١٢.**قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، تأليف: أبو محمد عز الدين عبد العزيز ابن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، تحقيق: محمود بن التلاميد الشنقيطي، الناشر: دار المعارف بيروت - لبنان

٢١٣.**قواعد في بيان حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة**، تأليف: عادل بن محمد بن علي الشيخاني، الناشر: أضواء السلف، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥مـ.

٢١٤.**قواعد ومسائل في توحيد الإلهية**، إعداد: عبد العزيز بن ريس الريس، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥مـ.

٢١٥.**قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، تأليف: أبي طالب المكي محمد بن علي بن عطية الحارثي، راجعه: سعيد نسيب مكارم، الناشر: دار صادر، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٧مـ.

٢١٦.**القول السديد شرح كتاب التوحيد**، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق صبري بن سلامة شاهين، الناشر: دار القبس، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥مـ.

٢١٧. **القول المفيد على كتاب التوحيد**، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثريا للنشر - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، ١٩٩٨مـ.

**(ك)**

٢١٨. **الكافية الشافية في انتصار الفرقة الناجية**، تأليف: أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية المتن مجردا من التعليقات، إشراف: بكر بن عبد الله أبي زيد، الناشر: دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

٢١٩. **الكبائر**، تأليف: الحافظ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، تعليق وتخريج: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: مكتبة الفرقان، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣مـ.

٢٢٠. **كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة وأصول الاعتقاد**، تأليف: إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجويني، تحقيق: أسعد تميم، الناشر: مرسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥مـ.

٢٢١. **كتاب الإيمان**، تأليف: الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق و نخريج محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠هـ.

٢٢٢. **كتاب الإيمان**، تأليف: الحافظ أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق وتخريج محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠١هـ.

٢٢٣. **كتاب الإيمان**، للحافظ محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: أ.د. علي بن محمد بن ناصر الفقهي، الناشر: دار الفضيلة - الرياض، الطبعة الرابعة ١٤٢١هـ.

٢٢٤. **كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل**، تأليف: القاضي أبي بكر محمد بن الطيب البافلاني، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧مـ.

٢٢٥. **كتاب التمهيد لقواعد التوحيد**، تأليف: أبي المعين النسفي، تحقيق: حبيب الله حسن أحمد، الناشر: دار الطباعة المحمدية - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦مـ.

٢٢٦. **كتاب التوحيد**، تأليف: أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، تحقيق بكر طوبال اوغلي - محمد آروشي، الناشر: دار صادر - بيروت، مكتبة الإرشاد - استانبول.

٢٢٧. **كتاب السنة**، تأليف: عبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: محمد بن سعيد القحطاني، الناشر: دار ابن القيم، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦مـ.

٢٢٨. **كتاب السنة**، لأبي بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني، ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة بقلم محمد بن ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الرابعة ١٤١٩هـ، ١٩٩٨مـ.

٢٢٩. **كتاب الشريعة**، للإمام أبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري، تحقيق: مكتب التحقيق في مؤسسة الريان، الناشر: جمعية إحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠مـ.

٢٣٠. **كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم**، تأليف: القاضي عياض أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، قدم له وخرج أحاديثه: كمال بسيوني زغلول المصري، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، ١٩٩٥مـ.

٢٣١. **كتاب النبوات**، تأليف: شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: الدكتور عبد العزيز بن صالح الطويان، الناشر: أضواء السلف، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠مـ.

٢٣٢. **كتاب المنهاج في شعب الإيمان**، تأليف: أبو عبد الله الحسين بن حسن الحليمي، تحقيق: حلمي محمد فوده، الناشر: دار الفكر، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩مـ.

٢٣٣. **كتاب اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر**، تأليف: عبد الوهاب الشعراني، طبع بمطبعة عباس بن عبد السلام بن شقرون، الطبعة الأولى ١٣٥١هـ.

٢٣٤. **كتب ورسائل (الشيخ) عبد المحسن بن حمد العباد البدر**، الناشر: دار التوحيد للنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

٢٣٥. **كشف القناع عن حكم الوجد والسماع**، تأليف: أحمد بن عمر إبراهيم القرطبي، تحقيق: عبد الله بن محمد بن أحمد الطريقي، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، ١٩٩١مـ.

٢٣٦. **كشف القناع عن متن الإقناع**، تأليف: منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، تحقيق: محمد حسن إسماعيل الشافعي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، ١٩٩٧مـ.

٢٣٧. **كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس على قلب داود بن جرجيس**، تأليف: العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، الناشر: دار العاصمة، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

٢٣٨. **الكلام على مسألة السماع**، تأليف: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: راشد بن عبد العزيز الحمد، الناشر: دار العاصمة - رياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٢٣٩. **الكلم الطيب**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: لمكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٧مـ.

٢٤٠. **الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة**، تأليف: عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، حققه وعلق عليه: محب الدين الخطيب، الناشر: المكتبة السلفية، القاهرة - مصر، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ .

٢٤١. **الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تأليف: أبو البقاء أيوب ابن موسى الحسيني الكفوي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثاني ١٤١٩هـ، ١٩٩٨مـ.

(ل)

٢٤٢.**لسان العرب**، تأليف: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، الناشر: دار صادر بيروت- لبنان، الطبعة الرابعة ٢٠٠٥م.

٢٤٣.**لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد**، تأليف: موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، شرح الشيخ: محمد بن صالح العثيمين، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود، الناشر: أضواء السلف، الطبعة لثالثة ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٢٤٤.**اللمع في التصوف**: تأليف: أبو نضر السراج محمد بن يحيى الطوسي، الناشر: شركة القدس للنشر والنوزيع - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

٢٤٥.**لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية**، تأليف: محمد بن أحمد السفاريني الأثري الحنبلي، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٢٤٦.**لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات**، تأليف: فخر الدين محمد ابن عمر الخطيب الرازي، تحقيق: طه عبد الروؤف سعد، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

(م)

٢٤٧.**الماتريدية - دراسة وتقويما**، تأليف: أحمد بن عوض الله الحربي، الناشر: دار الصميعي، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٢٤٨.**مباحث المفاضلة في العقيدة**، تأليف: الدكتور محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الشظيفي، الناشر: دار ابن القيم ودار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٢٤٩.**المجروحين من المحديثين والضعفاء والمتروكين**، تأليف: محمد بن حبان البستي، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، الناشر: دار المعرفة، لبنان - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٢٥٠.**المجلى في شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى**، تأليف: كاملة الكواري، الناشر: دار ابن حزم - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

٢٥١.**مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تأيف: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، الناشر : دار الفكر - بيروت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٢٥٢.**مجموعة الرسائل والمسائل**، تأليف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، علق عليه: السيد محمد رشيد رضا، الناشر: لجنة التراث العربي.

٢٥٣.**مجموع الفتاوى**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة، تحت إشراف وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية عام ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٢٥٤.**المجموع شرح المهذب للشيرازي**، تأليف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، الناشر: مكتبة الإرشاد، جدة - المملكة العربية السعودية.

٢٥٥.**محاسن المجالس**، تأليف: أبي العباس أحمد بن محمد بن العريف، مخطوط بمعهد الثقافة والدراسات الشرقية بجامعة طوكيو - اليابان.

٢٥٦.**محبة الله ورسوله ﷺ شرط في الإيمان**، تأليف: صالح أحمد الشامي، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٢٥٧.**المحلى شرح المجلى**، تأليف:أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي الظاهري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

٢٥٨.**مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة** لابن قيم الجوزية، اختصار: محمد بن الموصلي، تحقيق: الحسن بن عبد الرحن العلوي، الناشر: أضواء السلف، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٢٥٩.**مختصر طبقات الحنابلة**، لمحمد جميل بن عمر المعروف بالشطي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٢٦٠.**مختصر الفتاوى المصرية لشيخ الإسلام ابن تيمية**، اختصره: بدر الدين محمد بن علي الحنبلي، تحقيق عبد المجيد سليم، الناشر: دار الجيل، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٢٦١.**مختصر منهاج القاصدين**، تأليف: أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، تحقيق: محسن عبد الغني البلتاجي، الناشر: مؤسسة أم القرى، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٢٦٢.**مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تأليف: شمس الدين أبي عبد الله بن أبي بكر ابن قيم الجوزية.

٢٦٣.**مسألة الإيمان، دراسة تأصيلية**، تأليف: علي بن عبد العزيز بن علي الشبل، الناشر: دار المسلم، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٢٦٤.**المسامرة شرح المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة**، تأليف: كمال الدين محمد بن أبي بكر بن علي بن أبي شريف، ومعه (الحاشية على المسايرة - تأليف: زين الدين القاسم بن قطلوبغا المصري الحنفي)، وضع حاوشيه وخرج آياتها وأحاديثها: محمد عمر الدمياطي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٢٦٥.**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تأليف: شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري، تحقيق: حمزة أحمد عباس: إصدار المجمع الثقافي، أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٤م.

٢٦٦.**المستدرك على الصحيحين**، تأليف: محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، وبهامشه: كتاب تلخيص المستدرك، والمستدرك على التلخيص، تحقيق وتخريج: الدكتور محمود مطرجي الناشر: دار الفكر، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

٢٦٧.**مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تأليف: أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٢٦٨. **مسند الدارمي** (المعروف بسنن الدارمي) تأليف: أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق: حسين سليم الداراني، الناشر: دار المغني، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٢٦٩. **مشاهير علماء نجد وغيرهم**، تأليف: عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، بإشراف دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ.

٢٧٠. **مشكاة المصابيح**، تأليف: محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م .

٢٧١. **المصادر العامة للتلقي عن الصوفية، عرضًا ونقدًا**، تأليف: صادق سليم صادق، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

٢٧٢. **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي**، تأليف: أحمد بن محمد ابن علي المقري الفيومي، اعتنى به: عادل مرشد.

٢٧٣. **مصنف ابن أبي شيبة**، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق: محمد عوامة، الناشر: شركة دار القبلة - مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

٢٧٤. **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول**، تأليف: حافظ بن أحمد الحكمي، ضبط نصه وعلق عليه عمر محمود أبو عمر، الناشر: دار ابن القيم، الدمام- المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٢٧٥. **معالم التنزيل (تفسير البغوي)** تاليف: محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي تحقيق وتخريج: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

٢٧٦.**معالم السنن**، تأليف: الإمام سليمان بن حمد بن محمد الخطابي البستي، طبعه وصححه: محمد راغب الطباخ في مطبعته العلمية بحلب، الطبعة الأولى ١٣٥١هـ، ١٩٣٢مـ.

٢٧٧.**معاني القرآن**، تأليف: أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، قدم له وعلق عليه ووضع حواشيه وفهارسه: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٢مـ.

٢٧٨.**معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات**، تأليف: محمد بن خليفة التميمي، الناشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، ١٩٩٩مـ.

٢٧٩.**معجم اصطلاحات الصوفية**، تأليف: عبد الرزاق القاشاني (الكاشاني)، تحيق: عبد العال شاهين، الناشر: دار المنار، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٢ مت.

٢٨٠.**المعجم الأوسط**، تأليف: أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥مـ.

٢٨١.**معجم البلدان**، تأليف: أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، الناشر: دار صادر - بيروت، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧مـ.

٢٨٢.**المعجم الكبير**، تأليف: أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق وتخريج: حمدي عبد المجيد السلفي، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية.

٢٨٣.**المعجم الوسيط**، تأليف: إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية، الناشر: مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤مـ.

٢٨٤.**معجم مقاييس اللغة**، تأليف: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، اعتنى به: الدكتور محمد عوض مرعب و الآنسة فاطمة محمد أصلان، الناشر: دار احياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١مـ.

٢٨٥.**معجم المؤلفين**، تأليف: عمر رضا كحالة، الناشر: دار إحياء التراث العربي، لبنان - بيروت.

٢٨٦.**معرفة القراء الكبار**، تأليف: شمس الدين عبد الله بن محمد بن أحمد بن عثماني الذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف وشعيب الأرناؤوط وصالح مهدي عباس، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

٢٨٧.**مفاتيح الغيب، (التفسير الكبير)**، تأليف: فخر الدين محمد بن عمر الرازي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠مـ.

٢٨٨.**مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، تأليف: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: عصام الدين سيد الصباطي، بدون.

٢٨٩.**مفردات غريب القرآن**، تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي: دار المعرفة، دمشق- سورية، الطبعة الرابعة ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩مـ.

٢٩٠.**المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم**، تأليف: أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي، تحقيق: محيي الدين متو، يوسف بديوي، أحمد السيد، محمود بزال، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، ١٩٩٦مـ.

٢٩١.**مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، تأليف: أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، قدم له وكتب حواشيه: الأستاذ نعيم زرزُور، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥مـ.

٢٩٢.**مقدمة ابن خلدون (وهي الجزء الأول من تأريخ ابن خلدون)**، تأليف: ولي الدين عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق: خليل شهادة، الناشر: دار الفكر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠١مـ.

٢٩٣.**الملل والنحل**، تأليف: أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، اعتنى به وعلق عليه: ألو عبد الله السعيد المندوه، الناشر: دار الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

٢٩٤.**المنار المنيف في الصحيح والضعيف**، تأليف: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: يحيى عبد الله الثمالي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار العالم الفوائد، الطبعة الأولة ١٤٢٨هـ.

٢٩٥.**مناقب الإمام أحمد بن حنبل**، لابي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي القرشي، نحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وعلي محمد عمر، الناشر: مكتبة الخانجي مصر، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م .

٢٩٦.**منتهى الآمال في شرح حديث إنما الأعمال**، تأليف: جلال الدين السيوطي، تحقيق وتعليق: أبو عبد الرجمن محمد عطية، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٢٩٧.**مِنح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر**، تأليف: علي بن سلطان محمد القارئ، ومعه التعليق الميسر على شرح الفقه الأكبر لوهبي سليمان غاوجي، الناشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت - لبينان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٢٩٨.**منزلة العمل من الإيمان عند أهل السنة**، تأليف: صالح بن محمد العقيل، مطبوع ضمن مجلة البحوث الإسلامية، (العدد/٧٨)، تصدر عن الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية.

٢٩٩.**منهاج السنة النبوية**، تأليف: الشيخ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق : محمد رشاد سالم، الناشر: مؤسسة القرطبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٣٠٠.**المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، تأليف: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، الناشر:دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

٣٠١. **منهاج القاصدين ومفيد الصادقين**، تأليف: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق: كامل محمد الخراط، الناشر: دار التوفيق، دمشق - سورية، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

٣٠٢. **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**، تأليف: يوسف ابن تغري بردي الاتابكى، تحقيق: محمد محمد أمين، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م.

٣٠٣. **الموسوعة الفقهية**، إصدار: وزارة الأوقاف والشيءون الإسلامية بالكويت، طباعة ذات السلاسل - الكويت، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣م.

٣٠٤. **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**، تأليف: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: مانع بن حماد الجهني، الناشر: دار الندوة العالمية، الطبعة الرابعة ١٤٢٠هـ.

٣٠٥. **الموضوعات**، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي القرشي، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، الناشر: المكتبة السلفية، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ، ١٩٦٦م.

٣٠٦. **الموطأ**، لإمام دار الهجرة مالك بن أنس، رواية أبي مصعب الزهري المدني، تحقيق وتعليق: الدكتور بشار عواد معروف ومحمود محمد خليل، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٣١٨هـ، ١٩٩٨م .

٣٠٧. **موقف ابن تيمية من الصوفية**، تأليف: د. محمد بن عبد الرحمن العريفي، الناشر: مكتبة دار المنهاج، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ.

٣٠٨. **موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية**، تأليف: الدكتور؛ أحمد بن محمد بناني، الناشر: دار الطيبة الخضراء، مكة المكرمة- المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٣٠٩. **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: علي محمد معوض، عادل عبد الموجود، عبد الفتاح أبو سنة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

(ن)

٣١٠.**النكت والعيون (تفسير الماوردى)**، تأليف: أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

٣١١.**نواقض الإيمان الاعتقادية، وضوابط التكفير عند السلف**، إعداد: د.محمد بن عبد الله بن علي الوهيبي، الناشر: دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١مـ.

٣١٢.**نواقض الإيمان القولية والعملية**، تأليف: د. عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف، الناشر: مدار الوطن للنشر، الطبعة الثالثة ١٤٢٧هـ.

٣١٣.**النهاية في غريب الحديث والأثر**، تأليف: مجد الدين أبو السعادات المبارك ابن محمد الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزازي ومحمود محمد الطناحي، نشر إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.

٣١٤.**النيات في العبادات**، تأليف: الدكتور عمر سليمان الأشقر، الناشر: دار النفائس، الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ، ١٩٩٥مـ.

(هـ)

٣١٥.**هذه هي الصوفية**، تأليف: عبد الرحمن الوكيل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩مـ.

(و)

٣١٦.**الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب**، تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الرحمن حسن قائد، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.

٣١٧.**الواضح في أصول الفقه**، تأليف: أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الحنبلي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩مـ.

٣١٨. **الوافي بالوفيات**، تأليف: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت، الطبعة الأولى١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٣١٩. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تأليف: أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت - لبنان.



# فهرس الموضوعات

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |